أطياف هزي ولكم

رقم الإيداع لدى
دائرة المكتبة الوطنية
2018/1/361

813.9
الدابي، مهند رجب
أطياف هنري ولكم – مهند رجب الدابي – عمان: دار فضاءات، 2018
الواصفات: /القصص العربية//العصر الحديث/

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية.
* يتحمل المؤلف المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو اي جهة حكومية أخرى.

ISBN: 978-9957-699-91-8

فضاءات
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى: 2018
جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق
أطياف هنري ولكم – مهند رجب الدابي – السودان
دار فضاءات للنشر والتوزيع – المركز الرئيسي
عمان - شارع الملك حسين- مقابل سينما زهران
تلفاكس: 4650885 (6 - 962+) هاتف جوال: 911431- 777(962+)
ص.ب 20586 عمان 11118 الأردن
E.mail: Dar_fadaat@yahoo.com
Website:http://www.darfadaat4publishing.com

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر

تصميم الغلاف: بارنوخ
خطوط الغلاف للفنان: عبدالرحمن كوريكت
صورة الغلاف: African medicine man dress covered with horsehair- **Wellcome Collection**
صورة الغلاف: Jebel Moya; General view of excavations. **By: Henry Wellcome**
الصف الضوئي والإخراج الداخلي والطباعة: فضاءات للنشر والتوزيع

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لاتعبر بالضرورة عن رأي دار فضاءات للنشر والتوزيع.

مهند الدابي

أطياف هزي ولكم

رواية

فضاءات
للنشر والتوزيع

"إلى رجب الأمين الدابي ؛

الرجل الذي حكى لي كثيراً من الحكايات ،

ولم يخذلني أبداً " .

تستند هذه الرواية إلى أحداث حقيقية.

"لسوف أُغرقُ حزني في العمل، فالعمل هو عزائي الأكبر، وعملي هو الحياة التي تُسهم في رفاهية الآخرين؛ فضلاً عن نفسي، وهي ما يستحقّ أن يبقى. وهذا التفكير يساعد كثيراً في إضاءة الحياة، أتمنى أن تساعد أفكاري هذه في إنارة الطريق لشخصٍ ما ذات يوم".

هنري سولومون وِلْكَم

(1853- 1936م)

(1)

العتبة الصّخريّة

"حيٌّ هو الربُّ الذي فدَى نفسي من كل ضِيقة، إنه كما حلفتُ لك بالرب إله إسرائيل قائلاً إنّ سليمان ابنَك يملك بعدي وهو يجلس على كرسيِّي عوضاً عني كذلك أفعل هذا اليوم".

"خذوا معكم عبيدَ سيّدكم وأركِبُوا سليمان ابني على البغلة التي لي وانزلوا به إلى جيحون، وليمسحه هناك صادوق الكاهن وناثان النبيّ ملكاً على إسرائيل، واضربوا بالبوق وقولوا ليَحْيَ الملك سليمان. وتصعدون وراءه فيأتي ويجلس على كرسيِّي وهو يملك عوضاً عني وإيّاه قد أوصيتُ أن يكون رئيساً على إسرائيل ويهوذا".

سِفْر الملوك الأول 1: 29-35

بعد حوالَي شهر من اليوم الذي سقطتْ فيه مملكة سنّار (1821م) بين يدَيْ محمد علي الألباني حاكم مصر، وانحنى المَلِك بادي السابع وسَلَّم المدينة دون مقاومة؛ أعلن المحارب الأرجنتيني خوسيه دي سان مارتن استقلال بيرو من سيادة التاج الإسباني. وبينما تَسقُط دول وتتقسّم إمبراطوريات وتتحرّر بلاد وتتمدّد إمبراطوريات أخرى، والعالم يقف على حافة الحرب، حدَثَ، في مكان ناءٍ، من أحد شواطئ ما يُسمَّى الآن (أمريكا)، أمرٌ بسيطٌ جدّاً، كان يمكننا وصفه بكلمة "عاديّ"... دون خجل، لكن...!

1
المُهاجرون

ما كانت أكثر الكوابيس بشاعةً في تلك الليلة لتتنبّأ أو تُصوِّر تلك السفينة العملاقة التي رَسَتْ على الشاطئ الصخريّ شرقيّ البراري والسهوب الجدباء وتلال الجرانيت. كان ذلك في فجر يوم مجهول من شتاء العام 1821م، لحظة وصولها هربت بعض الحيوانات الصغيرة واختبأت سريعاً في الغابة، ولاذ بالهرب بضعة رجال من السكان المحلّيين واختبأوا في أكواخهم غريبة الشكل بعيداً عن الأنظار، ارتعبوا من الصوت الهادر والموج المندفع والصافرة التي تنفَّستْ أخيراً بعد عاصفة قوية. اصطدم الركّاب بالبرد القارس بعدما خرجوا من الجوف الرطب عبر سلّم خشبي طويل يتدلى إلى الأرض، تدافع الرجال والنساء والأطفال في عجلة لا تتناسب مع جوعهم وقذارتهم وأوجاعهم، وَطِئت أقدامهم المُجعّدة الصخور الحادة إلا أنهم كانوا سعداء بوصولهم أخيراً إلى العالم الجديد، خَرْبَشَتْ وجوهَهم نسمةُ هواء بارِدة، وتَبدَّد خوفهم الذي لازمهم طوال أيام الإبحار الطويلة مع شعر الفتيات الجميلات الراقص على أنغام موسيقى الريح. لم يكن منهم من يَعلم شيئاً عن هذا المكان! أو ما يحملونه إلى هذه البلاد أو ما تخبّئه لهم. لكنهم أدركوا أنّ ثمة مسْتقبَلاً ما ينتظرهم هنا! وأنّ هجرتهم ستكون سِفْراً يُحكى ويُرتَّل لأجيال قادمة.

من بين أفواج المهاجرين خرج "وِلْكَم" بشاربه الضخم كهواجسه ونظراته الثاقبة وأذنيه الكبيرتين كمصفقة نحاسية. يرتدي عباءة سوداء مهترئة تتخلّلها العديد من الخرق البالية التي كان يعتقد بأنها تحميه من البرد! استطلع المنطقة حوله جيداً متوقّعاً الكثير من

الاحتمالات لكنه لم يَرَ بشراً أو حيواناً، ثم أحسَّ بالجوع متجاوزاً فرحة الوصول بعد رحلة الموت المحققة. بلغ به الأمر إلى إرسال بعض الشباب اليافعين بعيداً نحو أماكن متفرّقة للبحث عن الماء أو الفاكهة، راضخاً لرغبة خفيّة في أن يكون سيّداً عليهم. وبينما كان الجميع مشدوهين بمشهد رائع لبداية الشروق أشعَرَهم براحة نفسية عميقة، أحاط "وِلْكَم" مكاناً مربّعاً من الأرض المجاورة للشاطئ وغرس في أطرافه المتباعدة أعواداً خشبية جافة. تطلَّب منه ذلك جهداً كبيراً ومقدراً. وقُبَيل أن يستوعب من معه حقيقة ما قام به، وفي الوقت الذي يتدافع فيه مزيدٌ من المهاجرين خروجاً من جوف السفينة التي تحمل حوالي أربعمائة مهاجر، تسلّق "وِلْكَم" درجات السلّم المزدحم صعوداً مندفعاً إلى أعلى سطح السفينة، مُزيحاً النساء والأطفال من طريقه بقسوة شنيعة، نظر من نقطة معينة إلى مربَّعه ذي الأطراف الخشبية المنتصبة وقال في نفسه: "تلك هي أرضي!".

مع اكتمال قرص الشمس، انبعث الدفء البارد في أجسادهم إلى درجة أن البعض ظنَّ أن بإمكانه شواء دجاجة بواسطة حرارة أشعّة الشمس في تلك اللحظة التي تملَّكهم فيها الحماس، ثم أعلنتْ الشمس عن نفسها بوميض مذهل وخلجات داعبت القلوب. احتمى المهاجرون ببعضهم البعض في مشهد محزن ومأساوي، علا بُكاء الأطفال الذي لا ينقطع، لم تسكت النساء عن التباكي كل لحظاتٍ قليلة. ازداد عدد الرجال الذين ذهبوا ليطوفوا الأرجاء بحثاً عن طعام، أيّاً كان نوعه... لا يهمّ. نبشوا الأرض، ولم يكن هناك من جذور. تذوّقوا طعم أوراق الأشجار العريضة، ولم يكن طعمها أو قوامها مستساغاً. اشتد الجوع، واندفع البعض داخل البحر بحثاً عن أمل أو بعض ما يسدُّ الرمق.

كان "وِلْكَم" يُخبي بعض اللحم المقدد بين طيّات خرقه البالية، يتحيّن الفرص ليأكل منه مجدداً، مبتعداً حتى عن زوجته التي كان يكبرها كثيراً. وفي غمرة تلك اللحظات الحرجة، والشمس لا تزال ترسل أشعّتها إلى السهول والبراري الشاسعة وينقشع عنها ضباب الصباح فتتلامع قمم الجبال البيضاء في مشهد سماوي تكتنفه القداسة والسحر، تلفَّت حوله بحرص ودقة ثم ذهب مُدّعياً قضاء حاجته. أخرج بعضاً من اللحم ودسّه سريعاً في فمه. بعد دقائق عاد يمدّ يده بالفتات إلى زوجته التي تحوّلت إلى كائن عظمي من الدرجة الثانية، وهي تكمل يومها الثالث من الجوع. صاح أحد المهاجرين من بعيد:

- "النجدة.. جورجيو يموت.. النجدة..".

لم يكن جورجيو رجلاً في تلك اللحظة! فقد كان محض جلد متشقّق كريه الرائحة والمنظر، بعظام صدر بارزة كأقواس، مِرْفقا يديه متقرّحان وعيناه لا يمكنهما العودة إلى محجريهما من جديد، ساكناً دون حركة أو روح. أخذت النساء تبكي بهستريا وأخفى الرجال وجوههم بأكفّهم. أطلت دهشة من أعين الأطفال الذين سكتوا أخيراً وانشدهوا يتابعون ما يحدث بمرح صغير. رسم رجلٌ عجوزٌ الصليب ثم أغمض للميت عينيه وغطى وجهه. توجّب الدفن الآن.

وسط أحد السهوب المنبسطة، وبأيدٍ راعشةٍ حفروا قبراً. حضر قبطان السفينة الذي ألقى عليهم خطبة جادة ومختصرة:

- "الآن قد أصبحَتْ هذه الأرض وطنكم، هذا شهيدكم الأول، ومنذ هذه اللحظة أنتم تنتمون إلى هذا المكان، بشموسه الصافية وبرده القارس، بفقره وغناه، من يجد وطناً عليه أن يعمل كثيراً ليحافظ عليه وإلا قضى العمر كله يبحث عن وطن... ليحفظكم الله".

نجّار السفينة القصير الذي نجا من التقزُّم بأعجوبة، صنع صليباً وغرس شاهدة خشبية ضخمة جوار القبر. لاحقاً سيصبح هذا المكان مقبرة ضخمة، ستحتشد الجثث خلال الأيام القليلة المُقبلة. بنهاية اليوم بدأت السفينة استعداداتها للمغادرة. من ذلك المكان أخذوا ينتشرون في البراري والسهول تاركين حاجياتهم في مكانها، يبدو أنه لا أحدٌ يهتم.

في بادئ الأمر ازدردوا العشب المرّ وتجرّعوا مياه البحر المالحة. ثم اكتشف أحدهم في الجوار حوتاً نافقاً، ولحسن الحظ كانت حاسة الشم لديهم معطلة منذ فترة. لاحقاً سيحاولون الصيد بطرق بدائية. عشية اليوم الثاني احتضر ستة أشخاص من بينهم طفل، وقُبروا أيضاً في ذات المقبرة. الموت يستمرّ. في اليوم التالي تناثرت الجثث كالأحذية أمام مزار شديد الخصوصية، ما يزيد عن ثلاثين أو أربعين جثة، وخلال بقية ذلك اليوم تساقط المزيد منهم عطشاً وجوعاً ومرضاً. قررت مجموعة صغيرة بقيادة "وِلْكَم" التوجُّه غرباً. لكن الرجل البخيل حاول أن يبيع أرضه التي حدّدها سابقاً بالأعواد، وأصَرَّ أن يقايضها مقابل أيّ شيء، مبيناً موقعها المميز ومساحتها الكبيرة – بالطبع يستطيع الحديث والشرح ما دام برطمان اللحم المقدّد باقياً في حوزته– وكيف أنّ هذه الأرض في المستقبل ستساوي ثروة ضخمة لا تكفي مالكَها ألفا عام لإنفاقها، وما فتئ يعرضها هنا وهناك. في نهاية المطاف قرّر أحد الرجال الذين سيرحلون برفقته غرباً مقايضته؛ فقط من أجل استعجال حركة الرجل الفظّ ذي الأنف الضخم كحبّة خيار، أعطاه في المقابل مقصّاً حديدياً صدئاً. وافق "وِلْكَم" على ذلك بسرعة ودون تردد وأعلن على الملأ -الجثث المستقبلية-أن ملكية الأرض قد آلت إلى: "ذكِّرني باسمك من جديد..؟ هااا رودلف، حسناً يا سيد رودلف إنها لك، يمكنك التصرف بها كيفما تشاء".

ضحك ثم أَسَرَّ إلى بعض من وجدهم حوله بمكر شديد "إني لأحسده حقاً عليها". تابعتهم الأنظار الواهنة إلى أن اختفوا في الدغل الكبير وتلاشوا بعيداً ناحية مجاهل الغرب.

عشية ذلك اليوم انتفختْ الجثث وأبيضَّت بلون الملح. ظهرتْ الصقور السوداء، ومن بقي له بعضُ أملٍ في العيش وقدرة على الحركة تَمكَّن من صيد الطائر الأسود القوي ذاته؛ باستدراجه إلى جثة أخرى أو بمحاولة تجسيد الموت ليأتي الطائر الجائع بنفسه بحثاً عن صائدِه.

بعد عدة أيام من المشي، كانوا قد مروا خلالها عبر أحراشٍ وغاباتٍ كثيفة ثم أنهارٍ هائجة ووديانٍ منبسطة تسكنها قبائل محلّية؛ كان بعضها كريماً معهم فأطعمهم وآواهم، وكان بعضها شرساً فأرسل سهامه الرفيعة ناحيتهم مُنذراً. اصطادوا القنادس وأكلوها، ثم عثروا على بعض النبات الحلو، وقبل كل شيء كان الماء العذب يجري جوارهم دائماً نهراً تلو الآخر. واجهوا في تلك الرحلة ويلات الشتاء القارس والعواصف الثلجية بعد أن اختفتْ الشمس لأيام، وتساقطتْ الثلوج لأيام كثيرة. ضاعتْ حاجياتهم أثناء هروبهم من حيوان مفترس، ثم اعترضت طريقهم أفاعٍ سامّة وحيوانات فتاكة لم يروا لها مثلاً. كسَرتهم الطبيعة التي لا مفرّ من مواجهتها، لكن ما داموا يجدون الغذاء فكل ذلك لا يهم؛ يستطيعون التغلب عليه، فرغبتهم بالحياة لم تكن توازيها رغبة، ولم يَثبِّط عزيمتهم المستحيل، لذا كان تقدّمهم سريعاً، يحثُّهم خيالهم على اكتشاف مجاهل الغرب وثروات هذه البلاد.

بعد أن فقدَتْ القافلةُ الصغيرةُ شخصين دون أسباب واضحة، حطّتْ الرِّحَالَ في قرية صغيرة اسمها "كارباسيت" جوار نهر "ريدنغتون"، ولم تعجب "وِلْكَم"؛ فهي أحد أكثر الأماكن التي مرّوا بها عزلةً، وتصادف أن وجدوا هناك كثيراً من المهاجرين الأنجلوسكسونيين

وغيرهم في حال يُرثى لها، قَدِمُوا مثلهم من انكلترا وفرنسا. وكانوا مثلهم تماماً، منهم مَن لاذ بالفرار من الاضطهاد الديني في أوروبا، ومنهم صائد الجوائز الذي يبحث عن الثروات والذهب، ومنهم من يبحث عن أرض ميعاد. عندما غادر "وِلْكَم" وبعض الرفاق القرية التقوا في الطريق بعدد من الهاربين من ولايات الرقّ والعبودية في الجنوب، وصادفوا بعض الهنود الحمر المتَّشحين بالألوان والأصباغ وجلود الحيوانات والجيف، تفادوا معارك دامية بحثاً عن حياة أفضل بعيداً عن أشجار الصنوبر الباردة.

بعد أن عمل عدة أيام حلاقاً لصوف الأغنام، اتجه "تيموثي ليڤي وِلْكَم" -وهذا اسمه كاملاً- جنوباً مع زوجته الهزيلة. مشَيَا دون هدى طوال يومين كاملين، أخيراً بمجرد أن وقعت عيناه على المكان الذي يُسمّى اليوم "قرية مِينوت" أخبر زوجته بأنها ستكون موطنهم. كان تعِباً لدرجة أنه لم يشعر بظفر سبّابته وهو ينكسر عندما اصطدم بصخرة الطاحونة الهوائية عند المدخل، حيث جلسا يلتقطان أنفاسهما. أمّا الزوجة فقد أصبحت كفزّاعة يمكن لِذِكْرها فقط أن يجلب النعاس والنوم للأطفال، تقرّحت قدماها وملأت الثآليل رجليها، انتشرت الدمامل على وجهها وأفسدت جمال سنواتها العشرين، استقبلهم كثيرٌ من المهاجرين الأوائل بترحاب كبير، وافقتْ أسرةٌ يهودية من فارسوفيا على استضافتهما رأفةً بالبطن المنتفخة والتي لولاها لما شعر بوجودهما أحد؛ خصوصاً بقايا ما كان ذات يوم امرأة. اندمجوا سريعاً مع بعضهم البعض. لاحقاً، في اليوم التالي، بحَثَ "وِلْكَم" عن أرض خالية وسَوَّر قطعةً واسعةً منها وكتب اسمه على لافتة قذرة بخط رديء: "ملكية خاصة.. وِلْكَم وأبناؤه من بعده". لاحقاً ساعده بعض أهل القرية على قطع الأشجار وفتل الحبال لتشييد المنزل الجديد.

2

الملك سُليمان

نيو إنگلاند، بوحوشها ومجرِميها وقتَلتها الذين حتى الدببة الرمادية تخاف على صغارها منهم، بصخورها الحادة وأنهارها القصيرة التي تختبئ خلف أشجارها الوريفة العملاقة وتلالها الخلابة. كانت للقتلة والمهووسين مكانةٌ رفيعة فيها، فقد بقي العالم الجديد يحتفظ بوجهه الكارثيّ والسوداويّ حتى بعد أن نال الاستقلال والحرية من التاج البريطاني. الدموية شيمة يلتفّ حولها معظم الناس، الجشع يسيطر على العامة، وتسود الأرجاء فوضى وتمرّدات، هدنات وخروقات، وينتشر المأجورون كل يوم ويتكاثرون كالفقّاعات. يتغير العالم ببطء، ويفرخ كائنات أشد فتكاً من نيرون وأكثر غموضاً من الله.

عندما وصلت تلك السفينة ذات الصواري العالية، كانت الأحوال أفضل بكثير من السابق، فالمهاجرون الأوائل الذين ركبوا سفينة مايفلاور، ضربتهم المجاعة ونفقوا كالأسماك على الشواطئ بالمئات، لكنْ تمكَّن بعضُهم من النجاة رغم التشرد والجوع وعدم القدرة على مخاطبة السكّان المحليين. وفي يوم أصبح الأمريكيون الجدد يقدّسونه حتى الآن، ظهر رجلٌ لا يشبه الرجال؛ ظهر للمهاجرين وهم على مشارف الموت، أتاهم وغيّر حياتهم إلى الأبد، أمدّهم بالغذاء ثم علّمهم الزراعة والصيد، وقبل كل ذلك اللغة اليسيرة التي تُجنّبهم الخطر. وفي أول عيد حصاد ناجح أرسلوا في طلب "سكوانتوا"؛ المواطن الأصلي والهندي الشجاع لشكره على ما قدّمه لهم. ومنذ ذلك الوقت أصبح "عيد الشكر" عيداً رسمياً كعيد الفصح يأتي كل عام بعد نهاية الموسم الزراعي.

بعيداً عن كل ذلك، لم يُعانِ "وِلْكَم" وأمثاله مثل المهاجرين والحُجّاج الأوائل أبداً، الآن حوله قطيع يحميه ويدافع عنه، رجال يبادلونه ذات اللغة والصلوات، جنود أقوياء يصدّون هجمات القبائل الهندية التي تخرق المعاهدات. تعلّم الحرفة الجديدة بسهولة وفلح الأرض، مارس شعائره اليهودية بحرية تامة، وأخبر البعض بنواياه في الطواف بالهيكل، وجد من يشاركه صلواتٍ ثلاثاً كل يوم وترانيم يوم السبت، ورجلاً أو رجلين يتحدثان اليديشية ويؤمنان بالكابالا، وحظي بتشجيع أهل القرية الصغيرة ودعمهم، خصوصاً عندما دعاهم إلى بناء كنيس، وأخذ يُطْلِعهم على بعض أسرار الأنبياء التي أتى بها من بعيد عن أحقّيتهم بهذه الأرض قائلاً: "إنها أرضُ ميعادنا. لقد انتظرناها طويلاً وتحمّلنا من أجلها كل شيء. هذا البلد سيكون لليهود، نحن فقط من لنا الحقّ فيه وعلينا، أن نستعد لحكمه جيداً".

"وِلْكَم" نموذج للرجل المتقلّب، نتاج الحياة القاسية التي عاشها في أوروربا قُبيل هجرته. متنقلاً مع والدته من مدينة إلى أخرى، تارة خوفاً من العقاب الذي يُلاحقها بسبب جرائم السرقة المُتلاحقة التي لم تكن تتخلى عنها، وتارة أخرى بسبب ثورة الأوروبيين على اليهود والضيق والسخط المتزايد حولهم. حتى الغجر كانوا أكثر احتراماً منهم. كثيرٌ من القدّيسين والغزاة الأوائل للعالم الجديد كانوا يَعتبرون أمريكا وطناً شرعياً، أو (وطن من لا وطن له)، وقد لازمَتْ أولئك المهاجرين والحُجَّاج قداسة طوباوية استمدّوها من تراث العبرانيين، وناصروا فكرة أنّ هذه البلاد هي أرض الميعاد، فأطلقوا عليها الأسماء الكنعانية والصفات التوراتية، واستباحوا فيها كل شيء.

بعد بضعة شهور، وفي يوم لاهب من أيام حزيران، صرخت الزوجة في الحقل بينما كانت تعمل. نزلتْ المياه الفاسدة من بين ساقيها

ثم توقف ذلك بظهور رأس الطفل، سقطت وحفرت الأرض بأرجلها من شدة الألم، تجمّع بعض الماء حولها، لحقوا بها سريعاً وحملوها إلى الكوخ الخشبي، أحضروا قِدراً كبيرةً وضعوها على الموقد المشتعل لتسخين الماء، كان هناك بعض الشراب ولفافة دخان كان يستخدمها الهنود الحُمْر كمخدّر قوي، قام الجيران باللازم، وأخيراً خرج "أيساك" إلى الحياة وفي فمه كتلة كبيرة من الشعر الأسود الناعم.

بعدها لم تعش الأمّ أكثر من ستّ سنوات، أنجبت خلالها أربع مرات بطريقة طبيعية: "جاكوب" و"مايكل" و"لويزا" و"باري"، وفي المرة الخامسة أودى الأمر بحياتها، لفظتْ أنفاسَها بعد أن قال "وِلْكَم" للقابلة بصوت هادئ: "الابن!". كانت عيناه مركزتان على عينَي المرأة التي تكتوي بوحشة الموت ويزفر صدرها بالضيق والأسى وتتلوّى وتتأوه بينما ينزل الدمع من عينيها مكلوماً، تفتح فمها فيخرج الهواء ساخناً ويسيل لعابها دون قدرتها على نطق كلمة، فتبتلع أو تحاول أن تبتلع شيئاً لكن لا تستطيع فتشهق وتعيد القابلة سؤالها: "دعني أنقذها يا سيدي... ستموت". يجيبها "وِلْكَم" وهو يبصق مزيجاً من التبغ والقهوة بفظاعة: "قلتُ لكِ الابن!"، قالها ثم وقف أمام شلال الدماء والزوجة تعاني أشد أنواع الآلام بعد أن أخرج المولود رِجْلاً واحدة فقط، ألقتْ السؤال على الأب من جديد: "الأم أمّ الطفل... اختر سريعاً يا سيدي، لم يعد لدينا وقت، سنفقدهما الاثنين!!". أجابها وهو يزفر دخان سيجارة ويلقي بها في بعض الدم: "قلتُ لكِ الابن.. ألم تسمعي؟"، ثم نظر إلى المرأة وهي ترتعش مما سمعت غير مصدّقة ما كان يتفوّه به. أنزل قبعته إلى صدره، وألقى عليها نظرة وداع غير آسفة، قبل أن ينحني لها في خشوع ثم خرج عبر نافذة الكوخ الخشبي.

أطلق عليه اسم "سولومون" تيمّناً بالملك سليمان وحكمه، وسط رقصات الموت يؤديها بعض الهنود المستأنَسين ورائحة شواء أضلع ثور البيسون.

تولَّتْ الأم إلى ربها وقُبرتْ في كبرى مدافن المستوطنين. أورثت صغيرَها الوسيم "سولومون" الصبر وقدراتها العالية على التحمّل ودرء الهموم والشرور. لكنه ومنذ حداثة سنه نشأ طفلاً قاسياً خشن الطباع، لا يتقن غير حفر الأرض ومراقبة قناديل الذرة دون ملل يوماً بعد يوم لتنضج، كما يملك مهارة كبيرة في طرق تخزين الحبوب ورصّ الجوالات. كَبُر بتلك الطريقة، بمرافقة أبٍ غير حنون إلا في أحيانٍ نادرة، وإخوة كأنهم براغيث صغيرة؛ ما إن يوضع الطعام أمامهم حتى يقضوا عليه قبل أن يبرد حتى، لدرجة أن البخار كان يستمرّ في تصاعده من الأطباق الفارغة. لطالما ضرَبوه وحرَموه من الوجبات، لكنه كان يتخطى كل ذلك، ويشتدّ عوده ويَقوى. لم يكن هناك ما يُضعفه أو يردعه. عاني صعوبات كثيرة في باكر حياته، فقد مشى متأخراً، وتحدّث متأخراً، ولم يتمكن من التعلّم بسهولة، ولم يحفظ اسمه إلا بعد خمس سنوات. وخلال العقود التي نضج فيها واستطال، رَسَت مئات السفن في العالم الجديد، من روتردام ومارسيليا وليفربول وموانئ أوروبية وأفريقية أخرى، وأصبح ذلك الجانب من الولايات المتحدة أوروبا ثانية. ثم بدأت الصدمات تتعمق بين السكّان المحليين والوافدين الذين جاءوا بالسلاح الناري ليَسخَروا من مرتدِي جلود الحيوانات ويطلقوا النار على كلّ من يقف أمام أهوائهم وأطماعهم بدمٍ بارد. بدأ المهاجرون في التوسُّع غرباً نحو أرض الهنود الحُمْر ومنخفضاتها، ومن ثم غيرت قطعان ثيران البيسون طريقها. وفي تلك السهول اليانعة التي كانت مجالاً مفتوحاً وواسعاً للصيد، بدأت التجمّعات في التضخّم، وعانى السكان المحليون من توغل المستوطنين وفضولهم الزائد تجاههم.

مرّت سنوات طويلة قضاها سولومون يعمل ليُطعم نفسه جيداً، خصوصاً بعد أن رحل أحد إخوته بداء الرئة، ثم لحقتْ به أخته الأخرى بمرض الخنّاق، لكنه لا يتذكرهما ولا يحزن عليهما، بل يقضي أغلب ساعات اليوم يعمل في الحقل؛ الحقل الذي كان قد توسّع إلى درجة أن اللافتة التي كانت ذات يوم في المقدّمة "ملكية خاصة.. وِلْكَم وأبناؤه من بعده "أصبحت الآن في منتصف الأرض التي اكتسحتْ أطراف الأراضي المجاورة ببعض التملّق والاحتيال. عندما يتكئ عليها ليريح جسده القويّ وقتما يشتدّ القيظ، يستند إلى الجذع المتآكل الذي طرقه الأب "وِلْكَم" بقوة ذات يوم، فيشعر بقوته وبعضلاته المفتولة وبقوة اللافتة التي يستند إليها، وبقوّة أجداده وإرادتهم من قبله. يشعر بأن هناك شيئاً يحدث لكنه يجهل ماهيته!

أخيراً شعر بأن حياته تدور كطاحونة الهواء دون توقّف وبلا هدف واضح، وأنه حتى الآن يعتمد على الإعانات ولا يمتلك شيئاً سوى الملابس التي يرتديها، لم يجرّب شربَ كأسٍ من النبيذ، ولم يجرّب الأكل في مطعم، لا يعرف كيف هو طعم الجبن، ولا يعلم الطريق إلى الحانة أو المتجر، فقط يمسك بالجاروف ويعمل، تُبدِّل الأرض زرعها كل بضعة أشهر ويستمرّ هو بنزف العرق الساخن، ورغم ذلك كان الأب "وِلْكَم" يأخذ جزءاً من المحصول خلسةً ويبيعه في السوق، ثم تتبخر النقود كأنها لم تأت. لذلك، وفي اليوم الذي مات فيه الرئيس الأمريكي "جيمس بولك" بالكوليرا وخلَفه لسدّة الحكم أحد رجال حزب الأحرار المغرورين "زكاري تايلور"، وفي الوقت الذي سمع فيه صوتَ رجلين يتحّدثان عن أن الرئيس بولك كان ينوي شراء كوبا من الملك الإسباني، وهناك صوت صهيل حصان بعيد، وصراخ أطفال وهم يكسِّرون الأحطاب للتدفئة، في تلك اللحظة كان "سولومون" يعمل بشدة كأنه ليس بشراً، إلا أنه رمى مجرفته فجأة ثم

نفض عن جسده غبار الأرض ونهض راجلاً كأن هناك أمراً مُلحّاً يجب أن يفعله فوراً. سار تجاه الغرب، وقبيل أن تنتهي تلك المحادثة أو يتوقف صدى الصهيل من الأجواء، كان سولومون قد تخطى حاجز الأرض مهرولاً لينضمّ لاحقاً بعد عدة أيام إلى شقيقه الأكبر "مايكل" في مكان ما بوسط ولاية ويسكونسن.

بعد ذلك بحوالي عام، وبعد أن مات الرئيس "زكاري" بعدة أيام بسبب إصابته بمرض غريب في المعدة عام 1850م، والبلاد تحاول السيطرة على اتحادها وسط أطماع بريطانيا في بعض المناطق وهدوء الأحوال بعد حرب المكسيك، كان سولومون يقيم مع شقيقه في أحد الأكواخ دون عمل معين، لكنه أصبح يمتلك بعض الذكاء، ووجد أن تلك القرية بحاجة إلى رجل دين، وبالطبع لم يكن يمانع في القيام بالعمل وإلقاء الخطب. في الوقت الذي ظهرت فيه كثيرٌ من الأصوات التي تندّد بالعبودية بطرق أكثر تحرّراً وعبر رجال أكثر تعلّماً، والرئيس الثالث عشر "فيرمور" يجلس على كرسي الرئاسة، والولايات الجنوبية للبلاد تُناضل من أجل الاحتفاظ بحقوقها وتهّدد بالانفصال، والرئيس يعمل بكل طاقته لافتتاح مكتبة البيت الأبيض، والبلاد تتابع حالة الغليَان العامة والاحتقان الكبير والحاجة المتزايدة إلى العلم والمعارف؛ تعرَّف "سولومون" على رجل من عائلة "كويكر" كان يرى فيه شخصاً هاماً له في المستقبل. وبعد أن كسب "سولومون" ودَّ جاره الكهل تقدّم ليتزوج من ابنته اليهودية الجميلة، بنى لها كوخاً متوسّطاً قَطَع أخشابه بنفسه من غابة مجاورة كانت تفصلهم عن إحدى أكبر قرى الهنود "السيوكس". كان زواجاً متواضعاً ارتدى فيه ملابس جديدة لأول مرة في حياته، بدلة كاملة أهداها إليه عم العروس. كان سعيداً بملابسه وعروسه بذات القدر!

أقاما معاً في قرية "ألموند" والسعادة والرخاء يحفانهما، في الوقت الذي تتصدّر فيه الصحف عناوين عريضة عن "الإبادة الجماعية" أو "المجازر" بكل حرية، وكان الإجهاز على رجل هندي بطريقة وحشية يعدّ أمراً يدعو إلى الفخر. كان الصراع مع الهنود قريباً منهم، لكنهم لم يكونوا يهتمون. صار "سولومون" يملك الآن مزرعة صغيرة وبعض الحيوانات وحقلاً يجني منه المحصول رغم تقلبات المناخ والأوضاع، لكنها كانت أرضاً مليئة بالحجارة والحصى مما يتطلب منه مزيداً من عمليات الحفر ونقل المخلفات والاستصلاح. أدَّتْ الأحداث المتلاحقة في المنطقة من صراعات بين الهنود والمستكشفين وسلاح الفرسان الأمريكي إلى تفاقم الوضع، ولم يعد الهنود الحمر مسالمين كذي قبل. أُبرِمَت بعض الاتفاقات مع زعماء القبائل ورُسّمت حدود لمناطقهم ببنود لا تُخْرَق، من ضمنها حُسْن الجوار الذي لم يكن المستوطِن الأبيض يلتزم به. وتحت سيطرة القبائل على بعض المناطق الهامة والأنهار والبحيرات والمعابر، بدأت الصرعات تتوالد من جديد. وكلما تم توقيع اتفاق تم خرقه. كان جنوب البلاد يرزح آنذاك تحت وطأة تجارة الرقيق، بينما كان الشمال يعادي ذلك. أوشكت كثير من الولايات الجنوبية أن تعلن تمرّدها خصوصاً بعد الحدّ الجاد من نشاط العبودية.

مضتْ الأيام، وسولومون ناءٍ عن ما يحدث هناك، غير عابئٍ بالدخان الذي يحيط بالقرية أو هجمات الهنود السيوكس في الجانب الآخر. وفي أحد أيام شهر كانون عام 1851م المليئة بالوحل والأمطار والبرد الشديد، في الوقت الذي ظهرت فيه أزمات ومشاكل اقتصادية، وسط تفاقم واستفحال مشاكل الرقيق في الولايات التي تمرّدت بالفعل، وبقايا صراعات مع دولة المكسيك بعد معاهدة (غوادولوب هيدالغو)، والعالم الجديد محتقن على عتبة حرب عظيمة ستخلّف أكثر

من مليون قتيل، والتحفز في كل مكان كرائحة الموت؛ في ذلك الخريف الذي لم يكتمل لينمو المحصول فيه أو ينضج جيداً لغياب الشمس الدائم، وفي وقت دمّرت فيه قوة عسكرية أمريكية قرية هندية كاملة وأبادتها تماماً للتوسّع في مكانهم، وفي نهار تعلو سماءه السحب السوداء ورائحة البارود ودوي الرصاص والمدافع، أطلقت زوجة سولومون أولى صرخاتها، حدث الأمر سريعاً، وبسهولة مدهشة وُلد "جورج". أطلق عليه سولومون ذلك الاسم وهو يُمنّي نفسه بأن يغدو قائداً عسكرياً فذاً كالجنرال جورج واشنطن.

ثم واصلت الزوجة البيضاء سمينة الوجه الأمر، وأخذت تكتسب كثيراً من الشحوم في وجهها المكتنز، إلى أن أنجبت طفلاً آخر في شهر آب من العام 1853م. كان ليلاً بهيماً لم يتوقف فيه جورجي الصغير عن البكاء حينما داهمها الطلق. أفاق سولومون تتبعه بقايا أحلام بالنوم، ثم كأن وحشاً ما نهش بطنها من الدخل أخذت الزوجة تصرخ وتتلوّى حتى كادت أن تقضي على الطفل لحظة أن حاولت الجلوس. لم تكن في الجوار هندية عجوز لتساعدها أثناء عملية الوضع أو تمدّ لها دخان التبغ لتخديرها، وبينما يشقّ المولود بطن الأم ويكاد يقتلها بحركات عنيفة، في محاولات خروج شيطانية، وسط تلك الجلبة والمحاولات والبحث عن وعاء كبير، طغى الأنين والسُّباب، وصرخ المولود في لحظة اجتاح القمرَ فيها خسوفٌ كليّ، فجرى الناس واحتموا خوفاً من الوحش العملاق، أما المتديّنون فأيقنوا أن يوم القيامة قد حان. وأخيراً بمساعدة إحدى الجارات الوافدات ارتاحت الأم، ولُفَّ طفلٌ بريء الطلّة والملامح بقطعة قماش سوداء، يحرك يديه ويرفس الهواء بأرجله. لم يبك بالرغم من الضربة القوية التي تلقاها على قفاه. أطلق الحاخام سولومون اسم "هنري" على ابنه، ثم توسّل إلى الرب ودعاه أن يحفظه ويحميه من الشرور.

عندما سمع الجدّ "وِلْكَم" بالخبر أتى مسرعاً من مينوت في ولاية مين البعيدة، فهو لم يكن حاضراً في الزواج أو الولادة الأولى، أراد أن يأخذ المولود معه لتربيته معلّلاً بأنه سينفعه أكثر من أبيه الذي هرب بعيداً. "يجب أن تعوّضني عنك أيها الأحمق!". إلا أن سولومون رفض الأمر كلياً، مما حدا بالجد إلى المغادرة فوراً والعودة إلى مزرعته شرقيّ البلاد. نظر سولومون إلى شقيقه مايكل نظرة عتاب. ثم نظر إلى المولود الصامت.

نشأ "هنري" وسط أسرته وتربى بنفس الكيفية المتوارثة، لكنه كان مختلفاً عنهم. كان يتغذّى جيداً، مشى عندما أكمل تسعة أشهر فقط، كبر سريعاً إلى درجة أن الفرق بينه وأخيه أصبح غير ملحوظ، شبَّ طفلاً غريب الأطوار، وكلما ترك عاماً خلفه ازدادت تصرّفاته غرابة، يختفي ويظهر كيفما أراد. يلاحق هنود البوتاواتومي القبيحين إلى مناطقهم في "غرين باس". وذات مرة، وهو في الخامسة، تَتَبّع إحدى عجائز السيوكس إلى قريتها. ولاحقاً قصَّ لأبيه عن أنها ساحرة ترقص حول النار وتتحوّل إلى فتاة صغيرة أثناء الرقص، وأحياناً إلى ذئب. كان مولعاً بالقصص والحكايات، خصوصاً حكايات النقيب لويس ووليم كلارك وحملاتهم لاكتشاف طرق الغرب الأمريكي، وكيف أنهم قتلوا الدببة الرمادية وتسلقوا الجبال العالية وعبروا الأنهار العميقة وقاتلوا رجال القبائل الأقوياء، وكيف أنهم اكتشفوا جبال الروكي. سولومون بالطبع كان سعيداً بذكاء ابنه، فقد كان يتعلم منه الكثير، في الوقت الذي لا يقدّم فيه شيئاً سوى همهمات بائسة وطلبات محاولات جني محصول الذرة وغرس البطاطس والاستمرار في إنبات الفاصوليا والبقاء بعيداً عن كل تلك التفاصيل السياسية التي تشغل المجتمع مثل الرئيس "بيوكانن" الذي يثير سخرية رجال الريف والمزارع ويلقّبونه "وجه العجين" ويتداولون عبارته الشهيرة "ليس في

عهدي" والتي دائماً ما تكون وراء الضحكات القوية ليلاً في الحانات وأماكن التجمعات.

تلك الحكايات وغيرها أخذت بلبّ هنري بعيداً فسرح بخياله في أحراشٍ وغاباتٍ لا نهاية لها، ورأى بينها أنهاراً من دماءٍ لزجة قاتمة اللون، ويلوح له في خياله الطلق قصرٌ منيف عاتٍ تكسوه الكتل الصخرية. ولاحقاً بعد أن انضم إليهم في ألموند العم "جايكوب" بسوالفه الطويلة وحديثه المُنمّق ونظارته ذات العدسة الزجاجية الوحيدة والذي قد قرّر أن يصبح طبيباً، تعلّم كيف يُخيفهم على العشاء متقمّصاً روح الوحش "ويندیغو" -لقبه المُفضل، ثم يدخّن التبغ بواسطة الغليون كالهنود تماماً رغم حداثة سنه. كانوا يعجبون به منبهرين.

اهتمامه الحقيقي كان محيطه حول ألموند. وفي أحلك الأوقات، حين يعلو صهيل جياد الهنود وتطرُق أصوات أسهمهم الحادة السامة الهواء، لم يكن يخاف أو يختبئ مثل أسرته، بل كان يخرج ويختار مكاناً يراقب وينتظر إلى أن يهدأ الوضع من جديد. ما يفعله كان يُقلق أباه جداً، لدرجة أنه شكَّ للحظة بأنه ليس ابنه لولا الشبه الشديد بين الطفل الشقي والجد العجوز "وِلْكَم".

بنهاية العام 1857م ظهرت لسولومون اضطرابات في الهوية الدينية وميول كنسية ورهبوية قوية، لجأ إلى الكنسية في مواسم الجفاف الشديد عدة مرات، وقبل على نفسه مرة أو اثنتين بعض المال من صندوق الصدقات، كما أنه عملَ مبشّراً جوالاً في المناطق المجاورة قبل أن يترك له جايكوب بعض المال ويمضي غرباً إلى جاردن سيتي، ملتحقاً بشقيقه مايكل.

(2)

فتى غابات ويسكانسن

"ونحن نرى أنَّ هذه الحقائق بديهيّة، وأنَّ جميع البشر خُلِقوا متساوين، وأنهم وُهِبوا من خالقهم حقوقاً غير قابلة للتصرّف، وأنّ من بين هذه الحقوق حقّ الحياة والحرية والسعي وراء السعادة".

توماس جيفرسون – وثيقة استقلال الولايات المتحدة الأمريكية

3

حمراء كمؤخّرة القرد

تجمّع الأطفال حول ذلك الثقب الصغير وتهامسوا سراً في خبث كما غمزوا لبعضهم هازئين. نظروا طويلاً إلى المكان قُبيل أن ينفجر أحدُهم ضاحكاً، ومن ثم لم يعد أحدٌ منهم قادراً على إيقاف نفسه. ضحكاتٌ هيستيرية شامتة، صراخ متواصل لدرجة توجع البطن. تطايَر اللعاب وجأر أحدُهم وخرَّ منكفئاً على الأرض كأنه قد خرج من أمعاء معزة مصابة بعسر هضم، تساقط بعضهم بعد أن أعياه الضحك، ورغم ذلك لم يتمكنوا من السيطرة على أنفسهم. انتابتهم جميعاً تلك الحالة من الشعور بالمتعة اللانهائية إثر رؤيتهم، عبر ثقب الرداء الأسود الوضيع، مؤخرة الفتى الأزْمد الذي التفت إليهم أخيراً وشعر بأنه كَمْ أسرف في مجاراة زميله في اللعب إلى الدرجة التي كشفت عن ذلك المكان الذي يحرص على إخفائه دائماً. اكفهرّ وجهُه الصغير وتلوّن سريعاً بعدة ألوان، وكادت عيناه أن تختفيا وهما ممتلئتان بالأوساخ وإفرازات الصباح التي تحتشد في أطراف جفونه التي كانت كريهة المنظر كمرحاض عثمانيّ قديم في أحد الأسوق العامة. بجسده الهزيل، حاول أن يدافع عن مؤخرته التي فقدت اليوم جزءاً كبيراً من خصوصيتها وظهرت على الملأ بعد أن كان يظنّ أن أمرها طيّ الكتمان طوال سنوات عمره الست، لم يشاهدها إلا والدته وذلك قُبيل أن يتعلّم كيف يغسل نفسه جيداً. تدافع حوله الأطفال يهتفون: "حمراء كمؤخرة القرد"، وأضاف فتى نحيل الجسم: "الآن نعرف كيف يفعلها عندما يدخل إلى بيت الخلاء، لن يتعب كثيراً فهو يكتفي بأن يكحّ فقط أو أن ينبح كالكلب! هو هو هو". ضحك الصغار

مستمتعين باستهزائهم في منتهى النشوة. الفتى الذي يكبرهم سناً؛ صاحب الوجه الدميم كحيوان الكاريبو المُحنّط وبأسنانه المفرّقة كمشط، أخذ يسخر منه ويضرب الهواء بمقدّمة حوضه، وهي حركة نابية كانوا يفعلونها عندما تمرّ أمامهم فتاة جميلة أو هندية ساذجة. عندما حاول الطفل المغلوب على أمره الدفاع عن نفسه وردّ هيبته أمام الأطفال الذين وصلت بهم النشوة حدّها الأخير، سقطت على وجهه أيدٍ كثيرة، بعضها لا يزال يحمل تحت أظافره حفنة خراء، وبعضها مليء بالتراب، ولدى البعض قبضات قوية ضرَبتْ وجهه وسال دمه من شقّ صغير أعلى شفته. هنا لم يعد بإمكانه الاستمرار فحاول الهرب جرياً، ركض خلفه جميع الصغار خلال ثوانٍ معدودة.

مشى وحيداً طوال الطريق يبكي بحرقة، شعر بأن جميعهم اليوم رأوا مؤخرته وأنه أحمق معتوه. كان، عندما يشعر أن هناك شخصاً ما خلفه في الطريق، يتوقف ويستند إلى شجرة ليُخفي ذلك الثقب ويحمي رداءه الممزق المهترئ، رغم أنه لم يكن ظاهراً، ولا ينكشف إلا في تلك الوضعية التي شاهدوه عليها، لكنه كان يدرك عكس ذلك تماماً؛ يشعر بأن العالم أجمعه يرى ما يحاول ستره، ربما سينادونه بعد ذلك بـ "الفتى صاحب المؤخرة الحمراء"، وربما أيضاً غداً سيعرف جميع من في المدرسة بما حدث، هل سيستطيع حينها أن يواصل دراسته؟ أجهش بالبكاء وأصرَّ أن يشترط على والده هذه المرة أنه لن يذهب إلى المدرسة ما لم يصلح رداءه، يجب أن يرقعه، ولو بقطعة ينزعها من جلده. لم يكن المزارع التعيس يضع حساباً أو أهمية مقدَّرة لحدث تافه كهذا، وفي اليوم التالي، بعدما أعرض الصبي عن العودة إلى المدرسة قال له: "لماذا لم تخبرهم بأن يقبّلوا مؤخرتك؟". عندها قال الصبي: "حسناً.. إذن لن أذهب!".

وفعَلها. لم يعد يذهب إلى المدرسة، رغم أنه كان ذكياً ومتفوقاً. كان مرتاحاً للعمل في الحقل مع والده، لا يتعب ولا يشكو. لم يطالب بالمزيد من الوجبات أو تحسينها، ولطالما شعر بالامتنان والراحة، ما دام لا يوجد من يَسخر منه أو يتعرّض إلى خصوصيته.

بنهاية ذلك العام أصبح الطفل وحشاً مبتدئ الولوج إلى العتمة، في الغرب الأوسط الأمريكي القاسي، الذي لن تعيش فيه إلا إذا كنتَ أكثر منه قسوة، نَسِيَ جميع أطفال مدرسة "آلموند" الطفلَ ذا الرداء المثقوب ومؤخرته الحمراء المليئة بالزغب، وهو أيضاً قد نسيهم، وقضى الوقت يعمل مثل فزّاعة، يخوِّف الطيور والفئران واللصوص وقُطّاع الطرق التائهين والهنود الحمر المتربّصين ويُبعدهم عن قناديل الذُّرة، إضافة إلى الأعداء التقليديّين لكل مزرعة؛ تلك الحشرات الصغيرة المتوحشة، يمسك بالواحدة منها ثم يضغط أعلى عينيها الواسعتين حتى تتحرّك أرجلها دون إرادة، ثم تخرج مادة بيضاء من رأسها. بعد مرور شهر أو شهرين على ذلك، وبعد أن اعتاد الأمر، أصبح يساعد أباه في البحث عن الحجارة واقتلاعها من الحقل الذي يحتاج إلى قوة أكثر من رجل وحصان، ثم أصبح مفجِّراً خبيراً، يخفي أعواد الديناميت الرفيعة في شقوق الصخور ويفجِّرها، يضعها بحيث يحصل على أفضل النتائج، وقد تمكن فعلاً من توسعة مساحة الأرض بضعة آكرات[1]، فنال رضاء والده الأشعث الذي لم يعد يحلق لحيته مما أكسبه شكلاً غريبًا، كما نال اهتمام أمه التي كانت تختصه بأفضل حبات البطاطا وتخبئها له في الوقت الذي كان أخوه يكيد له أشدّ الكيد. أخذت المزرعة كل وقته تقريباً، ما عدا تلك اللحظات التي يقضيها أمام التلال المجاورة أو الأبنية الحجرية المنتشرة في الجوار أو عند

1- وحدة قياس كانت مستخدمة قبل شيوع النظام المتري ويعادل الأكر 4840 متر.

دخوله أحراش الغابات القريبة. وكانت أسعد لحظاته هي تلك التي يقضيها بين الصخور، يراقب كل شيء من عليها، كأنها مكان مقدس لنبيّ يتعّبد عنده، ولعله كان يعتقد بأنه كذلك!

مضَتْ الأيام، وبنهاية العام 1860م تفوّق هنري على أعوامه الستة. لم يطرأ أي تغيير سوى اهتراء المزيد من الخِرق البالية لملابس الأسرة، واستمرار نموّ لحية الأب البائس الذي أصبح يعتمد على الابن المولع بالصخور، غريب الأطوار، الذي لا يتحدث كثيراً. أدخل بمساعدة جورجي عبئاً يومياً جديداً وقاسياً، وهو قطع الأشجار واستخراج جذورها وحرقها، وقد كان عملاً مرهقاً لدرجة أنهما كانا يقضيان النهار بأكمله في السباب ولَعْن الحصان والسُّحب وما يقع تحت أنظارهما وصولاً إلى نفسيهما ووالديهما. لكن ذلك لم يَدُم كثيراً، ولم يكونا محظوظين بالمرة؛ إذ إنَّ الهنود الشايان في أوهايو القريبة أصبحوا غاية الشراسة بهجماتهم المتقطعة على المزارع والقوافل وتجار الفراء وكل من يمرّ بالمروج. الحكايات حولهم لا تُطاق.

"إنهم يجزّون فروة الرأس ويأكلون كبد الإنسان بعد قتله.. هل تصدّقون ذلك؟" قالها الأب، ومن عينيه أطل حزن أرمل يتوق إلى كراهية كل ما حوله، فهو قد أصبح متعصّباً وشديد الغضب في الآونة الأخيرة، يتعارك حتى مع الديك العجوز ويسبّه إن هرب من القنّ الذي تلهو بداخله بضع دجاجات هزيلات يملأ البقّ الأزرق ريشهنّ ويمتصّ دمهن بشراسة، ولمّا هنّ توقفن مؤخراً عن وضع البيض ما عاد الرجل يعلم حقاً أهمية وجود الديك فأهداه لاحقاً إلى أحد رجال هنود السيوكس؛ درءاً لشرّهم وكسباً لودّهم. وعندما فقد حصانه بحث عنه طيلة ليلتين كاملتين، لم يترك برّية أو جدول ماء لم يبحث فيه، حتى المنحدرات الصخرية المخيفة جنوباً في بلانفيلد ونواحي

بحيرة ميتشغان، بل غامر، معرّضاً حياته لخطر الهنود وهجمات الحيوانات المتوحشة والبرابرة، في بحثه عن الحصان الأسود الذي أفلت أخيراً من قبضة أسرةٍ لا تعرف الرحمة مطلقاً، فقد كان سولومون يطعمه الدم مخلوطاً بالشعير والتبن ظاناً بحسب شيطانه بأنه يطعمه الغذاء الأفضل ويجعل منه كائناً رهيب القوى، كما كان يجفف له البطاطا الفاسدة ويطحنها ويخلطها مع عظام مهروسة لحيوانات نافقة، ولعل الحصان المسكين قد تعايش مُجبراً مع قِلّة الأكل والعمل الذي لا ينتهي، خصوصاً وأن المكان تملأه الحشائش لكن الأسرة لم تكن تطلق سراحه ليأكل منها في الجوار خوفاً من أن يُسرق. في أصيل اليوم الثالث ظهر الأب في الأُفق، تتدلى من وجهه لحية قبيحة المنظر ويخفي رأسه في قبعة مكسيكية من القش وتفوح منه رائحة المسير الطويل الكريهة، لم يكن وحده، كان يجرّ خلفه حصاناً جديداً لم يروا له مثيلاً، بذيل كثيف وناعم سينتزع منه هنري الصغير لاحقاً الكثير من الشعر ليستخدمه كشراك بدائية يصطاد بها الطيور المسكينة التي لم يكن يذبحها بل يقطع رقابها بحركة واحد من إصبعيه.

أدخل الحصانُ الأرقط الجديد بعضَ الأمل في الأسرة الفقيرة وحتى الجيران، شعروا أن بإمكانهم أيضاً الانتصار على البرية المتوحشة وترويضها. وبعد حوالي شهرين من ذلك أصبح الحيوان أليفاً طائعاً يعمل بجهد كأنه لم يكن قبل زمن وجيز حيواناً برياً طليقاً يأكل ما يشاء. والشمس تغرب ثم تشرق من جديد، والأسمال البالية في أجسادهم تهترئ وتكشف مزيداً من عوراتهم وأعضائهم، والكوخ الخشبي القديم يتهالك -لتجنب سقوطه دعموه بعمود تطلَّب قطعُه وجرُّه ونصبُه مجهوداً عظيماً-، القِدْر المُمْتلئة قلّ حجمها وانْكمشتْ كل الأشياء بداخلها، ولا يؤدي ذلك إلا إلى مزيد من العمل، العمل

الذي لا يشغل عقل هنري الصغير سواه، العمل الذي لا يسعفه ليبعد الصخور التي لا تنتهي وكأنها تنبت من الأرض، الشقاء بلا نهاية والخوف الدائم من الهنود والطقس والجوع وعدم القدرة على جني المحصول، هذا إن نجا من الهجمات والحريق.

كان ذلك قبل فترة طويلة من عمله في المزارع كأجير. تلك المزارع التي لا تختلف كثيراً عن غابات الأمازون بأحراشها وأشجارها القاتلة، تلك المزارع التي تفترس الرجال وتقضي عليهم تماماً كما تقضي نساء الهنود على الحشرات الدقيقة التي تختبئ في أجسادهن، وكما تفعل سوسة الخشب مع جذع الساج الكبير فينهار بصمت، يسقط وهو شامخ حتى آخر لحظة كنبيٍّ طاعنٍ في السن، تلك المزارع التي لا يرتاح العامل فيها كثيراً، ولا يدفأ جسده أو عقله طوال الشتاء القارس، حين يتلوى من الجوع والأرق في الليالي الطويلة، ترافقه الوحدة وكآبة منتصف الليل، وحيداً في فِراش من خيش قاسٍ أو قصب، تلك المزارع التي يتحوّل فيها الناس إلى وحوش... نوعاً ما!

4
مَزارع الوَحْشة

في تلك المزارع، إمّا أن تكون وحشاً، أو أن تكون فريسة كدجاجة عالقة في السور حاصرَتها الثعالب فتناثر ريشها في الطريق والتصق بأحذية الجنود وحدوات خيولهم البرّاقة، ثم مضوا بعيداً... مثلهم مثل تلك الثعالب التي نشبت مخالبها في الحصى، لتتخلص من بقايا عظمٍ صغير كان قبل لحظات ضلعاً في دجاجة عالقة في أحد الأسوار.

العمل ينتهي في كل مكان عدا المزارع، العمل الذي كلما اجتهدتَ لإكماله زادت حاجته إليك، كتلاطم أمواج المُحيط؛ لا تتوقف! إنها ترتفع وتسقط دون أن ينتهي الماء أو تكتفي الأمواج. وكذا الحال بالنسبة لهنري، حيث يمكن لمالك المزرعة المتعجرف أن يوقظه في قلب الليل ويقطع أحلامه ويخرجه دون غطاء ليلاحق حيواناً فرَّ من الحظيرة أو ليسأله إذا كان قد رأى أحدهم.

هناك يَجْمع التبن بالشوكة، ويحاول جاهداً تحميل أكياس المحصول التي لم يكن يستطيع تحريكها، كما يقوم بتعبئة جوالات الحبوب، وإعداد العربة استعداداً لنقلها إلى السوق، يعمل سائساً ومربِّي كلاب تافه وجامع قمامة ومسؤولاً عن إطعام الدجاج، والكثير من الأشغال الصغيرة التي لا تتناسب مع عمره أو قدرته البدنية، لكن أكثر الأشياء التي يستمتع بها هي حلب الأغنام الصغيرة، ومحاولات الذبح التي كان يجبره الجزّار ليجربها كل مرة بطريقة مختلفة، فأحياناً يقطع رقاب الخنازير الصغيرة ويعلّقها بمساعدة أحدهم، أو يضرب بالمثقاب رؤوس العجول أو بواسطة سكين طويلة يضع أسفلها ست دجاجات مرةً واحدة، كان يجرّب على طريقته. وهناك في تلك المزرعة، جرَّب

لأول مرة أن يطلق النار. في البدء كانت الأهداف حجارة أو لفافات شوكية ثم أصبحت تصغر كل مرة إلى أن أطلق ذات مرة النار على كلب أصابه العمى، كان رامياً يافعاً، ماهراً بالفطرة!

كَبُرَ ذلك الفتى، لا ينافسه أحد. نما بجسدٍ صحيّ خالٍ من العيوب والأمراض، لم تصبه البلاغرا ولا اللشمانيا ولا حمى الشتاء، لم يتعب ولم يشكُ أمرَهُ. وبنوع من الغطرسة اللئيمة التي كان زملاؤه يحسدونه عليها، خوَّل لنفسه أن يقوم بأعماله الخاصة في كوخ مهجور كان مستخدَماً لعزل الأبقار بعد الولادة، أملاً في حفظ لبنها جيداً بعيداً عن العجول. هناك وسط أكوام الروث الجافة منذ زمن قبع، نام، فكّر، حَلُم، صرخ في نفسه، لكمها، ضحك كمهرّج بليد، وسال لعابه فوق القش الناعم حين نام من جديد. خلق عالمه الخاص من الأخشاب التي وجدها حوله، فهنا هو الأصغر سناً؛ عشرة أعوام ليستْ سنونَ خبرة أو قوة، لذلك كان العمل يأتي في مقدمة اهتماماته. أمُّه المُسنّة ذات الوجه البدين، وأبوه المُتقلِّب، يواجهان العديد من المشاكل، وهما بالتأكيد يحتاجان إلى المساعدة، إلى كل بنس يحصل عليه؛ يحتاجان إلى جهده وعقله. لعَنهما وهو يحمل عجلة إحدى العربات لإصلاحها عند النجار، قاطعاً تلك الأميال الخمسة سيراً على قدميه الحافيتين، يلعن كلّ من مرَّ به، يجتاز المروج الخضراء البهيجة كفرَاش طليق، ويرمي بنظراته الثاقبة الطيور الزقزاقة، ويجلس ليرتاح في ظلال الأشجار متسكعاً، مانحاً نفسه الحقّ في تقدير الزمن.

ليس الوضع سيئاً كل يوم. لكن الصيف في ويسكانسن لا يُطاق، والعمل يكون أشدّ صعوبة، الجميع يتذمَّرون. رغم ذلك، في منتصف ظهيرة يومٍ قائظ يمارس فيه نفاخ النار هواية إرسال التيارات الساخنة في الوجوه التي نالت منها السخونة، كان يمضي إلى "بلاينفيلد" راجلاً

لمسافة تتجاوز الستة أميال ليقضي عطلة نهاية الأسبوع كعادة بعض العمّال. وهناك يجلس في ملهى "باركوخبا" كالرجال الكِبار، يرتدي ملابس جديدة اشتراها بأوّل أجر تقاضاه، وهي سروال طويل من الكتَّان الأسود وقميص مكشوف الظهر وبالطبع قبعة ذات طيّة أمامية، ويتظاهر بأنه أكبر من سنّه. كان كلّما دخل إلى دورة المياه يخرج علبةً صغيرة مليئة بمرهم خاص أعدّه بنفسه من خلاصة قشور الليمون المجفف، يلتقط مديته الصغيرة ويبدأ بحلاقة لحيته وشاربه بشدّة، ثم يدهنها بالمرهم ذي الرائحة النفاذة، يعتقد جازماً بأن شاربه سينبت كثيفاً في الحال قبل أقرانه حتى. وأحياناً يلفُّ سيجارة سميكة كتلك التي يحملها جنود سلاح الفرسان، الذين كان معجباً بهم بشدة كإعجاب حطاب فقير بمنشار آلي، يتأمل مشيتهم المليئة بالحماس وشواربهم الرفيعة الطويلة وبذّاتهم الزرقاء ذات الأزرار الذهبية اللامعة، قبعاتهم العالية وصرامتهم المعهودة، ينظر إلى ياقات أحذيتهم وعلامات أكتافهم. "يا لهيبتهم!"؛ كان يقول.

لا يستطيع الطاهي أن يتذمّر أمامه، فباركوخبا صاحب الملهى لا يحبّ أن يتعرّض الزبائن للمضايقة. كما لا يستطيع النادل التأخّر عن الخدمة، وبالرغم من أنه عامل مزرعة بسيط لكنه لن يتوانى لحظة واحدة عن الثورة معلناً أنّه من يحمل النقود، وأنّ عليهم أنْ يعملوا بجدّ، لم يكن يتحدث كثيراً، لكنه كان مزعجاً إن فتَح فمه المقرف الذي لا يعرف النظافة.

داخلَ شكله المثير للضحك طفلٌ لا يتوه ولا ينسى أبداً. كيف له أن ينسى ما فعله به أولئك الصبية؟ وكيف ضحكوا عليه، "أووو" يجب أن ينالوا جزاءهم، سيلقنهم درساً لن ينسوه وسيفعلها على

طريقة (الجواد الجامح)[2]، ذلك الهندي الأحمر الذي يحارب الفرسان ولا يُقهر مُطلقاً. وعندما يتعلق الأمر بالجواد الجامح أو (تحاشونك ويتكو) فإنه يكون استثنائياً ومميزاً، لأن ذلك الهندي الثائر رويداً رويداً سيصبح بطلاً شعبياً؛ كيف لا وله كثيرٌ من المواقف البطولية حتى وإن هُزم في معركة ضدّ جيش الولايات المتحدة الذي يسعى إلى إبادة أهله وعشيرته. كان هنري معجباً به كثيراً وخصوصاً حكاياته الخارقة.

"قف يا بُني وأخبرني قصّتك" يجد أحياناً من يطلب منه ذلك، لكنه لم يكن يمتلك إجابة قط. ويوماً بعد آخر بدأت الحياة بتخليق المواقف في مستقبله، مثلما كان الأمر في ذلك المساء اللامع بين شجيرات البلوط والذي ينعكس على سطح البحيرة التي تعانق السنابل الذهبية. في لحظة تفوح برائحة الخبز ويستمرّ ألق نهاية يوم متعب ومثقل بحكايات العمل وفوضى العمال وقصصهم؛ لحظة كان يمكن أن تكون رائعة، علَت صرخات ثلاثة رجال أحدهم سائس الحظيرة. قبيل أن يستوعب أيّ منهم ما يحدث، كان العديد من هنود "الشايان" يحيطون بأكواخهم. ولأول مرة يشاهد صاحب المزرعة المتعالي منخرطاً في نفس العمل مع عمّاله يدافع عن ملكيته أمام هجْمة الهنود. نضح المكان برائحة البارود، سقط رجل ثم ثلاثة، اشتعل مخزن الحبوب بالنار، سقط هنديّ ملطّخ الوجه بضفائر طويلة. هرج ومرج، ثم أخيراً هدأ كل شيء، ولم تهدأ أيدي الرجال ولم تُرْخِ أصابعها المشدودة كأوتار القيثارة عن أزندة البنادق. كان هنري يصرخ ويصرخ فزعاً. وبعدها، لثلاث ليالٍ، كان يرتجف ولا يستطيع النوم جيداً ويهلوس دون سبب، ويبلل نفسه مرة أو اثنتين، ثم عاد إلى النوم مع

2- أحد زعماء حرب الهنود الحُمْر، قاد جيش من قبائل اللاكوتا والشايان ضد قوات الحكومة الإتحادية الأمريكية التي كانت تسعى للتوسع على حساب أراضيهم ووجودهم.

العمّال الأكبر سناً في الإسطبل القديم، يَحتمل خلاعتهم ويتظاهر بالنوم عندما يبدأ البعض بالعبث ببعضهم البعض. وقبل أن يترك العمل هناك كان أحدهم قد صفعه بشدة وضربه ضرباً مبرحاً دون سببٍ واضح، حدث ذلك في الليل الحالك الذي يغطي حتى الجبال.

لاحقاً، بعد هروبه من تلك المزرعة، حاول العمل في العديد من المزارع الأخرى، لكنها جميعاً كان متشابهة، مالكها متعجرف يرسله لغسل مرحاضه الخاص أو يطلب منه تفلية رأسه أو تدليك رجليه، كلها تعاني من وحدة ووحشة يتربص بها الأعداء. لم يستطع أن يواصل ما كان يفعله هناك، لم يعد قادراً على تحمل المزيد من الضرب، نال منه التمرد فلم يعد بداخله ذلك الطفل البريء، لم تنبت لحيته أو شاربه ولم تخرج عضلاته التي كان يشدّها كل مرة، لم يتمكن من خداع الرجال في الحانة عندما أراد الشراب، في كل مرة يسأل أحدهم: "لمن هذا الطفل؟".

5

صانع الشّموع

بعد مُضيِّ عام كان هنري قد اكتفى تماماً من العمل في المزارع، اكتفى من الوحدة والمعاملة الفظة، وتوجه جنوباً تاركاً كل ماضيه وراء ظهره. تسكّع كثيراً في الجروف الصخرية والغابات الكثيفة مارّاً بالقرى البائسة التي لم يمانع أنْ يعمل بها أيّ عمل مهما كان حقيراً بما في ذلك ساحر خفة؛ ببعض الحركات التي أتقنها من بعض عمال المزارع، ثم عمل مُجدّفاً في البحيرة، بل في إحدى المرات كان حفار قبور وملمّع أحذية. حطّ أخيراً بقرية "وركفورد" في إلينوي الهادئة نوعاً ما؛ مقارنة بما يحدث في ويسكانسن ونواحي السهول العُظمى، تشرّد بضعة أيام مع أطفال الشوارع والهاربين من دُور الأيتام. وفي يوم مشمس يبعث الأمل من ربيع 1864م، وجد من يقدِّر موهبته الجديدة، وكانت هذه المرة (تشكيل الشموع) إذ إنّه فضّلها على العمل بالسُّخرة والأجور الدنيئة، وقرر أن يقوم بعملية بسيطة تدرّ عليه بعض المال. حدث ذلك عندما كان جائعاً يجوب الطرقات بهندام معقول سرَقه من ابن صاحب المزرعة سالفة الذكر، ودون هدى أو فكرة وجد نفسه أمام كاتدرائية كبيرة فدخل إليها وجلس في أحد المقاعد متابعاً قداس الأحد محاولاً مجاراة الحضور بالترنم، وبعد نهاية القداس وقف أمام القس وقدّم نفسه كفتى يتيم يعول أسرة ويريد أن يعمل عازفاً للأُرغن، لكن القس رمقه بنظرة طويلة ثم أخبره بأن فتى المذبح هو من يقوم بالعزف أثناء الصلوات وليسوا بحاجة إلى عازف، كما أنهم لا يملكون المال للدفع، وأضاف القس العجوز ذو الوجه المُتجعّد بأنه إن كان يريد أن يتطوّع فلا بأس بذلك وليَأتِ في صباح الآحاد، قالها ثم انصرف، لكن هنري لم يخرج إلا بعد أن وضع في جيوبه الكبيرة كثيراً

من الشموع البيضاء ثم خرج وفي باله فكرة معينة؛ عبر آنية الشرب التي يحملها دائماً معه أينما ذهب ولا يتشاركها مع أحد مهما كانت الأسباب، صَهَر الشموع بعد أن أوقد ناراً تكفي لشواء أرنب صغير، ثم بواسطة قالب من الصفيح قطَعه على شكل حرف Y صبّ شموعاً ثنائية الشعلة وأعاد إليها الخيوط قبل أن تجفّ، ثم في ساحة السوق الصغير عرض منتجه بكل ثقة، وأعاد التذكير بأن ما من شمعة تُضيء أكثر من شموعه، لكن حماسه خبا بعد بضع ساعات من المناداة وتجاهل القرويون وتقززهم من شموعه غريبة الشكل، لم يجذب سوى اهتمام شحاذ دنيء وجائع بلا أذنين طالبه بالتصدّق بشمعه ليأكلها، ورجل آخر كأن يسأل عن مدة بقاء الشمعة ذات الأذرع؛ كما سمّاها. لكن في اليوم التالي كان يقف أمامه رجل بكرش طولها نصف متر على الأقل، وتفوح منه رائحة البصل المشوي ويرتدي عدة خواتم مرصعة بجواهر غريبة، سأله إنْ كان يودّ أن يعمل معه، وقبل أن يعرف هنري طبيعة العمل وافق، ومضى خلفه.

ذلك الرجل كان "جيفرسون غودنيت"؛ صاحب أكبر معمل لتصنيع الشموع في الغرب الأوسط الأمريكي. وهناك تعرّف هنري على عدد من الأمور، وتفتح عقله كثيراً. في البدء كان يعمل بمَلء صناديق الشموع وترتيبها، وحين اطمأنّ له المالك أدخله إلى غرفة التصنيع، التي كانت تحتوي مراجلَ تغلي باستمرار، وأحواضاً خشبية ضخمة، وقوالب من أخشاب السنديان تبلغ عدة أمتار، ومِشدَّات خيوط من خشب الأكاسيا، وقواطع حديدية ناعمة، وكل خمس دقائق تقريباً كانت تُصنع مائة شمعة.

"قوالب السنديان تجعل الشمعة ناعمة"، "شدّ الخيط جيداً قبل صبّ الشمع الحيواني لتعيش الشعلة أطول فترة ممكنة واجعله في المنتصف تماماً.. هل تفهم أيها الفتى؟"، "الشمع أنواع كثيرة منها

مستخلص البرافين وشمع صبار الجوجوبا، لكن شمع النحل هو الأهم، وهنا نستخدمه فقط عند الطلب!"، "يجب أن نضيف الأحماض إلى المادة الشمعية فإنّ هذا يجعلها متماسكة ويصنع من الفتيل شعلةً رائعة"، "الشمعة كالإنسان، السبب الوحيد لوجودها هو إضاءة الحياة لشخصٍ آخر". كلما أخبره الرجل بمعلومة كان هنري يضيف إليها مئات الأفكار، مثل إضافة ماء الورد إلى الشمع حتى يحترق مخلّفاً رائحة جميلة، أو إضافة الألوان إليها لتبدو زاهية قليلاً، أو معالجتها ببعض القلويات فتصبح أكثر تماسكاً، إلخ. لكنه احتفظ بكل ذلك لنفسه. بعد فترة مَرِضَ عامل التصنيع الأهم في المعمل حيث تمكّن من أنْ يحلّ مكانه وصَنَع ذات الكمية في دقيقتين فقط بدلاً عن خمسة، كان قد لاحظ أن صبّ الشموع يتم في نفس غرفة التحضير الساخنة، مما لا يدع مجالاً للشمع لأنْ يجفّ بالسرعة المطلوبة، لذا عمل هنري إلى تحويل القوالب بمجرد صبّها إلى الغرفة المجاورة، وهي جيدة التهوية مشرعة النوافذ مما يجعل الشمع يتماسك سريعاً، ثم يقوم بتفريغه عبر حركة واحدة في ملاءة كبيرة معلقة من أطرافها الأربعة حتى لا يتكسر، وبهذا نجح في تقليل وقت العملية التي كانت تستغرق خمس دقائق للتماسك، وعشراً أخرى للتفريغ، واختصرها بذكائه إلى حوالي خمس دقائق، مما ضاعف الإنتاج عدة مرات، ولم يكن جيفرسون بخيلاً، وهبه غرفة خاصة في مؤخّرة المعمل، وعيَّن له أجراً جيداً، وله أن يفعل ما يحلو له في المساء، وهكذا أضحى هنري خلال شهر واحد الفتى الأول والمُدلّل.

وفي يوم آخر كان الولد الذي يتولى مهام ترقيم الصناديق غائباً فطُلب منه أن يدوِّن على الصناديق أثناء استراحته اسم الجهات التي سيتم إرسالها إليها، وكتابة أرقام الصناديق وما تحويه من كمية، وفجأة وجد هنري نفسه عارياً، ضرب هواء البحيرة البارد مؤخرته، ارتفعت

أصوت الأطفال من حوله هازئين، وعادت إليه ذكريات الدراسة وما ارتبطتْ به من ذُلّ. كان يعرف الأحرف وبعض الكلمات لكنه لا يستطيع أن يتهجأ أو أن يكتب، وعندما عجز عن ذلك ضحك منه جيفرسون واهتزّت كرشه بكل أسف قائلاً:

- "من المؤسف أن تكون بذلك الذكاء ولا تستطيع أن تكتب أو تقرأ. لئن قَطَعتَ أُذنَيْ البغل لن يعود حصاناً من جديد، وإن إبقيتَ ذيله لن يصبح حماراً، هاهاها. ماذا أنت فاعل يا ولد؟ هل أنت بغل دون أذنٍ أو ذيل؟"

وتحوَّل ذلك الكرش الضخم فجأة إلى طفل يصرخ في وجهه هازئاً: "حمراء كمؤخرة القرد".

لاحقاً حاول هنري أن يتعلّم المزيد من فتى الترقيم، كان يسأله كل مرة عن الأرقام والتهجئة، وبالتالي حفظ عدداً من الكلمات وأشكالها، حاول أن يقرأ الإعلانات الورقية للمطلوبين للعدالة وإعلانات السيرك والتجنيد، ووسط رغبته الأكيدة لتعلم القراءة والكتابة، وبعد مضي عام آخر منذ ذلك اليوم، كتب أول جملة كاملة "هنري سولومون وِلْكَم.. صانع الشموع". فرح بما خطَّ وأخبره العمال أن خطه جميل، لكنه رغم ذلك لن ينسى ما قاله له جيفرسون قبل عام.

في عطلة عيد الفصح قرر زيارة أسرته في ألموند، سعيداً بثلاثة عشر دولاراً وصندوق من الشموع هدية من المالك، على أن يعود خلال أسبوعين أو ثلاثة. أعاره مدير المعمل حصاناً من أجل ترويضه خلال الرحلة، ثم غادر. كانت الحرب الأهلية تطحن البلاد منذ ثلاثة أعوام، بمجرد أن ألقى الرئيس إبراهام لنكولن خطبته حول الحد من انتشار الرق في العام 1861م ثارت بعض الولايات ثم بدأت المناوشات في كارولاينا الجنوبية، وبدأ القتال قبل أن يُكمل لنكولن شهراً واحداً في

حكم البلاد، ثم بدأ هجوم القوات الكونفدرالية وطلب الرئيس من مواطني ولايته "إلينوي" الوقوف بجانبه والتطوّع للجيش، وبعد ذلك طالب كل الولايات في المشاركة بمدّ المتطوعين وتشكيل جيش منهم ثم انفصلت أربع ولايات جنوبية من الاتحاد. ثم أسعد شعبه بعد أن أوقف الحكومة البريطانية من التدخل في شؤون بلاده، وأعلن أن جميع العبيد هم رجال أحرار. لذلك كان هنري حريصاً أن لا يثير الشك خلال رحلته، عليه أن يكون هادئاً، خصوصاً أن المعارك تنتشر في كافة الأرجاء، ومعركة جيتسبيرغ تشعل بنسلفانيا وما جاورها ولا يستبعد أن يقترب جحيم الحرب من مسيرة رحلته التي بلغت أسبوعاً كاملاً.

وجد آلموند كما تركها، لكنه شعر بأنه قد اختلف كثيراً هذه المرة، استمتع بقراءة كل مكتوب قابله بصوتٍ عالٍ كأنه دجاجة تنقنق مزهوّة بنفسها، وجد المزرعة قد امتلأت بالحجارة من جديد، وهناك حفرة كبيرة نتيجة لمحاولة تفجير عرْق صخري فاشلة، وبعض المحصول متناثر، ودخان يتصاعد من المدخنة الحجرية.

- "لا شيء عدا أننا ننوي الرحيل، لم تعد الأرض تنتج ما يكفينا. تخيّل! لقد هرب الحصانان! الحصانان معاً! لقد كنتُ مخطئاً حين أحضرت ذلك الحيوان البري المتوحش، هل أخبرتك أمك بأنه عضّ أخاك؟".
- "يا له من متوحش! كيف فعل ذلك يا أبي؟".
- "لقد كان يُطعمه بعض الفاصوليا، ربما لم يستلطف طعمها!".

ضحكوا معاً ونظر الأب إلى الأم بمعنى "لقد وضعتِ كثيراً من الطعام"، وتضاحكوا معاً ببعض الحرج.

- "هل تعلم يا بني أن لدينا جيرانًا جدداً؟ مهاجرون إيرلنديون، لا يمكنني أن أخبرك ماذا يفعلون، لقد شاهدهم أخوك، نعم إنهم يأكلون من الدجاج اللحم فقط! هاااه! يا لهم من جاحدين، أما كان من الأجدى أن يحتفظوا بالبقايا والعِظام لطحنها وإضافتها إلى المرق؟ يا لهم من مبذرين!".
- "لكن يا أبي! لعلهم ليسوا مثلنا، ربما يملكون ما يسدّ جوفهم دائماً".

أغضبه الأمر فرفع يديه عالياً وقال متحدياً:

- "حسناً، لقد شاهدَتهم أُمّك أيضاً وهم يرمون أحشاء خنزير كاملة، حتى الجلد! حتى الجلد يا بُني!".
- "نحن هُناك أيضاً لا نأكل الأحشاء يا أبي، ولا عظام الدجاج!".
- "قل لي ماذا تفعلون هُناك؟ هيه! هل أحضرت معك بعض المال؟ لقد أشبعتك أمك اليوم وعليك المساهمة في المعيشة إن كنت تنوي أن تبقى معنا!".
- "سأعطيك خمسة دولارات يا أبي، أجري من العمل في مصنع الشموع".
- "أشكرك يا ولدي الحبيب، وكيف تعمل هناك، ماذا تأكل وكيف تعيش؟".
- "جيد، جيد جداً، أسكنُ في غرفة خلفية تطلُّ على بحيرة صغيرة، أصطاد منها كل يوم، والآن أصبحت أقرأ وأكتب".
- "إذن عليك أن تسعى ليجد هذا الفيل أجراً مثلك" وأشار إلى جورجي النحيل كخيط الصنّارة.
- "أبي! أنت بحاجة إليه، لا تنس ذلك! انظر إليه، إنه هيكل عظمي من شدّة الجوع. ما هذا يا أمي؟ عليكِ أن تهتمي به قليلاً".

- "هل تصدّق يا ولدي أن جيراننا الجدد قد أرسلوا إلينا فطيرة يقطين! ولم تكن فاسدة! بل طازجة جداً ومليئة بالعسل، غداً سأخبرهم بأنك أتيت وربما يرسلون إلينا المزيد"، ثم ضحك برضا كبير وقد تحوّل خلال وقت وجيز إلى نسخةً أخرى من الجد وِلْكَم.
- "نعم يا أمي نعم!".
- "لا تحزن يا ولدي، فنحن لا نشحذ منهم، من الجيّد أن يكون لدينا جيران أخيار مثلهم، لقد وفروا علينا بعض القروش وكثيراً من حبات البطاطا، فكما تعلم قد أصبح أخوك الملعون يُخرج الغازات طوال الليل من أكل الفاصوليا والبطاطا!" ولم يكد جورجي يستوعب ما قالته الأم إلّا وخرج وقد تكدّر وجهه معترضاً.
- "هل تعلم يا ولدي أنهم ذات مرة، هاهاها سيقتلني الضحك إن أخبرتك، يا لسذاجتهم! لقد دعوني إلى العشاء، ومنذ أن علمتُ الخبر لم أفطر ولم أتناول غدائي والتهمت كل ما في مائدتهم موفراً ثلاث بصلات وصحناً من حساء البطاطا بطحين عظام الدجاج وبعض الفاصوليا!".

في اليوم الثاني عاد هنري إلى روكفورد، وطوال الطريق كان يحاول أن يتناسى تلك الأحاديث التافهة والأحداث التي تشغل بال أسرته، استراح عندما تذكر أنه قد وضع المال في يد والده الذي أعاد حسابه أكثر من خمس مرات غير مصدق.

***

يتأرجح اللون الأصفر بين هبّات الهواء، لكن الشمعة لا تنطفئ في غرفة هنري. النافذة مفتوحة تواجه القمر، والهواء يمرّ بارداً يحمل في

طيّاته رائحة أشجار الصنوبر، البحيرة الزرقاء المسطحة تعكس الضوء من المنتصف تماماً كلوحة رومانسية معلقة في بيت لا تدخله الأحزان، الشتاء سيأتي قريباً، لا توجد مدفأة بالغرفة! الليل طويل، سيحتاج كل الناس إلى مزيد من الشموع، فالظلام سيهبط باكراً حينها. وافقه المدير سريعاً على اقتراحه الذي يساعده في جَنْي مزيد من الأرباح: "يجب تخزين جزء من الإنتاج يا سيدي، فالأسعار ترتفع في الشتاء، ويجب أن يزداد حجم وسُمك الشمعة إلى الضعف، وبذلك لن يأكل الليل إلا شمعةً واحدة لكن بثلاثة أضعاف السعر، وهكذا نكون قد ربحنا ضعفاً كاملاً بخلاف الأرباح الأخرى".

أمَّن هنري فراء قندس يتجاوز المتر ونصف المتر، ثم مدفأة صغيرة من صخور البريشا الرسوبية معتقداً بأنها ستحتفظ بالحرارة لأطول وقت ممكن، كانت مدفأة غريبة الشكل والكيفية، لكنها فعّالة جداً، وهي صخور بأحجام مختلفة أتى بها من بناء صخري غير مكتمل في الجانب الآخر من البحيرة، حيث يصطاد القنادس والأسماك، رصّها أسفل السرير الحديدي المنخفض، وتعمل كالآتي: "يقوم ليلاً إلى المعمل حيث يشعل نار المرجل ويضع فيها أكبر حجرين، يضعهما داخل كيس من القماش الخشن مربوطاً بحبل، وبعد مرور ساعة من الزمن أو أكثر يقضيها في بعض التجارب الغريبة حول تعريض الشمع لحرارة فائقة أو رشّ الملح عليه أو أي مواد كيميائية أخرى يجلبها من المتجر، ونادراً قراءة جزء من كتاب عن الفيزياء. وعندما تبلغ السخونة درجة عالية تصدر الصخور فرقعة خفيفة كصوت كسارة البندق، إنها صخور هشّة لكن الحرارة لا تكسرها، حينها يطفئ النار ويُخرج كيسه من الداخل، ويجرّه عبر حبل آخر إلى مكان مدفأته أسفل سريره تماماً، وكان بذلك ينعم بالدفء كل ليلة، ويتنشق هواءً نقياً أيضاً".

في الأيام التي لم يكن ينام فيها كان يعود إلى المعمل، يُجري كثيراً من الاختبارات، يجرّب ويجرّب ويجرّب، أخذ ينفق أجرته الشهرية في شراء بعض المكوّنات الغريبة من باعة متجوّلين لكي لا يُذاع سرّه هناك، وخلال بضعة شهور فقط توصل إلى عدة وصفات، أهمها "الشمعة العطرية، والشمعة التي لا يأكلها الليل بسهولة، وأخيراً الشمعة السّامة".

التهمت الشهور بعضها، تحسّنت صحته كثيراً. لديه الآن ما يشبه شارباً رفيعاً جميلاً من كثرة إفراطه في الحلاقة، وقواماً قوياً، وبعض المال. سبق وأن تناول العشاء عدة مرات في منزل جيفرسون الذي كان سعيداً بنجاح شمعته العطرية التي تحوّلت إلى رمز شعبي حاضر في جميع الكنائس والحفلات وحتى الأضرحة. وفي إحدى ليالي نيسان 1865م، وهي الليلة التي اخترقت فيها رصاصة صغيرة رأس الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية؛ إبرهام لينكولن، وأردته قتيلاً، وبينما يَجري المراسلون هنا وهناك وينشغل رجال الدين بتهدئة الأوضاع ويَجري البحث في نطاق واسع عن قاتل الرئيس، بعيداً عن كل ذلك، كان هنري يقف أمام منزل جيفرسون غودنيت الذي أصابه السلّ وفقَدَ كل أمل في العلاج، متمسّكاً بالبقاء دافئاً في منزله. استقبل هنري منزعجاً، لكنّه طمأنه بأنه وجد له الحل النهائي للمرض، أهداه شمعة الدواء التي يفوق قطرها رقبة طفل ذي خمسة أعوام، أخبره بأن يغلق عليه ملاءة نظيفة ثم يشعلها قرب أنفه ويستنشقها دون أن يفلت منه خيط واحد من الدخان، "اكتم دخانها جيداً وأحكِم الملاءة حولك".

في الأثناء التي يذرع فيها جميع رجال شرطة واشنطون مسرح فورد ويرسمون مكان الجريمة ويتبادلون نظرات المسؤولية الحمقاء، كان جيفرسون منهمكاً في التنشّق، ثم كحّ دون توقف، ثم رشّ الملاءة

البيضاء برذاذ الدم، ثم أكلت الأبخرة المتصاعدة رئتيه، فتفتّتَتا ورشح ما تبقى منهما، وسقط بوجهه على الشمعة التي انطفأت في أنفه تماماً. تلك الساعة كان هنري في طريقه إلى قريته في ويسكانسن، يضيء لهيب جوفه مدّ بصره، مطمئناً بأنه لن يواجه هنوداً يقطعون طريقه هذه الليلة، فقد جعلهم لنكولن عبرة بعد أن أعدم حوالي ثلاثين رجلاً منهم في يوم واحد، أخذ يدندن بينما لف سيجارة خاصة بهذه المناسبة:

يا صاحب الكرش الضخمة كجاموسٍ نافق..

هل متّ؟

يا صاحب المؤخرة الحمراء كمؤخرة القرد..

هل قُتلت؟

يا صاحب البغل المخصيّ..

هل وجدتَ له فرساً مناسبة

للتزاوج؟

وبينما ينفث دخان سيجارته بقوّة منتشياً كان يسأل نفسه، ماذا يهمّ لو كان البغل حصاناً أو حمارًا؟ ما دام يستطيع أن يأخذ بثأره؟

هنا يمكنني أن أقول لكم، وبعد مرور كل تلك السنوات، أخيراً استطاع هنري الصغير أن يتخطى ذلك الحادث القديم الذي ابتعد بسببه عن المدرسة. لم يعد يشعر تجاهه بشيء... تخلّص من خزيه إلى الأبد.

6
الصُّخور

"اسمي هنري وِلْكَم"، نطقها أمام الضابط بثقة مفرطة، كأنما هناك شكّ في ذلك، "أريد أن أكون جندياً في سلاح الفرسان... أو سلاح الخيالة" - كما يجب أن يذكرها- لطالما أحبها هكذا. خلال عدة أيام، ونسبةً لحماسه الشديد، كان قد تسلم سلاحَه وزيَّه العسكري، قبعة عريضة تحمل الشعار المميز (بندقيتان متقاطعتان) وسترة زرقاء مرصّعة بأزرار مُذهبة وقد خُيطت أطرافها باللون الأصفر الفاقع، وعلى الكتف علامتان صغيرتان، وعلى جانبَيْ الكتفين علامة الجندي المميزة التي يتماشى لونها مع اللون الذي يصطف عند جانبي السروال، وفي المنتصف بالضبط كان حزام الخصر بارزاً، ولن يكتمل المشهد إلا بوجود البندقية منتصبة من الخلف. لكن في أعماق هنري، لم يكن هناك شيء؛ لا فرح ولا حزن ولا نشوة، لا تزال الحجارة تملأ قلبه، لا تزال الغابات الكثيفة تحيط به.

في تلك الفترة كان التجنيد أمراً هاماً وضرورياً، وكانت هناك حملات واسعة لجمع المُجندين وإحضارهم لتقديم الواجب، لا يهمّ العمر في أداء الخدمة العسكرية فهناك أطفالٌ في سنّ هنري وأصغر منه أيضاً، الأمر يتم بوحشية وقسوة ليس لها مثيل، ولا يُنجيك من مطالبة الجيش بك إلا أن يكون لديك بعض المال لتدفعه سراً، أو أن تكون من أسرة تحظى بنفوذ كبير. لكن هنري ذهب بمفرده، طائعاً وراغباً في تأدية الواجب، لم يطارده أحد ولم يحاول التهرُّب، وقد حالفه الحظ كثيراً إذ تم توزيعه للخدمة في التلال السوداء؛ حيث يؤدي مهامه

الجديدة وهي حراسة إنتاج الذهب من هجمات الثور الجالس[3] وبقية أتباعه، لا يعكر صفوه إلا حرمانه من التدخين بأمر قائدهم: "أشعِل سيجارة أو ارمِ عملة لامعة عالياً، ستجد ألف سهم يخترق فمك وعينيك، ولن يجد المزيد من السهام مكاناً في جسدك، ما من أحد يجيد التصويب مثل أولئك الهنود، فقط امنحهم الهدف المناسب!" وهي ذات الليلة التي تحوَّل فيها من لفّ التبغ في الورق إلى تدخينه عبر الغليون، مخبّئاً الشعلة داخل جوف الخشب النيء.

الترقب والاستعداد هو الحدث الأبرز في عموم داكوتا الجنوبية، الأثرياء يَصْبون إلى مزيد من الثراء، والجنود المرهقون من السهر، باتساخ أرواحهم وملابسهم، عليهم أن يكونوا كذلك، إنها إحدى أهم سمات الجندي القوي. تصالح هنري مع كل ذلك، إلى أن أتى اليوم الذي خرق فيه الهنود معاهدة الصُّلح. ومع غروب شمس يوم سبت دامٍ، توشح المحيط بريش الطيور والأحصنة الملوّنة ورائحة العشب الحلو، وألوان القتال الحمراء والسوداء، اصطف الهنود بوجوههم الملطخة بالأصباغ، وهي مؤشر لأمر واحد، الموت حتى النهاية، "إمّا أن تقتل عدوك أو سيجزّ فروة رأسك سريعاً، وفي اليوم الثاني سيكون رأسك يزين رأس أحدهم" نصحه غريفث بذلك، وهو رفيقه الأحدث في الثكنات.

لم تكن مجرد مناوشات، كانت أكثر من حرب حقيقة. برغم أن هنري يمسك بين يديه بندقية ريمينغتون الفتّاكة، إلّا أنه شعر بأن نجاته من حشود الهنود التي لا تنتهي لهي أمر يحتاج إلى أعجوبة. وبرغم أنه جرب القتل من قبل، إلا أنَّ القتل البارد يختلف تماماً عندما

3- محارب عظيم وزعيم قبيلة هونكوبابا أُعدم في 1890م.

تقتل شخصاً ينظر إليك. لم يتمكن من فتح ناره بسرعة، اشتبك الجميع وتساقط الهنود كماء الشلال، الكثير منهم، لكنهم رغم ذلك كانوا يتقدمون، يصوبون سهامهم السّامة ويطلقون، الشجاعة التي ترتدي الرجل. لكن السلاح الناري أكثر فتكاً، ولم تستمر المعركة كثيراً، ففي الوقت الذي أكمل هنري طلقاته، بعد أن اتخذ عدة مواضع للإطلاق، كان الوضع قد هدأ. انحشرت الرصاصات في الرؤوس والصدور والأحصنة وكل ما كان يتحرك شمالاً، أتت الأوامر إلى هنري ومن معه بأن ينقسموا إلى فريقين، الأول عليه أن يتأكد أن جميع الأعداء قد قضوا نحبهم ثم عدّهم، والثاني عليه أن يحمل الجرحى إلى الخيمة، ثم يهتمون بأمر الجنود الذين "قُتلوا غدراً" أثناء أداء الواجب.

أطلق هنري النار على كل الجثث التي قابلته، لم يدع ميتاً إلا وأشبعه موتاً! أخذ الجنود يجزون فراء رؤوس الهنود بوحشية مقيتة بمن فيهم غريفث، بنمشه المقرف وفكه الحاد كراكون صغير. وبينما قلّدوا رقصة الشمس والنار هازئين، كان هنري حائراً ناسياً أين هو، وكيف انضم إلى هذه "العصابة".

في أقرب فرصة قدّم مقترحه إلى الضابط العظيم: "علينا محاصرتهم أو القضاء على مصادر غذائهم، هكذا سنضعفهم كثيراً". وهو مقترح ذكيّ نال عليه تربيتة على الكتف ووجبة لحم وراحة لمدة ست ساعات. لكن، كعادة الضبّاط، نسَب الضابطُ المقترحَ إلى نفسه وقدّمه إلى قائده، وفعل القائد مثلما فعل الضابط تماماً وقدّمه إلى رئيسه كأنه نتاج خبرة طويلة في أرض المعارك، وهكذا حتى وصل الأمر إلى جنرالات الجيش الكبار، فأتت الخطوة التي سترجّح كفة الحرب، "الآن اقضوا على جميع الجواميس، لا تتركوا ثور البيسون حياً".

ومثلما كان بعض الهنود يصطادون جواميس "البيسون"؛ بدفع القطعان إلى الهرب وتوجيهها نحو جرفٍ هار لتسقط ثم تُذبح ويُقطَّع لحمها ويُنزع جلدها، فعَل هنري وفرقته. أولاً حاصروا القطيع، ثم تركوا له مكاناً واحداً ليهرب، في الأسفل كانت قيامة اللحم، السائل الأحمر يفترش الأنحاء، الأكباد والأحشاء لا تزال تنتفخ وترتعش، الأضلاع القوية لم تتكسّر بل اخترقت أضلاعاً أخرى، القرون تشابكت ومضت أنصالها في الصخر والأرض، انبعجت الرقاب، والثيران التي تحمل أغلب وزنها في المقدمة هوَت على الأرض فارتعشت تحت أقدام الجنود، ازدادت سخونة المكان، براكين من الدماء تنفجر هنا وهناك، دُلق الزيت من الأعلى وأُضرمتْ النار.

لا مفرّ من مجابهة الموت. وهنري يتحاشى، قدر ما استطاع، المناطق الساخنة. لذلك تطوّع في خدمة الجرحى؛ يخيط جرحاً ويسقي شراباً، وعندما لا يجد من يراه، يكتم أنفاس من هم في حالة خطرة أو من يجدهم لا يعجبونه بأي حال، يقتلهم، وفي قلبه رحمة كبيرة وشفقة عليهم، يخلصهم من "مُعاناة ما قبل الموت" كما كان يسمّيها. هناك تعلم أموراً جديدة، وتخلص من أمور شنيعة فعلها في ما سبق. وكلما أنقذ روحاً من الموت شعر بأن في رصيده روحاً ليأخذها، هي كذلك تعطي لتأخذ وتأخذ لتعطي. أدوات العمل بسيطة؛ منشار وخيط وإبرة جبائر، وقبل كل شيء الكلوروفورم[4]؛ المادة التي كثيراً ما أخضعها لحب استطلاعه وتجاربه، عرّضها للنار فلم تشتعل، سخّنها بشدة فتبخّرتْ، أضاف إليها البارود فلم تتفاعل، وبدأ يبحث عن سرّها في كتيب الكيمياء الصغير الذي سرقه من معمل الشمع، لكنه لم يجد لها أثراً.

4- مادة كيميائية كانت تستخدم في تلك الحقبة كمخدر في العمليات الجراحية.

ومن كان سواه يسهر الليل وحيداً، لا يشارك حديثه مع أحد ولا يتذمر من رداءة الوجبات، يمسح عفونة إبطيه كل صباح ويغسل رقبته، يَحلق لحيته ويشدّ شاربه الناتئ بقوة ليمنحه مزيداً من الطول والمظهر المهيب. كان مراهقاً متنمّراً، في الأيام الهادئة يتعرّف إلى متعة جديدة وهي قراءة الروايات. بنوع من التعثر قرأ المغامرات، بينما تدور أحاديث الرفاق حول الهنديات الجميلات وفروجهن البُنّيَّة، كانت الدماء الحارة لا تندفع إليه، ولا يجاريهم في ما يذهبون نحوه، كان يريد فقط مزيداً من المعرفة ويقتنص اللحظات لجمع بعض الصخور التي يعتقد بأنها تحوي ذهباً، بيضاء وصفراء وذهبية ورمادية وسوداء، مزيداً من الصخور كل يوم، ملأ عدة أكياس وأخفاها بعيداً عن الأنظار في مقبرة مجاورة، داخل قبر وجده خالياً، وضع نبات "الحور" ثم كال عليه التراب، لم ينس الصليب الذي يُبعد الشبهات عن كنزه.

وفي يوم عاصف شديد التوتر أتى أمرٌ أخرجه من مخبئه، الآن عليه أن يشترك في حملة لحرق قرية هندية، هناك معلومة بأن هنود "السيوكس" سيشنّون هجمات على معسكر جورج أرمسترونغ[5] وهكذا خرج هنري مثقلاً بالصخور التي يحملها في داخله، يتأرجح مع قبعته التي حرّرت العَرَق في فروة شعره، يظنّ بأنه إنْ قتَل روحاً سيفقد إحدى الأرواح التي جمعها على مدار شهرين وما يزيد، "لا يجب أن أقتل أحداً.." لقّن نفسه ما سيفعل.

البشاعة التي أحدثها هناك لن ينساها جميع من رافقوه، بمجرد أن تأكّدوا من خلو القرية من الرجال، وجرّوا الحراس للخروج وقتالهم، دخلوا الخيام وشرعوا في ضرب النساء بمؤخرة البنادق وقتل الأطفال بالهراوات، أطلقوا عليهم النار من قرب فتفجّرت رؤوسهم من

5- قائد سلاح الفرسان في الحرب الأمريكية الهندية.

مؤخرتها وخرج منها السائل الأبيض اللزج، الهنديات لسن أقل شراسة من رجالهنَّ! هناك من يفرغ ماءه في فتاة لا تتجاوز العشرة أعوام والدماء تملأ عضوه، وهنا من يدخل سبطانة بندقيته بين فخذي امرأة مسنّة ويطلق النار، وفي مكان آخر، هنري يمسك بالأطفال ويفرغ في أجوافهم البارود ويجبرهم على ابتلاعه ثم يرميهم في الخيام المشتعلة بكل قسوة، مقنعاً نفسه بأنه لم يقتلهم، ويعزو موتهم إلى فشلهم عن الهرب، النار هي قتلتهم وليس هو. معبودهم لم يكن بتلك القوة "ما فائدة عبادته إذن إن لم يَحْمِكم من الموت؟" أخبرهم بعد أن فاحت رائحتهم.

في النهاية لم يكتفِ بانتزاع وسرقة أسنان بعض الموتى فقط، بل سلَخ الجلد من ساق رجل عجوز ولفّها حول معصمه وربطها في النهاية، وفي علبة صغيرة وضع جميع الأظافر التي اقتلعها بسبب أنها طويلة، وفي حالتين قصّ الإصبع، كما جمع العديد من خصل الشعر التي أحرقها ليُجري عليها بعض التجارب والاختبارات. كان يشعر بالتغيّر، بين يديه قوة لا يتحكّم بها، لذا كان يخاف نفسه لكن يسعى إلى ترويضها.

بعد زمن طويل جداً أخبرني بأنه سطا على بعض القبور، وجمَع منها بعض الأثريات. أخبرني أن قلبه كان كالصخر قاسياً، ثم أصبح خالياً بعد أن هرب من التجنيد، لا يحمل إلّا صندوق الأرواح الخاص به.

7
عصير اللّيمون

طلباً لخلاص روحه مما سمّاه (الفوضى غير المقصودة) أنقذ قطاً من الموت غرقاً في نهر روك أثناء مروره بمقاطعة فوند دو لاك، ثم استغلّ ملابسه المعروفة والمحبوبة جماهيرياً في استدانة طحين وماء وبعض الحاجيات وحصان، وأخبر التاجر بعد أن رهن له بزة عسكرية تخصّ رفيقه السابق "جريفث" بأنه في إجازة لمدة أسبوع واحد سيقضيها في "بيير" ثم يعود، توجه ناحية الشرق محمِّلاً الحصان العجوز ما لا يستطيع أن يحمله تاركاً لنفسه ثقل رصيد أرواحه التي تزيد عن المائة كما كان يحسب.

تحاشى القرى والتجمّعات الكبيرة، ومرّت في خياله مزرعة والده والحياة في ألموند، متسائلاً عن ما حدث طوال هذه السنوات؟ أوعز إلى نفسه بأنه الوحيد الناجح وسطهم، الوحيد الذي حظيَ بتجارب مختلفة والوحيد الذي كرّس جلَّ وقته ليعرف ويختبر ماهية الأشياء وحقيقتها، ومن غيره كان سيفعل ذلك؟ أيبقى كأبيه بخيلاً عاجزاً عن جني المحصول مجتهداً في توفير حبات البطاطا؟ لا... ليس عليه ذلك، بل يجب أن يستفيد في الفترة القادمة من إحدى أهم تجاربه التي أجراها ليلاً في خيمة التمريض؛ حينما كان يجب عليه تنظيف المكان وتعقيم الأدوات وتطهيرها بالليمون من سطل مليء بعصير مائة ليمونة. كان يفعل كل ذلك، لكنه لاحظ، عندما كان يجلو الإبر والمناشير بالليمون ثم يعرّضها للنار لقتل الجراثيم، أن لمعتها تختفي مع توهج غريب بألوان مختلفة. في ما بعد بحَث عن السرّ، وجرّب كثيراً من النظريات، سَخّن الليمون، خَمّره، عرّضه للتبخر، أضاف إليه

مسحوق الصوديوم فأحدث انفجاراً صغيراً، ثم غلاه لست ساعات، ثم أضاف إليه الكربونات والأحماض فخرجت كثيرٌ من الفقاقيع وولّد بعض الحرارة. أخيراً، وبعد عشرات التجارب، توصّل إلى أن الليمون إذا انسكب في ملاءة بيضاء، ثم تعرّضتْ إلى سخونة أو نار مباشرة غير حارقة، ظهرت بقعة لم تكن موجودة! طوَّر تلك التجربة إلى رسم أشكال بيده في الملاءة، تظل خافية كمن يرسم في الماء ثم تظهر إن عرّضها للحرارة، وأخيراً توصل إلى استخدام مثالي لعصير الليمون.

"الحبر السري". نعم، لقد صنع حبراً سرياً. ما عليه إلا أن يكتب رسالة بعصير الليمون، وبين الأسطر في الفراغات يضع أيّاً من التفاهات، ليس على مُستقبِلها إلا أن يعرّضها للحرارة فتظهر الكلمات "أووووه إنه سحر عجيب.. أنا الساحر العظيم".

وفي سبيل أن لا يتم اكتشاف سره، أدخل نقطةً من زيت الصنوبر القويّ نافذ الرائحة إلى وصفته، لسبب وحيد بالغ الأهمية وهو أن يبعد الشبهات تماماً عن محتوى وصفته لكي لا ينافسه أحد. وخلال رحلته التي استغرقت أسبوعاً ويومين أعدَّ كل التفاصيل في عقله، مستعداً لمرحلة أخرى من حياته التي تجاوزت ستة عشر عاماً بقليل.

ببداية العام 1869م، وفي يوم العيد الذي دائماً ما يعتذر فيه سولومون رافضاً أن يذبح حملاً سليماً خالياً من العيوب بحجة أنه فقير لا يملك قوت يومه، وهو الشهر الذي تنحّى في وسطه الرئيس السابع عشر للولايات المتحدة "أندرو جونسون"، في ذلك اليوم ظهر شابٌّ قويٌّ يمشي وراءه حصانٌ ما إن تراه ستعرف أنه سبق له أن مات عدة مرات من شدة ما كان عجوزاً متهالكًا خائر القوى.

في ألموند لم يجد غير الخوف، السيوكس في أشدّ ثوراتهم، أغاروا على المزارع فأحرقوا محصول الأب الذي وجده هنري ينتحب غير عابئ برائحة البول التي تطوّقه. تغيّر كثيراً منذ آخر مرة قابله فيها، طالت لحيته كثيراً لكنه حفّ شاربه تماماً فأصبح وجهه محاطاً بالشعر الأسود من كل الجوانب كشمبانزي بالغ، قدماه حافيتان وغليظتان وقد أصبحتا ضخمتين تكسوهما الدمامل والتشققات. في الداخل كانت الأم تتغذى على بعض الجذور، وما إن رأته حتى بكتْ وارتمتْ في حضنه تتحسّس الزي الأزرق الذي كان يرتديه بكل ثقة. فرح الأخ الكبير جورجي بعودته، وقد كان سعيداً لأجله، فقد أصبح شخصاً مهمّاً بتلك الملابس الرسمية التي لم يروا لها مثيلاً إلا في المواكب العامة، لكنه خيَّب ظن الجميع عندما أخبرهم:

- "أنا الآن جنديٌّ في سلاح الفرسان الأمريكي. يمكنكم أن تسمّوه أيضاً سلاح الخيَّالة، لكن كما تعلمون فإنَّ الرئيس الجديد "جرانت" يكره جميع الفرسان الشجعان لذلك يحرمهم من أجورهم في موعدها لأن الجنود في زمانه كانوا يتطوّعون لحماية البلاد، أما الآن فلا. لذلك لقد هربت، وعليكم مساعدتي في أن أختفي، وقريباً سيكون لدينا المال الكافي لنفعل ما نشاء!".

تركهم في حيرة قبل أن يفتح سولومون فمه:

- "أتعود بعد كل هذا الوقت لتقول لي بأنك لا تملك المال؟ أما تعلم واجبك تجاهنا؟ أتقولها هكذا أيها الوقح! منذ هذه اللحظة سيكون الحصان لي، أفهمت؟ هيا اذهب وأفرغ حاجياتك وغداً سنرحل من هنا، سنهجر ألموند القذرة إلى غير عودة! نعم، ألم ترَ ما فعله الهمج المتوحشون بحقلي، كان عليك

أن تكون موجوداً لترى ذلك، فقد كان إنتاجي وفيراً وربما قد يكفينا لعدة سنوات!".

انطلقت ضحكة مكتومة من جورجي الذي قلّما يكون وجوده ملحوظاً في وجود الأب رغم أنه أصبح رجلاً بالغاً، أضاف الأب:

- "هيا استعد لتخرج معي ولنستغل حيلك لنقنع أحد الأغبياء بشراء البيت والمزرعة، هيا قم معي".

وكما حدث قبيل سنوات طويلة، عندما رفض الجد وِلْكَم مغادرة الشاطئ إلّا بعد أن يبيع أرضه التي هي فعلاً بلا قيمة، حاول سولومون الابن فعل نفس الشيء، فلم تكن للمزرعة أي قيمة وكذلك الحال مع البيت الذي هو محض كوخ خشبي من غرفة واحدة وسوف يسقط في أية لحظة.

في القرى الصغيرة يتشارك الجميع ذات المشاكل والحلول، ولا يكون السرُّ سِراً إن كنت تنوي أن تُخبِر به أحداً. والسر الذي لا يؤذي أحداً لا يجب إخفاؤه. أن تعيش في قرية صغيرة جميع سكانها يعلمون أدق التفاصيل دون أن يخبرهم بها أحد، هكذا تمضي الأيام عندهم. اعتذر تاجر الصوف الفرنسي بعد أن أطلق تنهيدة طويلة بقوله: "أوو مسيو سولومون إنه لأمر مخيب للآمال أن نخسر صديقاً ودوداً مثلك، لكن أعذرني فأنا أواجه ظروفاً سيئة". وصاحب المتجر المتبقي من سلالة إسكوتلندية كاملة قال بكل جمود وعجالة كأنه برق في لحظته الأولى والأخيرة: "ومن يدفع مالاً مقابل تلك المحجرة؟ قل لي! هاه؟ من يدفع بنساً واحداً مقابل قن الدجاج الذي تعيش فيه؟ هاه؟ أخبرني؟". وقرأ عليهم القس بعض المزامير عندما جاءوا إليه: *(أنا اضطجعتُ ونمتُ، ثم استيقظتُ لأن الربّ ناصري. فلا أخافُ من ربوات الجموع المحيطين بي القائمين عليّ. قُمْ يا ربّ خلّصني يا إلهي،*

لأنك ضربتَ كلّ من يعاديني باطلاً. أسنان الخُطاة سحقتَها. للربّ الخلاص وعلى شعبه بركته .هلليلوي). قاطعه سولومون بأن هذا ليس وقتاً للوعظ والصلوات، ثم مضى مبتعداً يبحث عن شخص جديد. وهكذا مضوا، من بيت إلى آخر، ومن حانوت إلى حانوت. لكنهم أخيراً وقعوا في يد امرأة وحيدة تسكن في عربة خشبية، عرض عليها هنري البيت والمزرعة مقابل العربة، فقط العربة. كاد الأب أن يجنّ جنونه وارتفع شعر رأسه غضباً، لكنه يعرف جيداً أنها صفقة أكثر من عادلة، وأنها لو لم تكن مخبولة جزئياً وغبية أيضاً لما قبلت، بل قد تطالب بدولار أو اثنين فرق.

في اليوم التالي حمّلتْ الأسرة جميع ممتلكاتها المتواضعة في العربة المكشوفة التي جرّها الحصان الكهل، ومضوا غرباً، إلى جاردن سيتي في مينيسوتا التي تبعد حوالي مائتي ميل أو أكثر، يلحقان بمايكل وجايكوب. في الطريق سأل سولومون زوجته: "كيف حال أبي؟ هل سمعتِ عنه خبراً مؤخراً؟ كان علينا أن نرسل في طلبه لنحمله معنا لو كان لدينا متسع". لم يعقّب أحد. قالت الأم: "على الأقل كان عليك أن تخبره". تحدث هنري أخيراً: "عليكما في البدء أن تعرفا أين هو؟". وأخيراً نطق جورجي بعبارة ساخرة وهو يمشي وراء العربة ويحمل حزمة مليئة بالأغراض: "وأين كنتما ستضعانه؟".

8
صندوق الأرواح

مع تفاقم الجفاف وفشل جني المحاصيل المتكرر، هاجرت كثيرٌ من الأُسر نحو الدولة الجديدة في مينيسوتا. تأزّمت الأوضاع قليلاً وأصبحتْ القوافل الكبيرة تمضي من أقاصي البلاد إلى أقاصيها الأخرى، يحميهم الخيَّالة الأقوياء. يرافقهم مترجمون يتحدثون السيوكسية ولغة الشايان، وعربة تمريض وعربة مطبخ، لكن تلك القوافل طالما كانت هدفاً هاماً للهنود، طلباً للغذاء والانتقام.

جاردن سيتي لم تكن تختلف كثيراً عن ألموند، إلا في كونها بعيدة عن جانب الحروب الدائرة في محيط بحيرة ميتشيغان. وجدوا هناك العديد من المستوطنين الجدد، من ضمنهم أحد أقرباء "ماري" زوجة سولومون واسمه "ماسياس"، وهو رجل جشع يعمل في تجارة الديناميت بشكل علني ويتاجر سراً في السلاح ويبيعه إلى الهنود مقابل الفراء. وقد دلّهم إلى العم جايكوب الذي كان أحد رموز المدينة، كيف لا وهو الآن طبيب مشهور يمتلك عيادة خاصة ومتجراً لبيع الأدوية والوصفات الطبية ويقيم جوارها في كوخ لا يتجاوز الغرفتين، أخلاه لهم لينتقل إلى العيادة. وهناك بدأ عصرٌ جديد التفت فيه سولومون إلى الله وأصبح داعياً دينياً وترك همّ فلاحة الأرض للأبد، كما أقام جورجي متجراً لبيع الأسلحة ببعض المساعدة من ماسياس ومعارفه وجايكوب ونقوده وهنري وحِنْكته.

قدّم جايكوب لهنري خدمة كبيرة، فقد طلب منه أن يعمل معه في العيادة، كان يمتلك مكتبة تحوي كثيراً من كتب الطب والتمريض والصيدلة والفيزياء والكيمياء، كما طلب منه مساعدته في إدارة متجر

الأدوية والعقاقير؛ حيث يجري في الخلف عند عيادته بعض العمليات الجراحية الصغيرة. العيادة مرفقة بمعمل ومختبر، وما يمكن أن نسمّيه جزافاً (غرفة عمليات) وهي عبارة عن مبولة ضخمة تفوح منها أبشع الروائح ولا تُنظّف مطلقاً، هناك أخذ هنري يتفتّح وهو يرضي وحشاً نهماً داخله يبحث عن العلم والمزيد من التجارب، وأين كان بمقدوره أن يجد أفضل من ذلك العرض، أين؟ لم يكن هنري سعيداً طوال حياته كتلك اللحظة التي دخل فيها إلى العيادة أول مرة. ولنا أن نتصوّر مصير الفتى اليافع، بكل ذلك الولع نحو الكيمياء والفيزياء، بعدما وجد نفسه بجوار غرفة مخزون الأدوية والمحاليل بمدقّاته ودوارقه وأنابيبه غريبة الشكل وجِراره وملاعقه وأدوات القياس والمباضع الحادة؛ فضلاً عن ذلك، كانت المراقبة ضئيلة بالنسبة إلى مُراهق نهم لا أحد يعلم ما كان يفعله هناك، في البراري والسهول وراء الجبال والصخور.

أخذ يعمل في مساعدة جايكوب الذي أولاه كثيراً من الثقة بعدما أخبره بعمله السابق كمسعف خلال المعارك مستفيداً من كل التجارب السابقة في أن يبقى هنا لأطول فترة ممكنة، يحضّر الدواء ويعاين المرضى بشكل أوّلي، يناول أدوات العملية، يخيط الجروح وينظفها، تعلم تجبير الكسور وربطها. في الليل ينير الشموع والقناديل، ويحرس المكان وحيداً. في تلك الفترة تطوَّرت مهاراته اللغوية بعد أن عاد جزئياً إلى مدرسة تبشيرية تحاول طمس هوية الهنود الحمر بتعليمهم الإنجيل والإنكليزية، خلال شهور قليلة أصبح قارئاً نهماً ومميزاً يساعده العم جايكوب كلما وجد وقتاً. وهناك قابل هنوداً أوضاعهم المادية جيدة ممن يعملون في تجارة التبغ والجلود، حاورهم بكلمة من هنا وكلمة من هناك، وباعهم بعد جهد جميع تلك الصخور والأحجار، التي كان يظنّ أنها ذهب، على أنها علاج فعّال للجدري –طبعاً كان ذلك من وراء عمه

جايكوب-كما باعهم الأظافر الطويلة المقتلعة على أنها تعاويذ سحرية ضد قوة السلاح الناري، وجلبت له كثيراً من الدولارات، فقد كان يبيعها بسعرٍ غالٍ، كَمَا أَنَّه كان يجرّبها لهم في مكان جبلي بعيد عن الأنظار قائلاً: "انظروا! هذا الشيء الصغير مبارك من الآلهة، إن علّقته في رقبتك لن يصيبك السلاح الناري بسوء، ستكون الطلقة كبصقة من هواء، لن تموتوا بعد الآن". ومن أجل تجربته اشترى مسدساً خاصاً يعالج بارووده بنفسه ليُحدِث الفرقعة والدوي دون أن تخرج الرصاصة، وعلى أية حال من كان ليرى الطلقة ليثبت أنها خرجت أم لا؟ يقف منتصباً أمام شجرة صبّار ويمسك بالتميمة ويضرب الهندي بالصوت، ويلي ذلك التهليل والرقص والفرح. وهنري في داخله يضحك ساخراً: "مَنْ سينجو مِن طلقات خيَّالة سلاح الفرسان ليأتي مطالباً بماله أو ليخبرني بأنه لم يكن يجدي نفعاً".

خلال فترة معقولة نال هنري مزيداً من ثقة جايكوب الذي سمح له بإجراء بعض الكشوفات السريرية أو تركيب الوصفات العلاجية أو معاينة مريض فقير. أما العمليات الجراحية التي تدرّ دخلاً كبيراً فإنه لم يكن له دَورٌ فيها، الآن العيادة لا تخلو من المرضى مقارنةً بالفترات السابقة، وكان هنري طبيباً لكل شيء، العضوي والنفسي والحيواني، لم يقل أبداً كلمة "لا أعرف". لا يعرف ذلك النوع من العبارات. ووصلت به الثقة والجرأة إلى إجراء عملية داخل مخ طفلة صغيرة، كانت تعاني من عدم النوم والحمى والصداع وترى وحوشاً، لكنها ماتت أول ما حاول أن يستأصل فصّاً صغيراً من دماغها بعد نقبه. لم يكن قد تعلم بعد كيف ينقب الجمجمة جيداً.

في ذلك العصر الذي يفتقر إلى الأخلاق، كان كل شيء مُباحاً. سُلطة القانون ضعيفة ما دامت هناك جبهات مفتوحة للقتال، ما دام

هناك تُجّار يملكون آلاف الدولارات ويجنون أرباحهم وراء كل طلقة وجريمة قتل. القانون ضعيف، يمثّله رجالٌ متعبون من المراهنة، بعيدون عما يحدث في البلاد. وإن كانوا يملكون خططاً حقيقية لتقدم البلاد فإن نزواتهم لم تسمح لهم بذلك. الصرعات الثنائية الأزلية؛ الله والشيطان، الخير والشر، الجمهوريون والمحافظون، اليمين المحافظ واليسار المتطرف، الأحمر والأبيض، العبد والحر، وهو الوقت الذي تلاشى فيه الأحرار وأصبحوا كرصفائهم الهنود الحُمْر، ينقرضون يوماً بعد يوم، والكل يغضّ الطرْف لذلك السبب الذي يعلمه الجميع: "المصالح".

الوقوع في الجرم حدثٌ بسيطٌ كطيران ذبابة، والموت حدث يومي كالدخول إلى الحمام. أن تكون قاتلاً كأن تكون إنساناً، لا يصنع الكثير من الفروق. التطوّر يحدث رغم كل ذلك، السكك الحديدية تصل بسرعة إلى أطراف البلاد القصيّة وتخترق الجبال والبحار والقرى والمدافن، القطارات البخارية جعلت كل الأمكنة قريبة، الآن يمكنك أن تصل إلى كليفورنيا أو تكساس البعيدة في نفس اليوم إن أردت، المسارح تقدّم العروض، ورجال المال يتوافدون في جماعات بحثاً عن فرص أفضل للاستثمار، يستمر التعدين الأهلي والمنظم؛ الذهب والنحاس والحديد، لكن الصدامات عادت من جديد، فالسكك الحديد نذير شؤم، قاتَلَها الهنود الموهيكان وحتى الكومانشي الذين وقعوا على اتفاقيات عديدة. لكن جشع رأس المال أكبر من أن يكون تحت السيطرة. في كل يوم تمخر الدواخين عباب السماء وتجوب أصوات صفارات القطارات الهلعة أرجاء البلاد الكبيرة وهي في طريقها إلى المواني، محمّلة بالثروات والفراء.

أعاد التاريخ نفسه من جديد، وحدثت انتفاضة كبرى من الهنود السيوكس في جاردن سيتي. بدأ الأمر شمالاً في داكوتا، وراء وادي النهر الأحمر؛ عندما كانت إحدى قرى الهنود السيوكس تحترق بنيران مدافع سلاح الفرسان دون رحمة، والحرب الأمريكية الهندية في ذروتها، يسقط القتلى من جانب واحد فقط كالحبوب في الغربال، خصوصاً بعدما تدخَّل الجيش بكامل قوته، وانضم إليه المواطنون الذين كانوا قبل عقدين من الزمان مجرد مهاجرين وأطلقوا بنادقهم في مواجهة الهنود الذين ثاروا دفاعاً عن أرضهم وأرواحهم. وخلال بضعة أيام كانت الصحف تكتب عن الانتفاضة العظيمة التي تقترب من سولومون وِلْكَم وأسرته. هنري الذي كان ميالاً إلى الهدوء أصابه الانزعاج، ودون إرادة منه قرر أن يدخل إلى ساحة المعركة، لكن بأسلوبه الخاص، على طريقة لصوص الغابات وقتلة الظلام، كوحش غابات ويسكانسن.

قبل أن يتورّط في الصراع ويتجه شمالاً؛ يدفعه ميلٌ خفيٌّ إلى خوض تجربة جديدة، حدثت فوضى عارمة في الجوار واستطاع الهنود أخيراً، وسط التخبط، محاصرة المدينة لأخذ ثأرهم. ولم تكن أحداث وادي النهر الأحمر قد أبقت على رجل أو امرأة أو طفل حياً، وقد عُلّقتْ الجثث على كل الأشجار والمشانق طوال الطريق. الآن، جاردن سيتي مدينة عارية، يتربص حولها المقاتلون ويحاصرونها من كل مكان. لم يقف هنري مكتوف اليدين يشاهد ما يحدث. كان شاباً قوياً ومقاتلاً سابقاً في سلاح الفرسان، ويكاد يكمل عامه الثامن عشر (عام الاندفاع)، لذا جَمّع حوله مجموعة من الصبيان والمشردين وبعض اللصوص والمجانين وقادهم في ثورة مضادة على الهنود، تراوده صورة البطل الشعبي "ليتل كرو". انطلقوا جميعاً نحو التل الشمالي، لكن

شرذمته تعرّضتْ لإطلاق نار كثيف وذاب الرصاص في أجسادهم كما يذوب الملح في القدر الساخن، فقد ظنهم بعض الأهالي المُسلحين يتبعون إلى الهنود، كما أطلق عليهم رجال السيوكس سهامهم السّامة فكان نصيبهم الموت. قُتِلَ أغلب الأطفال ولصّان ومجنونٌ غريب الشكل ومشرّد أعرج مُصاب بالجُذام، وهرب من استطاع وتفرق الشمل. نجا هنري بأعجوبة، لكن رمحاً مسموماً أصابه في فخذه وبالكاد تمكن من العودة إلى عيادة عمه الذي رعاهُ جيّداً وأطعمه، فهو لا يريد أن يفقده مهما حدث.

استعاد عافيته سريعاً. بعدها توصّل هنري إلى اعتقاد هام وجازم بأنه قد تحصّن من كل أنواع السحر والسموم، وأن لا شيء يستطيع إيذاءه بعد الآن، مهما كان فاتكاً أو ضاراً. ثم احتفظ بذلك السهم الأسود المُدبّب ذي النقوش البيضاء، وكان أهم مقتنياته الأثرية.

لاحقاً، انضم هنري إلى عدد من الأوغاد الهمجيين ذوي الميول العنصرية الشديدة ممن يسمّون أنفسهم "فرسان الغابة" ويطلقون على أنفسهم ألقاباً تبدو لهم مرعبة على شاكلة "المطرقة الإيرلندية" وهو فتى أصهب الشعر يبصق كثيراً ويأكل التبغ، إحدى عينيه مفقوءة ويزعم بأنه أفضل من يجيد التصويب. يقول: "أنا ومسدسي نمتلك عيناً واحدة لكنها لا تخطئ". ولما لم يجد هنري مجالاً مع ذلك الفتى الثائر ليصبح قائداً هجَرهم وبحَث عن جماعة يقودها، وكانت هذه المرة تتكوّن من بعض أولاد المواطنين الجدد اليافعين، كوّنوا حركة أخرى عنصرية ضد الهنود بمختلف قبائلهم، وكانوا يخرجون خلسة إلى قراهم البعيدة جوار نهر ميزوري ليحرقوا محاصيلهم المزروعة والمخزونة وقراهم ثم اعتادوا على الأمر. لكن هنري كان يسطو أثناء ذلك على القبور بحثاً عن الذهب والمدفونات الأخرى، مثل

المشغولات أو القطع الذهبية المضروبة أو أشياء أخرى في الغالب ليستْ ذات قيمة، لكنها كانت تمثل انتصاراً وانتقاماً صغيراً للعلامة التي في فخذه وسترافقه كاسْمه.

أحد أهم أولاد شرذمة هنري الجديدة هو "أبراهام" الخجول برقبته الطويله كحيوان اللاما وأصابعه الرقيقه كأمعاء الخروف ووجهه القبيح كشجرة تين شوكي مليء بالبثور، وهو فتى يحب أن يتباهى بماضيه وعرْقه الجرماني ذي الدماء الباردة أو "الملكية" كيفما يفتخر. وكان والده يخبره الكثير من أمثال تلك الحكايات بأن جدّ أجداده كان ينافس الملك جيمس الأول من أجل نهضة إسكوتلاند، وأنه لولا مؤامرة العرش لكان اليوم دوقاً مشهوراً، لم يتمكن هنري من إيقاف تلك المهازل إلا بإهدائه رداء الفرسان ونعته بـ"الولد الناعم"، كان يرى نفسه كالجنرال أرمسترونج، يستطيع أن يوبخ من يشاء دون حساب. أما "ريغوبيرتو"؛ رأس المقشة المجنون، فهو مكسيكي هارب من جرائم سرقة وخطف، وقد قبضوا عليه عندما كان يعمل حارس قطيع في إنديانا وسُجن، لكنه تمكن من الفرار بعد أن أخلى مأمور القسم جميع المُحتجزين لأجل العمل في قطع الأشجار، رغم السلسلة الضخمة هرب غرباً حيث وجد أخيراً قائداً له مع شرذمة أخرى من الأوغاد وفاقدي الأهلية، يمارسون نشاطاً واحداً فقط تحت قيادة هنري الذي أصبحوا يدعونه "ويندیغو" تيمّناً بتلك الأسطورة الهندية عن الوحش. تحوّل نشاطهم إلى البحث في قبور زعماء الهنود ونبشها، استمروا في العثور على العديد من المقتنيات الغريبة التي كانت هامة لهنري وحده مثل قلادة رأس الأفعى، وقلائد أضلع حيوان عشبي، وخنجر ذهبي، وسهم مزين بريش ملون، وعدد من العظميات غريبة الشكل، والصوف، والملابس المصنوعة من الفراء، وكساء الرأس.

الهندي يعتقد أن لا الجبل ولا الشجر يتحرك، والنهر لا يجري إلا في مكانه، إذن لماذا عليه أن يخالف الطبيعة فيرحل من قراه وبراريه؟ إن كان على المدن أن تتأسّس والسكك الحديد أن تتقدّم فعليها أن تجد مكاناً آخر لا يمرّ عبرهم. "الهندي الجيد هو الهندي الميت" حفظ هنري تلك العبارة من عمه مايكل عندما أخبره بأن جميع ثروته التي جمعها في العام 1852م من البحث عن الذهب في كليفورنيا قد سرقها هندي مجنون من أجل أن يبادل بها مسدساً من رجل محتال، فقتله. "الهندي مخلوق أخرق لا فائدة منه إلا إذا كنت تبحث عن هدف لتتدرب فيه على التصويب"، اللوثة التي أصابت المهاجرين جعلتهم يفكرون في رُقيّ الحضارة الإنسانية وتقدمها، ثورة التعليم والمعرفة، الخدمات الصحية والعيش الرغيد. وقبل كل ذلك إنقاذ الهنود من فوضاهم وجهلهم؛ بقتلهم. كان هنري يقول عندما يقتل هندياً: "إن قُتِلَ رجل بريء في الغرب أو الشرق فهو ضحيةٌ للحرب وليس القاتل".

لكن حدث ما أوقف نشاطهم، قُبِض على هنري وقُدّم للمحاكمة كجندي سابق هارب من العسكرية. حالفه الحظ في إخلاء سبيله بسرعة، فقد كان معروفاً بكرهه للهنود، وهو سببٌ إضافيٌّ للضابط الأحمق ليتركه بعد أن ساوم حريته بأحد رجال عصابته المطلوبين للعدالة بشدّة "ريغوبيرتو". بعد ذلك ابتعد عن بعض مشاريعه الهامة كالحبر السري، وأهمل القراءة والعمل في العيادة. لكن ما إن انتهى كل شيء حتى عاد إلى ولعه القديم، وأخذ يصهر عقله كي يتعلم كل ما يختص بالصيدلة والتطبيب ويسمّر وجهه في الكتب طوال أيام وأيام، إلى أن أتى اليوم الذي سافر فيه عمه جايكوب غرباً إلى روتشستر لقضاء بعض الأعمال في عيادة أحد الجراحين "هوراس مايو"[6] وربما

6- مايو كلينك أشهر العيادات الطبية في العالم، وقد تحوّلت الآن إلى مؤسسة مايو للتعليم والبحث الطبي.

يغيب عدة أيام ليستغرق هنري بعض الوقت ليدرك مقدار ما يملك من حرية تصرف. عاد إلى هوس التجارب من جديد، ثم التأمل في الجبال والمرتفعات الصخرية والأماكن الغامضة التي تنتشر في الجوار، وكانت تؤنس وحدته، كأن له حبيبة غائبة لا يلتقيها إلا هناك. تاه زمناً بين الصخور العملاقة التي طالما كانت تلهمه ما يفعله في المختبر.

بعد يومين من غياب جايكوب، والكثير من التجارب الدموية التي راح ضحيتها كلب وعدد من الخنازير البرّية، كان هنري يجلس في العيادة كطبيب وفي الخارج يستقبل صديقه الجديد أبراهام المرضى. لم يبخل هنري بوصفاته على أحد، وقد نجح في علاج طفل كاد أن يفتك به مرض الخناق (الديفتريا)، وقد وجد نصيباً سريعاً من الشهرة في الأرجاء، خصوصاً أن ذلك المرض كان يقضي على الأطفال دون رحمة كل يوم. وفي أحد أيام صيف السهول الساخن، أحضر رجل عجوز طفلاً صغيراً لم يتجاوز الرابعة كان يعاني من المرض، وقد تأخرت حالة الطفل لدرجة أن رقبته كانت أكبر من رأسه. كان جده يائساً من شفائه. وهنا بحث هنري عن ما سيفعله هذه المرة، سكَب كثيراً من المخدّر في الحفرة التي أحدثها المرض في مؤخرة رأس الطفل، ثم بدأ يعمل. قضى حوالَي خمس ساعات متواصلة لم يخرج خلالها من غرفة العملية وأصوات الطرق والكسر والفرقعات لا تتوقف، لكن لم يكن هناك قلق فالطفل لم يعد يبكي، وذلك مؤشر جيد لتقدّم العلاج. خرج إليهم هنري مع حلول الليل، أخبر الجد بأن الطفل في حاجة إلى الراحة وعليه أن يأتي في الصباح. كانت سُمعته الأسرية جيدة فمتجر جورجي يعدّ الأكبر الآن وسولومون نموذجٌ للمبشر الصالح.

خلال تلك الليلة من صيف 1871م، كان هنري يمضي شرقاً يحمل صندق أرواحه المُعبأة وبعض الحاجيات وراء كتفه، وبعض

الكتب التي قرأها مراراً، يسلك جميع الطرق التي تشرق منها الشمس، يتبعه "أبرهام" وهو يتابع بنظرات قلقة قطرات الدم التي لوثت ملابسه ولم يفلح في إخفائها جيداً، وفي اللحظة ذاتها كان يحلم بأن هنري سيجعل منه بحّاراً عظيماً، مُسْلماً له أمره ونفسه طائعاً، وقد كان يخاطبه بـ "سيدي وِلْكَم".

تجاوزا السهول المنبسطة والتلال العالية، يصطادان الأصوات ويتبعانها، يفترشان الأوراق الخضراء لأخذ الراحة، ينزلان إلى الأنهار للشرب، يدخلان الأكواخ الخالية أو المهجورة، يحتالان على أهل المدن الصغيرة في الطريق إلى المدينة التي تمثل ملاذاً وفرصاً كبيرة لأمثالهم.

في تلك الليلة التي غادرا فيها جاردن سيتي، عجز رجال الإطفاء عن تدارُك الحريق الهائل الذي شبّ فجأة في عيادة جايكوب وِلْكَم، وسط بكاء رجل عجوز يقسم بأن حفيده بالداخل.

9
شظايا الحريق

وصلا أخيراً بعد عدة أسابيع من التسكع. كان لدى هنري كثيرٌ من المال، فنزلا في فندق وضيع تملكه عاهرة فرنسية لا يزال لسانها يحمل بعض رائحة سمك السلمون المملّح وأقذع الألفاظ. رفضا كأسي النبيذ الأحمر، وارتميا في الأسِرّة الخشبية ليخوضا معركة جديدة تقاوم الاستيقاظ.

وجد هنري طريقه إلى مدرسة شيكاغو للصيدلة وقد قُبِل فيها للدراسة، وكان في ذلك الوقت شاباً رائعاً يفرق شعره البُني ويدهنه بالشحم ويضع العطر ويرتدي بدلة غالية الثمن. تعرف هُناك على ويليام وتشارلز مايو؛ الأخوين المجنونين من روتشستر، ابنَي هوراس مايو صديق عمه جايكوب، واللذين حدث أن التقى بهما في العام الماضي عندما كان منشغلاً بالهنود، لكنه لم ينسَ هوسهما بالطب والمعلومات الكبيرة التي يملكانها حول الأمراض وبعض النظريات الطبية. أصابه الخوف عندما علم بأمر الحريق وتظاهر بأنه لا يعلم بالأمر، أخيراً تبادلوا التحايا بلباقة ومضى كلٌّ في طريقه.

لم يكن أبراهام يفضل قضاء الوقت وحيداً دون عمل في أثناء غياب هنري للدراسة، لذلك كان يحاول أن يفعل شيئاً ما، مثل الذهاب إلى النهر ومشاهدة الجسر المتحرك، أو قراءة كتاب كي لا يشعر بأن هنري وحده من يتقدم أكاديمياً. أصبحتْ الأيام رتيبة راكدة لا تخلو من الضجر المتزايد والروتين الممل، وقد ضاق أبراهام بالمدينة ولم يعد يحتمل المزيد وأراد أن يمضي لحاله بعيداً عن هنا. وقد حدث ما جعلهما يغادِران المدينة في بداية تشرين الأول، بعد أن التهم حريقٌ

هائلٌ وجه المدينة، وقامت النيران إلى أن بلغت ضفاف بحيرة ميتشغان وأحترقتْ مدينة شيكاغو[7] وغاباتها وقصورها. وبينما يلتهم الحريق المنازل والأشجار وكل ما يجده أمامه، وترتفع نارٌ لم يشاهد الغرب الأوسط مثلها من قبل، كان هنري ممتقع الوجه غاضباً، فقد نال الحريق من مدرسته، ثم حملت الريح ما تبقى منها ونثرته في الأرجاء قُبيل مغادرتهما شرقاً في عربة شحن حصلا عليها مقابل مبلغ زهيد. وخلال عدة شهور كانا قد مرا عبر مدن كثيرة في إنديانا، رعيا الأغنام على ضفاف نهر سان جوزف قبل أن يبتعدا خوفاً على حياتهما من غضب الأهالي بعد أن أصاب جميع الحيوانات التي كانا يرعيانها العمى! عندما وصلا إلى أوهايو واجها هناك عاصفة ثلجية لا تُقاوم فاضطُرّا إلى المبيت في مذبح مقاطعة ستارك بماسيلون حيث تنتظر العجول الصغيرة دَورها جوار الخنازير، لم يكن لديهم حلٌّ للاحتماء من البرد سوى التقرّب من أحد الحيوانات ومحاولة احتضانه بشدة رغم الروائح الكريهة والتصرّفات غير المتوقعة من تلك الوحوش الغبية. ثم واصلا رحلتهما شرقاً.

في وقت لاحق، عثر هنري على مبتغاه ودفع بعض المال لدراسة الصيدلة في مدرسة فيلادلفيا بعد أن قدّم له د.هوراس مايو فرصة قبول على طبق من ذهب. في ذلك الزمن كان الطبيب يبرز كأحد أهم الشخصيات في الدولة الحديثة بوصفه المثقف الصارم سديد الرأي، وسريعاً ما أخذ هنري يتعلّم كل شيء. كان نابغاً تجاوز العشرين من عمره بقليل يفرق شعره من الجانب ويلمعه بزيت السمك، لكنه لم يكن وسيماً كشقيقه جورجي. تقدّم سريعاً في تجاربه الطبية الأولى، تفرّد كثيراً وتحدى القوانين والأساتذة، ذاع صيته وسط المجتمع

7- الحريق العظيم 1871م.

الطبي، وشاهده أطباء مشهورون مثل "أوليڤر هولمز"[8] الذي سيدعمه لاحقاً لنشر عدوى جرثومية في قرى للهنود الحُمْر. أُذِنَ له بدخول المختبر في أية ساعة، وهناك صنع لأول مرة حبره السري الذي طالما كان ينتظره وسَمّاه في أحد الإعلانات "أحد عجايب الدنيا" ساعده بعض النافذين في تسويقه مقابل عمولات بنسب محددة، تحوّل إنتاجه من بعض القناني إلى سطول كبيرة، أصبحت له علامة تجارية والكثير من الإعلانات الورقية، ثم بدأ في جني ثروة صغيرة، كل ذلك وأبراهام أو "آيب" كما يدعوه هنري ينفّذ ما يؤمر به ويزداد إعجابه بصديقه. "لا يوجد بحث علمي ناجح دون مال"، المال يصنع المستقبل الحقيقي، ويشبع رغباته ويرضي نزعاته التي تطالب بالمزيد من التجارب والمزيد من الغموض.

بعد تخرجه في العام 1874م، اكتشف بعض الوصفات العلاجية ثم فتح متجراً صغيراً للأدوية، وعقد اتفاقيات مع شركات الدواء والتوزيع مثل "كاوزويل". بعدها انضم إلى شركة "ماكسيون وروبنز" في نيويورك، وهناك تعلّم كيف تقوم صناعة الصيدلة الحديثة. كان شاباً متحمساً يملك المال، فعهد بالمتجر إلى "آيب" الذي اكتسب القليل من الخبرة، ومع طبعه الهادئ اطمأنّ هنري وغادر في رحلة على عجلات القطارات والبواخر يجمع المواد الخام والأعشاب من أمريكا الوسطى والجنوبية بأكملها ليبيعها إلى مصانع الأدوية في أوروبا. وقد ظهر مرض الملاريا الذي كان أهم مصادر علاجه لحاء شجرة الكينا، لذلك توقف لفترة في مدينة غواياكيل بالإكوادور، ثم سافر إلى بيرو يبحث عن السكان الأصليّين ليسألهم كيف يعالجون

8- أوليفر ويندل هولمز 1809-1894م شاعر وطبيب أمريكي وأستاذ للتشريح وعلم الأعضاء بمدرسة هارفارد الطبية.

بعض الأمراض. وقد كان حائراً: "كيف لقوم همج مثلهم أن ينعموا بالصحة والسلامة طوال حياتهم؟". أخذ يجمع منهم الأعشاب ويدوّن الملاحظات ويتعرّف إلى الجذور والنباتات النادرة والأعشاب المحلية، ثم غادر إلى هاڤانا ثم بويبلونويفو في فنزويلا التي ارتاح فيها. وأخذ يجوب الأنحاء البعيدة والنائية بحثاً عن السكان الأوائل، وأخيراً بلغ جبال "كورديليرا"،وقد استأجر مترجماً وحارساً وقد حذّراه بأنّ ما يقوم به أمرٌ خطر، خصوصاً وأن الطريق إلى داخل الجبل كان مرصوفاً على جانبيه بالجماجم البشرية، ويعني ذلك تحذيراً مباشراً وخطراً لا يقلّ عن خطر الثوار في الجانب الآخر من جبال الإنديز، لكنه لم يعبأ وواصل المسير صعوداً إلى مجاهل الجبل الذي كان بركانه ثائراً وصخوره زلقة لكن ذلك كان يسعده، حقاً كان سعيداً لدرجة لا توصف.

وجد في الأعلى أشجار "سينتشونا" التي وصفها له بعض المحليين، تحقَّق من مدى تأثيرها عبر قطع اللحاء وانتظار تحوّل قلوياته من لون كريمي إلى أحمر قانٍ، ثم استأجر مزيداً من الرجال للقيام بتعبئة اللحاء بسرعة قبل تدهوره أمام الهواء، كل حمولة قد تتجاوز أكثر من 100 رطلٍ حمَّلها الرجال والبغال لمسافات طويلة، وهناك في المستودع شحن جميع المواد إلى غواياكيل لتبحر إلى الوطن.

"تضحيات بشرية لتوفير الصحة للرجل الأبيض" تحت ذلك الشعار أخذ يعمل في تلك الفترة، وأسهم في نقل ڤايروس مرض الجدري إلى الهنود الموهيكان عبر نقله إلى ملابس الأطفال والبطانيات ثم إرسالها إليهم عبر الجماعات التبشيرية، كما جرّب العديد من وصفاته الجرثومية عن قرب فيهم، "لا يوجد سلاح أقوى من المعرفة". نجح في إثبات نفسه كأحد أمهر رجال الصيدلة في نيويورك

مخيّباً كل الآمال التي كانت تتمنى لشخص مثله الفشل التام، ثم تفرّغ للعمل في المتجر بعد أن توسّع العمل وتجارة المواد الخام وتوزيع الأدوية ومحاولة صنع أول قرص مضغوط من الجيلاتين، ثم أصبح وكيلاً رئيسياً لبعض شركات الدواء التي كانت تتنافس من أجل العمل معه. توسّعت تجارته وعمّتْ شهرته أرجاء المدينة، ثم بدأ يربّي شارباً ضخماً، وخاطَ لنفسه الملابس والسترات الأنيقة باهظة الثمن والقبعات العالية الموشاة وأحذية الجلود اللامعة، أصبح أنيقاً جداً، ولم يعد يأكل الحنطة بعد. عاد لرؤية أسرته في جاردن سيتي وعرف أن جده الكبير وِلْكَم قد مات قبل بضعة أعوام، تعرّف على كثير من الأقرباء الجُدد. منح جايكوب بعض المال ليفتح عيادة خاصة من جديد، وأهدى جورجي مسدساً بمقبض من العاج مرصع بالجواهر. أشاع جواً من السعادة قبل أن يغادر من جديد.

تكدّستْ الأموال في حسابه المصرفي، وشعر بقوة ليس لها مثيل، بإمكانه مواجهة كل شيء الآن. لكنه عاهد نفسه على ألا يقتل روحاً مهما حدث. وفي شطّ صخري شرقي المدينة، حيث المنارة ومنظر البحر، لجأ إلى مبنى مهجور، ابتدر طقساً غريباً، بعد أن أوقد دائرة من الشموع وقف في مركزها ثم فتح صندوقَ قلبه وأطلق سراح جميع الأرواح التي كان يظنّ أنه يحفظها في رصيده ويحتجزها. لم ينسَ أن يقذف ذكرياته أيضاً، ملابسَهُ القديمة، والقبعة التي صَمدت معه وقتاً طويلاً.

لم ينسَ أن يُحرق روحه السابقه استعداداً لما هو آتٍ. ولأجل استقبال الرجل الجديد، قرّر أنه لن يعود إلى بلدته مرةً أخرى. وكالأيام الخوالي صفّرَ بلحن قديم، يعرفه جيداً، وحاول أن يتناسى ذكراه وأعوامه التي تجاوزتْ 25 عاماً.

10
العرّافة الغجريّة

- "حسناً يا آيب، أنا لم أذهب إلى الأكوادور دون جدوى! هناك حدَثَ ما غيّر مجرى أبحاثي كلها، فقد توصلت أخيراً إلى مصل حقيقي يعالج ذلك المرض اللعين، هل تصدق أنني الآن أستطيع منع حمى الملاريا من قتل المزيد؟ هل تصدق ذلك؟ يمكن لجنودنا وسلاح فُرساننا أن يجوبوا العالم مطمئنّين لصنع المعجزات دون خوف، تلك الحمى وهذيانها لن يعودا من جديد، ربما كان انتشارها في صالحنا فقد قضت على عدد كبير من الهنود الملاعين بعد أن جعلتهم يهذون حتى الموت، يمكنك أن تصنع عجة البيض فوق رؤوسهم من شدة ارتفاع حرارتها!".
- "لكن يا سيدي!، أنت تعلم بأن ذلك سيغير الكثير من الأشياء، تجارة الدواء مثلاً؟".

قاطعه كالعادة:

- "أنا أعلم. لذلك سأتوجه إلى أوروبا، لندن. سأبدأ هناك أعمالاً جديدة، لن أتركَ مرضاً إلا وجدتُ له علاجاً، فالدواء هو الشيء الوحيد الذي لن يشتكي الناس من شرائه، ومهما ارتفع سعره لن يحجموا عن شرائه ما دام موجوداً، ففائدة العلم ونفعه أكبر من الذهب. ولكي تبقى هنا في أمريكا عليك أن تكون سيناتوراً أو رجل سياسة جمهورياً أو مجرماً، أمّا بخلاف ذلك فلن تحصل على الهواء!".
- "إذن ما فائدة الذهب؟ أنت تستطيع جني الثروات من مصادر أخرى بالفعل!".

قاطعه من جديد:

- "لا تكن غبياً يا أبراهام! الذهب لحمايتك، سيجعل القادة يطيعونك والملوك يفتحون لك أبوابهم، ستعشقك الأميرات وسيموت من أجلك الجنود الأوفياء، حتى الآلهه سَتُسَخِّر ما يمكنها لخدمتك، وفي المقابل لن يهتم أحد بما تفعل ما دمت تُهديهم الذهب. يمكنك أن تصنع بلداً خاصاً بِك! ألا تعلم أن الذهب هو بُراز الآلهة؟ أولم أخبرك بأنه المعدن المقدس؟".

- "لكنك يا سيدي تبالغ كثيراً في وصف ذلك، أولئك الإنكليز ليسوا فقراء مثلنا! وأوروبا تجني الذهب وغيره من مستعمرات أكبر من بلادنا. هل تعلم أن الهند الشرقية ذاتها تخضع لحكمهم؟".

- "اخبرني يا آيب، في الأثناء التي يجنون فيها تلك الثروات الكبيرة، ألا يحتاجون إلى الأمصال والأدوية؟ ألا يحتاجون إلى من يبعد الموت عنهم ويكتشف لهم خفايا مستعمراتهم؟ إنه أنا يا آيب.. هنري العظيم".

- "سيدي، أرجوك، أنا أعلم تماماً أنك أكثر من تعي مصلحتك، لكن ما صنعته هُنا من ثروة وشهرة يستحق أن تبقى... ولو قليلاً".

- "آيب... كم أنت غبي! أمريكا لا يحكمها القانون حالياً. القانون للضعيف. هنا الموت مجاني، لا يُكلِّف إلا ثمن الرصاصة. لتعيش هُنا عليك أن تكون محتالاً أو قاتلاً أو داعراً أو سيناتوراً كاذباً يخدع الناس باسم الوطن أو الدين؛ واحداً من أولئك الذين نكحوا أمهاتهم وأنجبوا أنفسهم! عندما أُخبركَ عن بريطانيا فأنا أعني الحضارة الحقيقية والصناعة والتعليم. ولعلمك يا رجل، بمجرد أن نصعد تلك السفينة

ستنسى كل الماضي وتستعدّ للعهد الجديد، واحذر من أن يفلت لسانكَ بذكر تلك الأيام التي تعرفها جيداً، أفهمت؟".

احمرّ وجهه كبصلة وراء قشرتها وبلع ريقه المُرّ:

- "حسناً يا سيدي!".

***

مضت بنا العربة مُسرعة، ويستمرّ حديثنا تتخلّله أصوات حدوات الأحصنة الرنانة. تحدّثنا في عدة مواضيع بدءاً بما سيفعله في لندن، استعرضنا أمر شراكته مع "سيلاس مينفيل بوروز"؛ رجل الصناعات الدوائية الأمريكي المعروف وصاحب الشركة الذي أصرَّ أن ينضم إليه هنري وِلْكَم كشريك وباحث.

في ذلك التوقيت كان سيلاس بوروز في طريقه إلى المرفأ للّحاق بالسفينة التي ستنطلق قريباً، وهو ابن مُدلّل لسياسي شهير وعضو في الكونغرس ويحظى بامتيازات كبيرة. وبوساطته تمَّ ترتيب حجز الغرف، وحصل هنري على جناح مميز في السفينة الفارهة (S S Arizona). في المرفأ انتظرهم حاملو الحقائب وموظفو الخدمة بملابسهم الكاملة وزيّهم الموحد يرتدون القفازات وينحنون بلا سبب، وقف رجال تسهيل الإجراءات أمام السياج الصغير الذي يؤدي إلى ممر خاص بالدرجة الأولى مفرَّش بالسجاد الأحمر وتمتلئ جوانبه بلوحات الروكوكو[9]، امّا السلم فقد كان مثبّتاً إلى رافعة طويلة تتصل بمُجنزرات قوية تتلامع من شدّة نظافتها وتُصدِر صكيكاً

9- طراز فني مندثر. ذا طابع حسي وجمالي يستمد من الأصداف البحرية أشكاله التعبيرية شديدة الجمال ويعتمد بشكل أساسي على لغة التشكيل المتكلفة شديدة البراعة ويستوحي موضوعاته من مظاهر الترف والمرأة والزخارف.

خفيفاً يدلّ على صلادتها، وكُسِيَ بسجادة بلون الغبار تحتها خشب ناعم ينزل إلى جوف السفينة الذي يقف عند مدخله اثنان من البحارة بقبّعاتهم البيضاء ذات الخط الأزرق مع تلك الابتسامة الدافئة. تلك اللحظة من الصباح يشتعل نشاط النحل بالمكان، فذاك رجل يحمل أطفالَه الثلاثة وتدفع زوجته أمامها عجلة الحقائب، وآخرون يهرولون نحو المدخل الشعبي المكتظ، بكاء بعض الأطفال وأمُّهم تلوِّح من الأعلى سعيدة برحلتها غير عابئة بفقدانهم لها. في ظل ذلك الجو من الانشغال والتدافع في المداخل الشعبية والعواطف الدافقة وتيارات الهواء، كان على البعض أن يعملوا بجهد، فهي فرصتهم الوحيدة، بعضهم أطفال صغار ينتحلون صفات بائعي هدايا وتذكارات أو مناديل مشغولة بأحرف باهتة، والبعض الآخر كان مهرجاً بقبعة "بولر" التي يرتديها الرجال المحترمون. وبينما يعمل النشالون بكل ثقة، كان المحكومون الهاربون والقتلة المتخَفُّون يختلسون الفرصة لمغادرة البلاد دون عودة، وهناك نساء جميلات هربن من أزواج متزمّتين بحثاً عن الحرية في أوروبا، والأحباء الذين ينوون قضاء عطلٍ ممتعة أو شهر عسل بين لندن وباريس ولشبونة، إضافة إلى البعثات الدبلوماسية التي تتجه إلى العواصم الأوروبية.

الصناديق مُعلَّقة في الهواء تنتظر الإشارة لإنزالها، آلاف القطع والمنتجات في طريقها إلى جمهور أكبر قد لا تسعها غرف الشحن. الصحفيون الأوروبيون العائدون إلى بلدانهم بعد جولة طيبة انتهت بكثير من المواضيع والسابقات الصحفية يحملون ابتسامة واضحة وراءها إحدى نكات الهنود الغبية، باعة الأكل والتبغ يستجدون الشراء عبر نداءات صاخبة، الشحاذون المجذومون ينظرون إلى المسافرين بضيق وألم، الصحف المطبوعة قبل قليل بأخبار ساخنة تنتظر من يلقي بقبضته في صدرها، ومجهولون خجولون لا يتحدثون؛

كأنهم جواسيس ألمان، محقّقون سرّيون في هيئة ثرثارين فضوليين. لكن لا يمر عبر السجادة الحمراء الواسعة التي اجتازها هنري وِلْكَم عدا بعض رجالات المال والسياسة، بكروشهم العظيمة وياقاتهم المنشّأة العالية وقبّعاتهم الباهرة ونظّاراتهم الزجاجية وساعات جيوبهم المُذهبة وعصيهم اللامعة. إنه الصباح الاخير في أمريكا، لذا كان وداعه مُقدساً.

حمل أبراهام حقيبة سيده الوحيدة بعد شحن بعض الصناديق ومشى خلفه ينظر أمامهُ ببلاهة مصطنعة، وهي حيلة وجدها ناجحة تماماً في تعامله مع مخدّمه ويلجأ إليها في بعض الظروف. أطلقتْ السفينة صيحات غاضبة مُنذرة بميعاد الرحيل أو اقترابه. يا للفراق! هنا فاضت دموع مَن هُم بالأسفل على مَن هُم بالأعلى والعكس، وودّع البشر بعضهم. وفي داخل غرفة مجهزة وفاخرة جلس وِلْكَم يدخن الغليون، وأخبر بوروز لأجل كسر الصمت فقط:

- "يا لها من سفينة رائعة، حتماً ستكون رحلة ممتعة!".

أجابه سيلاس بوروز بنوع من الحماس وشاربه يرسم قوسَيْ قزح حول فمه:

- "علمتُ أن هذه الغرفة قد أتى فيها من لندن فتى وسيم من أوكسفورد يكتب الشعر، الجميع هنا يتحدثون عنه، ظلَّ يكتب على مدى أيام الإبحار الطويلة، وقد ألَّفَ كتاباً كاملاً هنا بين جنباتها!".
- "ها... حقاً! يبدو أنها آمنة فعلاً. ربما أواجه مشاكل في النوم، فلستُ مطمئناً لهذا النوع من الناقلات، وقضاء أيام طويلة في البحر يقلقني".

ضحك بوروز قبل أن يجيبه وهو يعدّل هندامه:

- "كن بخير يا صديقي ولا تخف، فالأسوأ قد حدث فعلاً!".

وضع هنري غليونه جانباً، وشرب بعض عصير الليمون المثلج قبل أن يسأله:

- "كم كلفتك هذه الغرفة؟".

- "لا تسأل يا صديقي، فغداً عندما نصل إلى لندن سنجني كثيراً من المال، وربما نستطيع شراء سفينة مثلها لنا وحدنا فقط... تخيل ذلك!".

فتّل هنري شاربه الكبير ونظر ملياً إلى سيلاس بوروز ذي الوجه الذي لا يحمل أدنى تفصيل مميز سوى الشارب البُني الضخم وزهرة الليلج التي تزين صدره وتلك النظرة التي تنتظره بعدها أن يخبرك بأمر مأساوي. اهتزّتْ الأرضية وحانتْ اللحظة التي يخرج فيها الركاب إلى السطح، لإلقاء النظرة الأخيرة أو لأشياء أخرى كالتعرف على السفينة أو المسافرين. غادر هنري دون أن يودّعه أحد. "مَن لا يودعه أحد تستقبله الذكريات"، قالها أبرهام قبل أن يعود ليقرأ كتاب الرحلات الذي كان غارقاً فيه.

للوهلة الأولى لم يصدّق هنري ما تراه عيناه، وتساءل في داخله: "كيف لهؤلاء الناس أن يكونوا بهذا الصدق تجاه الآخرين فيبكون حزناً على فراقهم؟ ألا يدركون أن الفراق في حدّ ذاته نعمة يجب أن يشكروها بشدة؟ كيف يمضون لاكتشاف جديد في أحد دروب الحياة دون متعة في ذلك! غريب أمر هذا الإنسان! يقابل المصير بالعاطفة. إنها وربّ موسى لَلعنةٌ كبرى أصابت الكون". ثم مضى يفكر في عالمه الجديد. مرَّ أمام والده بلحيته الشعثاء وصدغيه الناتئين والعرَق يسيل

من وجهه وهو يزرع أرضه وينتظر جني المحصول بالصبر والجَلَد. تخيّل كيف ينتظر سخونة الشمس وعواصف الصقيع والرياح لأجل أن يؤمن قوته فقط. لا يمكن أن يكون الإنسان قد خُلق لأجل ذلك، حتى الدودة تسعى لتأمين رزقها، وشتَّان ما بين الدودة والرجل القوي الذكي. أيمكن أن يكون هناك من يفكر في كيف يأكل فقط، دون نظرة منه إلى مستقبل الحياة ودَوره فيها؟ جميع أولئك الهنود كانوا يستحقون ما جرى لهم، نعم هم فعلاً يستحقون، فلم تفدهم آلهة النار التي يعبدون. ومذ أن اشتروا القمر مقابل السلام كان جزاؤهم الموت فعلاً على يد كولمبوس الذكي. عندما اكتشف كريستوفر كولمبوس الأرض الجديدة المُسمّاة اليوم بأميركا، واجَه مقاومة شرسة من السكّان الأصليين الذين كانوا يعبدون القمر، وقد ضربوا حصاراً قوياً على كولمبوس ورجاله الذين اهتدوا إلى فكرة ذكية مكّنتهم من السيطرة على الهنود، فقد حسبوا وعرفوا موعد خسوف القمر، وأخبرهم إن لم يرضخوا له ويطيعوه سيأخذ القمر منهم، وعندما أتى اليوم المحدّد وخسف القمر خضع أولئك الهنود لسيطرته ظنّاً منهم بأن من يقوى على آلهتهم يقوى على قتلهم. حقاً أن أكثر الهنود فائدة هو الميت منهم.

كان يعرف أنه لن يعود قريباً إلى أرض الميعاد التي أخبره بها والده، وأصابه الحزن على أن أمريكا لم تعد أرض ميعادٍ لهم بعد أن تحرّرت من التاج البريطاني وثارت. أخيراً نهب ثرواتها البريطانيون أنفسهم مثلها مثل بقية مستعمراتهم، لن يكونَ لليهود أرض ميعاد أبداً. الزمن يدور من جديد، وسيخرجون من هذه البلاد لكن بإرادتهم هذه المرة وليس كما طردهم القيصر وأبعدهم من روسيا، وقبله اليونان والرومان الملاعين، بل حتى أهل مصر لم يدَعوهم وشأنهم. ما هو خلاص اليهود من هذا العالم كله؟ القويّ لا يُضطهد أو يُكره، ولن

يتحامل عليه أحد، فموسى بن ميمون عاش هناك مقدّراً كالملك حتى مات.

وبينما يستند إلى سياج السفينة العلوي في الجانب البعيد من الأنظار، اقتربتْ منه سيدة طاعنة في السنّ تتدلى من رأسها ضفائر سوداء طويلة ومجدولة بعناية، بعد أن نظرت إليه طويلاً سألته بصوت خفيض وواضح:

- "دَعني أقرأ كفك! فعيناك تحملان رؤى كثيرة. لن آخذ منك أكثر من قطعة نقدية واحدة".

"يا للغجر الملاعين"، قال في سِرّه. ناولها يده بلامُبالاة، وأخبرها بلهجة تنمّ عن بعض الضيق كأنه يلومها على مقاطعتها أفكاره وتساؤلاته وإحضاره من المكان الذي عبر إليه أثناء شروده:

- "يُستحسن أن تكوني صادقة، فأنا لا أدفع قبل أن أتأكد؟".

أجابته بحماس وعيناها تومضان بالثقة:

- "حسناً... أعطِني يدك".

مدَّ إليها يدَهُ اليسرى، بسَطها فكشفت عن بياض نقيّ كاد أن يكون شفافاً لولا حُمرة الدماء وخطوطه المُتقطعة بلون قرمزي. مررت عليها سطح يدها ثم باطنها مرةً أخرى، بأطراف أصابعها الرقيقة تحسّست جلده البارد. نظرت إلى عينيه طويلاً، كانتا خضراوين بلون المستنقع، عميقتين كالتحديق في الآبار البعيدة، جامدتين لا تعكسان الضوء، كالشخص الميت. انزعجت السيدة وسحبَتْ يدها كأنما وخزتها شوكة حادة. بعد تردد أخبرته:

- "سأخذ منك قطعة ذهبية، لا بد من ذلك! أنتَ لا تعرف ما بداخلك؟ لا يجب عليّ أن أتحدث"، ثم همهمت بصوت مرتعش حتى هي لم تسمعه: "يا للشر! أيمكن أن يكون ذلك بشراً؟".

هازئاً كَسِكّير سمع حكم إعدامه وأجابها:

- "إن كان ما ستخبرينني به يضاهي بعض الحقيقة سأمنحك أكثر من ذلك، لكن يجب أن أتأكد من صدقك أولاً، فأنا رغم احترامي لكِ لا أؤمن بالخرافات!".

بسرعة أجابته:

- "موافقة، كيف تريد أن تتأكد؟ دعني أفكر، دعني أفكر. حسناً، إذن يمكنك أن تسألني سؤالاً واحداً فقط، لكنني أيضاً حينها لن أخبرك بكل شيء. سأخبرك بأمر واحد، هل تقبل؟".
- "نعم.. أقبل".
- "اسألني إذن؟ هيا".

فكّر لثوانٍ ثم تذكر أمه فسألها ببرود:

- "لنقل، ماذا... ماذا... ماذا عن أمّي؟ ما اسمها؟".

ما سيحدث هنا لن يتمكن هنري وِلْكَم من نسيانه مهما حاول، ولاحقاً سيندم كثيراً على ما سمعه من تلك العرّافة، وسيخشى العرّافات ما عاش بعد ذلك.

- "كان جدّك الحسيدي[10] يوشك أن يسمّيها "إيما"، ولكنه سَمِع هتافاً باليديشية قال له: "سمّها (ماري) يا كورتيس. واستجاب لذلك النداء حالاً وعمّدها بذلك الاسم. كانت تكبر أباك بنحو 7 أعوام لكنها لا تعلم ذلك، رغم اعتقادها بأنه يكبرها كثيراً. وستموت عندما تكون بعيداً عنها تماماً!".

10 - الحسيدية حركة يهودية تهرب من حدود الواقع التاريخي المركّب إلى حالة من النشوة الصوفية، تأخذ شكل أوهام عقائدية عن أرض الميعاد التي تنتظر اليهود.

حبس أنفاسه لوقت طويل مقارنةً بإنسان، ثم خرجت العبارة مع زفيره وعيناه تومضان كحجر متكلس في الفرن:

- "يا رب السماء!".

لم تكن الدهشة كافية لوصف شعوره تلك اللحظة، فقد صدَقتْ العرّافة في اسم أمه وجده. تلعثم، وكان عندما يتلعثم يصمت إلى أن تحسَبه تمثالاً من الشمع، بالكاد يتنفس، وفجأة انحنى قليلاً كممثّل على خشبة المسرح نال تصفيقاً حاراً، وشكَرها برفع القبعة قبل أن يُدخل يده في جيب سترته الداخلية ويُخرج لها عشرة دولارات وقطعة ذهبية، ثم سألها قبل أن تكتمل فرحتها باستلام المُكافأة:

- "حسناً، ما قلتِه يمكن لجيراننا معرفته، ولولا الظروف والمكان الذي نحن فيه لاعتقدتُ أنكِ من جيراننا أو معارفي، لكنني سأستبعد كل ذلك، وعليكِ بالأجابة عن سؤال واحد فقط، وتأخذين كل هذا المال".

لوّح لها بالأوراق ونظر إليها متوعّداً مليئاً بالشكوك:

- "ها؟ هل توافقين؟ أم عليَّ أنْ أذهب؟".

زفرت في أسىً كمدرّسة لا بدّ وأن تخبر تلميذها المفضّل بأنه فشل في اجتياز الامتحان:

- "آه يا ولدي! لكن تذكر أن العرّاف كلّما أخبرك مزيداً كان حزنك أكبر. يا ولدي! لعلمي أنّ في داخلك شخصاً طموحاً وناجحاً، لا تحاول أن تعلم المزيد، فتقع في مصيدة المعرفة!".
- "لا، أخبريني! أنا أصرّ! أو ليس لديّ شيءٌ لك!".
- "لا تنسَ يا ولدي أن المعرفة حفرة، كلما أخذتَ منها لتخرج تعمقتْ أكثر!".

- "حسناً، حسناً، سأحاول وعليكِ بأن تجيبي عن سؤال واحد فقط... هيا".
- "لقد حذّرتُك وفعلتُ ما يمليه عليَّ ضميري. الآن اسألْ لو كنت لا تزال مصّراً".

ما يثير خوفه ورهبته أمر واحد فقط:

- "المستقبل؟".

وقبل أن تفتح فمها من جديد منحَها هذه المرة يدهُ اليُمنى، فوضعت أصابعها وطبَعتها في كفه، ثم أخذت تتابع هدفاً مجهولاً وتترصّده لفترة وجيزة ثم نظرت إلى عينيه طويلاً، أطل شبح ابتسامة من عينيها، كوجه القاتل عندما ينظر إلى المقتول آخر مرة، وبعد تردد أخبرته:

- "كما تشاء يا بُنيّ.. -غمغمت-كما تشاء. "سَتُصيب ثروةً كبيرة وستجد من الذهب ما يمكن أن يغطي جميع الطرق التي تمشي عليها، لكنك لن تأخذ منه شيئاً وستعطيه لغيرك! وستعمل كل جهدك وستكتشف أشياء عظيمة، لكنك لن تستفيد منها وسيحظى بفائدتها غيرك! ستتزوج فتاة جميلة، لكنها ستُعْطي قلبها لغيرك! وستنجب ابنة جميلة سيكون أبوها رجلاً غيرك! ولدك الوحيد لن يحبك وسيعيش حياته مع غيرك! سيتغيَّر العالم بفضلك، لكنك ستترك كل شيء للآخرين! وستقتل هذه اليد روحاً بريئة ولكن دون سلاح! لن يبقى هناك شيء لك سوى اسمك الذي لن يحمله أحد! سينقطع نسلك ولن يكون لديك حفيد. لكنَّ شهرتك ستسبق كل شيء، وستشرق مع شمس كل يوم تحياه البشرية!".

أفلتت يده، ونظر إليها يستقي تأثير حديثها عليها، لكنها عاجلته بما لم يكن في حسبانه، كصفعة لاهبة في يوم حار:

- "أمرٌ أخير يا ولدي ولا أريد له مقابل لأنكَ كنتَ كريماً معي: (احذر الأبيضَ كاللبن، المسكوبَ في بدن، لا يعرف ماذا يقول وإذا قال فتَن، حديثه لا يُفهم ورائحته العَطَنْ، إن لم تقتله قتَلك ولو بعد زمَن)".

جرَّتْ رجليها نحو الخفاء الذي ظهرتْ منه، تراجعتْ ببطء كأنها تخشى جذب انتباه تنينٍ أعمى، شعرت بالسجادة أسفل قدميها رماداً وسَخَماً، وبأن الرجل الذي غادرته لم يغادر حيرته، همسَتْ له دون قصد لكنه لم يكن ليسمعها في تلك اللحظة من التوجس والوجوم: "لقد مات أبوك، ماتَ سولومون، انهار به جسرٌ للقنادس وغرق في النهر عندما كان يُلاحق أرنباً برياً"!.

كان ينظر إليها لكنه لا يرى، يسمع صوتها لكنه لا يفهم، يحبس صورتها في ذاكرته التي لم تعد تتسع!

***

كانت السفينة تنساب في الماء كانعكاس سحابة لا يشعر بها أحد، في منتصف الظهيرة تحوّل أعلاها إلى مكان سياحيّ ضخم ونادٍ فاخر يضجّ بحركة هادئة حيث الترف والرفاهية بلا حدود، الفتيات المُثقلات بالثراء جلسن في مقاعد طويلة مخصّصة للتشمُّس، انشغل بعض الشبّان بالألعاب، وارتخى كِبار السن في مقاعدهم الوثيرة ناحية الظل قبالة الواجهة البحرية. اختفت المعالم البرّية منذ زمن. هناك مَنْ يقرأ كتاباً، ومن يدوِّن الملاحظات، وبالطبع؛ حتى في هذا المكان الراقي، هناك من يشغلن الصوف بالإبر وسط هِمّة العمال ولسعات الشمس في أشعّتها ورعشات البرد في ظلّها. حمل النادل سلطانية فضّية

مليئة بحلوى السكاكر المغلفة وقدّمها إلى الركاب، بينما وَزَّع ساقي المشرب الوسيم صينية مليئة بكؤوس الشراب الفاخر والغمزات والابتسامات ومشروب الشوكلاته، إذ لم يكتشف العالم آنذاك تقديمها بشكل آخر! دسَّتْ له مراهقة شقيّة ورقة صغيرة تحمل رقم غرفتها في جيبه، ثم بصق على الأرض رجلٌ متدين.

في قاعة الطعام الواسعة، جلستُ غير عابئ بالفتيات الجميلات جوار سيدي هنري الذي لم يكن منشغلاً بما حوله، يسيطر عليه خوف بدائيّ، ويتعرض جسده لتعرّق شديد ورجفة، يفكر في ما حدث صباحاً مع العرّافة الغجرية التي اختفت كأوراقه النقدية وقطعة الذهب. نظر هائماً إلى الطاولات ولوحة الحوت الأزرق في المياه الزرقاء والتي كانت لا تُرى جيداً إلا من مؤخرة القاعة؛ حيث يجلس سيلاس بوروز برفقة فتاة من الغرفة المجاورة تعرّف إليها قبل لحظات ودعاها إلى المائدة، وبفتور رجل مريض سألني:

- "قل لي يا آيب، هل تعتقد أن العرّاف شخصٌ صادق فعلاً أم هي مجرد تنبؤات تخضع للصدفة والتوقع؟".
- "لستُ أدري يا سيدي، ربما من الأفضل أن تجتنب أمثالهم، فهُم على أي حال قوم همج لا يهمّهم سوى جمع المال، هم أرفع شأناً بقليل من المتسوّلين".
- "لم أقصد ذلك، لكنني أعني... هل يستطيع أحدٌ ما قراءة الكفّ فعلاً؟".
- "لا أعلم! فكما ترى أنا لا أعرّض نفسي لتلك المواقف وأُفضِّل حقاً أن لا أعلم أقداري. لست بحاجة إلى أن أفسد حياتي بالترقب، أنا مرتاح البال هكذا!".

- "حسناً حسناً، أنتَ حقاً غير مُفيد يا آيب، تماماً مثل الهنود. فلتذهب لتحضر لي قهوة بحليب مقشوط".

ابتعد غير راضٍ عن الأسلوب الذي عُومل به، ثم أتى بورروز معتدل المزاج يطلق صفيراً مائعاً، جلس إلى الطاولة، ناداه بصوت عالٍ مليء بالحماس الشديد بينما دفع قبضتيه في الهواء كمن يطرق باباً:

- "أنا مجنون.. أنا مجنون!".

مثلما كان يردد جون ويلكس بوث ومن معه من متآمرين بعد أن اغتالوا الرئيس لنكولن.

- "ذاك المجنون من جديد.. أراك مُعجباً به!".
- "وكيف لا أُعجب به وقد خلّصَنا من جمهوريّ آخر كاد أن يصنع من البلاد مبصقة عملاقة!".

أعجبه التشبيه فضحك ثم قال لبورروز:

- "لو سمعك أبوك تقول هذا الكلام لا شك في أنه سيخرج من قبره ليُرديك فوراً، فقد كان جمهورياً بالفطرة!"
- "هاهاها لا تحمل همّاً يا صديقي، فأنا لستُ بحاجة إليه، أنا رجل حرّ وآرائي مثلي تماماً".

مضيا يثرثران حول الرئيس "رذرفورد هايز" وسياسات الحزب الجمهوري الذي أخذت شهرته في التقدّم على حساب الحزب الديموقراطي والمحافظين، وكيف أنّ الديموقراطيين ينعشون الاقتصاد، وبالتالي يحققون مصالح عديدة أهمها رضاء الشعب دون اكتراث للعالم من حولهم. لكن رغم ذلك يستحوذ الجمهوريون على الحكم تماماً كربة المنزل عندما تقرر من يرافقها إلى السوق.

في المساء كان ركاب الدرجة الأولى الذين لا يتجاوزون مئة واحدة مجتمِعين في الردهة الكبيرة، حول مناضد المشرب المرتفعة، يتناوبون الرقص على أنغام بيانو ضخم يعزفه رجلٌ أسمر، أصوات صاخبة تتبعها صيحات مندفعة من رواد الصخب، ثم ردّد البعض الأغاني الشعبية والرغوة تزول سريعاً من كؤوسهم لانشغالهم عنها بأول ليلة في البحر.

في وقت لاحق من الليل، كان هناك رجل بكامل ملابسه ينتظر عند السياج الخلفيّ للسفينة؛ حيث عباب البحر والمرتفعات المائية الصغيرة والحلقات التي تخلّفها المراوح العملاقة وراءها كأثر للحركة، في تلك البقعة فقط يمكنك أن تحدّد إذا كانت الباخرة تُبحر فعلاً أم لا. حرص هنري أن يعرف كافة التفاصيل الخاصة بالرحلة ومتابعة خط السير على الخريطة ومعرفة عمق المحيط وأكثر الأماكن خطورة وحالة الطقس في هذه الأيام ومستوى الأمان وجاهزية قوارب النجاة ويقظة القبطان وصلاحية المحرك البخاري وحجم مخزن الفحم والماء والقهوة وعزل الموقد الرئيسي عن الخشب وغيرها من أمور. لم يتمكن منه النوم ولم يأخذ قيلولة أو راحة منذ أن صعد على المتن. قضى ذلك الليل يمشي وحيداً خائفاً دون وعي، يبحث عن تلك الغجرية التي لن يجدها، وأخيراً عاد إلى غرفته، أشعل غليونه وفتل شاربه ثم استلقى على السرير دون أن ينزع حذاءه.

مضتْ الأيام، وهنري منغلقٌ على نفسه، يعيش في عالمه الخاص، يحدّق لساعات طويلة في الماء الذي تنحره أجنحة المراوح البخارية كل يوم، يقف في مؤخرة السياج الذي أصبح مكانه المفضل والشمس تغرب كأنها تخرج من البحر حامية، يستقبل طيف المساء بنسمات باردة وبعض الضباب، البحر يكتفي بنظرة يتيمة إلى السماء المجوّفة، ذلك

المشهد الذي يتابعه الركاب داخل السفينة وخارجها، تسلّل المحبون إلى المقدمة وأياديهم تتشابك. استندت الأيادي المكرمشة على عصيها أو إفريز الحديد القريب وتأّملتْ، هناك من يلتقط المشهد إلى الأبد عبر الكاميرا، ورائحة احتراق لمبة الفلاش تضيف جوّاً غريباً وذكرى مستقبلية، أصوات الملاعق الفضيَّة والشوكات ترِنّ في بساطة، هُتاف من المقدمة؛ يبدو أن هنالك سفينة أخرى في الأفق، تفوح رائحة الزهور من حوض كبير في المنتصف والساقي الإسباني يغني لحناً تراثياً قديماً عن السفر في الليل ويدقّ العديد من الرجال مقدمة ومؤخرة أحذيتهم الخشبية على الأرضية الزلقة لتَصنع نغماً موازياً للسلّم الموسيقي، ضجّ المكان بالجميلات "متشمّسات الظهيرة" وامتلأ برجال أنيقين يرتدون ملابس عصرية وسترات ناعمة وقبعات مرصّعة بالمجوهرات، وقفوا يتأمّلون في شرود لحظة احتضار يوم آخر. ومع ازدياد سرعة الساقي مغنّي الفلامنكو تصاعد الدخان وأحاط الفتيات بهالة فاتنة وأفواههم تنطق بالنمائم الحمراء التي اصطبغت بأحمر شفاههن (ربما لقذارتها!). اللواتي كُنَّ لا ينتظرن أحداً، ومن بعيد كنّ يشعلن أحلام كل الرجال. تمضي السفينة ويبتعد البرّ إلى درجة أنه أصبح كفكرة عُلِّقتْ من خيط نور أصابه الملل.

مضت الأيام على ذلك الحال، وأتى قلب المحيط المظلم؛ حيث العمق المُخيف. وخلال أصعب اللحظات وأشدّ العواصف البحرية وثورة الأمواج كان هنري متأكداً بأن تلك العرّافة صادقة، لكنّ حدساً صغيراً لديه يخبره بأنها احتالته وهو الرجل الذي طالما كان يحتال الجميع بالعلم والعمل.

على متن تلك الرحلة، في الدرجة الثانية والثالثة ودرجة أخرى غير مسمّاة لا يعلم عنها بوروز وهنري وأمثاله شيئاً، كان هناك عالمٌ آخر لا

يشعر به أحد، عالم غير مرئي تماماً، يعيش على مخلفات الدرجة الأولى ولا يحظى بأدنى اهتمام. في ليلة شاحبة ماطرة تُنذر بالسوء، خرجتْ تلك العرّافة من هناك. وما إن شاهدته في نفس المكان الذي التقته عنده أول مرة أدركت ما يمكن أن يحدث لاحقاً، عادت سريعاً إلى الصفوف المظلمة للمنسيين، حيث تتفسّخ أجسادهم ويسدّ الجوع رمقهم، الجدران القاسية لم تعد تسمح لأحلامهم بأن تتحرر.

كان البحارة في كل ليلة يغنّون أغنية "البحار الكبيرة"، كل ركاب السفينة يستمعون إليها، بنفس الحنين والتساؤل وتثير ذات الحيرة في نفوس المُغنين التي أرهقها العمل.

"لماذا نحن راحلون؟

وأنتِ باقية.. باقية

أيتها البحار.. نحن دوماً متعبون

وأنتِ ساهرة.. ساهرة

المعركة دامية

بين الماء والغريق

يشاهدها الموت وأنتِ لاهية.. لاهية

نحن نحلم بالديار

والديار من قلب المحيط

بعيدةٌ تائهة.. تائهة".

١١
جرف الخلاص المتصدّع

الرحلة البحرية الأولى في حياة هنري، برغم طولها ومخاطرها، كانت سريعة ولم يشعر بها لكثرة المحطات ولدوافع أخرى، أما هذه المرة فقد كانت تحدّياً مُرعباً؛ في ظل الأخبار التي تتوارد كل فترة وأخرى عن غرق السفن وتحطُّمها. كان يعتقد بأنه إن تمكّن من عبور المحيط والنجاة لن يموت أبداً في الماء ولن يغرق وسيتحصّن منها، كما حدث قبل زمن طويل مع الرمح الهندي، ففكرة الغرَق كلما راودته أقرَّ بأنها مِيتة شنيعة لا يوجد أسوأ منها، أمرٌ مرعبٌ لا يناسبه ولا يليق به؛ يعتقد جازماً بأنه سيموت في سريره أثناء النوم. "هادئاً" كما كان يقول.

وجد هنري نفسه أخيراً في تلك المنزلة المحترمة؛ حيث يخفض له الرجال رؤوسهم، ينحنون له خافضين قبعاتهم أثناء إلقاء التحية. فهو طوال حياته لم يكن يملك شيئاً عدا طموحه، لا يحدّه إلا الموت عن المُضيّ قدماً في أخذ نصيبه كاملاً من الحياة، فهو يريد أن ينسى خيباته وتعويضها، يدفعه قلق ورعب من ماضيه، يحاول أن يكون شخصاً مثالياً في مقبل أيامه، أرادَ أن ينسى كيف عانى والده بعد أن أخفق في جنْيِ المحصول، رغب في أن يمحو عن يديه آثار عود الجاروف والبَلطة ولسعة الصخور الساخنة والاحتطاب، أن ينسى كيف كان حماراً يعمل بمجهوده العضلي فقط؛ حمار المزارع الذي يواجه الشتاء دون غطاء أو مدفأة أو عشاء، أراد أن يغيّر نسله ويكوِّن أسرة مستقرة وأطفالاً متعلّمين، ساسةً ومهندسي طُرق ومخترعين، فهو ابنُ أجيالٍ توارثت الجاروف والبذر في الحقول، وهو سليلُ الأرض منذ عصور أجداد أجداده، فجدّه لأبيه "وِلْكَم الكبير" كان مهاجراً جائعاً، يتنقل

من بلاد إلى أخرى، طريداً من أقاصي الشرق مروراً بالغرب دون انتهاء، لكنه فلح الأرض أينما ذهب وذلك لم يغير شيئاً. لا يريد أن يكون مثل "كورتيس"؛ جده لأمّه، الذي يُحكى بأنه كان إنْ حصَد ما يكفيه في الشتاء، وخزَّنَ ما يحفظه من الحبوب حتى الموسم المقبل، يجلس جوار الموقد لا يعمل أبداً. إلى متى ستظل سلالته على ذات الوتيرة القاسية التي لا فائدة منها؟ ما فرقهم من الهنود؟ لذا لم يكن دافعه شخصياً؛ بل كان دافعاً متوارثاً لأجيالٍ خَلَتْ، تحمل مهمة أن تكون ذاتَ شأن، تلك الجينات بحماسها وطموحها التراكمي الفريد اكتسبها هنري، لِتَجْتَمع فيه رغائب أجداده وآمالهم، أحلامهم بأن لا تُراق مياه وجوههم أكثر من ذلك، أن يكون لهم وطن؛ فقد كانت خديعتهم كُبرى بأرض الميعاد التي لن يتركها لهم الأوروبيّون بعد أن وجدوا فيها من الثروات ما جعلهم يتحاربون ويموتون فقط لأجل حفنةٍ من الذهب.

طالما كان يسأل نفسه: "كيف يُكتب لأبناء يهوذا بن يعقوب؛ مؤسس هذا العالم، الرحيل مرةً تلو الأخرى؟ كيف لا يكون لهم وطنٌ يحميهم وأرضٌ ينتمون إليها ويحكمونها؟ كيف ذلك!؟ كيف للأسباط[11] أن يهيموا على وجه البسيطة كالغجر أبناء الريح؟ لقد تعرّضوا للخديعة مرات عديدة على مرِّ التاريخ، وأُبْعِدوا عن الشرق الأقصى والأدنى وأوروبا الشرقية والغربية. يا للحسرة يا للأنانية البشرية! كيف يخدعهم ملوك بريطانيا وإسبانيا وفرنسا بأن العالم الجديد هو أرض ميعادهم ويحنثوا بالوعد؟ لماذا، بعد أن تركوا الأرض لليهود حتى فلحوها وقضوا على هنودها الملاعين ونشروا معالمهم فيها

11- مصطلح من التناخ اليهودي ويُطلق على أبناء يعقوب بن إسحق بن إبراهيم الإثنا عشر.

ثم بلا أدنى تعب، عادوا ليحصلوا عليها؟ آآآه! يا ترى ماذا يحمله لنا الزمن أكثر من ذلك؟ هل سيكون مصيرنا كمصير الهنود الحمر؟! إنّا نُحَرِّق أطفالهم ونستحيي نساءهم ونستخدمهم للتجارب، يا ويلنا لو حدث لنا ذلك، يا ويلنا! لا يوجد لإنقاذنا سوى العمل ومكانتنا الاجتماعية والثروة. لا يوجد حلّ آخر؛ فلكي يكبر الجنين عليه أن يمتص دماء أمّه بكل قسوة لتستمر الحياة. يجب أن نُولد من جديد. في مكانٍ ما. بقوةِ الكونِ أجمعْ".

تركتْ السفينةُ وراءها عشرات الأيام في ذلك المحيط، حتى البرية لم يعد تخيلها سهلاً، كأنها لم تكن موجودة من قبل، تكيَّف الكل مع الزمن الذي لوهلة يشابه السكون المطلق، فهنري يقرأ ويكتب الملاحظات، لا يخرج من مكمنه إلا نادراً في قلب المحيط الثائر وسط الأمواج العالية والخطر المُرتقب كسحب سوداء مُنذرة بالموت. وفي الأثناء التي تضرب الأشرعة بعضها وتنتفض، ويتمايل الصاري بقوة، ويضرب الماء زجاج القمرات، ويمكن لمن يشاء أن يرهف السمع لخياله فيتبيّن مناجاة الحيتان لبعضها وصرخات الرِّنجة واصطكاك أسنان القروش الفتاكة، ومع زوال كل ليلة ونهاية كل عاصفة وشروق شموس جديدة، كانت الهُوّةُ تزداد ألماً، لكن سمعة السفينة كانت جيدة بحيث يطَمْئن كلٌّ نفسه قائلاً: "حتماً في النهاية سوف نصل!" وذلك هو العزاء الوحيد لتحمّل الأمر.

تتوغل السفينة في المحيط، كما تتوغل أفكار هنري حول وجوده وأصوله، الماضي ونسيانه، الغجرية ومستقبلها المزعوم، الجرف الصخري شديد الانحدار، الذي يجد نفسه فيه دائماً. في أحلك الأوقات وأصعبها، يصوِّر له عقله مكاناً غير آمن يسقط فيهِ فجأة، الأرض تحت قدميه ليستْ مستقرة، ستزحلق ويقع كل لحظة، الهاوية

العميقة السوداء تفترسه، تختبر ثباته وقوته، تستشعر درجة حرارة جسده ودقات قلبه، كأناكوندا يرقد في جوفها فيلٌ ضخم وترغب بالمزيد. يقف هنري في تلك الحافة متشبّثاً بأحلامه فقط، متعلقاً بحبل من خياله الجامح، معتمراً قبعة عالية من الحذر، متوسّداً الهواء المسالم، الذي وإن مرَّ في جرف خلاصه المتصدّع حمَله إلى مكانٍ عالٍ، ليبني فيه من تلك الخيبات والصخور سرايا، سرايا صخرية كبيرة، ستحميه ويتربّع على عرشها كمن يتربّع على سادة العالم، لن يدع مجالاً لأيّ حجر أو صخرة مهما بلغ حجمها أن تهرب من يديه، سيبنيها بالآجرّ ويرصّها بإتقان، سيبني من الفشل سُلّماً يبلغ به الثُريّا، سيستفيد من كل ما يمكن أن يُسْقِطهُ هناك، في ذلك الجرف الصخري المتصدّع، الذي تسقط فيه روحه كثيراً، ويُنادَى إليه دائماً عندما تكون أعماقه مثقلة بالهموم والمخاوف، كأنما كانت تلك الحيلة التي يخترعها عقله لينجيه من نفسه، نفسه التي يخافها جداً.

سيظل عالقاً في ذلك الجرف حتى تصل السفينة إلى ميناء مدينة ليفربول، لم يكن يخرج ليختلط بأحد، ولم يكن يلبّي النداء عندما يطرُق أحدهم بابه المغلق دائماً من الداخل بإحكام، بين دواخين غليونه وفتلة شاربه ورائحة جواربه المتسخة وحقيبة السندات والأوراق المالية والذهب.

تلك الهوّة التي يسقط فيها عقله، دائماً ما يستغلها بشكل كامل ليروّض أفكاره وقناعاته، ليحرّر روحه ويمنحها الخلاص، ليرتّب القادم البعيد، فارداً أمام مخيلته خارطةً لملايين التوقعات، فاليوم سيدخل عالماً جديداً بعد أيامٍ لا تُحصى من الإبحار، والتفكير، غداً سيكون غريباً من جديد، كجدِّه الأول الذي لم ييأس. بمجرد أن يكون للرجل من يحمل اسمه، يكون قد نجا من اليأس، فهناك من سيكمل المهمة نيابة عنه، ويحقق الرغبات.

وسط الازدحام الشديد على مدّ البصر توقفت المحرّكات، وسُحبت السفينة إلى داخل الميناء. الهواء فاسد، يستطيع هنري أن يعرف ذلك من خلال النظر عبر النافذة. الجوعى في هذه البلاد يأكلون طعاماً أفضل بكثير من أقرانهم في أمريكا، تذكّر الرجل الذي سأله شمعة ليأكلها. الشحاذون هنا يمارسون الفنون والألعاب لاستدرار العطف، الباعة المتجوّلون يجوبون الرصيف في أدراج متحركة، أعمدة الإنارة مشتعلة في خط طويل ملتوٍ، الأبنية عالية ونظيفة وبعضها مطليٌّ بالقار، الرجال مهندمون يحملون الكتب والصحف والخبز الطازج وزجاجات الشراب الأحمر، النساء يرتدين الملابس الفضفاضة المنفوشة ويرتدين قبعاتهن المرعبة ويضعن كثيراً من المساحيق، العربات مشدودة بإحكام، في هذه البلاد يركب الحوذيّ في المؤخرة، عجيبٌ أمر هذه البلاد التي حتماً تشرق الشمس من خلف إحدى قلاعها فريدة الطراز، إنها انكلترا بلد الحرية والمعجزات والأحلام.

لكن الهلاوس لم تفارقه منذ وصوله برغم محاولاته لتفاديها بالتركيز على منظر المدينة ودراسة طبيعة المجتمع عبر مظهر الشارع، ستلازمه دائماً في مثل تلك المواقف، التي يكون فيها في المنتصف بين الخيارات الدقيقة، وهي اللحظات المصيرية في حياته. قضى وقتاً عصيباً طوال الطريق وحتى وصوله إلى لندن عبر القطار، هناك ارتاحت روحه بين الضباب وفوانيس الغاز وصافرات رجال الشرطة وقبّعاتهم العالية.

12
سيمفونية لندن الخالدة

لم أكن أتصَّور أنه سيحبّ لندن، بل لم يحبها فقط! لا، بل أراد أن ينمو فيها كشجرة إن قُطعت نبتت من جديد، أراد أن يكون كجذورها ضاربة في قلب الأرض. حَلُمَ بأن يكون جزءاً من تاريخ هذه المدينة بطابعها الڤيكتوري العظيم. رغم أنه عاش في طفولته جوار نهر في الغرب الأوسط الأمريكي إلا أنَّ نهر التايمز سحَره ونال منه تماماً. فكان يخرج يتمشى حتى "وستمنستر" وقد كان معجباً إلى درجة الهوس بطابع المدينة وبنائها الحجري القوي المميز وطرقاتها المرصوفة والمُضاءة بالقناديل الزيتية القوية داخل زجاجات عالية. كما سلبت لبّه الساحات والميادين المُخضرّة والكاتدرائيات العتيقة والشرطة المنتشرة في أدب والمتاجر في بيكاديللي والخياطون المَهرة والسُّترات باهظة الثمن والأحذية الجلدية والعطور التي تُهرَّب من فرنسا؛ لكنه كان مأخوذاً بمبنىً معين وهو كاتدرائية وستمنستر الغربية والجسر الذي سيقضي في تأمله وقتاً طويلاً. يجلس في مصطبة الدير ويُخرج غليونه ويدخّن، كأن روحه تلك اللحظة تصعد وتترك جسده خاوياً يتصرّف وفق نمط معين؛ مجرد حركات ميكانيكية ضرورية، مثل هشّ ذبابة أو حكّ مؤخرة رأسه وتحريره بين لحظة وأخرى من القبعة العالية، تنتشله من موته السماوي دقات ساعة برج لندن، فيعود إلى واقعه كرجل انزلقت المقصلة دون أن تقطع رقبته فصاح الجمهور: "اتركوه... اتركوه" فحُرِّر ومضى تاركاً وراءه جثة رجل دون رأس تَنِزُّ منها الدماء!

أنا أيضاً بهرَتني لندن، ربما أكثر منه، لكنني دائماً ما كنتُ كائناً خفياً أعيشُ في ظِله، أختفي حين يظهر كظل قاتم حجَب عنه النورَ شيءٌ ما،

لا أواجهه نهائياً، لا أتحدث إلا إنْ سأل، ولا أراه إلا عندما يرسل في طلبي. في الحقيقة، أنا مُعجبٌ به. لقد حوّلني من حيوان برّي في فمه لفافة تبغ إلى رجل يعرف كيف يعمل. لذلك أنا مدينٌ له بالكثير، وأعرف عنه أكثر مما يعرفه عن نفسه.

نزلنا في شقة فاخرة مجهَّزة بأحدث ما يكون في قلب الويستمنستر، أَحَبّ وِلْكَم المكان وسرعان ما أصبح جزءاً منه. شارع (ماريليبون) الراقي المرصوف بالكامل، كان جيّد الإضاءة وحيوياً برغم متاجره الصغيرة الجميلة. عشنا في وسط متحضّر ورجال سكوتلانديارد يجوبون الشوارع حولنا خصوصاً في الليل، بزيّهم الأسود وخوذاتهم الضخمة كبيضة النعامة، جوارنا الأكاديمية الملكية للموسيقى التي جعلتني أحبُّ موسيقاهم، أحببت الأكل في مطاعم (سوهو) وجرّبت قائمة الطعام كلها، شربت الشاي على الطريقة الإنكليزية الشهيرة، تعرّفت إلى الحي الصيني ووقعَت في غرامي فتياته الصغيرات الجميلات بأعينهن التي تشبه شعلة السيجار! لطالما أحببت الفتيات الشرقيات. أنا لا أتعب من المشي، أمرّ بشارع بيكاديللي ولا أتعب، أرتاح في ساحة كامبردج ثم أعود بطريق مختلف عبر الهايد بارك، مكان جيد لرمي الطيور بالنار من مسافة قريبة. الهواء يُخلق من ذلك الميدان العشبي. كل يوم أتعرف إلى العديد من الأماكن، وهكذا يمضي بي الحال.

أنا أشعر بأني سائح، لكن الأمر مختلف مع وِلْكَم الذي أودع أمواله في شركة بوروز، سُوِّيت الأمور القانونية ورُتّب له مكان خاص، بدأ يقف على أحوال العمل ويتعرّف إلى الموظفين والباحثين والأطباء وتجهيزات المُختبر، المصانع التي تعمل الشركة وكيلةً لمنتجاتها، الأدوية المُحضَّرة عبر معامل الشركة، وضْعها المالي والوظيفي، عدد الأفرع

وموّردي الأحماض والأعشاب والمحاليل، طريقة التسويق ونوافذ البيع، وبالطبع عائلة بوروز، زوجته الجميلة وأطفاله، أصدقاء الشركة وإعلانات الصحف؛ باختصار كل شيء. خلال أشهر قليلة كان يَعرف أدقّ التفاصيل عن الشركة التي تحوّلت إلى (Burroughs Wellcome &).

دخل إلى المختبرات، وخصَّ نفسه بمعمل غاية في التكلُّف، مجهّز بأدوات أُحضِرتْ خصوصاً من ألمانيا ومكتب وثير يطلُّ على بهو الاستقبال، وخلال سنتين فقط حقّق نجاحاً كبيراً وتوصّل إلى العديد من الوصفات الطبية الناجحة، مثل وصفة لعلاج مرض الأسقربوط الذي كان يفتك بالبحّارة، ومرهم الناسور، وشراب ناجح للهيموفيليا، إضافة إلى عدة عقاقير أخرى. استخدم سلاح البحرية الملكي بعضاً من منتجاته في حروبه الطويلة وأثبتتْ نجاحاً مقنعاً، لكنني دائماً ما تساءلت: "كيف لرجل مثله أن يفعل كل هذا! -مثله- كما أعرفه أنا وليس كما يعرفه الجميع!".

كنتُ شاهداً ذات مرة حينما حَضَّر دواءً لأحد الأمراء ودخل قصر بكنجهام. نجح في التقرب من الأمراء والأميرات وأصبح محبوباً لديهم، يعرفونه جميعاً بأنه الرجل الذي علّم نفسه بنفسه ولم يقدّم له أحد المساعدة، كانوا معجبين به وكان يفخر بذلك! ومذ أن تخرج من مدرسة فيلادلفيا للطب والصيدلة، أصبح لا يشاركني الحديث كثيراً. لكنه عندما يبدأ بالثرثرة لا يتوقف، وغالباً ما أكون في مزاج لا يسمح لي بالتفاعل مع حكاياته، لكني أحفظها جيداً، رغم عدم اهتمامي حقاً ببعضها. كان يريدني أن أكون شاهدَه، دليلَ وجوده في هذا العالم. باختصار كان يريدني أن أحكي عنه، لذلك كان يخبرني بكل ما يجوبُ في رأسه، حتى الأحلام.

في نهاية العام 1886م، وفي الشهر الذي مات فيه جمهوريٌّ آخر، وهو الرئيس الأمريكي تشستر آرثر الذي طالما لعنه الجميع، بسوالفه الشبحية وكومة الشحم التي تتوسّط جسده، وهو نفس العام الذي بدأت فيه أمريكا تهتم بالفن والنُّصب التذكارية وصنع تاريخ لدولة حديثة، في ذلك الشهر نظَّم وِلْكَم وسيلاس بوروز حفلاً كبيراً باذخاً واحتفلا بالنجاح الكبير الذي حققته الشركة، وهي أول مرة تستوعب فيها قاعة "ألبرت" الملكية أكثر من ألفي شخص، ولم يجد الويستمنستر راحة من صوت عجلات العربات وطرقعة حدوات الأحصنة الرنانة. أعلن الرجلان خلال الحفل الفريد عن جولة حول العالم للترويج لمنتجات طبية وصيدلانية جديدة، وطبعاً بعض المستحضرات الأخرى. كنتُ أقف كحامل الدروع الحديدية، أقارن أمسي بيومي وأحتفل وحيداً، فقد كان الحفل ملوكياً، وعلى الملوك العظماء أن يعيشوا وحيدين بعيداً عن أمثالي!

أتى النبيذ من سكوتلاندا وجبن الماعز من فرنسا، وذُبحتْ العجول الويلزية المُدلّلة، وأنارتْ ألفُ شمعة الحدث الفريد، نُصبت الكاميرات في الأركان، واصطف الصحفيون والمراسلون جوار بعضهم يختلسون النظر إلى سترات الدبلوماسيين الفاخرة، وينتظرون تحقّق الشائعة التي انتشرت بمصداقية أعلى من كونها حقيقة، وهي مشاركة شخصيات من البلاط وسياسيين رفيعي المستوى، لكن لم يدر بخلد أبرع الصحفيين أن رجلاً مثل ويليم غلادستون؛ رئيس الوزراء نفسه، سوف يكون حاضراً، الرجل الإيرلندي الحرّ الذي قدّم الفرصة لمواطنيه أخيراً في حكم أنفسهم ومنَحهم بعض الحريات، لكن المفاجأة الكبرى كانت في الأمير الذي لا يظهر كثيراً، القابع بين قصور ويلز الصخرية؛ الأمير صاحب الأزياء الغريبة والنجمات الذهبية وعصا الكهرمان الرفيعة، ولي العهد الأمير ألبرت إدوارد؛ نجل الملكة

ڤيكتوريا شخصياً، يا للهول! أين أنا بحق الجحيم؟ يا لك من شخصٍ عظيم يا سيدي وِلْكَم.

المجتمع اللندني الحقيقي كان هُناك، أصحاب المقامات الرفيعة والامتيازات من اللوردات والدوقات والجميلات، الذين يستمعون جيداً قبل أن يستأذنوا في المقاطعة أو مخالفة الرأي، الفرقة الموسيقية تبذل أداءها في شاعرية، رقص الجميع على النغمات الإلهية الرائعة.

لم أهتم للمزيد من رموز السياسة والفن والمجتمع ورجال الأعمال، فقد أصابتني التخمة مما شاهدت وعرفتْ. وتخيّلت اليوم الذي أعود فيه إلى أمريكا وأحكي فيه عن ما شاهدت، حتماً لن يصدّقني أحد هناك، فأهل ساوث بند؛ بلدتي، يهتمون بما يدور خلف نهر سان جوزف أكثر من أي شيء.

لم يعد يخفي دهشته، فقد اكتشف وِلْكَم أن الجميع يعرفونه هنا من خلال منتجاته وسُمعته، وأن شهرته ضربتْ الآفاق وصوره تملأ الصحف والنشرات الطبية، وبفضل شاربه الذي يمكننا الآن أن نطلق عليه "كائناً مستقلاً" كان لا تُخطئه عين وهو يحمل تلك العلامة المسجّلة أمام وجهه. سمّاه أحد الصحافيين "ربّ الطب الحديث". وبالطبع لم ينسَ وِلْكَم أن يرسل إليه "باقة الزهور"؛ التي تعني المال! رحّب به كل المعازيم في بلده الثاني بريطانيا التي يقولونها باعتزاز مع رَفعة يد وتكلّف واضح، لم أحبه.

المغادرون تمنَّوا له الراحة والسلام، وهو ينحني هنا ويقبِّل يداً ناعمةً هُناك، ويشارك نخباً أو يشعل عود ثقاب لمدخنٍ أصلع. أهدَى وِلْكَم إلى ولي العهد تحفة أثرية تعود إلى "الآراواك"، وهم أول من قابلهم كريستوفر كولمبوس عند اكتشافه العالم الجديد. نالتْ التحفة إعجاب الحضور وكان سعيداً بها. نجاح الحفل، وشراكته مع بوروز،

ومكانته الجديدة في المجتمع الذي طالما اعتقده مثالياً، أثارته وعزّزت الثقة في نفسه. وبينما كان يُقدَّم إلى هذا أو ذاك، أو يقف لالتقاط صورة أو للتعطف بابتسامة على سيدة مُسنّة أو طفلة مزعجة، ظهر أمامه فجأة شابّ بهيّ الطلة، يرتدي حلّة شديدة السواد من قطيفة ليس لها مثيل، وله شعر كثيف ككلب البطباط، يضع في قدميه حذاءً بكعبٍ عالٍ، قدّم نفسه بأدب وتواضع جمّ، كان وِلْكَم قد سمع به وقرأ بعض قصائده وما يُكتب عنه في الصحف، لكنه سبق وأن قرأ له مقالاً عن "مذبحة سوق القش" بشيكاغو في صحيفة "بول مول غازيتا"، وبمجرد أن قدّم شاعر أوكسفورد نفسه حتى ضحكا معاً، رحّب به واعتذر بأنه لم يعرفه، تبادلا أطراف الحديث وأخبره وِلْكَم بأنه أتى على نفس الباخرة التي سافر بها إلى أمريكا "إس إس أريزونا". سريعاً جمعتهما إلفة لطيفة وكأنهما صديقان منذ زمن. لم يكن وِلْكَم يعلم أن أوسكار وايلد إيرلنديّ متعصّب أتى إلى الحفل من أجل هدف خفي؛ وبالطبع للتعرف على الصيدلاني الأمريكي.

أهداه كتاباً وطلب منه أن يقدّمه إلى غلادستون، لم يكن ذلك سهلاً لكنه حدث، من وراء الطاولة بدأ أوسكار يتحدث عن ضمير الأُمة وقضايا إيرلندا والكثير من الهراء الذي لم يكن أحدٌ ليتحمّله تلك الساعة، انشغل وِلْكَم مع ولي العهد بحديث خافت، فلنسمِّه حديث ما بعد منتصف الليل. حكى له الأمير إدوارد بعض المشاكل الخاصة التي لا يجب أن يعرفها أمثالي من عامة الناس؛ كما قال لي وِلْكَم. بدا الأمير تعيساً متورّماً في بشاعة أخفاها جيداً في زيّه الملكي، وهو الوحيد الذي لم يتخلّ عن معطفه أو قبعته العالية العريضة طوال الحفل. ثم استمع جيداً إلى مغامرات بطولية في سلاح الخيالة الأمريكي - حفنة أكاذيب باهرة- وكيف صرع دباً ذات مرة بنصل البندقية، حكى له عن مقتنيات نادرة ووصفات سحرية، وبالطبع

قصة الحبر السري وحمى الذهب في كاليفورنيا وكيفية البحث والتنقيب، وأظهر له خبرة كبيرة في الجيولوجيا والفيزياء والكيمياء وغيرها من علوم، ثم حكى عن عمله لفترة بالتطبيب في فيلادلفيا وكيف كان لا يوجد مخدر أثناء العمليات الجراحية، أخبره عن نقب الجمجمة واستئصال أورام الأمعاء والتوليد القسري وكثيرٍ من الحكايات الدموية التي لم تنل استحسان الأمير الذي أخذ يستمع جيداً إلى السيمفونية الأخيرة يفكر كيف سيستفيد من رجل ذكي وعبقري مثله.

في منتصف العام 1888م، طوَّرَ وِلْكَم أسلوب الشركة في التسويق، جعل لمنتجاته مُلصَقات في شوارع أحياء لندن وبقية مدن انگلترا وأوروبا، جعل للشركة وكلاء وفروعاً إقليمية ودولية وأحدث توسعةً على مستوى المعامل وأماكن التخزين والمكاتب. يعمل لديهم الآن أكثر من 500 موظف -خلافي أنا، فقد أصبحت مساعداً شخصياً له-، لديهم الآن أكثر من أربعين منتَجاً، كما فكر في الدخول وجنْيِ الأموال من خزانة الدولة فأرسل هدايا طبية ولقاحات إلى الجنود المشاركين في حرب البوير بجنوب أفريقيا، كما دعمت الشركة المدارس الطبية والمستشفيات ونشَرتْ ثقافة الوعي بالأمراض وأهمية التداوي لدى الأطباء، وكلما زاد وعي المواطن الڤيكتوري المتحضر زادت أرباح الشركة حتى وصل حسابه في بنك روتشيلد رقماً غير مسبوق.

شارَكَ وِلْكَم في بعض الجولات الدعائية، لكنه لم يكن يفضّل ذلك. لديه الآن الوقت ليقرأ كثيراً. يخرج في أيام العطلات في رحلات للتنقيب والبحث عن الآثار وممارسة هواية الحفر في جبال إسكوتلاندا تحت ستار رحلات الصيد والتخييم، وكان يبحث عن مكان آمن بعيد عن الأعين ليجهّز فيه معملاً خاصاً وخفياً يُجري فيه بعض التجارب

المخبرية. وجد ضالّته أخيراً في أحد أفقر مناطق لندن الشرقية "تاور هامليتس"، تحديداً في المكان الوحيد الذي يكتظّ بالسكان؛ حي "وايت تشابل". اكتشف المكان بالصدفة عندما كان يتمشّى ليلاً، وهي عادة اكتسبها بعد أن انتقل للعيش وحيداً في "وست اند". كان يخرج ويمرّ بوسط الويستمنستر ثم يتسكع قليلاً في ميدان سانت جيمس، ماراً نحو نهر التايمز عبر شارع بيردكيج الخلفي، ويقف قبالة النهر قليلاً ليدخن الغليون ويتأمّل. تلك الجولات أغلبها كان قبيل منتصف الليل بقليل؛ حيث يجد الشوارع خالية من المارة إلا قليلاً، ويستطيع أن يفكر ماشياً في هدوء دون ملاحظة أحد. ريثما يكمل تبغه تدقّ ساعة البرج اثنتي عشرة دقة فيمضي عائداً. يستقل عربة خاصة في بعض الأحيان حتى برج لندن، ومن ثم راجلاً عبر الشوارع الخلفية غير المُضاءة بشكل تام ويعرج إلى الحي البائس. في بعض المرات القليلة يجلس في محطة المترو ليتأكد من ألّا أحد يتعقبه، وأخيراً يجلس في أحد مقاعد ساحة ميتري الخلفية في قلب الوايت تشابل، حيث لا هدوء ولا تدخين دون مقاطعة عاهرة جميلة تعرض نفسها وتعد بتقديم الأفضل أو هجمة لصّ يخرج سلاحه في الظلام. لم يكن وِلْكَم يعرف للنساء معنىً أو يتخيّل مدى ما يستطعن تقديمه من متعة، لذلك لم ينتبه إليهنَّ بتاتاً، بل كان يقبع هادئاً ليراقب الغُرباء الذين يدخلون الحي بنوع من الخجل وعدم الرغبة في التعرف عليهم، يَحْنون ظهورهم ويرفعون ياقاتهم ويخفضون قبعاتهم ويديرون وجوههم إلى الأرض بعيداً عن أعمدة النور ومصابيح الشوارع الضبابية.

***

في ساحة الملك جورج وجدتْ فتاةٌ بدينةٌ رجلاً وحيداً متكئاً على مرفقه يتابع الحركة الليلية المتواضعة بالنسبة لحي تحوم حوله الشبهات،

كانت تقاسيمها تحوي جمالاً باهتاً رغم حداثة سنّها، وهي لم تُحظ بزبون لأسبوع كامل، مما أدخلها في كثير من الديون والالتزامات واجبة السداد. اقترَبَتْ منه. ولم تكن تمتهن العهر الصريح، بل تعرض جسدها بخجل أنثوي أحبّهُ فيها ذلك الشخص، فمثلاً لم تكن ترفع رجلاً لتعرض أوراكها المليئة بالشحم أو تكشف عن ساقيها، لم تقترب من وجهه بنهديها البارزين المعطرين بماء الورد، بل تخفيهما داخل ملابسها المشدودة بغلظة. شعر ذلك الرجل بأنها تحمل شيئاً جميلاً وسأل نفسه: "لمَ لا يجرب معها بعض اللهو؟" أخبرته بأن اسمها "تابرام"، وكذب عليها مُستخدماً اسم أحد ضباط سلاح الفرسان الأمريكي قبل خمسة عشر عاماً "فيليب شيردان"!

مضى معها نحو غرفة صغيرة في زقاق فرعي ضيّق، وتصادف أن كان الطقس لطيفاً نوعاً ما؛ في تلك الليلة من بداية شهر آب، تحمل السماء ضباباً لا يحجب النور الواهن. دخل معها إلى غرفة عطنة الرائحة كان البقّ والقمل قد قضيا عليها، شعر بأن الجوّ خانق ولم يتم تهوية الغرفة لفترة طويلة، شمَّ رائحة فضلات الفئران لكنه تجاهل كل ذلك ونقدها عدة شلنات، أغلقتْ الباب المتهالك الرطب بعدها وببطء خلعتْ فستانها الكبير، كانت ترتدي كثيراً من الثياب والقطع المهترئة عديمة الفائدة، وكلما سقطت منها قطعة تدفّق الدم في عروق ذلك الرجل إلى أن تعرّت تماماً، يمكن للشبق أن يتحدث نيابةً عنها فظهر جلياً بأنها تنتظر من هذا الرجل المفتول الشارب والقويّ الساعدين أمراً استثنائياً، وقد صدَق حدسُها بطريقة أو بأخرى!

ارتعد من منظر ثدييها الكبيرين وشعْر عانتها الكثّ الذي كان يمكن أن تخفي منظره القبيح بأن تجدله بسهولة. اقتربتْ منه ووضعت يدَها في المكان المناسب لكن لم يحدث شيء! تدفّقت دماؤه بقوة حتى

احتقن وجهه لكن لم يحدث شيء! أخذت منه معطفه وقبّعته وعلّقتهما وراء الباب ثم جرّدته من بقية ملابسه، كان الضوء وراءه تماماً مما جعل ظله يملأ المكان ويحجب عن العاهرة كثيراً من ملامحه. تحدث إليها لأول مرة وقال متلعثماً بنبرة صوت عميقة:

- "يمكنكِ الآن أن تفعلي ما يجعلني سعيداً".

كانت مُثارة لا تستطيع الانتظار أكثر، نضح جسدها بشهوة مَن لم تذق طعم الحبّ لفترة، أصبحتْ حركاتها عصبية فتارة تضع خنصرها في فمها ومن ثم تُدخله إلى طرف فرجها الذي لا يتوانى عن إقحام رائحته في المكان، أو أن تعتصر صدرها وتتصنّع بعض الآهات والإيحاءات الجنسية. اقتربتْ من السرير وسقطت بجواره، دنت منه وأنفاسها تعلو كموجة عاتية، حاولتْ تقبيله فأشاح وجهه بعيداً مما أشعرها بالحرج لكنها لم تهتم، فهو جديد كلياً هنا، "يبدو ذلك من مظهره". ارتجف قليلاً قبل أن يأخذ يدها ويضعها في موضع رجولته، عندما لمسَتْ يدها الدافئة ذلك العضو الصغير وجدته لم ينتصب بعد، ولن ينتصب أبداً تلك الليلة. بدا عليها التوتر الشديد وفجأة أخذتها نوبة من الضحك. ضحكتْ بجنون ولم تحاول أن تتمالك نفسها. ثم تحوّلت ضحكاتها إلى أصوات مزعجة وصراخ هيستيري ساخر. حاول إيقافها لكنها تمادت فظهرت أسنانها الصفراء المهشّمة ولسانها البشع المليء بالبقع، أزعجته رائحة جوفها المريض وتجشأت بينما تضحك، أخيراً قالت له ساخرة:

- "ماذا أفعل بهذا الصغير؟ هل تُريدني أن أُهدهده لكَ حتى ينام قليلاً؟ هاهاها، لا تنسَ أن تسقيه كأس الحليب قبل أن يكمل نومه، ما هذا الـ...؟ هاهاها، عليك أن تحفظه بعيداً عن البرد و...".

"احذر لسان العاهرة ولا تدعها تسخر منك أبداً مهما حدث". لم يعرف ذلك الرجل أبداً ما حدث له، اهتزّ جسده كدخان كثيف تلاعب به الهواء فبعثره، ارتجف مرعوباً منها وكاد أن يسقط في الجرف المُتصدّع. لم يصدّق أنها حقاً قد قالت له ذلك! أنكر إدراكه وأذنيه الحقيقة! وهي لا تزال تضحك وتضرب السرير بيدها فيخرج الغبار كسيحاً عابراً أمام وجهها الذي تغير كثيراً فقد أصبح قبيحاً مليئاً بالبثور والتكوّرات كأنها تعاني من السفلس. واشتَمَّ فجأة رائحة خَطْمُ الخنزير، وسمع بعض الأطفال الصغار يهتفون في عقله: "حمراء كمؤخرة القرد.. حمراء كمؤخرة القرد"، ودون وعي وضع يده بكاملها ليخفي عورته وشعْر عانته الذي لا يختلف عن شاربه كثيراً. تراجع مصعوقاً يردد في سره: "كيف تجرؤ؟... كيف تجرؤ!". حدث هرج ومرج بالخارج، شعر بأن أمره قد افتضح وأن سرّه لم يعد له وحده، لم يعرف كيف ارتدى ملابسه بتلك السرعة وكيف قذف في وجهها وعاء الماء بأكمله. فتح الباب وهو يحشر ذراعه في بقية معطفه وبيده الأخرى وضع القبعة، لاطفته نسمة هواء نقية كأنه في حقل شوفان، انحرف في الشارع فوجده ساكناً كمقبرة نائية، خالياً من المارّة ودوريات الشرطة، ليس فيه ولا حتى كلبٌ ضالّ. أحسّ بأنه حقير وأنه أتفه من تلك العاهرة. جالت بخاطره مئات الأسئلة وارتسمت في وجهه عشرات التعابير واختنق كأنه ابتلع لسانه، التقط أنفاسه بصعوبة، تورّدتْ عيناه واحْمَرَّتا وخرج زفيره لاهباً.

رغم أنه لا يتذكر ذلك الجزء بالتفصيل، لكنه أخبرني بأنه جرى حتى ابتعد مسافة، لكنها لحقت به بسرعة، تحاشاها وأسرع في مشيته، نادته عندما اجتاز ساحة الملك جورج: "أيها الرجل الغريب.. قف قلت لك". ثم مرَّ من شارع فرعي ضيّق كحبل المشنقة، نادته بصوتها الساحر اللعوب:

- "خذ نقودك يا سيّد شيردان، فصغيرك لا يحتاجني، بل هو يحتاج إلى مُرضعة!".

أخبرني بأنه لم يلتفت إليها ولم يأخذ نقوده وذهب إلى البيت قاطعاً حوالي ثلاثة أميال مشياً على الأقدام، ولأول مرة يكون خائفاً من أمرٍ ما. "إنها لندن، هنا يمكن للعاهرة أن تشكوك للشرطة" أخبرته بذلك، لكنه كان خائفاً من المساس بمستقبله والتشهير بعجزه وضعف رجولته. بعد تلك الليلة بحوالي أربعة عشر عاماً، وفي اليوم الذي كنتُ أقفُ بجواره إشبيناً يوم زفافه، أخبرني بأنه استمنى فوق جثة تلك المرأة دون إرادةٍ منه؛ ذلك عندما وجدها ملقاة على الأرض مقتولة، مليئة بالطعنات، بعد أن عاد إليها من جديد ليمنحها بعض الأوراق النقدية لتسكت نهائياً عما حدث. أخبرني بأنه ما إن رأى جسداً مكوماً في الرصيف حتى عرف أنها هي تلك العاهرة ذاتها، وما إن اقترب منها وشعر بوطئِه الدم أسفل قدميه حتى انتصب عضوه فجأة وأحس به يلفظ حمماً نارية. عاد أدراجه بسرعة قبل أن يتورط في الأمر. كان يشعر بأنها قد نالت جزاءها وأقل كثيراً مما يرضيه، حزن على أن هناك من قد يقتل شخصاً لمجرد أنه يملك عدة بنسات! يا للشقاء!

أقسم لي بأنه لم يقتلها، وضع عينيه في عينيّ عندما كان يحكي لي، حدث ذلك منذ زمن بعيد، لكنني أصدقه، لأنني أعرفه جيداً، وأعلم تماماً أن سيدي هنري لم يفعل ذلك.

انقطع مدةً من الزمن عن تلك المنطقة، حتى هدأ الأمر ولم يعد يذكر تلك الحادثة أحد، عادتْ الأمور إلى سابق عهدها في الوايت تشابل، وخرجت العاهرات من جديد لاصطياد الغرباء. أرسلني أنا هذه المرة لأبحث له عن مكان يستأجره؛ المكان الذي سيكون خاصاً

وسرياً لا يعلمه أحد حتى شريكه الرسمي سيلاس بوروز. لم يكن يعلم بأن بوروز أصبح لاهياً وراء قيادة الدراجات على شاطئ الريڤييرا الفرنسية وقضاء الليالي الحالمة في الشاطئ، تاركاً عبء العمل ومتاعبه لهنري وحده الذي كان في النهار شخصاً يختلف عن ذلك الكائن الليلي.

أخيراً وجدتُ له مكاناً مناسباً في قلب الوايت تشابل، استأجرته؛ ومنحتُ سيدة المنزل مقدّمَ سنةٍ كاملة، ثم شرعنا بتجهيز الشقة العلوية كمختبر خاص مليء بالمعدات والأشياء التي لا أعرف لها وصفاً أو شكلاً لأشرحها، أما الطابق الأرضي فقد جعلنا منه مرسماً جميلاً ربما إذ شاهده الهولندي يوهانس فيرمير لرغب في استخدامه... ربما! لكنني أبدو جاهلاً في ماهيّة الغرض الذي من أجله فعل ذلك؟

في كل ليلة يستقلّ عربة مُسدَلة النوافذ ويذهب إلى معمله الغامض، يُجري اختباراته في سرية تامة وتكتّم شديد. لكن حدث أمرٌ غيَّر مجريات وطبيعة ما كان يحدث في مخبره، وخاف أن يُتَّهَم بأمرٍ ما، خصوصاً مع ظهور جثة جديدة لعاهرة، وجدتها الشرطة مقتولة جوار مرسمه. كانت مقطوعة الحلق، مفتوحة البطن كمن شُرِّحَت وهي حيّة!

خلال أيام قليلة انتشرت الأخبار عن الجريمة الأخيرة، ولّمحَ الصحفيون والمحققون إلى ارتباطها بالجريمة الأولى، وهكذا أصبحت قضية رسميّة يجري التحقيق فيها. تلك الأيام اختفى وِلْكَم بعد أن وقع في غرام "كيتي" ذات الشعر الأسود كمدخنة فرن، والأعين الخضراء الجريئة، وشاركته غرفته في المنزل، وتلك قصةٌ أخرى!

أصبح موضوع القاتل أهم محاور حديث عامة الناس، صور الجثة تملأ صفحات الجرائد، كثّفت الشرطة بحثها، إسكوتلانديارد لا تغفل عن أحد، الجميع تحت الشبهات، وكان لها من الصلاحيات الواسعة

بحيث لا يردعها أحد ويمكنها أن تحقق العدل حتى إن كان الفاعل من العائلة الملكية.

الخوف وهنري وِلْكَم كانا معاً يترقبان، يمكن أن يسبب مجرد ذكر اسمه في التحقيق بلبلةً لا يقدر على تخطّيها، كما سيتحوّل ضده كل المجتمع الذي تقبّله كبريطاني ورجل نبيل! وأكبر مخاوفه أن يتسبب ذلك في انحسار المبيعات. في وايت تشابل كان حريصاً أن لا يقابل أحداً في صعوده إلى المختبر أو نزوله، كما كان يقيم بعض اللقاءات المشبوهة، لكنه حرص خلالها أن لا تظهر شخصيته الحقيقية. ولأن كل من هناك يشهد له بالاستقامة للدرجة البعيدة، ولم تكن حتى له صديقة مقربة أو ميول تُذكر، جعله ذلك يخاف أن يخسر تلك الثقة، فمجتمع لندن كان يمكنه أن يموت من أجل فضيحة، ويحبّ تداول تلك النوعية من الأحاديث وإن كانت مجرد شائعات. ما حققه من نجاح في فترة وجيزة لا تتجاوز خمس سنوات لا يَحتمل المغامرة. وبينما يرتعش الحي الفقير خوفاً من القاتل الذي لم تستطع الشرطة القبض عليه حتى تلك اللحظة، وهو أمرٌ استنكرته الجماهير واختفى بسببه حتى لصوص الساعات والمحافظ الجلدية، خرج وِلْكَم من معمله ذات مساء يحمل حقيبته الجلدية ويرتدي مئزراً قاتم اللون ويضع في إبطه عصا، أخفى رأسه في واحدة من القبعات العالية وخرج راجلاً يدور حول البنايات ليضيّع آثاره إن كان هناك من يتبعه.

حمل في حقيبته جميع الأوراق التي دوّن فيها نتائج تجاربه الأخيرة، تلك الليلة كان عمله شاقاً، تعامل مع أنواع خطيرة من الأمراض، لولا التعقيم الدائم ورشّي للمطهرات لأصابته العدوى، عمل بجهد مضاعف، خرج متهالك القوى وسار في الشوارع الخالية في تلك الساعة المتأخرة حتى وصل إلى ساحة "ميتري"، لم يكن هناك أحدٌ

غيره، تأمل المكان جيداً من حوله ثم جلس في كرسيّ متهالك في طرف بعيد ينتظر أمراً ما. كان شاباً وسيماً في الخامسة أو السادسة والثلاثين من عمره، وحيداً في ساحة تصطاد منها بائعات الهوى زبائنهن، أثناء ترقبه لشيء ما وهو ينظر ساهماً في البعيد كأنه أعمى أوشك على النوم جالساً، اقتربت منه فتاة جميلة لم تتجاوز العشرين ربيعاً، لم يكن يشعر بها من خلفه فهناك ما يشغله بشدّة هذه اللحظات وكانت مسألة حياة أو موت. أخرجت الفتاة قنينة صغيرة ورشّت بعض العطر في صدرها الممتلئ ودعكت أسنانها بمسحوق أبيض طيب الرائحة، وفي اللحظة التي فكّرت أن تعرض جسدها عليه حدث أمرٌ عجيب أفاق على إثره حي الوايت تشابل وما حوله من مناطق عموم شرقي المدينة، فقد شبّ حريقٌ قويٌّ مع صوت دويّ انفجار هائل أعلى بيت خشبي كبير، في شقة كانت مستأجرة من قِبَل رسام في شكلها الخارجي وعَقْد إيجارها ولوحة بابها، لكنها في الحقيقة كانت مختبراً لأشنع الفعائل، حدثت فيها أمور فظيعة مما يجعل الشخص يفضّل الموت على دخولها أو معرفة ما حدث فيها، وكان وِلْكَم يُعزِّي نفسه دائماً بمقولة واحدة: "من أجل البشرية، لا بدّ أن يضحي أحدهم... لا بدَّ من أجل البشرية".

بعد عدة أيام من الحريق الذي التهم عدة منازل وأحلَّ الخراب على شارعين، وكاد أن يمتد إلى المستشفى، اكتُشِفت جثة جديدة لفتاة تُدعى "تشابمان" في فجر يوم نهاية الأسبوع، عُثر عليها مرمية في شارع "هانبيري"، وما حدث لها كان أمراً بالغ الشر، كأنه شيطان من فعل بها ما فعل. وبحسب صحف اليوم التالي، كان حلقها مقطوعاً بواسطة آلة حادة، غالباً ما كانت مبضعاً أو أداة طبية، كما أن بطنها كانت مفتوحة، وتمّ التأكد من أن القاتل قد استأصل رحمها بدقة ومهارة لا يمكن أن يفعلها سوى جرّاح عظيم. وعم الذعر في الأرجاء.

وهي ذات الليلة التي ماتت فيها كيتي، حبيبة وِلْكَم المسكينة، بعد أن سقاها لبناً فوّاراً من اختراعه، ثم أخذ يشقّ بطنها ليعرف خلاصة التجربة، هل نسيت أن أخبركم بأنها كانت قطة؟!

"أُريد حدّاداً ماهراً، ونجّاراً قوياً". "أخبري جميع مندوبي ووكلاء المبيعات بأن لدينا اجتماعاً هاماً ظهر غدٍ الأحد". أمر السكرتيرة المتصابية العجوز بذلك في نهار اليوم التالي.

يوم الأحد ملأ النساء والرجال الشوارع في مظاهرة كبيرة لدرجة أن المحلات قد أُغلقتْ وهم يهتفون "اقتلوا اليهود الملاعين"، "أحرقوا قتلة يسوع"، "أنقذوا لندن من الحشرات الآدمية"، وخلافها من الشعارات المعادية للسامية التي كانت تنتشر بسرعة في تلك الفترة. طالب المتظاهرون بإبعاد اليهود، والقبض على القاتل الطعّان الذي أصبح له اسمٌ مرعب؛ "القاتل الجماعي".

في الاجتماع الذي أقلق مضاجع الموظفين وأفسد عليهم عطلتهم الأسبوعية، استفسر عن نسبة المبيعات خلال الأسبوع الأخير ووجدها أقل بنسبة 70 بالمائة من كل الأسابيع الفائتة، كما استعلم عن حالة المستشفيات ووجدها أيضاً لا تشهد إقبالاً منذ ظهور ذلك القاتل وانتشار جثث الفتيات في الشوارع الخلفية، استنتج ما يحدث: "أولاً، أنّ أغلب من يذهب إلى المشافي هنّ النساء لأنهن راقيات ومتحضّرات ولسن كالرجال الفيكتوريين، وبما أن هناك قاتلاً يستأصل أرحامهنَّ ويقطع حناجرهنّ، ويؤكد جميع أفراد الشرطة والأطباءُ الشرعيّون أنه طبيب جرّاح أو شخص له علاقة بالمجال الطبي، فإن ذلك يجعل الشكّ يدخل في قلوبهنّ الضعيفة وأصبحن يخشين مقابلة الأطباء، وبالتالي لن يتم صرف الوصفات الدوائية وذلك يعني انخفاض المبيعات! ثانياً، أن الجميع أصبحوا يحتمون

بمنازلهم ولا يخرجون في المساء، وهي الفترة التي تتسوّق فيها الفتيات مستحضراتهن الطبية من الصيدليات والمحلات، وهي معظمها من منتجات بوروزوِلْكَم؛ انخفاضٌ آخر في المبيعات على مستوى المستحضرات التجميلية!".

- "يجب أن ينتهي كل ذلك، يجب أن يضع أحدُهم حداً لذلك القاتل".

قالها في نهاية الاجتماع دون أن يعرف موظّفوه السبب. صرفهم ثم انشغل مع الحدّاد يوضح له كيف يريد أن يصمّم خزنةً لا تُكسر ومكتباً جديداً يكسوه الخشب ومزلاجاً قوياً لباب المكتب وأموراً أخرى كتعليق فترينة وأُطر خشبية للوحات وصور وأقدام خشبية لتحمل تابوتاً قوياً.

تناول فتّاحة الأظرُف، وانشغل بقراءة الخطابات التي وجدها أمامه، وهي عادة يومية يفعلها ويؤجل الرد عليها حتى نهاية اليوم، لأن مداومته على قراءة أخبار الجريمة حرَمته من ذلك مؤقتاً، خصوصاً صحيفة "Puck" التي رسَمتْ وجوهاً للسفاح عبر تحقيقاتها مع أصدقاء الضحايا وآخر من شوهدن برفقته. دارت الشبهات حول البعض، وأحاديث المدينة تقول إنه رجل مثقف من أسرة غنية، ويقول آخرون إنه طبيبٌ أرستقراطي يهوديّ درس خارج البلاد، ربما في بطرسبرغ. وطفحت العديد من المشاكل بسبب تأخر القبض على القاتل الذي ورَد في جميع أوصافه أنه كان يرتدي مئزراً جلدياً، ويحمل حقيبةً من نوع معين.

***

عاد بوروز سريعاً من مونت كارلو بعد رسالة عاجلة من وِلْكَم يطلب منه التدخل السريع لعودة استقرار المبيعات، وفي نقاش دامَ

عدة ساعات تفاكرا حول موضوع الجرائم وعلاقتها بتجارتهما. وفي ذلك اليوم من نهاية كانون الأول للعام 1889م توصّلا إلى حل مشترك ألا وهو مساعدة الشرطة في حلّ الجرائم. أشادت "أوليف" الجميلة؛ زوجة بوروز بذلك المقترح، وهي التي تحمّلتْ صراخهما ورائحة التبغ الذي لم تكن تحبه، كما أعدت لهما شاياً مميزاً بنكهة القرفة.

بعدها بأسبوع، اجتمع بالسير "ميلفل مكناجتن"؛ مساعد رئيس الشرطة ورئيس قسم التحقيقات الجنائية في مدينة لندن. أراد وِلْكَم أولاً أن يعرف المزيد حول جاك الطعَّان. ولمكانته المرموقه وقربه من الأمراء وسادة العرش، إضافة إلى شهرته الواسعة كأحد الأخيار، وافق السير ميلفل على أن يضع بعض التفاصيل بين يديه، وأخبره بكل صراحة:

- "هناك كثيرٌ من المعلومات لا أستطيع مشاركتها معك، لكنني سأساعدك وأتمنى أن تساعدني أنتَ أيضاً. (هو ذكر يهودي، في عقده الثالث، مسؤول عن بعض الجرائم فقط وليس كلها، ميسور الحال، قوي البِنية. إننا نخفي تلك التفاصيل خوفاً من عودة التظاهرات ضد اليهود من جديد".
- " لقد مضتْ فترة لا بأس بها ولم تحدث جريمة جديدة، هل ما زال الناس خائفين؟".
- "بالأمس وجدنا جذعاً بلا رأس!".

خرج الدخان من أنفه ساخناً كأنه فلفل أحمر ثم تبلّد وجهه بتعبير غامض وقال:

- "حسناً سأراسلك وسأفعل ما بوسعي!".

ما إن خرج رئيس التحقيقات حتى عاد وِلْكَم إلى جلسته من جديد وسبح في فيض جارف من الأفكار، فقد كانت جميع الأوصاف

تناسبه، وأحسَّ بأنه متورّط في الأمر، وإن قُبض عليه لن يستطيع التبرير أبداً. لكنه ارتاح بالاً وتأكّد من أن ذلك لن يَحدُث، فالحريق التهم كل شيء لكن صحيفة "مانشستر غارديان" أوردَتْ تلميحاً خطيراً ذات يوم، يهدّده بشكل مباشر وجاد، فقد أثبتت التحقيقات أن الحريق الذي وقع في وايت تشابل كان مُدبّراً، وأن الجثة المتفحمة التي وجدوها هُناك لا تعود إلى الرسام المذكور! بل تعود إلى شخصٍ آخر يُدعى "أبراهام توماس" أمريكي الجنسية، كما أن الجثة كانت ميتة منذ زمن قبيل اشتعال الحريق! في اليوم التالي كان مفوض الشرطة يبحث عن هنري وِلْكَم.

قابله بحضور محامي الشركة في مكتب بوروز، قدّم نفسه بتعالٍ بريطاني صريح وشارب مُنمّق رفيع:

- "المفوض تشارلز وارن من سكوتلانديارد".
- "مرحباً، بماذا أخدمك سيدي؟".

ببرود ووجه خالٍ من التعابير سأله سؤالاً مباشراً:

- "هل تعرف رجلاً يُدعى أبراهام توماس؟".

تظاهر بالغباء:

- "دعني أتذكر...!".

أوقد غليونه ووقف في النافذة كما حاول بحركة خفيفة أن يبعد البالطو الطويل من مجال رؤية المفوض.

- "حسناً تذكّرته، كان يعمل معي في فيلادلفيا، كان يساعدني في تركيب الوصفات الطبية وقد أتى معي إلى لندن. كان دكتور سيلاس بوروز برفقتنا يمكنك أن تسأله!".
- "وماذا بعد؟ أين هو الآن؟".

فكّر هنري قبل أن يجيب إجابة خبيثة جداً:

- "عمل معي لفترة ثم ترك العمل، لم يعد نشيطاً كالسابق فقد أصبح سِكّيراً يقضي الليل مع عاهرات وايت تشابل. أووووه كان ذلك منذ زمن طويل ولا أعرف عنه شيئاً مؤخراً!".
- "متى التقيته آخر مرة؟".
- "في الليلة التي أقمنا فيها حفلاً حضَره وليّ العهد الأمير ألبرت إدوارد ورئيس الوزراء ويليم جلادستون! طلب مني أن أتوسّط له عندهما ليمنحاه الجنسية البريطانية لكنني رفضت ذلك وأخبرت الحراس بأن لا يسمحوا له بالدخول من جديد".
- "كيف كان يبدو؟".
- "كان رثّ الثياب، يرتدي دائماً مئزراً جلدياً أسود ويبدو متعصّباً ضد طرد اليهود من الأحياء الشرقية ومتضامناً معهم - ابتسم ثم أضاف -فكما تعلم فقد كان يهودياً ثائراً".

توتّر المفوض وأخرج دفتراً صغير أخذ يدوّن فيه المعلومات الثمينة، ثم سأله:

- "هل تعلم شيئاً عن أنه كان رسّاماً أو فناناً أو شيئاً من هذا القبيل؟".
- "في الحقيقة لم يكن له أدنى اهتمام بالفنون وتحديداً الرسم. قبيل أن يترك العمل كان يقضي أياماً لا أعرف له خبراً، وعندما منعت عنه راتبه ترك العمل".
- "ما مدى درايته بالطب والتشريح؟".

أجاب بسرعة غير متوقعة:

- "كان بارعاً! بارعاً جداً! وهو ماهرٌ في الذبح والسلخ فقد كان والده جزاراً!".

لم يدعه المفوض يواصل حديثه وسأله:

- "هل تعتقد أنه يمكن أن يقوم بجريمة قتل؟".
- "إلى ماذا تلمّح أيها المفوض؟ هاه؟ إن الذي تعنيه أمرٌ خطير".
- "نعم، أنت تعلم إلى ماذا أُلّمح!".
- "حسناً... لست أدري إن كان هو جاك الطعّان!".
- "هل تعرف خطّ يده؟".

باستغراب كبير أجاب:

- "اعذرني!".
- "هل تستطيع التعرف إلى خط يده؟".
- "بالطبع أستطيع فقد كان يكتب لي في بعض الأحيان ملاحظاتي، وأرسَل لي ذات مرة خطاباً يطلب بعضاً من المال".
- "متى كان ذلك؟".
- "قبل نحو عام...".
- "هل تحتفظ بتلك الرسالة؟ هل يمكنك أن تأتيني بها؟".
- "للأسف لا، لم أحتفظ بها، فلم أكن أنوي إعطاءه مالاً على أية حال!".
- "وأين أجد تلك الملاحظات؟".
- "للأسف تركتها في فيلادلفيا ولم آتِ بها إلى لندن!".
- "أشكرك يا سيدي... فقد قدّمت لنا الكثير".

لم يصافحه، وخرج بلا استئذان.

بعد عِدة أيام ظهرتْ في واجهة الصحف معلومات جديدة عن القاتل والمشتبه بهم، وفرضية بأن هناك شخصاً بالكاد مجنون يقلّد قاتلاً آخر أكثر منه وحشية.

أتى السير ميلفل رئيس التحقيقات بورقة إلى مكتب هنري، الذي قابله في الردهة ورفض أن يستقبله في مكتبه بحجّة أن لديه كثيراً من الإصلاحات والطلاء هناك، عرض عليه رسالة مكتوبة في ورقة عادية، المرسِل هو القاتل كما هو مفترض، تحدّث فيها إلى الشرطة قائلاً إنها مرسَلة "من الجحيم"، كما أخبرهم بأنه أكل كُليَة "ماري آن" ولم تعجبه، وقبل أن يكمل وِلْكَم قراءة بقية تفاصيلها سأله رئيس التحقيقات:

- "هل هذا خطّ أبراهام؟".

أعاد وِلْكَم الرسالة أمام عينيه يقرأ بتفحّص:

- "دعني أقرأ المزيد لأتعرف عليه..."، "أووووه يا آيب المسكين" – همس.

- "لا... أخبرني، هل هذا الخط خطه؟".

بالطبع أنتم تعلمون الإجابة! لكنني متأكدٌ من أنكم تسألون أنفسكم "من أنا؟".. سأخبركم "أنا هو الرجل الذي قابلني لكنني لم أره!" هل فهمتم ذلك؟

***

في العام 1890م حصل سيلاس بوروز على الجنسية البريطانية، وقتها كان له ثلاثة أطفال من أوليف، أصبح واسع الثراء، يمتلك العديد من الأسهم في شركات ناجحة أخرى، وهنري كذلك، لكنه

مبتعدٌ عن الأضواء، تحديداً في تلك الفترة التي عادت المبيعات لترتفع فيها بشكل خرافي بعد أن أصبحت السفن تشحن كل يوم منتجاتهما إلى الشرق والغرب. وتفرغ هنري لأعمال أخرى مثل دراسة علم الجيولوجيا، والسفر لعقودات تجارية أكثر ربحاً في محيط بعض الدول الأوربية القريبة.

لا يزال وحيداً ولا توجد امرأة في حياته، برغم اقترابه من الأربعين عاماً، فقط كثيرٌ من الكتب والغليون وعلبة التبغ. يفتل شاربه كل لحظة، ويضع نظّارة أحياناً. لم يعد يرتدي مئزراً، ولا يحمل حقيبة جلدية. لم يمر من جديد في أحياء لندن الشرقية، لم يراسل أسرته، لم يرسل لهم المال الذي يعلم تماماً كم يحتاجونه. كان يُجري العديد من التجارب في هدوء، لكن هذه المرة على الأحجار والصخور الضخمة التي جلبها إلى بيته الكبير، كما استفاد من الشقة التي كان يقيم فيها أبراهام.

سعى بجهد حثيثٍ لتطوير صناعة الدواء عبر محاولات صنع حبوب مضغوطة ومحاقن زجاجية وترسيب الكيناء وتجفيفها ليستخدمها موظفو الحكومة البريطانية المدنيون في المستعمرات التي لا تغيب عنها الشمس. أصبحت صورة هنري سولومون وِلْكَم حاضرة في مختلف الأوساط، علامته التجارية ومنتجاته كذلك في متناول عموم أوروبا وكثيرٍ من دول العالم. أحدث توسعة حقيقية في كل شيء، بدءاً من الموظفين والمعامل والمختبرات والمخازن، وبدأ في تكوين الشركات والشراكات، وتوسَّع عمله واستثماراته بشكل ناجح وضَعَه في قمة الهرم المالي اللندني. ارتفعت المباني، ورُصفت الطُّرقات، وتصاعد البخار، وسقطت الأوراق، وتفتّحت الأزهار. ومضت الحياة تعزف ألحانَها في لندن؛ كل يوم بنغم جديد.

13

وهم المفقودين

في تلك الفترة حَققتْ الشركة نجاحاً باهراً بفضل اختراع وِلْكَم العظيم "الأقراص المُغلَّفة"، وأيضاً بسبب التمويل اللانهائي الذي وفّره له سيلاس بوروز. وكان ذلك تمرداً كبيراً على شكل الدواء في تلك الفترة؛ إذ إنّ كل الأدوية كانت عبارة عن محاليل أو مساحيق أمّا الأقراص فقد كانت سهلة النقل وفعّالة جداً ووصف جرعتها سهلٌ جداً. خطّط وِلْكَم جيّداً لتسويق المُنتج الجديد، فقد منح جميع الأطباء عيّنات مجانية ونِسَباً في المبيعات، وشهد العمل توسّعاً كبيراً وافتتحتْ الشركة مكاتب عدّة في مدن أوروبية مختلفة. لكنّ وِلْكَم لم يكن مرتاحاً أبداً، لم يشعر بأنه حقق شيئاً رغم ذلك، لم يجد ضالّته بعد؛ كمن يبحث عن وجه حبيبة قديمة في حفل لِقُدَامى المحاربين. لا يمكن العثور عليه نهائياً.

عاد وِلْكَم إلى هوسه في جمع القطع الأثريات والمقتنيات النادرة كالمخطوطات والمنمنمات، كما بدأ يهتم بالفن ويرتاد المسارح والمتاحف ومعارض اللوحات، ويذهب إلى الأوبرا. وخلال فترة وجيزة تجمّعت لديه مجموعة كبيرة تضم مئات القطع الفنية الثمينة النادرة، بما في ذلك جماجم بشرية وجثث مُحنطة وما إلى ذلك من غرائب. كان يحدثني قائلاً: "إنَّ تاريخ بعض الشعوب يجلس في خزانتي الكبيرة"، لم أكن أهتم بما يقول... وما شأني أنا بخزانته أو تاريخ تلك الشعوب!

في العام 1894م بلغتْ الإمبراطورية الطبية مداها البعيد، وقدّمت كثيراً من الأدوية الناجحة، مثل علاج مرض "الخنّاق"، وكان يُصدَّر إلى أمريكا بكميات كبيرة، وهو عبارة عن سائل أزرق يُنقّط في الحلق.

وبدأ التجارب لعلاج بعض الأمراض النفسية كالاكتئاب، لم يكن الكوكايين ممنوعاً في ذلك الوقت، فحاول أن يصنع منه مزيجاً لتحسين المزاج. ورويداً رويداً مضتْ الأمور بينه وبوروز تسوء، اختلاف الآراء أخذ في الظهور بشكل جدي، مع ترتيبات الانتقال إلى مقرّ أكبر يتناسب مع حجم عمل الشركة العالمية، فاجتمعا لتسوية الأمور بشكل سري في غرفة مكتب مغلقة تعلوها قبة كبيرة مزينة بالرسومات والنقوش المذهبة، في مكان تغطس فيه الأرجل داخل السجاد الملكي المستورد من الشرق. وفي غمرة البحث عن حلّ قال بوروز:

- "صديقي هنري، أكره أن أقول ذلك، لكن في الحقيقة علينا أن نُنهي هذا. أصبحت الثروة هائلة ويمكن أن تكفينا جميعاً. دعنا نفضّ شراكتنا بكل احترام، فلديَّ العديد من التحفّظات بشأنك وأخشى أن نفقد سُمعتنا بسببك. أنت تعلم أنّ هذا المجتمع الڤيكتوري الباحث عن الإشاعات والفضائح... لا يرحم!".

كان هنري وِلْكَم يردُّ عليه بكل برود كعادته:

- "لِمَ كل هذا؟ إلى ماذا ترمي يا شريكي؟ قل وصارحني فلستُ أفهمك مؤخراً!".

ردّ عليه سيلاس بوروز بكل الضّيق الذي في العالم:

- "حسناً، أُفضِّل أن ننتهي من هذا كله، فقد آن الأوان لنفترق".
- "أنا مُصِرّ، يجب أن تُخبرني! من حقّي أن أعلم".
- "لا ضرورة لذلك، لدينا جميعاً أسرارٌ نخفيها، لكنني أصبحت خائفاً من بعض مغامراتك التي لم تخبرني بها! حدث ذلك منذ زمن، عامان تقريباً، وتوقعت أن تتكفّل الأيام بالأمر لولا أنني

عثرتُ بالصدفة على شيءٍ ما جعلني واثقاً من أن فضّ العمل سيكون في صالحنا نحنُ الأثنين وفي صالح الشركة وسُمعتـ...".

قاطعه هنري بصرامة وتحدٍّ، أشعل غليونه بواسطة ورقة مراسلات يتصدّرها شعار الشركة، أشعلها من الشمعة الضخمة وهو متكئ على درج المكتب واضعاً يده الأخرى على خدّه كأنه في الأوبرا يستمع إلى "سيمفونية لندن" دون أن ينظر إليه مباشرة، إذ كان يواجه النافذة المغلقة مولّياً ظهره إلى بوروز الذي كان واقفاً متوتراً كما يظهر من ظله الذي يسقط أمام النافذة:

- "على ماذا عثرت يا عزيزي؟ لا يجب أن تخاف، يجب أن تخبرني بكل وضوح، فأنا لم أعتد منك كل هذا القدر من التحفظ. ما أنا ذلك الرجل الذي يرضى بقليل من المعرفة! أنتَ تعرفني!".

تردّد بوروز ألف مرة قبل أن يفتح فمه:

- "وجدنا آيب... أتذكره؟ طبعاً تذكره، فتاك المدلل الذي يريد أن يصبح رسّاماً والذي عرفت من مصادري أنك اتهمته في جريمة المجرم الطعّان!".

ارتجف الظل ومرّر يده في الهواء كأنه يهش ذبابة:

- "هاه... أبراهام، يا للمسكين! كيف عثرتم عليه؟ يجب أن تُبلغ سكوتلانديارد فوراً!".

صرخ بوروز غاضباً ورفع يده ممسكاً بقضيب من الهواء وتطاير بعض اللعاب من فمه فمسحه سريعاً:

- "كفى يا هنري! كفى تلاعباً بي! كفى! وجدناه جثته! تعرّفنا إليها... لا تتغابَ!".

أخذ ورقة بنية اللون حشاها سريعاً بالتبغ، لفها جيّداً رغم أنه لم يكن مدخناً، جلس في مقعد وثير جوار المكتب. أطرق برأسه وأبعد ربطة عنقه قليلاً، كما مسح جبينه بوشاح أزرق وعقّب عليه وِلْكَم:

- "أنا لا أتلاعب بك يا صديقي، وما خصَّني إن وجدتَ ذلك التعيس؟ إنه لا يعنيني في شيء! لا أهتم إن كان ميتاً أو حياً، فهو سكّير منحطّ ومجرم بلا طموح البتة. مصيره الطبيعي أن يترك هذا العالم لمن هم في عجلة من أمرهم لقيادة البشرية وصُنع العالم المثالي الخالي من تلك الحشرات. ألا توافقني الرأي يا بوروزي؟".
- "ألا تريد أن تعلم ماذا قال المحقق الخاص الذي كلّفته بالتحري عن آيب؟".

حرّك وِلْكَم رجيله بعصبية، طرق سطح المكتب بخاتم فضي صغير كان لا ينزعه من خنصره الأيسر مؤخراً، لاحظ أن الساعة الرملية تسكب آخر حبّاتها فقلبها ونظر إلى بوروز الذي تصبّب عرَقه رغم برودة الجو وسأله:

- " هل تتجسّس عليَّ يا بوروز؟".
- "لم تكن أنتَ المقصود...!".
- "ماذا تعني؟".
- "كما قلتُ لك؛ لم أقصد أن أتجسّس عليك. عثر أحد رجالي على جثة رجل يشبه آيب إلى حدّ كبير مدفونة أسفل بلاط معمل المواد الكيميائية، هناك في المبنى القديم. كنت أنوي تبليغ الشرطة، لكنني خفتُ أن أتورّط في أمر يهدّد سمعتي ويحطّم أعمالي وأفقد كل شيء. نصحني محاميَّ بمحقق خاص فهو

طرف محايد ويمكنه أن يحلّ لي اللغز، لكن اسمك أتى في الموضوع وسارع ذلك التحري إلى كشف بعض التفاصيل الخاصة ولا أدري في الحقيقة كيف توصّل إليها لكنها أرعبتني كثيراً!".

حاول أن ينفض عن أذنه بعض الغبار قبل أن يجيبه:

- "حسناً سأكون صريحاً معك في ما تسأل لاحقاً، لن أخفي عليك شيئاً وسأجيب جميع مطالبك. لكن الآن أخبرني بكل ما قال ذلك المحقق، ولا تُخْفِ عني شيئاً ولو كان صغيراً".

- "قال إن آيب هو الرجل الذي تبحث عنه الشرطة لاشتباههم به في قضية القاتل الطعّان المشهورة، وأنه حسب الأوراق أتى من أمريكا برفقتك... وبالطبع رفقتي أنا أيضاً! قام التحري بتصوير بقايا الجثة والتحفظ على ملابسه ومحتويات جيوبه التي حافظت على حالها كثيراً، ثم تعرّف إلى علامة محل الخياطة عبر سترته، كان يقع في شارع بيكاديللي. وعندما ذهب إليه تعرف الخياط بسرعة إلى السترة الصوفية، وتذكر صاحبها رغم مرور زمن طويل حسبما ذكر، ثم بحث في عدد من الدفاتر إلى أن وجد تفاصيل المقاسات الخاصة بالسترة واسم صاحبها. عندما سأله التحري عن معلومات إضافية كأماكن تردّده لم يكن يعلم، وبواسطة الوصف الذي قدّمه الخيّاط والوصف الذي قدّمَته فتاة الاستقبال رسَمنا له بورتريهاً تقريبياً من قِبَل رسام الشرطة، ومن كان يخطئ وصف آيب الأصلع كعود الثقاب، مع كل تلك الخدوش وشفة الأرنب المميزة والجرح الغائر في أعلى رقبته؟ عندما أتاني بالصورة وسألني إن كنتُ أعرف صاحبها فوجئتُ، فكما تعلم أنا لم أقابل آيب إلا مرةً واحدة

خلال الرحلة لكني رغم ذلك لن أنسى وجهه أبداً، لا يمكنني أن أنساه بتلك السهولة، ولم يكن هو الرجل المرسوم في تلك الصورة! في وايت تشابل تعرّفَت سيدة مُسنّة على البورتريه واتهمتْ صاحبه بأنه الرجل الذي أحرق بيتها بعد أن استأجره منها، وقد أخبرها بأنه رسام من أمريكا، وتعرّفت عليه بعض الفتيات هناك وتحدّثت إحداهن عن أنه طلب منها أن ترافقه ليرسمها عارية مقابل نكلة واحدة، قالت إنها وافقت، وعندما صعدت برفقته إلى الأعلى أدخلها إلى صالة جميلة وسمح لها بالجلوس في مقعد من الدانتيلا الحمراء وأحضر لها نبيذاً فاخراً فشربت ثم لم تعلم شيئاً، لكنها عندما أفاقت وجدت نفسها مربوطة إلى كرسي في غرفة مظلمة إلا من شمعدان صغير، فمها محشوّ بقطعة قماش مليئة بالشحم، ولم تكن تستطيع الحركة، جسدها عارٍ وبه نقاط باللون الأحمر. فزعت لكنها تصرّفت سريعاً، حاولت الاقتراب من الشمعدان بتحريك الكرسي، ثم أحرقت يديها والحبل وحرّرت نفسها، بحثت عن ملابسها ولاحظت أن هناك غرفة كبيرة بها قوارير زجاجية كثيرة مثل التي في الصيدلية، وأن هناك سريراً مرعباً وكثيراً من الدم وأدوات جراحة ومديات حادة وشفرات لامعة، وأحسّت بأن الموضوع له علاقة بالرجل الذي يقتل النساء بالسكين ويقتلع أعضاءهن خصوصاً وأنها وجدت حذاءً تعتقد أنه لـ سترايد فتاة ساحة دوتفيلد وكانت تعرفها. فكرتْ أنها إن خرجت الآن فستحصل على مكافأة الشرطة وتقودهم إلى هذا المكان، لكنها فوجئت بأن جميع نوافذ المكان موصدة ولا مخرج سوى الباب الرئيسي، وهناك عجزت عن التصرف. حاولتْ أن تعرف كيف دخلت ولم تتذكّر أي شيء، فأخذت

تصرخ وتصرخ وتصرخ لكن صوتها لم يكن يخرج أبداً. طرَقتْ على الباب بكل قوتها ولم يُفتح، حاولت كسره ولم تستطع، أضرمتْ فيه النار أملاً في أن يرى الناس الحريق ويهرعون لنجدتها، لكن تلك القوارير الزجاجية الرفيعة المليئة ببعض السوائل وتلك البرطمانات الملونة التي تحتوي على أشياء غريبة كانت سريعة الاشتعال، وفي لحظات كانت تلتهم كل شيء فاشتعل أحد البراميل وانفجر ليطرحها أرضاً ولم تفق إلا بعد عدة أيام في مستشفى وايت تشابل؛ مشوّهة بالكامل...".

سكت لبرهة شرب فيها بقايا فنجان قهوة كان ممسكاً به منذ أن دخل، ثم واصل:

- "... عندما تم إنقاذها لم تكن هناك شبهات حول الموضوع؛ لأن كل الناس يعتقدون أن الشقة التي احترقت هي شقة الرسام الأمريكي الذي يرسم الفتيات عاريات، ولا شيء آخر. لم يكن أحد يعلم أن ذلك المرسم هو ستار لما يحدث بالداخل. لذلك كانت الشرطة مشغولة بالجثة الثانية في ذلك الصباح، وكانت لفتاة اسمها إيدوس، عُثر عليها في ساحة "ميتري"، حسب ما قالت الشرطة في صحيفة "بوليس غازيتا"، وقد قُتِلَت بوحشية وفقدتْ إحدى كليتيها، كما استأصل القاتل وقَطَع حلقها وشقّ بطنها. وعندما شُفيَت تلك الفتاة، وتمكّنت من التكلم أخيراً بعد عدة أيام، لم تهتم بها الشرطة كثيراً، وكانوا يعتقدون أن العاهرات يحاولن التظاهر بمعرفة أمر القاتل من أجل النقود، برغم ذلك أخذوا أقوالها على أية حال، لكنها يوماً بعد يوم كانت قد نسيت كل شيء وأصبحت أقوالها تتضارب إزاء الحادثة إلى أن قابلت التحري

الخاص بي، وهنا حكت له كل ما حدث بمجرد أن شاهدت البورتريه، وحزنت لكونه مات فقد كان لطيفاً معها حسبما قالت، واستبعدتْ أن يكون هو القاتل الطعّان. بعدها قام التحري بمعاينة الشقة المحترقة ولم يجد فيها شيئاً مفيداً وكان قد مضى وقتٌ طويلٌ على تلك الحادثة. ثم أخذ يراقب مختبر الكيمياء حيث وُجِدَت الجثة، إلى أن شاهدك في وقت متأخر من الليل وأنتَ تقود سيارتك الكارل وتدخل إلى هناك. وكما تعلم فإن جميع لندن كانت تعرف سيارتك الحديثة ذات الدخان الأبيض. شكّ التحري بك حالاً لأنك لم تدخل من الباب الرئيسي بل مررت من مدخل العمال. تتبّعك ذلك اليوم فذهبت بعد منتصف الليل إلى النهر وجلست جوار البرج إلى أن دقّت الساعة ثم توجّهت إلى سانت جيمس وجلست تدخن، وكأنّك تراقب إذا ما كان أحدهم يراقبك، ثم توجّهتَ أخيراً إلى الوايت تشابل من جهة شارع "بينشن" ومرَرتَ بأسفل القوس عند السكة الحديدية ثم ترجّلتَ إلى الحي، اجتزتَ الساحة العامة ثم اختفيتَ فجأة ولم يعثر عليك، وعندما عاد كانت سيارتك أيضاً غير موجودة. في اليوم التالي أتى وأخبرني بشكوكه سوى أنني لم أهتم بها. لكن بعدما ذهب تذكّرتُ ذلك اليوم، قبل عدة سنوات، عندما أخبرْتَني بأننا يجب أنْ نأخذ تدابيرنا من قضية ذلك القاتل التي سوف تؤثر على مبيعاتنا وتذكرت لقاءك بذلك الضابط من سكوتلانديارد. أتذكر أنني - دون قصد-سَمعتُك تخبره عن آيب، وفوجئت بما حكيته له لأنك كما تعلم كنت كاذباً. كما دُهشت عندما أخبرتَه بموضوع خط الرسالة، فأبراهام الذي تحكي لي عنه باستمرار كان أمّيّاً لا يقرأ ولا يكتب. أنت من

كنت تخبرني بذلك، أنسيت؟ وهنا؛ بعد أن تذكرتُ كل هذا، أرسلتُ في طلب ذلك التحرّي من جديد، والذي بعد أنْ قضى شهراً يتعقّبك أخبرني بأنك تذهب إلى شقة معينة في "ماريليبون" بالخلف من شارع "هارلي" وتزورها مرةً واحدة كل أسبوع في توقيت معين، وكان يشكّ بأنك تُخفي بداخلها بعض الأشياء الخارجة عن القانون، لأنك دائماً ما تكون مرتبكاً وخائفاً، تحمل معك حقيبتك الجلدية وترتدي ملابسك كاملة بما في ذلك المعطف الكبير رغم أنها ليست بعيدة عن مسكنك. كما أنك لا تذهب إليها بالعربة وتتخذ طرقاً مختلفة كل مرة في الذهاب والعودة، وعند خروجك منها لا بدّ لك أن تذهب إلى أسفل الجسر الحجري، ولا يعرف إن كنت ترمي شيئاً أم لا! وذات يوم، وبينما كنا مدعوّين عند رئيس الوزراء "غلادستون" نحتفل بشفاء الأمير إدوارد من الحمى، تلك المرة التي حكى لنا فيها بعض مغامراته النسائية، وبينما يشكر فضلك ويُشيد بوصفاتك العلاجية تركتُكَ جالساً هناك وتسلّلتُ خارجاً وذهبتُ إلى تلك الشقة برفقة التحري... في الحقيقة هالني ما وجدتُ هناك!".

قاطعه هنري بجدية:

- "وماذا وجدتَ هناك؟".

- "ألا تصدقني؟ أم تتصنّع الغباء؟".

أجابه بكل برود، وكان يضع أصبعه الوسطى ويحرّك أذنه بقوة كأنه يعاني من أمرٍ ما بداخلها هذه المرة:

- "أخبرني.. لقد وعدتك بالحقيقة، أتذكر؟".

- "حسناً، في البداية وجدتُ مكاناً لطيفاً، غرفة استقبال مُهيّأة على طراز رفيع، ومن ثمَّ دخلتُ عبر الممر لأجد ثلاث غرف، كانت الأولى غرفة عمليات بسرير واحد وموقد وشمعدان عملاق مثل ذلك الذي في سماء المسرح، وجدتُ أوعية وكثيراً من الدماء ومنشار نقب الجمجمة وكثيراً من الشعر وأحواض الرخام، كان عليك أن تُنظِّف المكان! في الغرفة الثانية، التي كانت معملاً مُجهّزاً، وجدت الدوارق ومحاقن الغاز وأسطوانات مُدرّجة والهايدرومتر الغريب وجهاز سوكسلت[12] والقناني والأنابيب... أووو يا هنري أنت تعلم! هناك كثيرٌ من العيّنات؛ كُلَى، وأظافر جديدة لا تزال دماؤها ولحمها طازجاً، وأعين وشفاه وأسنان وكل تلك البشاعة التي تعرفها. كانت الغرفة الأخيرة كبيرة ومقسّمة لأربعة أقسام لا أدري لها سبباً. كما وجد التحري وصفات للعديد من الأدوية الجديدة التي وقّعنا عقودَ بيعها مؤخراً والتي سيبدأ تصنيعها الشهر القادم. كنتُ أقول لنفسي إن هذا العام سيكون عام الأحلام، وأتخيّل ما توصّلنا إليه معاً، إنها لنعمة كبيرة أن نعيش في انكلترا حيث لا مستحيل. لكن ما حدث شلّني تماماً، ولم أعد أدرك الحقيقة. لذلك أخبِرْني يا هنري، هل حقاً أنك وراء تلك الجرائم في وايت تشابل، وكل تلك البشاعة؟ أنا أعلم أنك وراءها لكن قلبي يخبرني بالعكس، أرجوك أخبرني... أنا أتعذب بسببك!".
- "ماذا؟" - تغير صوته ولونه- "ماذا تقول؟".

12- (جهاز معملي إخترعه فرانتز فون سوكسلت عام 1879م، ويعمل على إذابة الدهون والشحوم، ولفصل المواد غير الذائبة).

- "هل صحيح أنك قد استخدمت تلك الشقة التي استأجرتها في وايت تشابل كستار لتسهيل دخول العاهرات للرسم ومن ثم كنت تجرب عليهن علاجاً للسفلس؟".

عدَّل وضعه ساخراً:

- "ومن أخبرك بتلك الترهات هاهاها... جثة آيب؟!".
- "ما الذي يدفع برجل أعمال ناجح مثلك إلى أن يتخذ مكاناً في ذلك الحي المشبوه؟ وأين أجريت كل تجاربك لاختراع علاج لمرض الأمير إدوارد؟ نحن لا نجهل كل تلك التفاصيل، لكننا...".

قاطعه:

- "وما يهمّك؟ إن أكثر المخلوقات بؤساً هي تلك الفئران البيضاء الصغيرة التي أجري عليها تجاربي!".
- "هل صحيح أن أولئك الفتيات المقتولات كنَّ مريضات بالسفلس؟ جميعهنّ؟".
- "أنا لا أعلم عن ماذا تتحدث!".

أخبره بوقاحة فجّة:

- "إنّ محقّقي يشكّ بك ويعتقد أنك قتلت تابرام دون قصد، واضطررتَ لاحقاً إلى قتل الأخريات كي تبعد الشبهات عنك، خصوصاً وأنك قد دفعتَ الشرطة لتشتبه في طبيب جراح متعلّم وأنت لست بطبيب، ولا أحد يعلم عنك الكثير من التفاصيل. هل كنتَ خائفاً من أن يكتشف أحدُهم مهارتك الكبيرة في التشريح وتاريخك الأسود مع الهنود في أمريكا حيث كان يُحسب لك كأحد الأمجاد الكبرى؟ أحسبتَني لم أكن أعلم ما فعلته في الهنود؟!".

أجابه ساخراً:

- "ولماذا عليَّ أن أخفي جريمتي بجريمة أخرى؟".

- "لكي تتجه أنظار الشرطة إلى معتادي الإجرام ورجال العصابات والآسيويين، وحتماً ستتوفر طريقة أو أخرى لإثبات الجريمة عليهم. والسبب الآخر لكي تنفي احتمالية إجرائِك لتجارب بشرية على القتيلة الأولى. أنا أعلم أنك ذات مرة قد استأصلتَ بعض أرحام الفتيات الهنديات، بعضهن مات على يدك. أنسيتَ أنني أعلم كل شيء عن ماضيك؟ كما أعلم لماذا تقوم بشحن أقراص منع الحمل بتلك الكميّات إلى أمريكا، أنت لا تريد أن يُولَد هندي جديد، أليس كذلك؟".

غضب وِلْكَم بشدة، لكنه كتم غيظه رغم انفلات عبارته:

- "اللعنة! هذا هراء! ولا أساس له من الصحة!".

- "أخبرني الحقيقة إذن؟".

- "وما هي الحقيقة؟ الحقيقة في هذه الحياة هي أن لا حقيقة. لا توجد حقيقة في مكان تختفي عنه الشمس!".

لمعتْ عينا بوروز بالنصر، قال واثقاً من نفسه كأنه قد سحق للتوّ نمراً جائعاً:

- "لقد وجدتُ الرسالة على شريط التيبوغراف!"

- "أي رسالة؟".

- "تلك التي أرسلتَها إلى سكوتلانديارد واتهمتَ بها صديقك المزعوم آيب".

- "وماذا ايضاً؟".

- "أنا أعرف خطّك جيداً، وأعلم كيف تكتب كلمة يهود، تحديداً عندما تستخدم يدك اليسرى لتضليل القارئ. تذكّرتُ الآن ما ذكرته صحيفة "ديلي تلغراف" عن بعض الكلمات التي وجدها المحقق مكتوبة جوار إحدى الضحايا في الجدار، والتي تشير إلى أن اليهود لا يجب أن يُلاموا أبداً!".
- "كفى!" -قاطعه.
- "لا يا هنري، يجب أن تعترف الآن وتخبرني بكل ذلك. أنسيتَ أنني أمريكي ولا أتمتع ببرود هؤلاء الإنكليز؟!".
- "هذا محض خيال مريض لا أكثر! بماذا أعترف؟ لا يوجد لديّ شيء... أنت مجنون... مجنون!".
- "بل هي رواية أقرب إلى الحقيقة الغائبة. هل رفضَت تلك الفتاة أن تجري عليها التجربة؟ هل أخبرتَها بأنها عملية سهلة؟ فقط أن تتناول ذلك الشاي المليء بالمخدر؟ أم يا ترى كنت تنوي حقنها بإحدى تلك الإبر الطويلة وهي خافَت؟ هل تعلم أن التحرّي أخبرني بأن إحدى الضحايا وتُدعى سميث قد وجدوا داخل مهبلها آلة حادة ضاجعها بها القاتل، وشوّه منظر ذلك الشيء تماماً؟! وأنها لم تمُت في لحظتها ونُقلت إلى مستشفى لندن وهناك تحدثت؟ أتعلم عن ماذا تحدثت؟ كانت خائفة جداً، تحدثت عن اغتصابها من بعض البحّارة، لكن عندما زارتها إحدى صديقاتها أخبرتها إيما سميث بشيء حول شخص ما له شارب كبير. أخبرت تلك الصديقة بدَورها عاهرةً أخرى تدعى ماري كيلي وقُتلتْ الأخيرة بطريقة لم أسمع في حياتي بأبشع منها. أرجو من الله أن لا تكون ذلك المجرم يا هنري. هيا عليك بمصارحتي ويجب أن...".

قاطعه هنري من جديد بينما أخذ يفتل شاربه:

- "هل تحدثت بهذا الموضوع لأحد بخلاف المتحري؟".

- "بالطبع لا! أنا أعرف أنك لستَ سهلاً، رغم إحساسي بخيبة الأمل في عدم كشفي لك طوال تلك السنين. كيف كنت تخدعني؟ كلما كنتُ أحاول التقرّب إليك وأشعر بأنني نجحت أجِدُكَ غريباً عليَّ تماماً. لا أنسى كيف أحضرْتُك إلى هنا، كنت ذلك الفتى المجتهد المتحمّس عندما قابلتك أول مرة في مدرسة فيلادلفيا، وأنت تنقل الجدري ومرض الخنّاق إلى الهنود وأطفالهم، لكنني لم أتخيّل أن هدفك النبيل في خدمة سلاح الفرسان الأمريكي سيتحوّل إلى سلاح يهدّد مدنيين أبرياء هنا في لندن؟".

استفزّه وِلْكَم بسؤال:

- "وهل تعتقد يا بوروز أن أولئك الهنود المساكين ليسوا أبرياء؟".

- "كان يجب التضحية بهم... أنتَ تقول إن الهندي الجيد هو الهندي الميت!".

- "ما دام هناك أبرياء فإن عليهم أن يكونوا ضحايا. هل تعلم لماذا لا يفترس الذئب القطط أو الكلاب؟ لأنها ليستْ بريئة! لذلك يبحث عن الخراف والماعز!".

ظهر عليه التعب، وظهر كثير من العرق على جبين سيلاس بوروز:

- "أريد أن أسألك سؤالاً حيرني كثيراً يا هنري؟".

- "تفضل...".

- "ماذا يجمعك مع الجزار اليهودي جايكوب ليفي[13] ولماذا رفضتَ مقابلته عندما أتى لزيارتك آخر مرة في منزلك وخرجتَ لرؤيته ليلاً في ذلك اليوم؟".

- "أنتَ تعلم أنه يهودي، أليس كذلك؟! وتعلم أنني أقف في صف جميع اليهود الذين ينبذهم المجتمع الڤيكتوري المتعفن. هذا لا يعنينا الآن، فقد كان ذلك قبل سنوات، وليفي اليوم في جوف التابوت، لقد مات إنْ كنت لا تعلم!".

- "أنتَ قلتَ إنك ستجيب بكل صراحة".

- "نعم... وها أنا أخبرك".

- "ما الذي بينك وبين الكاتب أوسكار وايلد والكيميائي وليام رامزي والضابط هربرت كتشنر والدوق هيثيل[14]؟ ماذا يوجد في نادي الـــ...".

قاطعه قبل أن يكمل سؤاله:

- "لا شيء! أما وايلد فهو رجل يناصر قومه ويناضل من أجل أرضه وحقوق بلاده، أنا أحبه من أجل ذلك... كما أحب أشعاره. هل هذا جرم؟".

- "كيف؟ لا أفهم!".

قاطعة بحركة من يده:

- "هذا لا يعنيك، ماذا تريد مني الآن؟".

13- جزار يهودي كان أحد المشتبهين في قضية جاك الطاعن/ السفاح.

14- من رموز المجتمع آنذاك وأعضاء بارزين في نادي أبوللو الذي كان شائع بأنه أهم محفل ماسوني في تلك الفترة.

بكل فتور أجابه:

- "أن نفضّ الشراكة ونحفظ الود بيننا... فقط".
- "حسناً، أنا موافق، لكن على شرطين؛ إن وافقت عليهما دون أن تعرفهما لك ما تُريد".

أصابته الحيرة الشديدة للمطلب الغريب:

- "لا أستطيع أن أعد بما لا أعرف!".
- "وأنا لا يمكنني أن أشرح لك سوء التفاهم الذي وقع بيننا، فكل ما حصلتَ عليه بواسطة ذلك التحري محض هُراء، وتلك الشقة المزعومة لا أعرف عنها شيئاً ولا عن آيب. وكل ما ذكرته هنا هو محض افتراء أستطيع أن أثبت عكسه تماماً وأن أطلب منك التعويض، وسأتوجّه عبر محاميَّ إلى الشرطة ولن تهددني بذلك. لقد خاب ظني فيك أيضاً يا سيلاس، حيث استطاع تحرّي ذكي استغلالك من أجل المزيد من المال!".

أظهر بوروز قوته فجأة ضارباً يده في الهواء بشكل عنيف:

- "إياك يا هنري والتلاعب بي، ولا تنس من أكون! أنا من أتيت بك إلى هنا! هل تفهم؟ أنا من صنعتك بعدما انتشلتك من البالوعة التي كنت تسبح فيها".

رفع وِلْكَم سبابته نحو بوروز بغضب ووعيد:

- "أنت أيضاً لا تنس كيف تكون! لعلمك أن جميع الأدوية التي تنتجها الشركة هي من براءة اكتشافي أنا! وجميع المنتجات مسجّلة لي وحدي، وإن فضَضْنا الشراكة سأسحب عنك كل ذلك، ويمكنك حينها أن تتفرغ لتدير شركة للتحريات، ولا تحلم بأن تستمتع بدرّاجتك مرة أخرى في الريڤيرا يا محقّق سكوتلانديارد. هل تفهم؟".

- "علينا التوصّل إلى حلٍّ إذن...".

- "هل توافق على شروطي؟ دعنا ننتهِ من هذا سريعاً".

أصدرت أسنانه صكيكاً مزعجاً ورضخ لرغبةٍ لا يريدها حقاً:

- "تباً... نعم أوافق".

- "حسناً، أولاً أشترط عليك أن لا تخبر أحداً مهما كان عن ما دار بيننا، وأن تتخلص من ذلك التحري بإرساله بعيداً أو أن تدعوني إلى جنازته. وأنت تعلم ما أقصد".

- "حسناً، لكن أنا لا...".

- "اصمت... أنا لم أكمل حديثي بعد".

أطبَق فمه قبل أن يلقي فنجان القهوة أرضاً بنوع من اللامبالاة:

- "ثانياً، أن تنتظر نهاية هذا العام، ومع بداية العام الجديد، وما إن تنتهي جميع منتجاتنا الحالية من السوق سنقوم بذلك في هدوء، وسأعطيك كثيراً من الوصفات لتبدأ بها حياتك الجديدة كما سنقتسم رأس المال لتبدأ من جديد".

- "ماذا تقصد؟"

انطفأ النور في عيني بوروز عندما فجعه وِلْكَم قائلاً:

- "نعم، أنا المالك الحقيقي لكل هذا، وأنت من سيذهب بعيداً. وفي سبيل التعويض سأسمح لك بصناعة وصفاتي العلاجية ولن أتأخر عنك إذا أحتجتني. أما الآن فإني لن أَدَع لكَ مجالاً، لننجو معاً أو لنغرق معاً".

صمت بوروز ولم يجب. فقد كان وضعه لا يسمح بالمراوغة، خصوصاً أن هنري يُعتبر الأب الروحي للشركة وأنها من دونهِ ومختبره

لا فائدة منها، وستعود إلى سابق عهدها؛ محض معمل لتصنيع بعض الوصفات وموزع لوصفات طبّية لشركات أخرى كان قد اكتسحها منذ زمن.

- "أخبرني... ما اسم ذلك التحري؟".

أصبح بوروز طائعاً منهك القوى كأنه طفل اكتشف والداه أنه قد بلّل الفراش:

- "ديفيد... ديفيد سيدموث".
- "قل يا بوروز، هل تعتقد أن حصولك على الجنسية البريطانية قد أثّر على قراراتك؟ وهل تعتقد أن في ذلك شرفاً لك؟ هل يوجد بداخلك وغد إنكليزي آخر؟".
- "أووو يا هنري، هذا السؤال متأخرٌ جداً، كان يجب أن تسأله قبل أعوام عديدة!".
- "هل تعتقد أنك مسيحيٌّ طيب؟".
- "نعم... دون شك".
- "هل يمكنني أن أثق بك؟ عِدْني بأن ما يزعجني سيزعجك وما يقلقني سيقلقك وأن تخاف ما أخافه وأنك لن تترك شيئاً يحدث لنا؟".

خرجت إجابته كأنها شهقة ميت:

- "أعِدُك بشرفي".
- "أصدّقك. دعني الآن أذهب، ولنا حديث آخر في وقت لاحق".

خرج هنري ملتاعاً فما حدث لم يكن ليصدّقه أحد. عندما وصل إلى منزله، وبعد أن غطس في الماء لفترة طويلة، تحوّل إلى الفراش ونام بعمق، في تلك الليلة سمع منادياً في الحلم يطلب منه:

"أيها الإله القادر على كل شيء، القاهر فوق عباده، أنعِمْ علينا بعنايتك وتجَلّ على هذه الحضرة ووَفِّق عبدك في الدخول إلى معشر البنّائين الأحرار وإلى قضاء حياته في طاعتك، ليكون لنا أخاً مخلصاً حقيقياً... آمين".[15]

***

بعد حوالَي شهر من ذلك الاجتماع السري القاسي، قرر سيلاس بوروز أن يأخذ عطلة ويسافر إلى فرنسا؛ خصوصاً أنه وجد نفسه قد ابتعد كثيراً عن إدارة الشركة، ولم تعد له كثيرٌ من الصلاحيات ولا يمسك بزمام الأمور. سيعود للاستجمام وإراحة أعصابه التي أرهقها مؤخراً. كان ذلك في نهاية كانون الأول عندما سافر لحضور احتفالات رأس السنة الجديدة، وعاهد نفسه على أنه لن يعود إلا في بداية شباط لبدء إجراءات فضّ الشراكة. أعلَمَ هنري عبر خطاب رسمي بأنه إن لم يتعاون معه سيكون مجبراً على الاستعانة بالشرطة. كان ذلك تهديداً صريحاً.

مؤخراً أصبح يشعر بأنه يمشي على الدم ولا يرى سوى الدماء في كل مكان، لكنه ما إن وصل إلى منتجعه وشاهد الشاطئ الذهبي حتى تبدّد كل ذلك. كانت لدى بوروز دراجة بخارية حديثة يستنفد قواه وجسده بقيادتها طوال أيام العطلة على الشاطئ، أفنى كل جهده وطاقته في القيادة على تلك الأمواج المتكسرة جوار السماء الزرقاء الناعمه وكأنه يهرب من مصير ما. لم يكن يتعب أو يحنّ إلى زوجته وأطفاله، بل كان يقود تلك الآلة بكل ما يملك من طاقة. وهكذا قضى شهر كانون الأول سعيداً جداً على غير عادته، وكأنه آخر شهر سيحياه! وفي الأول من شباط وقع على الشاطئ بعد أن أصابه التهاب

15- من شعارات الماسونية.

رئوي حاد، قبع في فراشه يوماً واحداً وأشرف طبيب الفندق على علاجه قبل أن يحوّله إلى المستشفى. وفي اليوم السادس من نفس الشهر أسلم سيلاس مينفيل بوروز 48 عاماً من حياته إلى الموت، تاركاً زوجته أوليف وأطفاله الثلاثة "آن وفرانسيس وستانلي" وحدهم. لم يبكه أحد في مشفى مونت كارلو حيث مات... بطريقة غامضة جداً!

(3)

الضّباب

1895م

"إنَّ ليَ القدرةَ على مقاومة كل شيء، إلا مقاومة الإغراء".

"الطريقة المُثلى للتعامل مع الإغراء هي...

أن تستسلم له تماماً".

أوسكار وايلد

14
فالس اللّقاء والحبّ

- "عفواً هذه الرقصة لي!".

قالها وليام موم للفتى الوسيم ذي الشعر الأشقر، وأبعده بحركة عدوانية عن مراقصة سيري الجميلة؛ فهذا يوم عيد ميلادها ولا يجب أن يراقصها شخص سواه. كان فالساً رائعاً لـ "بابتيست شتراوس". انحنى موم قليلاً مُخفياً وجهه الوسيم، ومن ثمّ تناول يدها الرقيقة ولفّها حول عنقه ثم ضمّها إلى صدره متنسّماً عطرها البنفسج، صرّح لها هامساً بنوع من الدلال:

- "أُحبّكِ يا أقحوانة الربيع الأجمل".

أراحتْ سيري رأسها على صدره العريض وشعرت بحرارة أنفاسه في وجهها، تذكّرَت أنها قد وعدته بأن تذهب لتقيم عنده في اليوم الذي تُكمل فيه عامها الثامن عشر. أي في هذه الليلة من شهر تموز العام 1897م. وقد رضخ والدها أخيراً في ذلك اليوم لرغبتها في أن تُقِيم هذا الحفل الفاخر، وهو المقاول الخيري الثري والرجل المتحفظ الغيور. كانت القدور مليئة بالحساء؛ والكؤوس بالمشروبات والعديد من أصناف الحلوى والجاتوه. أقيم الحفل في صالة رقص خاصة لا يرتادها إلا أغنياء لندن، وعزفتْ فيه فرقة موسيقية نمساوية. تلك الليلة كانت سيري أسعد ما تكون وهي تشعر بأن أنوثتها قد اكتملت وأصبحت زهرةً ناضجة يمكن لموم أن يقطفها الآن.

كان موم أيضاً في غاية السعادة بسبب مقال كتبه أحد النقاد عن روايته الأولى "ليزا فتاة لامبث" وأشار إلى موهبته، وأضاف أن

المستقبل ينتظر كاتباً كلاسيكياً رفيع الطراز. كان موم يحمل نسخة من صحيفة "المانشستر" وأراها لسيري التي تمكّنت منها الدهشة والفرح فضحكت بنشوة وهي تحاول أن تتمالك نفسها لكي لا تجذب إليها نظرات والدها المتعصّب، فهي تعلم أن موم يحبّ الكتابة ويريد أن يكون كاتباً مشهوراً يلقي عليه كلُّ الناس التحيةَ عندما يمرّ، ويُنزلون القبعات من أجله، وتستقبله القصور الملكية، ويتشرّف الملوك والأمراء بمقابلته، وهكذا. لكنها تعلم أيضاً أنه يحاول أن يدرس الطب وأن يعمل طبيباً. أخبرها ذات مرة بأنه يفضّل على كل ذلك أن يجوب العالم في رحلة طويلة! وهي تعتقد أنه مشتّت الذهن لا يعرف ماذا يريد، لكنها متأكدة من أنه يحبها إلى درجة كبيرة ولا يستطيع أنْ يستغني عنها أبداً.

خلال رقصة الفالس الأخيرة أخبرها بأنه انتظر هذا اليوم كثيراً، ولن يحتمل مزيداً من الصبر دون أن يقبّلها أو يضمّها إلى أحضانه. في السابق كانت تمانعه تماماً ولا تترك له المجال ليلثم شفتيها أو أن يلتصق بها من الأمام بطريقة خليعة، وتأخذ جميع احتياطاتها خوفاً من الإغواء، والأهم من ذلك خوفها من الظهور بمظهر غير لائق أمام المجتمع اللندني. وكان للأب المسيحي المتشدد والتربية الدينية المتزمّتة أكبر الأثر في زرع كل ذلك الخوف في أعماقها، وهي تعلم يقيناً أنه سيعاقبها أشدّ العقاب إن لم تستمع إلى نصحه، وهي التي دائماً ما كانت موضع مقارنة مع أختها ذات الأدب الجم والطاعة منقطعة النظير التي تحملها لوالدها، وفوق ذلك تحفظ أختها الترانيم والمزامير وتتلو الصلوات كل يوم، وهي الوحيدة التي كانت تشبك أصابعها قبل كل وجبة، وتهمس بخشوع شديد شكراً للرب، ولا يُسمع صوتها إلا عندما تقول "آمين". وطالما أيقنت سيري من أن أختها تحمل في داخلها راهبة صغيرة.

قبل عدة أسابيع، بينما كانا يجلسان في بهو فندق (دُوُرشِستر)، وعدها بالزواج لكنه طلب منها أولاً أن تنتقل للعيش معه، فَكَّرتْ كثيراً في فرصة أن يصطحبها معه في جولته حول العالم، ورغم إحباطها من مستقبله ككاتب أو طبيب أثارتْ تلك الصحيفة الصغيرة شيئاً ما في دواخلها وتمكّنت من أن تصنع منه في تلك اللحظة بطلاً لأحلامها، ووعدته بأنها ستفعل كل شيء في سبيل أن يكون سعيداً. تأمّلت حياة الحرية التي تَنْشُدها، وعزمت على أن لا تكون نسخة أخرى من أختها مهما حدث.

كان موم نجم حفلها بلا منازع، بلغته الفرنسية الرائعة وصوته الهادئ الوقور ولباقته الجمّة في الحديث. سحَر الفتيات بها في ذلك "إيميلي"؛ الصديقة المُقرّبة لسيري وكاتمة أسرارها الوحيدة، التي عندما قدّمتها إليه تذكرت موقفاً معيناً، وبينما تناول يدها ليقبلها سألته:

- "ألستَ ذلك الطبيب من "سانت توماس"؟.
- "نعم آنستي، أنا هو، عيادتي هناك".
- "لا أقصد المشفى، بل مدرسة الطب!".
- "صدَقتِ، دعيني أقدّم نفسي، أنا وليام سومرست موم".

قالها بثقة مفرطة وبفرنسية رائعة، لكن سيري قاطعته:

- "أوو يا عزيزي، لماذا تصِرُّ على أنْ تتحدث بالفرنسية كأنها لغتك الأم؟".
- "ألا تعلمين أنني ولدتُ ونشأت هناك، في باريس؟! أنا أعتبرها فعلاً لغتي الأم".
- "حقاً؟".

- "نعم، فقد كان والدي دبلوماسياً في قنصلية بريطانيا هناك".
- "لكنّ ذلك لا يمنعك من الحديث بالإنگليزية، ألم تتلقّ تعليماً هنا؟".
- "آه يا سيري!، أنتِ تَنسَين كثيراً، ألمْ أُخبركِ بأنني درستُ في "كانتربري" ثم توجّهتُ إلى ألمانيا للدراسة في جامعة "هايدلبرغ"؟!...".

نظر إلى إيميلي الخجولة وخصّها ببقيّة حديثه:

- "... لماذا لا تتحدّثين يا إيميلي؟".
- "حسناً يا سيري، يكفيك حبّ هذا الشاب الجميل، ما همّك بماذا يتحدث ما دمنا جميعاً نفهمه جيداً!".

ضحكوا ثم تناولوا كؤوس الشمبانيا وراء ستارة واقترحوا نَخْباً؛ "لتحيا الحرية". لم يكن والد سيري يسمح لها بالشراب أو بدخول المشروبات الكحولية إلى بيته، ولم يكن يسمح لها بالخروج أو الذهاب إلى الحفلات وحدها، وعندما تخبرها زميلاتها أو صديقات طفولتها عن تجربتهنّ الجنسية الأولى تبقى خجلة صامتة لا تستطيع مشاركتهنّ الحديث فهي لم تجرّب ذلك الأمر بعد. حتى إيميلي كان لها حبيبٌ غبيٌّ يَكبُرها كثيراً؛ لكنه يحبها ويقضي كثيراً من وقته معها، وفي عيد ميلادها أهداها قلادة ذهبية. أما موم فقد أتى إلى سيري بهدية مختلفة؛ "روايتين!". الأولى "فرانكنشتاين" لماري شيلي، وكانت نسخة أصلية مجلّدة جيداً، والثانية هي رواية جين أوستين "كبرياء وتحامل". ولاحقاً، عندما تقرأ "فرانكنشتاين"، ستعرف وجه الشبه بين ڤيكتور فرانكنشتاين وزوجها المستقبلي. وحاولت أن تعرف لاحقاً لماذا أهداها تلك الرواية القوطية المخيفة بالتحديد، وهي التي لم تحبّ

القراءة بأي حال! لكنها تحب المشاهير؛ كالطبيب الذي بدأ يتحوّل إلى كاتب معروف -نوعاً ما- موم.

بعد أسبوع، بينما كانت سيري تمرّ صدفةً جوار مستشفى سانت توماس، راودتها فكرة مجنونة. ستخفي وجهها بوشاح ملوّن وتدخل إلى مكتبه مُدّعيَةً المرض لتعرف ردّ فعله وكيف يعامل الفتيات. كانت حركة المارة قليلة جداً، والضباب يخفي كل المعالم. نظرَتْ إلى مدخل العيادة فوجدَته مُضاءً، كانت ترتدي فستاناً كبيراً من المخمل ضيّق الخصر ومغطى عند الصدر بالدانتيل الأحمر، ونسمات الليل تعبث بشعرها الناعم كأنه أوراق شجرة صفصاف فيرتدّ إلى كتفها في عنف وغنج. أخرجت الوشاح من حقيبتها وغطّت وجهها ثم دخلت. كان عليها أن تسجّل اسمها وتنتظر قليلاً ريثما تأذن لها السكرتيرة بالدخول. راقبت الممرضة البدينة وهي تكرش ساقها السمين كجذع شجرة بطريقة فظّة وتأفّفَتْ، ثم لاحظت أرضية المربّعات السوداء والبيضاء النظيفة التي تفوح منها رائحة الصنوبر، نظرت إلى زجاجة القنديل فوجدتها نظيفة إلى درجة أنه يمكنك أن تنظر من خلالها لولا قوة الشُّعلة، تمرّغَت في جلستها لتختبر قوة الكرسيّ الذي كان قوياً بما فيه الكفاية لكي لا يُصدر صوتاً، ثم أخرجت من حقيبتها ملصقاً دعائيّاً لمستحضر تجميل وبسَطته على فخذها وأخذت تقرأ ببعض الشقاوة، وتشغل نفسها عن الانتظار.

فاجأها موم عند دخولها. وجدته ملتفتاً نحو الحائط ولم ينظر إليها مطلقاً، بعد أن سمع صوت جلوسها تحدّث إليها بصوته الهادئ وبلغة إنكليزية هذه المرة:

- "أنا أعرفك أيتها المريضة، من رائحتك أولاً ومن أشياء أخرى ثانياً".

هنا لم تتمالك نفسها من الضحك وتيقّنت من أنه كشفها لكنها ماطلت قليلاً وقالت:

- "أنا مريضة بالحبّ، وحبيبي مشغولٌ عني. أعطني نصف وصفة أيها الطبيب فما عاد النوم يجد طريقه إليَّ".

رفع رسماً توضيحياً وتفحّصه وهو يُوْلِيها ظهره دون أن يلتفت إليها قائلاً:

- "إنّ وصفتكِ في قلبك، وسِحْر حبيبك في عينيك، إن نظرتِ إليه نسيَ كلّ شيء وخرّ يقبّل يدك".

وضعت يدها على فمها قبل أن تسأله:

- "وهل تعلم من هو حبيبي؟".

- "طبعاً، طبعاً، فهو بلا شك الروائي العظيم سومرست موووم".

أدار كرسيّه بسرعة ونظر إليها ضاحكاً فأزاحت عن وجهها الوشاح الملوّن، كأنها كانت تزيح الستار لظهور نجمة المسرحية في صالة ممتلئة بالحضور. وسألته:

- "كيف عرفتني يا عزيزي؟".

ضحك حتى كاد أن يلفظ جوفه وأخبرها:

- "أخيراً قرأتِ الرواية أيتها الزنبقة هاهاها".

- "هااااه! لا يمكن أن...!".

- "نعم، حينما أخبرَتني الممرضة بأن هناك مريضة تُدعى "إليزابيث بينيت" عرفتك مباشرة! كان يجب أن تختاري اسماً آخر غير اسم بطلة كبرياء وتحامل!".

أجابته ببعض العتاب وظهر الامتعاض على وجهها:

- "أووو يا عزيزي! أفسدت عليّ متعتي، كان يجب أن تتظاهر قليلاً".
- "أنا لا أتظاهر يا زنبقتي. هيا هيا لنخرج ونتمشى قليلاً ثم نتسكع حتى المنزل، سأخبركِ عن روايتي الجديدة، لقد استوحيتها من هذا الكرسيّ الذي تجلسين عليه".
- "حقاً؟ لكنني أريدُ أن أعرف أولاً من هي ليزا؟".
- "حسناً إذن، سأخبرك على العشاء".

غسل يديه وجفّفهما ثم تأبّطت يدَه وخرجَا يلفّهما البرد والرغبة لسرقة قبلة سريعة تطفئ أشواقهما.

15
متاهة الخواء

ما كان لسيري أن تتعرّف إلى موم لولا صدفة غريبة نوعاً ما! حدَث ذلك ذات مرة عندما خرجتْ خلسة لتشاهد عرضاً مسرحياً، متعلّلة بأنّها ذاهبة للاعتراف في كنيسة القديس جورج. بعد نهاية العرض أرادت أن تقدّم نفسها إلى الممثلة الجميلة بطلة المسرحية وتُحيّيها على طريقتها الخاصة، وقد كانت معجبة بها أشدّ الإعجاب، وترى أنها قد تكون في المستقبل ممثلة جميلة ولها حضور وجمهور أكبر منها، لذلك أرادت التعرف إليها. كانت تُشبهها كثيراً؛ حسبما أخبرتها صديقتها إيميلي. في الحقيقة، سيري أجمل منها كثيراً، وهو الأمر الذي لم تذكره لها لأنها كانت ستزهو بنفسها بعد ذلك غالباً، وتصبح مترفعة كثيراً وغير محتملة، مما يفسد جوّ المغامرة ومتعة المشاهدة والبحث عن الفضائح في الحضور عبر المكبرات الدقيقة التي كنّ لا يرفعنها عن أعينهنّ أبداً. في طريقها إلى خشبة المسرح استولت عليها نوبة من الضحك والخجل معاً، ولم تتمالك نفسها عندما رأت الممثل الذي أدّى دَور العاشق المجنون؛ كان بريئاً لا يشبه الدَّور الساذج الذي قدّمه. ابتسمَتْ له وحيّته بيدها ببعض الارتباك، أثناء ذلك هوَتْ رجلها من إحدى الدرجات ففقدت السيطرة على توازنها وسقطتْ، لكنَّ يدَيْ موم كانتا الأقرب إليها، ساعدها على النهوض أولاً ثم ناولها قبعتها المزركشة وانحنى أمامها. كان وسيما فاتناً كأحد أمراء القصور القديمة، وما إن لمعت عيناها إعجاباً به حتى اقترب منها وقدّم إليها نفسه مازحاً:

- "سومرست موم، مؤلف المسرحية ومترجم وطبيب ماهر في المستقبل! كما يمكنك أن تعتمدي عليّ كمحامٍ يا آنسة".

ابتسم لها تلك الابتسامة التي لا يمكن مقاومة إغرائها أبداً.

لاحقاً عرفَت أنه يدرس الطبّ في مدرسة سانت توماس، وأنه طالب فقير يعمل أي شيء من أجل توفير ما يعينه على دراسته. قابلته مرة أخرى في حفل عشاء، أدهشها هذه المرة بأفكاره ولغته الفرنسية وحكاياته عن إيطاليا ومغامراته هناك. كانت لا تزال في بداية مراهقتها، هاربة بارعة من رقابة الأب الصارمة ومبهورة بالحياة التي حُرِمت منها لحداثة سنّها وأسلوب أسرتها المحافظ. بدأ موم يظهر اهتمامه بها، عبارات رقيقة في منديل، وردة حمراء، ودعوة خاصة إلى الخروج، ثم قبلة في الهواء. ومن كانت تستطيع مقاومة موم!؟ لذلك عشقت فيه ما يكتبه عنها، والطريقة التي يصفها بها. عندما تذوّقتْ دفء حضنه لم تترك يوماً واحداً يمضي دون قضاء وقت أكبر برفقته، اكتشفا معاً بعض الأمور واختفيا عن الأنظار في الشوارع الخلفية والأزقّة بل وحتى خلف مذبح الكنيسة وفي الرصيف الخالِي لمحطة المترو. كان عشقاً مُراهِقاً محموماً لا يُقاوم. لاحقاً لن تتذكّر متى فقدت عذريتها، ولا كيف حدث ذلك! لكنها تعلم أنَّ موم رهَن ساعته وبعض معدّاته الطبية لدى اليهودي الماكر في شارع غلوستر من أجل تأمين شقة صغيرة مؤقتة للقائهما في نفس الشارع المزدحم، لكنها تتذكر جيّداً أن موم رضخ لجميع شروطها من أجل أن تنتقل نهائياً للعيش معه إذ إنَّ تلك اللقاءات النهارية العابرة لم تكن تكفيهما.

شعر موم بأن لديه نقطة ضعف واحدة يجب أن يتجاوزها مهما كلّفه الأمر، وهي سيري نفسها. أصبح شغوفاً بها لا يستطيع مفارقتها إلا وسارع إلى لقائها من جديد، حتى في تلك اللحظات الحميمية التي تجمعهما كان يشتاق إليها إلى درجة أنه لا يهدأ ولا يرتوي منها مهما حدث، كسكير في حانة وجيوبه ممتلئة بالنقود. يتأمّلها في ضوء

المصباح بكل وقار كرجل هندي أمام بوذا يتعبد، أو كتأمُّله لوحة جديدة في متحف الفن! فسِيري ليستْ باهرة الجمال فحسب، لا، بل هي أيضاً امرأة ذكية ومتحضّرة وتُناسب حياته، لولا غيرتها الشديدة وحرصها على إرضائه بشكل مبالغ فيه. فمثلاً عندما تمرّ أمام عيادته في طريقها إلى الخياط لم تكن تتورّع عن الدخول إليه ومقاطعة مقابلاته بوضع وردة في مكتبه أو إلصاق قُبلة على خدّه أو بمجرد تلويحة قصيرة فاتنة ومثيرة لشهواته. كان يتحرج من ذلك السلوك أمام عامة الناس، ورغم أنها تفعل ذلك بحسن نيّة وبدافع الحبّ فإنه لم يُفسره كذلك، فهو رجل شهوانيّ يعتقد أنَّ أسمى مراتب الحب هي الجنس، وأنَّ أعظم لحظات الحبّ هي الاشتراك في بلوغ النشوة الجنسية، وأنَّ العواطف أمرٌ مُكتسب، وأنَّ الرجل السليم يمكنه أن يسعد عدة نساء، وأن المرأة تحصل على نصيبها من رجل واحد فقط، لذلك بمجرد أن شعرَت سيري بأن موم أصبح يسرح بخياله كثيراً أثناء حضورها وأنّ ألق رؤيتها أمسى خجولاً دون العادة، سألته إن كان يحبها؟ وأجاب:

- "بالطبع يا عزيزتي، وهل يساوركِ الشك؟".
- "لا، ولكنني أشعرُ بأنكَ متغير قليلاً، فلم تعد تشتاق إلى قضاء الوقت معي، ولم تعد مهتماً بي كعهدك السابق. أصبحتَ تُهديني كثيراً من الأشياء لتكفّر عن الزمن الذي لا تقضيه معي، وأنا لم أعد أهتم بالهدايا بقدر ما أنتظر لقاءنا يا حبيبي".
- "وهل تثقين بي؟".
- "أثق بك لكنني لا أثقُ بمريضاتكَ الجميلات!".
- "لا يجب أن تخافي منهن فلَسْن أجمل منكِ بأي حال".

- "أنا أعلم، بل أنا واثقة من ذلك، لكن لن أكون مُرتاحة البال ما لم أفهم سِرَّ هذا التغير المُفاجئ".

- "حسناً، عليك القلق قليلاً من بطلاتي الجميلات!".

- "ماذا تقصد؟".

- "أنا أكتب روايتي الجديدة!".

فاجأها كثيراً فتهلّل وجهها قليلاً وقالتْ:

- "لِمَ تخبرني بذلك. ما عنوانها؟ هل كتبتها عني؟ هل سمّيتَ البطلة باسمي؟ هل أنا مُلهمتك؟ أخبرني؟".

- "رويداً رويداً، هوِّني عليكِ، ما كل هذا؟ لم كل هذه العجلة؟".

- "أخبرني، هل تحكي الرواية عني؟".

- "حسناً عليكِ القلق فعلاً، لأني منشغل بالكتابة. وسأعترف لكِ بشيء واحد ولن أجيب عن أي سؤال حولها من جديد، وهو أنكِ مُلهمتي فعلاً".

مالت على كتفه ووضعت إصبعها السبابة في فمه وأدارت يدها حول عنقه واقتربتْ من أذنه قائلة:

- "بماذا ألهمتُك أيها الوحش؟ أخبرني يا فأري الصغير".

كانت تستخدم معه كلمة "فأري" كلما أرادت تدليله على طريقتها الخاصة، ودائماً ما تستنطقه بها، لكنها لم تفلح هذه المرة، فروايته تسيطر عليه كلياً، وهي تحكي عن فتاة جميلة تقع في غرام طبيب سِكير، وهو منغمس في تلك الرواية إلى درجة أنه لم يعد مهتماً بمرضاه حين يجلس في عيادته، بل كان يراهم كشخصياته، وعندما يجلس في شقته المطلة على شارع (بيكاديللي) ويضيء الشموع ويتأكّد من الورق والمحبرة، لم يكن يرى الغرفة بستائرها القرمزية الشفافة ولا يلمح الضباب المكتظ

في الأفق ولا يسمع صوت الريح وهي تعبر بين اللوحة المعلقة وحافة الشمعدان لتعبث ببدلته الصوفيه المُهترئة، كان لا يسمع صوت الأحصنة وصياحها عندما تلسعها السياط اللاهبة ولا عجلات العربات المُسرعة وهي تضرب الطرقات بقوة والحوذي يصيح ثائراً بين لحظة وأخرى، لم يزعجه صياح بائعي الأقمشة والكتب في الشارع أسفل شُرفته. عندما يكتب يغمس روحه في الحبر ويكتبها على الورق، ينفصل تماماً عن الواقع. يتلبّس أبطاله، فهو لم يقم بالتسميات بعد، لكن مثلاً أثناء كتابة تلك الشخصية الثانوية التي تجيد حبك الأكاذيب نجده قد غيّر نظرته وطريقة جلوسه وتحّول إلى كائن مخادع حتى تخبو وسامته البريئة، ولاحقاً خلال أحاديثه مع مرضاه في العيادة يكتشف أن مصطلحاته وطريقته غير مناسبة هنا، فذلك العمل يأخذ تفكيره حقاً. من أجل كل تلك الأشياء لن تستطع سيري أن تثبت عليه شيئاً، لكنها في قرارة نفسها كانت متضايقة جداً، فهي تسأل نفسها دائماً: "كيف لرواية تافهة عديمة القيمة أن تُبعده عني؟ وكيف يُوْلي ذلك الفأر ذو الوجه المستطيل وقته لشيء سواي؟ إنَّه لأمرٌ مُحيّرٌ وغير مقنع! ماذا حدث لهذا العالم؟ نحن في القرن التاسع عشر، هل يعتقد أنه سيكون أفضل من شكسبير أو جين أوستن أو "بوز"[16]؟ ما الفرق إن كتب رواية واحدة أو مائة رواية؟ ماذا سيحدث حينها؟ ما الفرق؟ ما هي الفائدة المُباشرة من ذلك؟ أن يكون طبيباً ثرياً مشهوراً أفضل له من أن يكون روائياً مغموراً، فقد أحببته كطبيب مثقف وليس كروائيٍّ أحمق!".

وقد كان من المتعذّر على موم أن يستغني عن دراسته وعمله في مستشفى "سانت توماس"، فهكذا سيفقد أحد أهم مصادر إلهامه

16- الاسم المستعار للروائي تشارلز ديكنز.

وهم "المرضى الفقراء" وحكاياتهم التي لا تنتهي، فهو يعتقد أنَّ الكاتب الموهوب لا يمكن أن يحصر مصدر إلهامه في شيء واحد، حتى الموت بالنسبة له كان مصدر إلهام، فكلما أخذ يتذكر كيف رحل والداه وتركاه لعم متديِّن -قسيس بخيل ومخادع- وكيف أنه واجه العديد من التحديات في صغره نتيجة يُتمه المبكر، كصعوبة النطق واللثغة اللئيمة التي لم يفلح في التخلص منها والمعاملة القاسية في الدير ثم مراحل النمش القميء وتأخر ظهور عضلاته وغلاظة صوته وخلافها مما جعل كثيراً من لحظات حياته تتبدل إلى جحيم مستعر. كما أنَّ ميراثه الكبير قد تبدّد وقام بصرف أموال طائلة لأجل دراسته وبعض رحلاته ومغامراته. وبفضل مريض عجوز اكتشف طريقه إلى الكتابة فقد أخبره ذلك الرجل عندما قرأ تقريره الطبي وأسلوب وصفاته العلاجية:

- "أنت لست بطبيب يا بُني! أنت كاتب موهوب، لا تضيّع هذه الفرصة!".

هُوَ فعلاً مولع بالكتابة، يدّون شيئاً هنا ويخربش هناك، بعض المُلاحظات والخواطر وكثيراً من اليوميات، حياته رتيبة إلى درجة غير متوقعة ولا يمكن تقدير مدى كآبتها لذلك لم يشعر براحة إلا بعد أن وقع في غرام سيري، وكان متأكداً من أن لندن كلها تحسده عليها، وهي التي كانت لا تخرج إلى المدرسة أو الكنيسة إلا وتجد أشخاصاً كثراً ينتظرون خروجها ليحظوا بفرصة رؤيتها وملاحقة شعرها الذي لا يختلف عن أشعة الشمس ويحومون بأبصارهم في نهديها وكأنهما قطتين صغيرتين تحاولان الفرار من قبضة قماش حمالة الصدر، ولا يتورّعون عن النظر إلى ردفيها المكوّرين الناعمين ككومتَيْ قطن. كان عطرها يدوم في أنوف عشاقها لساعات وساعات، والزغب الذي

يَلفُّ رقبتها من الخلف كأنه إبرٌ مسنونة تطعن الطامعين في هذا الجسد الفاتن الذي تبقّى له عامان ويكمل العشرين ربيعاً وهي السنّ التي يجوز فيها لجميع الخُطّاب التقليديين، كأبناء الجيران وأبناء الأصدقاء المُدللين، التقدم رسمياً إلى والدها المتشدد تقرّباً منه وطلباً ليدها. لكن كل ذلك لم يكن يشغل بالها. فعندما تمرُّ أمام أحد المعجبين لم تكن تحرّر شعرها من قبضته فقط، بل تصل بها الجرأة حدّ أن تتمايل كأنما كاحلها قد التوى. وكان المجتمع آنذاك محافظاً-نوعاً ما- فلا يقبل مثل هذا السلوك من فتاة صغيرة، والأهم من ذلك أنها ابنة توماس جون برناردو؛ المسيحي المتشدّد الذي يتجنّبه كل الناس خوفاً من نصحه وحديثه عن الخطايا والوعيد، الرجل الخيري، باني دُور الأيتام والملاجئ، والذي كان مبشراً في شبابه. أمّا سيري فهي تبدو لعوباً في نظر سيدات المجتمع اللاتي يستهْجِنّ تصرّفاتها، بينما هي تعمد إلى إبراز مفاتنها كيداً لهنّ. لكنهنّ كنّ يكرهنها ويحسدنها في الحقيقة، رغم فارق السنوات الكبير بينهن، ويرَيْن فيها نموذجاً للخلاعة وينسجن حولها الأقاويل والشائعات. أما هي فتسعدها كثيراً تلك المضايقات التي تسبّبها لأمثالهن من العجائز أو السيدات اللاتي يكبرنها ببضع سنوات. وكانت تلقي عليهن ببعض العبارات أو الطلبات الغريبة المزعجة على شاكلة: "أأه يا سيدتي انظري إلى بطنك، كم هي كبيرة ومنتفخة! هل أنتِ حامل؟" ويكون سؤالها موجّهاً إلى امرأة تجاوزت الستين عاماً، ثم تبتسم بخبث وتبتعد، أو "انظري يا سيدتي إلى صدري، هل هو صغير وجميل أم ضخم ومترهّل مثلك؟"، "أنتِ ترتعشين يا خالتي، هل تريدينني أن أضع على يديك بعض المرطّب؟"، "يبدو أنني أكلتُ كثيراً، لا أُريد أن أصبح بدينة مثلكنّ، ألم تعرفن أن البدانة هي الوجه الآخر للقبح؟" وهكذا. لذا أصبحَتْ

مكروهة ولا تُطاق في أغلب المجتمعات اللندنية الراقية؛ حيث حفلات الشاي والكوكتيل الراقصة والحفلات التنكرية والاحتفالات السنوية وغيرها من مآدب ومناسبات تقتضي المشاركة فيها رغم معارضة والدها الدائمة، وهو الذي دلّلها إلى درجة كبيرة ولم يحرمها من شيء مهما غلا ثمنه. كانت غرفتها وحدها تعادل شقّتين في أحياء لندن الشرقية، وتمتلك علب حلوى فاخرة، ومكتبة مليئة بالكتب الدينية والعملية، لكنها لم ولن تكتشف ذلك، ولم تقرأ منها أبداً. تأتيها مجلات الموضة والأزياء بمجرد صدورها وتشرف على ذلك مدبرة المنزل التي تساعدها في اختيار ما يناسب ذوقها. أمّا خيّاطها فهو لا يكلّ من صنع فساتين السهرة والتنانير الطويلة، وكانت تشتري ملابسها الداخلية الناعمة المصنوعة من أجود أقطان المُستعمرات من عند متجر تشارلز هارودز، ولا ترتديها مرتين، ولا تظهر بالفستان أكثر من مرة واحدة. وكلما أرسلت إلى العطّار أعَدّ لها عطراً لا يمكن لأحدٍ أن يفك سره أو يعرف محتوياته، ويجب أن لا يعرف أحدٌ اسمه أو يحاكيه فهو يُعدّ خصوصاً من أجلها. كما كانت العربة الخاصة بوالدها دائماً في انتظارها استعداداً لخروجها أو لقضاء حوائجها. فمثلاً كانت تأتيها بمعلمة البيانو القبرصية التي تقوم بتدريسها وتحفيظها الترانيم والتراتيل حسب توجيهات الأب، كما تجلب معها بعض العيّنات من خِيرة أنواع الأقمشة الإيطالية والفرنسية التي لا تتوافر في السوق. أمّا سائق العربة فهو متواطئ معها من الدرجة الأولى ولم يخبر والدها بأنها أصبحت تلتقي رجلاً بائساً في شقة ضيقة فاسدة الهواء.

لكنّ موم بالنسبة لها أكثر من مجرد حبيب، وأجمل من سطوع مليون شمس في يومٍ بارد، وأفضل من يُقبّلها على الطريقة الفرنسية، فقد

تذوّقت وعرفت اللذة على يده. وهو مثلها، لا يكتفي من الجنس أبداً. منذ اليوم الذي فقدت فيه عذريتها لم يتوقفا؛ فهو خبير بأمور الفتيات المُراهقات وفضّ عذريتهن على طريقته الناعمة، لذلك كانت تجربتها الأولى مريحة ورائعة أكثر مما كانت تتوقّع، وقد وعيت تماماً أنَّ الجنس أكثر ديمومة من العواطف، إذ إنه من الممكن أن يعيش الإنسان لأطول فترة ممكنة ما دام هناك من يختبر معه كل تلك الملذات، ويجرب معه كل تلك الأوضاع والصرعات التي ستكتشفها وتجرّبها مرة تلو الأخرى. ذات مرة أخبرها موم:

- "أنتِ شَبَقٌ خُلق فيه جسدُ فتاة، ولستِ مجرد فتاة لديها بعض الشبق!".
- "ألهذا تُحبّني يا مومي يا رجل الفراء؟".
- "لا، أنا أحبّ روحك، وأحبّ ابتسامتك وعينيكِ اللتين تخفيان أسراري".
- "إذن أخبرني عن أسرارك التي تخفيها في عينيَّ؟".
- "دعيني أرَ...!".

اقترب منها فاشتعلتْ أنفاسُهما كالزيت المغلي. فيم كانا يتحدثان؟ لا تعرف. هكذت تجري الأمور بينهما. لاحقاً، بعد أول ليلة كاملة قضتها برفقته، سألتْ نفسها عندما أفاقت في اليوم التالي: "أين أنا؟"، و"ماهو الوقت الآن؟" روحها كانت تغادر ذلك الجسد الفتّان المولع بالحبّ، وعندما تعود لا يتعرّف إليها الجسد المشحون بالرغبة والشجون، فتطفو التساؤلات وتصيبها الحيرة الضائعة في لذة... الحياة.

شكله لا يوحي لها بأنه كاتب أبداً. في نظرها، يجب على الكاتب أن يكون غامضاً، وأن لا يكتب باسمه الحقيقي، وأن يكون رقيق

الصفات كفتى أوكسفورد أوسكار وايلد؛ الشاب الذي يحتلّ مكانة كبيرة من خيالاتها ويملأ بأشعاره الجانب الناقص من علاقتها مع موم. وهي تتخيّل أنها إذا التقت به فسوف تحمل إليه وردةً لم ير لها مثيلاً، تتخيّله يحدّثها عن أشعاره ويفتح عينيها على جمال الكلمات الذي لم تكن تراه ولا تشعر به. عندما تقرأ أشعاره يخطر ببالها أن اللغة الإنگليزية ليست رائعة إلى تلك الدرجة، فقد كانت تعتقد أن الفرنسية أجمل، وأنها ليست لغة العوام من الناس، بينما الإنگليزية هي كذلك. في نومها، عندما يحضر إليها أوسكار، يخبرها كيف يكون الحبّ، يخبرها عن فلسفته في التجمُّل، ويبالغ في تدليلها والهمس في أذنها، فكانت تضحك أثناء نومها أو تتحرّك قليلاً، وعندما يحتضنها تشعر أن النجوم تتناثر على جسدها، وأن العالم الكبير أضحى كرة صوف صغيرة يمكنها أن تفعل بها ما تشاء، بل حتى يمكنها أن ترميها بعيداً جداً. أوسكار عاشقٌ مخلصٌ وكاتبٌ متفرّد، ولطالما كانت تحترم ما يكتب، رغم أنَّ والدها كان من أكثر الناس سخطاً عليه، فهو جميل الوجه ومتحضّر كأن به لعنةً جميلة بطريقة إلهية، ولجماله الطاغي أثرٌ في طريقة كتابته وكونه مثقفاً. وهذا ما كانت تفقده في موم الكاتب، تلك الروح التي لا بدّ وأن تشبه سيدها. خرجتْ بكل تلك الانطباعات والهوس به بعد أن التقته مرةً واحدة فقط في حفل خيري بأحد الأندية، ولن تلتقي به ثانيةً طوال حياتها، على الرغم من أنها لن تستطيع التوقف عن التفكير به. لم تكن تعلم أنها أصبحتْ تنسج حوله حكايات عشق شكسبيرية كلما شعرَت بدخولها إلى متاهة الخواء، تحاول أن تعوِّض خسارتها المعنوية، فالجسد كان مليئاً بموم، أمّا الروح فهي خاوية... تماماً، إلّا من تلك الأكاذيب التي صدّقتها بشدة.

16
عطلة في إيستبورن

أَسَرَّتْ سيري إلى نفسها: "يبدو أنني حامل!".

فَكّرَتْ كثيراً في الأمر، ثم أصابتها الحيرة في ما ستفعل؟ هل تفصح لموم بذلك؟ أم تنتظر شهراً آخر حتى تتأكد تماماً! أصبحتْ خائفة جداً؛ فوالدها المسكونيّ حتماً لن يقبل، وسيغضبه ذلك بشدة، وهو الرجل الذي طالما كان يصبّ غضبه ولعناته على النساء اللاتي يضعن مواليدهنّ دون زواج. لا، لن تصبح ابنته واحدة من تلك الأمهات المحرومات من المباركة الكنسيّة، لا يمكن أن يحدث ذلك! قد يقتلها كما يفعل الأعراب في أقصى الشرق، كيف سيتقبل الموقف وهو الرجل الذي يَبني دُور الأيتام في كل مكان ويشكو من ازدحامها بالأطفال اللقطاء مجهولي الأبوين أكثر من الأيتام الذين من أجلهم يَبني الدُّور، حسمَتْ أمرها بمواجهة مخاوفها وإخبار موم بما حدث. عليه أن يتحمّل المسؤولية الآن، يجب عليه أن يتزوّجها. هدأت ثورتها هنا، وابتسمتْ.

لكنْ أصابها بعض الشكّ في نَسَب الطفل؛ فقد وقعت في علاقة عابرة أو اثنتين في نفس الفترة التي كانت تواعد فيها موم باستمرار. تواردت إلى مخيلتها الاحتمالات: "هل يا ترى هو ذلك الفتى الآري الوسيم، يا للروعة لو كنت أحمل منه طفلاً أو طفلة، سيكون جميلاً كالبيضة المسلوقة". ثم حضر موم إلى أفكارها، بهمومه حينها، والسفر إلى الشرق الأقصى حيث أصبح يعمل طبيباً في إحدى السفن. فكرت بأنه سيتزوجها. لا بل يجب عليه ذلك.

عندما عرض عليها موم أن ترافقه في رحلة إلى جنوب شرق انگلترا كانت تسمع كثيراً بالقنال وجمال سواحله وشموسها المشرقة، الريف الجميل، المروج الخضراء، مرافئ الصيد الصغيرة، مزارع الفواكه، حدائق الزهور والحانات الرملية. "سنذهب إلى ساسكس، إيستبورن الدافئة" لكنها تردّدتْ عندما أخبرها بالوجهة، بماذا ستتحجّج هذه المرة؟ كيف ستُخبر والدها؟ اهتدتْ إلى فكرة واعتقدت أنها مقنعة، فنفّذتها. تعللتْ بأن والدة صديقتها (إيميلي) مريضة جداً، ويجب أن تذهب معها إلى برايتون. وحكت لوالدها بأن الأم المريضة تعاني من السل الرئوي، وأن هناك أخباراً تقول إنها لن تعيش طويلاً ويجب عليها أن لا تترك صديقتها وحيدة في حدث كهذا. حنَّ قلب الأب، فهو يعلم ويعي تعاطف ابنته مع مثل تلك الحالات الإنسانية، خصوصاً وأنه يظنّ بأنها ورثت منه الحسّ المسيحي المُرهف، وأوصاها بتخليص الأمّ الموشكة على الموت من الخطايا. وبينما هو يتلو عليها الصلوات كانت تقاوم ضحكاتها، سعيدةً بما أقْدَمت عليه. أخيراً سمح لها بالذهاب، وطلب مقابلة إيميلي ليصف لها علاجاً ناجعاً للمرض؛ الأمر الذي اضطرّ سيري إلى إشراكها في الخدعة. وافقت إيميلي على تمثيل الدَّور اللازم بلا تردد، شريطة أن تذهب معهم، فأمّها متوفّاة على أية حال ولن يزعجها الأمر. كانت متشوّقة إلى سماع الأخبار والحكايات من الطبيب العائد من الشرق الأقصى؛ ذلك العالم السحري الساخن. وبسرعة رُتِّبَ كل شيء. تضايق موم قليلاً من مرافقة إيميلي، لكنه أذعن في نهاية الأمر، فلا يوجد حلّ عدا ذلك. في اليوم المحدّد قطع ثلاثتهم أكثر من عشرين فرسخاً والضحك يكاد يقتلهم من وصية توماس برناردو والد سيري:

- "هاها، أيعتقد والدُكِ أننا في القرن الخامس عشر؟" قال موم.

- "وهل كان لبن الحمير علاجاً للسل في القرن الخامس عشر؟" قالت إيميلي.
- "لا تهزآ بأبي، فقد كان مخلصاً في نيَّته فعل الخير" قالت سيري.
- "سيقتلني الضحك يا جميلتي، هل تعلمين أن أمي قتلها لبن الحمير في باريس؟ أكاد لا أصدّق أن رجلاً متعلّماً يمكنه أن يصف شيئاً كهذا!".
- "لا تضحك على أبي يا كاتبي الفاشل! فهو ليس كاتباً مغموراً مثلك!".
- "إذن يا سيري عليكِ أن ترضيه ما دام قد أوصاك، سمعتُ أن في إيستبورن أجود أنواع لبن الحمير!".
- "هل حدث وأن تذوقتم جبنة لبن الحمير؟ يجب عليكم ذلك، لا بدَّ أنها علاجٌ لجميع الأمراض" قالت إيميلي.

وهكذا مضى بهم القطار، بينما تتجمع قطرات المطر من حولهم إيذاناً بهطوله في المدينة الأكثر دفئاً في ساسكس الشرقية كلها. كان موم ينوي قضاء العطلة في منزل صيفيّ لأحد الأصدقاء على شاطئ "بيتشي هيد". وجدوا الصديق في انتظارهم لحظة وصولهم المحطة ليقلّهم إلى المنزل الريفي، وهو شابٌّ فتيّ، فلامنكي كما يبدو، في عقده الثاني كما قدّرت سيري، لا يتحدث كثيراً، وإن فعَل تخرج كلماته رصينة ومليئة بالتهذيب والوقار كعادة أهل الجنوب، له وجهٌ مميزٌ كأنه أمير نمساوي، في أعلى خده الأيسر ندبة كبيرة تلائم انسياب شعره الأشقر تماماً، مما جعل منه وسيماً فاتناً إلى درجة كبيرة، أما مظهره العام فقد كان متكلّفاً بالنسبة إلى شاب مغرور يحاول أن يكون شاعرًا محليًّا فحسب، يكسب رزقه من بعض الملكيات الخاصة والإيجارات، كان

يرتدي بدلة غالية الثمن زيّنها في الكتف بزهرة بيضاء وارتدى قفازين بلون الثلج في كفيه لم يكن التوقيت مناسباً لهما، وكانت جواربه جديدة تماماً كأنما حِيكَت هذا الصباح، ويرتدي حذاءً يشبه أحذية فرسان سباقات الخيول؛ بكعبٍ عالٍ جداً وأغطية للكاحل، لم ترَ سيري أحداً يرتديه سوى أوسكار وايلد. لكن ظلَّ أميَز ما أظهره لهم الشابّ تلك الابتسامة التي وقعوا جميعاً في أسرها.

وجدوا المنزل الخشبي يطلُّ على الشاطئ القريب، تتلاشى أمواج بحر الشمال أمامهم مباشرة وتتكسّر في مشهد مذهل كأنه أحد تصاوير الجنّة، ولمّا رأت سيري ذلك المنظر لم تستطع الانتظار، جرَت حتى كادت أن تقع بسبب فستانها الضيّق. وشاع جوّ من البهجة والمرح في اللحظة التي غابت فيها الشمس وهبّت رياح باردة دفعت بموم وصديقه "آرثر" إلى الدخول والاحتماء بالموقد وشُرْب الشاي وبعض المارتيني الفاخر. كان المنزل مكوّناً من طابقين وبه ثلاث غرف نوم، واحدة رئيسية في الطابق الأعلى وتطلّ عكس اتجاه البحر، كان ذوقه بسيطاً راقياً. حول المدفأة مجموعة كتب وبعض اللوحات ومشرب صغير، إضافة إلى مقاعد مريحة جداً للاسترخاء أو القراءة، ومنضدة قصيرة الارتفاع ورأس أيل محنّط ومعلّق أعلى مجدافين متقاطعين على شكل صليب.

كانت الرحلة متعبة نوعاً ما، لذا حاولوا أخذ استراحة على أن يجتمعوا على العشاء عند الشاطئ حيث الكوخ الذي يقضي فيه آرثر أغلب أوقاته ويزعم أنه لم يكتب أي قصيدة بعيداً عنه. احتلت سيري وموم الغرفة العلوية وغابا خلف الأغطية الناعمة، يدفعهما هوس جنوني محموم وصرخات جنسية أثارت امتعاض إيميلي في الغرفة التي تقع أسفلهما مباشرة، لكنها فتحت كتاباً كانت قد استعارته من سيري

وأخذت تشغل نفسها بالقراءة، بينما تعصف رياح تمّوز بالستائر المخمليّة، ويهدر البحر غاضباً، ويرتعد إطار النافذة مصدراً صكيكاً يضفي على تلك اللحظة سحراً خاصاً وجواً أسطورياً تنتفض من روعته الشمعة الكبيرة. شعرت إيميلي بأنها ستعيش هُنا لحظات لن تنساها في مقبل أيامها، لم تندم لحظةً واحدة على قرار مرافقتهما برغم أنها لم تُخطر حبيبها الذي طردت ذكراه ما إنْ واتتها صورته، وكأنها تُبعد إحساساً كئيباً بالمراقبة في لحظة فائقة المتعة، وتجاهلته كذبابة مزعجة كي لا يفسد عليها أول أيامها في إيستبورن.

انطلقت رائحة شواء السمك، وارتدَتْ السماء لون الحبر. لم يكن أحدٌ منهم بحاجة إلى دعوة، بسرعة امتلأت الطاولة بالأطباق، وجلسوا أربعتهم يرتشفون الحساء، والزُّرقة تضرب بلونها اليانع البهي الأنحاء، تتطاير أطراف النار المشتعلة في كومة خشب، وينبعث منها شررٌ لامع كنيازك صغيرة تحتفل بوجودهم. كانوا حفاة من دون اتفاق، فغاصت أقدامُهم في الرمل الناعم الرطب، ولامست أطرافُ الماء أصابعَهم حتى علَّق موم قائلاً:

- "يُخيَّل إليّ أن الجنة نفسها لن تكون بمثل هذا الجمال!".

تبادلوا على إثر عبارته الساحرة الأحاديث والإعجاب، أعلنوا عن شعورهم بالترَف في حضور الطبيعة الطاغية، وغمرت المحبةُ شعورَهم بمن حولهم، وتجلّت أرواحهم وفاضت بتقديس المكان والراحة العظيمة. كان آرثر صامتاً يتبسم بين حين وآخر ولا يرفع عينيه إلا للبحر المتلاطم أو السماء المنذرة بليلة عاصفة ماطرة. طلب منه موم أن يتلو إحدى قصائده المشهورة عنوانها "أنشودة روح البحر" لكنه رفض متعلّلاً بأن أشعاره من الأفضل أن تُقرأ فقط؛ وأضاف مبتسماً: "وفِي صمتٍ أيضاً، لأنها هادئة مثلي". قدمت إيميلي

لغزاً عن حكاية أوديب وتلفّتت متسائلة عن وجود قارب للصيد؟ أجابها موم بأن الطقس غير مناسب، وعقّب آرثر بأن القارب موجود إن كانت ترغب في رحلة استكشافية صغيرة، "ليس الآن ربما في الغد". وعلى كونشرتو البحر والطيور المتوهجة في حبر السماء الغارق في الزرقة، التهموا السمك وبعض الفواكه الاستوائية، ووضعوا زجاجتي جن وفيرموث أبيض أمامهم، ولفّ آرثر سيجارة ثم ساد الصمت.

دارت الكؤوس والأنخاب بينهم ما عدا إيميلي وسيري التي تردّدت قليلاً قبل أن تشرب بلباقة، سيطرت الغيوم على المشهد، وداعبتْ أرواحهم شجون قديمة وراحة عميقة؛ قررت سيري على إثرها أن تخبر موم بموضوع حملها وظنّت أنها اللحظة المناسبة. لكن ذلك الصوت الذي كانت تسمعه وحدها ناداها! ناداها صوت أوسكار همساً في تلك اللحظة، كأنه لا يريد أن يفوّت لحظةً كهذه دون أن يكون جزءاً من عظَمتها وجمالها، وتداعت صورته أمامها في آخر مرةٍ قابلته فيها -حسب ما صوّر لها عقلها-وكان خارجاً للتوّ من السجن بعد أن تورّط في قضية خليعة رفض أن يخبرها بتفاصيلها. لاحقاً تابعَتْ الصحف وتتبّعت الأخبار، لكنها كانت تعتقد أنها حملة لتشويه صورته يقف وراءها الماركيز كوينزبري الذي اتهم أوسكار باللواط. "من يعبأ! فعلى أي حال أغلب الرجال في هذا العصر يفعلون ذلك! آه يا سيري! إنه مرض هذا العصر اللعين!". كانت تقول ذلك لنفسها من حين إلى آخر وتحمد الله على نعمة موم؛ الرجل المليء بالرجولة والشباب.

"آه يا وايلد! أنا واثقة تماماً من أنك بعيدٌ عن تلك المزاعم" هي حقاً لم تكن قريبةً منه بتلك الدرجة، وعلاقتها معه متقطعة وغير ثابتة،

ولم يتبادلا حتى الرسائل، لكنها كانت تحبّ فيه تفضيله إياها على جميع الفتيات، واختياره إياها دائماً لمراقصته والخروج معه، حدث ذلك مرتين أو ثلاثاً -ربما لم يحدث- ثم اختفى مدّةً قضاها في المحاكم والسجون. عندما ظهر أرسل لها بطاقة بريدية وباقة أزهار برّية وأسعدها بأن شخصاً مشهوراً مثله يهتم بها. كانت راضية بمثل ذلك النوع من العلاقات، بل وتباهتْ بها في إحدى المرات أمام إيميلي التي كانت تغير منها وتعتبرها محظية ليس إلّا. ولأنه كان حريصاً على سرية ما يحدث بينهما، وهي تجد فيه شيئاً مختلفاً تماماً عن موم، كان من الطبيعي أن يكون حاضراً في مثل هذه اللحظة ولو دون إذنها. لكنها فجأة تكدّرتْ وامتقع وجهها وفاضتْ عيناها بالدموع، ومرّ طيفه أمامها مثل آخر مرة قابلته فيها وأخبرها بأنه سيذهب بعيداً عما قريب ولن تراه مجدداً. ثم حدث أن غادر انكلترا إلى الأبد ولم تعلم إلى أين ذهب! كان ذلك قبل نهاية أيار الماضي، وهو التوقيت الذي قرر فيه أوسكار أن ينضمّ إلى الكنيسة؛ حدث ذلك في 19 أيار 1897م. "آه! يا لأوسكار المسكين!" قالتها بصوتٍ عالٍ. انتبهوا إليها جميعاً. كان وجهها قد تغيّر ومضى أحمرَ كالشمع الرسمي. أحضر لها موم معطفاً ووشاحاً وظنّ آرثر أن الحمى قد أصابتها، كان خائفاً عليها من البرد فتحسّس صدغها، وقالت إيميلي في سرها ساخطة: "يا لوقاحته!" ثم ساعدتها لتدخل إلى الدفء والعرَق ينضح من جسدها. كلما حاولت سيري معرفة ما حدث لها تلك اللحظة، وما ذهب إليه عقلها، أو ماذا قالت، فإنها لن تعرف! لكنها أدركت أنها لم تكن في وعيها أبداً. في تلك الليلة، ستتذكر ما حدث وستسأل نفسها: "هل أنا واقعة في حبّ أوسكار؟". وستجعلها الإجابة تبكي كثيراً، فهي لم تلتقِ به أبداً من قبل!

اشتدّ البرد ولحق بهما آرثر وموم إلى الداخل حول المدفأة، أوقد موم النار رافعاً عن نفسه التكلُّف بعض الشيء، وأضاء آرثر المكان بالنور، حاولت إيميلي التدثّر بغطاء صوفيّ وتكوّرت في مقعد بعيد تفكر في هذا الجو العاصف، وتسأل نفسها هل سيقضي عليهم البحر الهائج؟ بدأ موم يحكي عن الشرق قصصاً قصيرة أملاً في اصطياد إعجاب الحاضرين، لكنهم كانوا منشغلين بعواصفهم الداخلية. تابع آرثر أصابع إيميلي الرقيقة التي خرجت من تحت الغطاء كأنها أوتار قيثارة، وتأمّل وجهها الريفي بوجنتيها وخدّيها البارزين وشعرها المفروق عند المنتصف كبائعات الجبن. النارُ تتلامع في عينيها الغابيّتين العميقتين وتبعث في روحها مَسحةً من حزن طفوليّ وبراءة نقية، بحركة عصبية لا إرادية أخذت تهزُّ قدمها إلى الأعلى والأسفل، وكان حذاؤها ينزلق من كعبها الناعم ثم يعود من جديد في حركة أثارته جداً. لم تكن من نوعية الفتيات اللاتي يعجبنه، لكنها أثارت فضوله وظلّ يراقبها ويستمع بنصف أذن إلى ما يقوله موم الذي يتصنّع الصمت كل بضعة لحظات أملاً في أن يُصدر أحدهم تنهيدة أو علامة تدلّ على المتابعة ليواصل من جديد. لم يكن أحدهم يهتم بما يقوله، لكنه كان يحكي على أية حال؛ دائماً ما كان يحبّ ذلك. تظاهرتْ سيري بالتماسك، أصبحتْ تشعر بالضيّق وبصراعات جوانيّة كبيرة، وبينما يصرّ موم على أنْ يحكي عن أربعة أشقاء في مستعمرة الهند تشاركوا زوجة واحدة لكل منهم يوم في الأسبوع، فجّرت سيري الموقف بعنف:

- "أنا حامل يا راكوني الصغير، سأنجب مِنْكَ طفلاً!".

كأنها قالت لهم إنها من آكلي لحوم البشر. اتّسعت عيونهم، وأطلقت حنجرة موم صوتاً مختنقاً، وسألها مستوثقاً ومتظاهراً بتحضّرٍ زائف:

- "أحقاً يا عزيزتي؟ هذا خبر جميل! لماذا تخفينه عنا إذن؟ أم كنتِ تنتظرين مكاناً جميلاً كهذا لتخبرينا؟".

في لحظةٍ تبدَّل الموقف، ساد الاحتفاء بالحدث وتبادُل المباركات، بعض الفوضى والعاصفة تبدأ. وسط التصفيق حملها موم بكل لطف إلى غرفتها في الأعلى وأخبرها بأنه سيعلن خطبتهما قريباً. أسعدها الخبر إلى درجة أنها شعرت فوراً بالأمان، وبأنها لن تجد أبداً من يحبها كسومرست موم، وأن لحظات جنونها ستختفي إلى الأبد. لكنها بكَت طوال ذلك الليل، كأن الواقع يفرض نفسه عليها.

في الصباح شعرَتْ بالأمر، لاحظته منذ الأمس لكنها كانت تظنُّه أمراً آخر، تسلّلَتْ من حضن موم وأبعدت الغطاء وتوارَتْ في دورة المياه لبرهة، وجدَت ما كانت تخشاه، لقد فاجأتها دورتها الشهرية وأفسدتْ عليها العديد من الأمور، وأجبرتها على قضاء هذه الأيام في الفراش بعيداً عن الليالي الساهرة.

حاولتْ إخفاء الأمر ثم أدركت أنها لم تنجح، فقد عرفها موم ما إن أفاق على بعض الضوضاء وصوت ارتطام الكراسي في الخارج وزوبعة العاصفة التي توشك أن تقتلع المكان كجزرة صغيرة. عندما خرجت وجدته يتكئ إلى النافذة بطريقة درامية وشَعرُه مرتفع كأنه نبتة تين شوكي قبيحة المنظر، شكله يوحي بالضحك، أخبرها مبتسماً:

- "أنتِ مصابة ببعض الالتهابات فقط لا تقلقي".
- "صباح الخير، قُلْ صباح الخير أولاً".
- "هل أخفيتِ عني الفُوَط؟ لا مانع لديَّ ما دمت أرى ما تحتها" ثم انفجر ضاحكاً.

لم تكن في مزاج يسمح لها بمجاراته، لكن الضحك غلبها فسألته:

- "كيف عرفت؟".
- "أنسيتِ أنني طبيب؟".
- "أنا أقصد الفُوَط، هاهاها".
- "كيف فاتَكِ أنني عاشقٌ قديم، ما تُخبرنا به الرائحة لا يستطيع السلوك إخفاءه!".

دوى الرعد، وضربت قطرات المطر السطح القريب، فضجّ المكان واهتزّ. ارتمت سيري بين يدي الرجل الذي حملها إلى السرير مرةً أخرى، لكن ليمارسا الحب هذه المرة. ألم خفيف وبعض قطرات الدم في يومها الأول لن توقفها عن فعل ذلك، وبالطبع هو لم يكن يمانع.

كانت إيميلي مرتعبة مع أحداث الرواية؛ (ڤيكتور يمرُّ بحشد الأهالي عقب وصوله أحد شواطئ إيرلندا) لم تتوقف عن قراءة الكتاب منذ الصباح الباكر، دون أن تخرج من تحت الفِراش، أوقدت المصباح وانسجمتْ في تفاصيل القصة إلى أن طرق آرثر باب غرفتها قائلاً بصوت كالهمس:

- "إيمي صباحُ الخير! إن كنتِ صاحيَة فإني أُريد أن أُريكِ شيئاً".

عرفَتْه فوراً، كان صوته خشناً كمنشرة الخشب. ولأنها لم تجد سبباً يمنعها من ذلك؛ إلّا مواصلة القراءة التي يمكن أن تكملها لاحقاً، تنحنحتْ قليلاً كي تبعد رخامة صوتها في الصباح الباكر وأجابته:

- "صباح الخير! حسناً سأوافيك بعد قليل... بالأسفل".

لم يكن لديها وقتٌ كافٍ لتسخّن الماء وتستحم، لكنها عالجت هيئتها سريعاً ورشّتْ عليها بعض عطر النرجس ووضعت وشاحاً ملوّناً ونزلت. وجدته واقفاً بملابس نومه أمام غرفتها مباشرة واضعاً

إصبعه السبابة أمام فمه في إشارة إلى السكوت، فأومت بوجهها متفهمة. أخذ منها المصباح وأطفأهُ ثم أمسك يدها الرقيقة وجعل أصابعه تتخلل أصابعها وجرّها خلفه وهي حائرة. على أطراف أصابعه صعد بها إلى الدور العلويّ ودخل بها غرفة صغيرة تُستخدم كمخزن للشراشف والوسائد، كان يعرف طريقه جيداً رغم الظلام. ومن بين الحاجيات أزاح قطعة خشب صغيرة كشفتْ عن ثقب في حجم حبّة عنب ناضجة، أشار إليها ضاحكاً أن تنظر، عندما وضعتْ عينها لم ترَ شيئاً في البداية غير مشهد ضبابيّ مبهم، وبعد ثوانٍ استوعب الزاوية المقصودة: كانت سيري تعلو موم في الفراش وتتنهّد في لوعة، بينما يرسم موم على وجهه العديد من التعابير المضحكة. خجلتْ إيميلي فكتمتْ ضحكتها وفرّتْ هاربة إلى الأسفل، أسقطت في طريقها صفاً مرتباً من الأغطية السميكة. أحسّ آرثر بالحرج فخرج سريعاً وبحث عنها فلم يجدها. لم يكن يعلم أنها استهجنت الأمر واعتبرته هتكاً لخصوصية صديقتها ولا يجب عليها أن ترى شيئاً كهذا. عادت في صمت إلى الفِراش، لكن ليس للقراءة هذه المرة؛ بل في انتظار لقاء سيري لتحكي لها ما بدأ يحدث في هذا البيت الغريب!

"سيري لن تهتم" في الظهيرة، بعد أن تفرّقت العاصفة والسُّحب وأفاق الجوّ، وطافت رائحة الحليب الطازج والخبز وبعض خيرات الجوار الأخرى، جلستا معاً في الكوخ الخشبي تُحضِّران بعض المربى والجبن والعسل والقهوة بالحليب لفطورٍ متأخّر. ترددت قليلاً قبل أن تخبرها. اندهشت في البدء، لكنها سألت مزيداً من التفاصيل فقصّت عليها إيميلي كل شيء؛ منذ أن خرجت من غرفتها. عضّت سيري شفتيها وتنفّس خداها بالدم واختلس وجهها نظرة خاطفة إلى آرثر الجالس على مسافة ليست بعيدة يحاول تجهيز قارب صغير لجولة سريعة في المانش. سألتها بلهفة:

- "هل رآني عارية ومُثارة؟ ماذا قال عني؟ هل أعجبته؟ قولي لي، أخبريني، هل... هل ظهرَت حلمتاي في ذلك الظلام؟ هل حدّثك عني أو علّق عليَّ؟".

أجابتها ضاحكة تستهجن سلوكها في ذات الوقت:

- "مهلاً مهلاً، يجب أن تشاهدي نفسَك، ماذا؟ أما اكتفيتِ هذا الصباح؟".
- "يا للأسف! فقد زارتني رفيقة السوء وستحرمني غداً من كل هذا!".

كان ذلك المصطلح الذي تصفان به "الطمث"، ضحكتْ إيميلي في خجل، وأسرعتْ بتحضير الطاولة.

قضوا ذلك النّهار كلّه على الشاطئ. تعرّى موم وتبعته سيري، لكنها ما إن دخلتْ البحر حتى أصابتها بعض الآلام وعادت إلى غرفتها أسفل البطانية. لاحقاً جمّعتْ بعض حاجياتها المهمة وانتقلتْ إلى غرفة إيميلي بعد أن شربت جرعة من الدواء واستجمعتْ بعض قواها.

تَقلّبتْ الأماكن بسرعة، فقد استعار موم آلة آرثر الكاتبة وأخبرهم بأنه سينتقل إلى الكوخ الخارجي وطلب منهم أن لا يزعجوه لأنه ينوي إكمال روايته الجديدة، كأنما يعترض بذلك على مغادرة سيري غرفته لكن على طريقته الخاصة. أمَّا آرثر فقد صعد إلى غرفة النوم العلوية، وحين غفلة أغلقت إيميلي الغرفة المجاورة وأخفتْ مفتاحها وتظاهرت بالبراءة. بعد غروب الشمس زارهم أحد أصدقاء آرثر، وكان رساماً أرستوقراطياً يقيم في منزل كبير جوار منارة إيستبورن والجرف الكلسي، لم يبقَ معهم كثيراً فقد أتى ليدعوهم إلى معرض فني وحفل صغير يقيمه ليلة السبت، ورحّب بضيوف لندن وشدّد على

أهمية حضورهم وأخبرهم بأنه سيكون في غاية السعادة إن قبلوا مشاركته الليلة هناك، ثم انصرف يجرُّ خيلاءَه.

في ذلك الليل، بينما تنفث المداخن أرواح أخشابها المتهالكة وحجارتها السوداء، وتستريح أجساد الحشود التي قضتْ يومها في الشواطئ، وتعوي الذئاب الجائعة عند الجرف، ويحتمي قُطّاع الطرق البربريون بالغابة المجاورة، ويرجو بعض المزارعين الله أن تهطل مزيد من الأمطار، في تلك اللحظة من ذروة حضور القمر؛ حيث يطبق الصمت على الاتجاهات الأربعة، كانت جوارح سيري مشجونة وهي تتقلب إلى جوار إيميلي في السرير، وتفكر في الحديث الذي دار على العشاء حول الزواج، وكيف أنّ موم عبَّر عن رأيه هازئاً، واصفاً إياه بأنه "هراءٌ ملعون يضطر الرجل إلى التورّط فيه، وعليه حينها أن يفعل ما لا يرغب، وأن يجامل عندما لا يُريد، وأن يجيد الابتسام في أي وقت، وأن يكون أحمقَ أمام كِنَّته وأبلهَ أمام نسيبه!". سالتْ دمعتُها حتى أذنها وهي تستحضر مُهلوِسةً إحدى لياليها الخيالية في أحضان أوسكار وايلد في شقته قرب ساحة ترافالغار، وأخذت تحكي لإيميلي -كما تفعل دائماً- تكذب ببراعة عن تفاصيل خطابات وأشعار تزعم أنه كتبها من أجلها. ومن شدَّة تفكيرها في ذلك، لم تعد تكترث إذا قوبل حديثها بالتصديق أم التكذيب، والعجيب في الأمر أنها هي أيضاً صدّقته إلى درجة أنها أصبحت تعرف أخباره وسفرياته وتتابعها بدقة كما تتفنّن في الاستماع إلى الشائعات، وربما تأتي على ذكر شائعة تزعم أنها قرأتها في صحيفة "بوليس غازيتا" عن المحكمة، لكنها لا تنقل ذلك الجزء غير المُشرّف إلى ذاكرتها، بل تبقيه في الذاكرة المؤقته لعقلها البسيط الذي أوجد تلك الحالة كمفرّ وملجأ عند اضطراب علاقتها الغرامية التي تتعارض مع تربيتها الدينية المتزمتة أو عند الشعور بالخذلان أو الفشل. في ذلك الوقت كان موم أيضاً يتمتع بقدر

عالٍ من الوسامة والرجولة، لكن عندما تقارن بينهما فإن كفَّة أوسكار الوهمية تميل بعنف، فهو لم يكن وسيماً فقط، بل يمكن لآلهة الرومان أن تنتشله من حضيض البشر وترفعه معها إلى السماء، فهو ملائكيّ، بشعر مفروق عند المنتصف وملامح عذبة تبعث الراحة في كل من يراه. يسيل لعاب سيري كلما نظرت إلى صورته في الصحف أو الإعلانات، كأنها ترى فطيرة أو كعكة تفاح وهي جائعة. وربما فضلت أن تغيّب الأخبار التي تنقلها الصحف عن محاكماته وأفعاله الشائنه مع آلفريد دوغلاس. كانت روحها شائهة لا تعترف بأن صورة أوسكار التي تحملها في أعمق أعماق قلبها مَشُوبة يكسوها الألم والفشل والخطايا والذنوب كصورة دوريان غراي في الرواية، بل كانت لا تسمح لها بأن تتغير، لذا لجأت إلى عقلها الذي دائماً ما صوّره لها كمثال حقيقي للعشّاق النبلاء من طراز القرن السادس عشر، وأن أمثاله هم المُخلَّدون الأتقياء وليس موم الخليع الذي يسترق النظر إلى صدور النساء ومؤخراتهنّ ولا يتورّع عن دعوة إحداهن إلى فِرَاشه، ويرى أن الزواج "هراء.. هراء". أرادت أن تحتفظ بالصورة ذاتها كما أراد الرسَّام بازيل هوولورد مع دوريان غراي وصورته. وبينما تمرُّ بها انقباضات ومغص حادّ، طافت بخاطرها لا إرادياً جميع اللحظات التي قضاها وايلد في السجن، وكيف للقاضي وللسَّجان والحارس أن يقبلوا بوضع شخصٍ مثله في الحجز؟ هذا ما لم تستطع أن تجد له تفسيراً أبداً. ثم فكرت؛ هل عليها البحث عنه وإخباره كم تحبّه؟ وطوال تفكيرها تهرب من خاطرة مُعيّنة إذا أتتها قد تُفسد عليها كل شيء وهي "هل إذا قابلته من الممكن أن يأخذ بكلامي؟ هل سيقدّر حبي له؟ هل سيتفهم أمري؟ أم سيعتقد أنني طفلة خرقاء أو مراهقة عنيدة أو معجبة مهووسة؟". قاطعتها حركة إيميلي التي نهضت على أطراف أصابعها، ولم تكن تعلم أن سيري ما زالت مستيقظة. اكتشفتا

الاثنتان ذلك فتبادلتا ضحكات حرَج، وقالتْ لها إيميلي والتثاؤب يمنعها قليلاً:

- "ما رأيك في مغامرة صغيرة؟".
- "أووه يا إيمي! هل وقع آرثر في غرامك؟".

رمتها بمروحة ريش صينية وهي تضحك خجلة:

- "هل ستذهبين معي في مغامرة صغيرة؟ لن أخبرك أي شيء".

نسيت سيري ما أرادتْ أن تفعله وحضر نشاطها الغائب وأومأت بالإيجاب، فأمْسكتها من يدها ثم ارتدتْ روباً قطنياً داكناً وخرجتا. وضعتْ إيميلي إصبعها في فم سيري بمعنى "اصمتي".

صعدتا السلم الخشبي بكلّ هدوء كلحون تنساب من ناي يطلقها راعٍ حزينٌ فقَدَ إحدى عنزاته، وصلتا إلى الطابق العلوي، وعندما اقتربتا من باب الغرفة الوحيدة قالت سيري همساً وتصاحبها ابتسامة خبيثة:

- "اللعنة يا إيمي! هذا ليس بالوقت المناسب، ألا تعلمين أنني لا أستطيع أن أفعلها هذه الأيام؟ ثم ماذا إن أتى موم فجأة؟ لا يا إيمي! هذا ليس مناسباً، لا...".

ضحكت إيميلي حتى كادت أن تقع في ذلك الظلام، وسخرت من تفكيرها الداعر المُشين وسحبتها من يدها لتعبرا أمام الباب بسرعة، ثم فتحتْ باب المخزن الصغير المجاور للغرفة وهي تبحث عن ذلك المكان حيث ستسترقان النظر إلى الغرفة التي كانت في تلك اللحظة تسبح في ظلمة حالكة مما أفسد نواياهما تماماً. لم تريا شيئاً وعادتا خائبتين إلى الفراش، تتوهّج في عقليهما الأفكار.

بعد يومين من الرتابة غير المتوقعة، لم يحدث خلالهما شيء يُذكر سوى لعب الورق والأحاديث حول الأدب أو الشعر وتناقل بعض الإشاعات المحلية، ذهبت إيميلي وآرثر إلى السوق الصغير وأحضرا بعض الثمار ولحم الخنزير والمشروب. في السابق كانت لآرثر خادمة تتولى واجبات المنزل التي تقوم بها الآن إيميلي وسيري من نظافة وتحضير أكل وتدبير، لكنه فضّل أن يمنحها بعض الراحة لينعموا ببعض الخصوصية، فالجوار يتناقل الأحاديث سريعاً، وهو لا يريد لأحد أن يعرف ما يحدث في منزله خلال هذه الفترة. موم، الذي انشغل بالكتابة مؤخراً، ذهب أيضاً إلى السوق ولم يجد الورق المناسب للآلة الكاتبة، مما دفعه إلى الكتابة بخط اليد. ذهبت سيري ناحية الغابة لتتمشّى وحيدة مع نفسها، ثم انشغلتْ برسم آلاف التصورات والأحداث عن حبيب خيالها أوسكار. لو وجد عشيقها موم مخيلتها تلك لما عانى في الكتابة أبداً. أما إيميلي فقد عادت واعتكفتْ لتقرأ وتحكي لسيري؛ التي ستتظاهر عند وجبة الغداء بأنها هي من تقرأ وستخبرهم عن انطباعاتها وآرائها في الروايات والشعر والفنون، وستتذمّر من بائعي التحف ورداءة مسرح هذه الأيام. ويصدف أن يكون رأيها فطناً مما يضعها موضع احترام وتقدير أمام ناظري موم الذي كان يعاني بشدة في أمر الكتابة وشحذ مخيلته بالأحداث.

أتى يوم الحفل الموعود، ارتدى موم حلّة السهرة البيضاء وقبعة فيدورا، وكذلك فعَل آرثر. أعارت سيري فستانها المطروز وقبّعة غريبة الطراز لإيميلي التي لم تكن تملك ثوبَ سهرة مناسباً. كانت تعطف عليها من حين إلى آخر وتمنحها بعض الأشياء البسيطة إذ إنّها تعتبرها من الفتيات الفقيرات اللاتي لا يستطعن متابعة الموضة وشراء مجلاتها ومعرفة آخر صيحاتها وأنّ من ضمن مسؤولياتها مساعدة صديقة وفية مثل "إيمي" كما تُحبُّ أن تناديها. ولمّا غربت شمس يوم

السبت، ودّعوا سيري وخرجوا إلى العربة التي يجرّها حصانان. مضَتْ العربة في طريق الشاطئ الطويل؛ حيث يرتمي البحر الهادئ وتتلامع الجروف الكلسيّة في مشهد خلاب، وكان المساء مبتهجاً وسعيداً وحاضراً بكل أنجمه. بلغت العربة التلة الكبيرة وصعدتها، صهل أحد الأحصنة، وإيميلي تختبر مدى جمال ثوبها عبر نظرات الرجلين الوحيدين جوارها في العربة المفتوحة، ونسيم الليل البارد يثير شجونها ويخترق صدرها وتشعر معه بالقوة والشباب الأبدي، أقحوان المروج يعلن عن نفسه ويفوح عبيراً خلاباً، والخضرة التي تحوّلت إلى لون داكن ممتدّة حولهم إلى ما وراء التلال. وحشة الأشجار الكثيفة في دغل "بيتشي هيد" توحي بمشهد باروكيّ غامض. تتأرجح العربة بين فينة وأخرى وسط غمغمات موم وحرصه على أناقته المتكلّفة وسيجارِه الذي لا ينطفئ؛ آملاً في بثّ جوّ من الغموض حول شخصيته، بعد أن وافق آرثر على أن يقدّمه كروائي شهير من لندن بدلاً عن طبيب. أمَّا آرثر فقد انشغل بصديقه الرسَّام الأرمل "فيرن" وضيوفه الكثيرين. وحينما اقتربوا من المنزل المُضاء، وأصبح الحوذي يصيح ويشدّ لجام الأحصنة بكل قسوة، دخلت رائحة الكعك إلى أنوفهم وأوقدت فيهم ذكريات طيبة لأحداث طفولية، اعتدلت أمزجتهم وسادت بينهم طمأنينة العودة إلى بيت الأسرة الكبيرة في الأعياد الكبرى. أخيراً وصلت العربة إلى مدخل البهو الرئيس الذي يطلّ على الجرف الكلسي، أخذهم المشهد البديع في الأسفل لكنهم لم يسرفوا في تأمّله ودخلوا سريعاً يبتسمون لكل من يمرّون به، بتعالي أهل لندن المعروف.

وجدت إيميلي بين الحضور أُناساً عجيبين؛ بملابس أثارت إعجابها الشديد وقبعات لم يسبق أن رأت لها مثيلاً. الرجال هنا وسيمون، بعضهم مُلتحٍ وبعضهم حليق الشارب، ولم يكن هناك هرج

كثير كما هي الحال في أغلب حفلات لندن، لا، فالجميع يتحدّثون بأصوات خافتة. في طرف الزاوية أخذ رجلٌ كهل يعزف على البيانو الضخم أنغاماً راقصة، وكانت للبيت مدفأة عملاقة تصلح أن تكون غرفة مستقلة، وكانت الإضاءة باهرة إلى حدّ أنك لن تعرف أبداً أنها صادرة عن الشموع فقط، يا للعجب! أخيراً ظهر فيرن بوجهه الجبلي القوي وعينيه السوداوين وسالفيه الطويلين اللذين يتصلان بشارب ضخم كأنه سياسي فرنسي عجوز في عزّ مجده. انحنى مقبّلاً يد إيميلي، ورحَّبَ بهم في الحفل شاكراً حضورهم ومعرباً عن مدى سعادته بمشاركتهم، متحسّراً على عدم حضور سيري. قدّمهم إلى بعض الفنّانين، ثم دارت الحوارات حول الفنّ والمعارض وبالطبع روما وباريس، وهنا تحدّث موم مُعقباً على إحدى لوحات الألماني آلبرخت بلغته الفرنسية الناصعة. وأثار هذا التصرّف المتعمّد حفيظة آرثر فقاطعه:

- "عذراً يا صديقي، لكنّا هنا لا نتحدث الفرنسية!".
- "أوه... بالطبع! اعذرني! فقد تعوّدت أن أناقش أمور الفن باللغة الفرنسية، فكما تعلم نحن معشر الكُتّاب الروائيين لا نتحدّث كالعامة ولا ننظر إلى الأمور بالطرق التقليدية، والآن اسمحوا لي أيها الأصدقاء بأن آخذ منكم إيمي الجميلة لهذه الرقصة".

في الطريق إلى دائرة الرقص أحضر إلى إيميلي كأس براندي لكنها رفضته. تجرّع الكأسين ومسح طرفي شاربه الصغير وأمسك كفّها ودارت من تحت ذراعه ثم حدّثها قائلاً:

- "تبدين جميلة جداً هذه الليلة يا إيمي، كأنّكِ أميرة فرنسية من الضواحي الشرقية".

- "حقاً؟ أوو حسناً! أخجلتني، شكراً لك".

حدّثها ببعض الخبث وبمسحة من الدهاء:

- "لِمَ لا تشربين يا إيمي، هذا الفمُ الجميل لا بدّ وأن الكؤوس تشتاقه كثيراً!".

ضحكت لشعورها بالإحراج:

- "لا تقل هذا، اسكت!".

- "لن أسكت ما دام هناك جمال ريفيّ إلى جواري. ألم تعلمي أنني قد ولدتُ في باريس؟ عاصمة الحرية والنساء الجميلات مثلك".

- "أنتَ تحرجني يا موم، لنرقص دون كلام".

- "لأول مرةٍ في حياتي أجد شخصاً رائعاً تُفسِده العِفّة. إنّ أبشع خطايا الفتاة الجميلة هي عفتها!".

تحوّل خداها إلى تفّاحتين في موسم القطاف، وأحسّتْ بأنه ضمّها أكثر من اللازم، لكنها لم تعترض أبداً؛ تركت جسدها يقترب منه وتراقصا، ثم راقصتْ كلًّا من آرثر الذي ضمّها إليه أيضاً لكن بعفوية ساذجة، ثم كانت الرقصة الأخيرة لفيرن قبيل انصرافهم. شعرتْ بعدها بتمرّد كبير على أفكارها ومعتقداتها، وغمرتها حالة من التحرّر والثقة بالنفس، وهي التي طالما عدّتها صديقاتُها قبيحةً، اليوم يسرع الرجال إلى مراقصتها ونيل شرف التعرف إليها، وأخيراً أحسّت كم هي بعيدةٌ الآن عن لندن ويمكنها أن تفعل ما تشاء.

في الإسطبل قدّم فيرن الدعوة إلى موم، واصفاً إياه بـ"الروائي الموهوب والمتحدث الأنيق"؛ على إثر قصة حكاها له، وأصرَّ على دعوته خصوصاً عندما عرف أنه ومن معه لم يزوروا إيستبورن قبلاً،

وعرف أنهم لم يذهبوا إلى الرصيف ولم يشاهدوا المنارة ولم يصطادوا بعد. لذا قرّر أنهم سيخرجون بعد الغد في رحلة صيد، داخل أحراش الغابة المجاورة ثم يمرّون لرؤية أحواض السفن والمرفأ، وأخيراً سينتظرون الغروب أسفل الجرف الصخري المتكلس. وافقوا متحمّسين ثم شكروه ومضوا، بينما تفكر إيميلي في ما همَسَه لها موم خلال العشاء: "تعالي إليَّ في الكوخ هذه الليلة، بعد أن تنام سيري، لديَّ شيء جميل من أجلك". ثم غمزها وواصل النظر في طبقه كفتى معقّد بلّل نفسَه.

عادت كأنها مراهقة أثارت إعجاب ابن الجيران الكبير، ارتمت جوار سيري التي كانت منشغلة بدَهن شعرها وتمشيطه، حكت لها كل شيء. "بالطبع أخفت بعض الأمور!" ثم أعدّت لها اللبن. لم يأتها النوم فأشعلت النور وانشغلت بتكملة الرواية في ذلك الليل الصافي، متابعةً ما يحدث لڤيكتور المسكين. وعندما تيقّنت من نوم سيري تسلّلتْ بهدوء لكنها لم تخرج إلى الكوخ بل صعدتْ إلى أعلى حيث المكان الذي يمكن من خلاله مراقبة غرفة آرثر والتي وجدتها كالأمس "هادئة موغلة في الظلام". وانقضى ذلك الليل بكل سكونه الخفي والمُعلن.

في الصباح شعرت سيري بأن هذه الرحلة مليئة بالملل وبلا جدوى، وأنها أهدرت وقتها، وفكّرت في ما سيفعله والدها لو علم بأمرها أو إن رآها أحد معارفهم فأخبره. تضجّرت وأصابها الندم بعض الشيء، كرهت الهروب من خياله، أو استحضار أوسكار، كرهت كل ذلك، وأسترسلت تبكي في صمتها، وقررت أن تعود بأسرع ما يمكن. وعندما اجتمعوا على طاولة الفطور سألت موم بجدية:

- "عزيزي سومرست يجب علينا العودة... هل؟".

وكانت تستخدم اسمه الثاني فقط في الأمور الجادة، بدا عليه الضّيق وردّ عليها بحدة لا تتناسب مع الموقف:

- "ولماذا يا سيري؟ ها؟ أنا لا أفهمكِ مؤخراً!".

- "أنا أريد أن أعود، وذلك سببٌ كافٍ بالنسبةِ إليّ".

سخر منها بحركة خليعة وهو يضحك ويتلفت:

- "حسناً، هل خرجَ ذلك الشاذ من السجن ولديه عرض مسرحي؟".

- "من تقصد؟".

- "ومن غيره؟ فتى بينتون فيل المدلل، وايلد. أراهن على أنه فعلها هناك مع الجميع هاهاها".

ثم أصدر صوتاً فظيعاً وقحاً لا يجرؤ مراهقو الشوارع على فعله أمام سيدة محترمة.

- "أنا لا أسمح لكَ يا سومرست! أنت تعلم أن أوسكار لا يعني لي شيئاً. وكوني أحتفظ بصورته فهذا لأنني أحبّ أعماله وأشعاره، فهو كاتب حقيقي ومشهور كما تعرف، ولا يجب عليك أن تقارن نفسك به، فنجاحه لا يخصم من فشلك شيئاً!".

كاد موم أن ينفجر غضباً إلى درجة أن صوان أذنيه الكبيرتين تحوّل إلى طبول نحاسية حمراء، وارتعش كما خُيّل إلى سيري:

- "ماذا تقصدين يا ابنة الناسك؟ تباً لك!".

حاول آرثر التدخّل وتهدئة الوضع قائلاً:

- "غداً لدينا رحلة صيد، سترافقنا الليدي سارا والكونتيسة إلين، وهما من وجهاء المقاطعة ولا تخرجان للصيد إلا نادراً وليس مع أي شخص، مرحى! لا تفسدوا علينا كل ذلك".

قالت إيميلي:

- "أنتِ متعكّرة المزاج يا سيري، سيزول هذا قريباً، أعِدك، وستستعيدين روحك المرحة وستندمين على هذا السلوك الأحمق، أنا أعني...".

قاطعتها بحدّة كأنها تنهر الخادمة التي تدخلت في ما لا يعنيها:

- "اسكتي! من أَذِن لك بالحديث؟".

لكنّها ردّت بثقة:

- "لن أسكت يا سيري، وإنْ أجبرتني على المغادرة سأذهب إلى والدك مباشرة وسأُخبره بكل شيء، وبمنتهى الصراحة. أنتِ تعرفينني، أنا أعني ذلك حقاً".

امتقع وجه سيري وشعرت بالتآمر عليها، أخذ موم يدَها وقبّلها في هدوء وعطف قائلاً بكل رِقّة:

- "حبيبتي، أنا أعلم ما يحدث لك. أنسيتِ أنني طبيب؟ حسناً إذا كان ذلك قرارُكِ حتى الغد سنذهب، ما تشعرين به من ضيق أمرٌ طبيعيّ وأنا أقدّر ذلك".

رمَتْ منديلها وجرَت إلى الأعلى تبكي كطفلة حُرمت من لعبتها المفضلة، علّق آرثر هامساً في أذنه:

- "عليكَ أن تتفادى المُراهقات في المرات المقبلة، هذه الفتاة عنيدة، لا أصدّق أن عمرها 18 عاماً فقط!".

ابتسم موم ولم يجبه. ولم تبارح سيري غرفتها طوال ذلك اليوم الذي لعبوا فيه الورق وتبادلوا الحكايات وسهروا قليلاً أمام البحر.

في اليوم التالي هدأت الأمور كأن شيئاً لم يحدث. تأنّق آرثر ببزة عسكرية قديمة تعود إلى فارس أنجلكاني، بينما زيَّن موم قبعة البولر

التي يرتديها بريشة طائر ووضع أعلى أذنه زهرة ليلك فوّاحة، وخرجوا يمتطون الجياد ويتسابقون إلى السهول والتلال الخضراء الواسعة والأحراش تحيط بهم. كان الطقس مناسباً لكل النشاطات، الصيد والرحلات والكتابة والتشمس، تجري الكلاب حولهم متحمّسة. تفرقت البيوت هنا وهناك، والمداخن ترسل الدخان المشبع بالروائح الشهية من فطائر ومخبوزات. كان فيرن سعيداً بمرافقتهم يحاول مجاراة سيري التي اختارت حصاناً أشهبَ يطلقون عليه اسم "بيغاسوس"، وغالباً ما كانت تتقدّمهم ولا يلحق بها أحد، لا لسبب غير أنها قد أجادت إمساك اللجام وحملت منخازاً صغيراً كانت تشكّ به مؤخرة الحيوان المسكين كلما أحسّت بالمنافسة. حطّوا أخيراً في دغل عميق يتوسّطه مستنقع عذب الرائحة والماء، وجوار شجرة بلوط عتيقة ربطوا الأحصنة وأخذوا بالتجهز والتربّص وإعداد النار. حاول موم إخافتهم فحكى لهم عن بعض أهل الشرق الأدنى من السحرة آكلي لحوم البشر، وحكى فيرن عن آخر لوحاته التي لم تكتمل بعد؛ يتخيل فيها وحوشاً مجتمعة حول طفلة صغيرة تشبه فاوست. وضحك آرثر، معبراً عن أن التجديد في الفن لهُوَ أمرٌ مُخْزٍ مبيّناً أنه على الفنان الحق أن لا ينظر إلى تلك الأعمال الدميمة على أنها أعمال فنية، فأهمية الفن تكمن في جمال ما يقدّمه وليس في غرابته. ردّ عليه موم محاولاً إضافة رأي:

- "إنّ الجمال لنقمة كبرى بُلِينا بها، وهو الزيف المطلق الذي ما إنْ تبصره حتى تفقد البصيرة وتتعلّق بشكل منير يخفي الصفات والعاطفة تجاه الجمال، ولهُوَ أمرٌ ربّانيّ له من المذلّة والمهانة نصيب. ولا يمكن للفنان، بأيّ حال، أن يستمدّ موضوعاته من الجمال، باعتبار أن الجمال شيءٌ مبتذلٌ ولا يدوم طويلاً، والأقذع من ذلك أنّه مطلب العامة. مثلاً، هذه اللحظة

الجميلة التي نحن نعيشها، واللحظات السعيدة التي نقضيها مع بعضنا البعض، مهما كانت مهمة في حياتنا، فإنها تذهب بعيداً وتخبو ذكراها يوماً بعد يوم ما لم تسقها بالتذكّر والحميمة. وبذلك، إنْ أتى راعٍ الآن ونظر إلينا لأحسّ بنوع من الراحة تجاهنا، وربما فكر في أن ينضم إلينا، رغم أننا نعلم أنه، في الغد أو بعده، لن يكون لنا من صدى هذه اللحظة سوى كلمات قليلة. لذلك فإن الجمال في التوقيت أو المكان أو الأشخاص لهُوَ شيءٌ غيرُ باقٍ، وأنا لست من أنصار السراب، ولا أرى أيّ أهمية للجمال عدا أن نستمتع به في الوقت المناسب!".

قاطعته سيري وهي تربط لجام جوادها في عود مدبب:

- "قل لي يا موم، هل تعتقد أن الجمال في الفن والرسم ليس باقِيًا؟ أنا حائرة فيك! لأني أعلم أنك تحبّ اللوحات، وسبق أن رأيتك تعلّق نسخة رديئة من الرجل الفيتروفي في مكتبك، وحدّثتني بأن الجمال في تفاصيلها وليس مظهرها، وأن الطب استمدّ بعض الفائدة من الفن. هيّا أخبرني ما رأيك في اللوحات الواقعية والطبيعية؟ ألا توافقني على أنها رمز وتجسيد للجمال الدائم؟ إذ إنَّ منظر لوحة البحيرة لن يتغير وستظل جميلة مدى الدهر، والآن نحن في قمة التطور والتحضر، وقد ارتفعت المباني حول البحيرة، لكن المنظر يزداد جمالاً، قل لي...".

- "عزيزتي سيري! عندما أتكلّم عن الجمال أعني تأثيره في المجتمع وليس تذوّقه! فكلّنا نتفق على أن الجمال أعظم هبات الخالق، لكن عندما يكون ملهماً لعملٍ أكثر جمالاً وإشراقاً وديمومةً منه. ولا أتخيّل أن أحدهم سينظر إلى لوحة بها طفل يحمل ملامح الشيطان بشيء من الافتتان، ولنفرض أن راسمها

هو فيرمير نفسه، لن يقول أحدٌ أمامها: يا للسماء! كم هو جميل هذا المشهد! كم هي رائعة هذه اللوحة بألوانها الطبيعية وابتسامتها البريئة!. هنا يكمن قصدي. لا يمكن للجمال أن يحتوي القبح مهما بلغت دقة التصوير. لذلك أجد الجمال الذي يراه الناس في أعمال لا تتسم بالقيم الجمالية أمراً قبيحاً، مثل أن يستعمل صديقنا فيرن وجهاً لآكل لحوم بشر ويرسمه لنا بكل جمال. أنا أعني فلسفة الجمال يا صغيرتي الغرّة!".

غلبها فقالت:

- "لن أجادلك أكثر من ذلك. والآن هيا لتجلبا بعض الصّيد، ربما يحالفكما الحظ فنتناول فطورنا سريعاً".

هبَّ فيرن وموم وذهبا يتبعهما آرثر بعيداً عبر دربٍ ضيق، وخرجوا من الجهة الأخرى للغابة الموحشة التي تملؤها رائحة الوحوش وغابوا مدةً طويلةً تبادلت فيها سيري وإيميلي الحكايات والآراء في ملابسهما وتسريحاتهما المضحكة. وبعد حوالي ساعة أتى الرجال يحملون عدة أرانب جميلة. حزنت سيري لأن هذه الحيوانات البريئة بدائية الحيلة كانت ضحاياهم اليوم، ثم انشغلوا بلعب الورق في انتظار الليدي والماركيزة اللتين لن تأتيا.

كان هناك نبعٌ قريبٌ يرسل مياهاً باردة وعذبة شربوا منه وأعدّوا الشاي بعد الشواء اللذيذ، وبعد حين أصابهم الضجر فتوجّهوا إلى الجرف الكلسي الأبيض، قبالة البحر.

كان مشهداً ساحراً لن ينسوه، لاح لهم على بُعد ميل أو أكثر، وكان يجهرهم تماماً ويرمي بضوئه الشديد على أبصارهم. البحر أزرق على جانبهم الأيمن يمتد بلا نهاية، مثلما البراري الممتدة على جانبهم الأيسر. الجرف أبيض متدلٍّ من ارتفاعٍ عالٍ، والمنارة الحجرية الشهيرة

في الأسفل تنتصب كأنها تقارع السماء التي كانت صافية أكثر من العادة. في ذلك المكان المرتفع يُخيّل إلى المرء أنَّ الفضاء البعيد يناديه، وأن البحر يستنجد به، فالطبيعة في أشدّ حالات نشوتها تراقب المارة بحذر، وتمتد أذرع الشمس الذهبية اللامرئية مع نسمات هواء بارد ربما وجد باباً سحرياً من الجنة فخرج إليهم. هرعتْ سيري إلى الهاوية المخيفة فجأة ووقفت مأخوذة بجمال المنظر، شعرت بأنها ستسقط أو أنّ السقوط أمرٌ لا مفرّ منه لتذوب في صفو هذه اللحظة، وربما سألت نفسها: "ما أجمل أن تنتهي حياتنا ونحن عند هذه الدرجة من السعادة؟" ثم حارَتْ داخل عقلها في فكرة صغيرة، ومن ثَمّ اقتربت أكثر من الحافة المشؤومة والمميتة. أصبح سقوطها وشيكاً، فالعديد من الناس انتحروا سقوطاً من هذا المكان الذي لم ينجُ منه أحد. جروا إليها لكنها صرخت فيهم:

- "ابتعدوا! إن اقترب أحدكم مني سأرمي بنفسي!".

اقترب منها موم مبتسماً يحاول أن يُبْطِل ما تختلقه من أفعال طائشة ومشينة حتى لا يلفت الأنظار إليهم إذا كانت حقاً تنوي فعل ذلك:

- "هيا يا عزيزتي تعالي، فستسقطين وتصبحين وجبة شهية للذئاب الجائعة هذه الليلة، تعالي".
- "سأنتحر".

تراجعَتْ خطوة إلى الوراء حتى انجرف بعض الحصى أسفل قدميها، ولم تكن تنظر إلى الخلف أبداً، وكانت جادة تماماً في ما قالت:

- "لا تتهوّري يا سيري! ومن أجل ماذا؟" قال فيرن الذي أصابه الفزع.
- "أجُننتِ؟ اللعنة يا سيري! يجب أن تتوقّفي حالاً، هذا ليس مضحكاً" قالت إيميلي.

- "فلتفعليها سريعاً أو لتعودي، فنحن لا نقوى على هذا التوتر" قال آرثر.

أرجعت رجلها الأخرى إلى الوراء وأضحى بينها وبين الهاوية الشاهقة أقل من قدم واحدة، سالت دموعها وعبثت الريح بشعرها بعدما نالت من قبعة القش التي كانت ترتديها، ارتجفت يداها وسألت موم:

- "هل ستهجرني يا موم؟".
- "لا تخافي يا حبيبتي! لن يحدث ذلك، فقط دعينا نعود إلى البيت".
- "أتقسم لي أنك لن تتركني أبداً؟ وستتزوّجني؟".
- "نعم أعدك، إذا كان ذلك ما تريدين".

تصبّب العرَق من وجهه الذي لم يكن مستعداً لذلك الموقف.

لكن في اليوم التالي حدث أمرٌ عجيب سيظل عالقاً في عقل سيري إلى أنْ تموت، وسيسبّب لها عقدة كبيرة طوال حياتها. كان الطقس في أفضل أحواله، الشمس مشرقة كأنها مصباح غاز في قصر بكنجهام، الطيور تشقشق بألحان غير منتظمة لكنها كفيلة بأن تجعل روح سامعيها تطفو على مرحٍ ناعم، البحر يضرب الشاطئ في حميمية كأن الماء يضاجع الرمل بعدَ طول غياب، نسمات الصباح الربوية الجميلة تُشعِر الجميع بالراحة والامتنان. خرج موم باكراً ليركض قليلاً طوال الشاطئ، وكانتْ تراقبه من بعيد، تتأمل جبهته العريضة وشاربه الرفيع وتتخيّل رائحة عرَقه بعد ذلك المجهود وتُمَنِّي نفسها بقبلة طويلة تحمل بقايا رائحة سيجاره ومداعبة خليعة من يديه. عند الفطور حضر فيرن، وعندما لم يجد مكاناً لحصانه في الإسطبل الصغير

ربطه إلى الكوخ وجلسوا يتناولون فطورهم قبالة المشهد المثالي... البحر. دار الحديث اليومي بينهم. في البدء حدّثهم فيرن من جديد عن فكرة لوحة جديدة أطلق عليها اسم "فتاة مهاجرة" وخصَّ موم، الذي أصبح ساخطاً عليه، بالحديث:

- "هي لفتاة من الشرق، مجرد لوحة تعبيرية بها بعض التجريد، ينعكس من عينيها الواسعتين بحّار قاسي الملامح، ويمكنك أن ترى فيها كل خيبات الأمل التي يمكن أن تجدها في إنسان، سأعمل عليها قريباً. ألهمتَني بها أنت مستر موم".

لطالما كانت سيري تميل إلى عالم الرسم والتلوين والفن التشكيلي، وتهتم به بشكل خاص. وكثيراً ما رسمتْ لوحات جميلة ظلّتْ حبيسة خيالها الخصب أو نسيَتها في مؤخرة دفاترها المدرسية. وبروح سعيدة كأن الله لم يخلق غيرها سألته مبتسمة:

- "أما كان من الأجمل أن تضع فيها بعض الأمل بدلاً أن تحرمها منه؟".

تدخلت إيميلي وهي تضع حبة زيتون بين شفتيها القرمزيتين:

- "من الظلم أن يكون بمقدور أحدهم أن يمنح السعادة ويختار الحزن، لو كنتُ مكانك لما رسمتها إلا وهي ضاحكة مليئة بالأمل فلا شيء يبقى سواه".
- "ما رأيك يا آرثر؟ أراك شارداً!".
- "حسناً يا فيرن، أنت تعلم أن الشاعر لا يمكن أن يفهم أبداً كيف للرسم أن يعبّر عن الحالة الداخلية للإنسان، تلك هي وظيفة الشعر وحده، حتى القصص لا يمكنها، لما تتّسم به من جمود، أن تعبر عن اختلاجات الإنسان، لا يمكن للرسام أو

الأديب أن يشعرا بما حولهما من مُعاناة، الشاعر وحده هو الروح التي تحيا لأجل ما تحمله لنا الحياة، نحن لسنا في حاجة إلى الحزن الذي ستخبرنا به لوحتك، بل نحن في حاجة إلى أسلوب جديد في الفن يحدّثنا عن موضوعات أخلاقية عظيمة".

قاطعه موم بحدة:

- "أووو... الأخلاق من جديد يا آرثر؟ هل أنتَ شخص متناقض إلى ذلك الحد؟ إنني حقاً لأعجب من رجلٍ لا يعرف قيمة الحرية ويضعها تحت طائلة الأخلاق، كمديرٍ الملجأ في رواية ديكنز "أوليفر تويست". من المفترض أن لا يعترف الفنّ بالأخلاق، ومن الأفضل للفنان أن يفعل أي شيء يخالف الأخلاق، أو الأحرى به أن يبحث عن دَيْرٍ ناءٍ ليخادع الناس بأنه القديس أندراوس، فالجمال الذي يملأ الكون الفسيح لا بدّ أن يكون غير طاهر ومخيّب للآمال. وأكثر ما يثير دهشتي كيف يستطيع الشاعر أن يعلم أنه سوف يموت ذات يوم، ويفوِّت جميع الفرص التي يمكنه أن يعيشها في رغد ومتعة يدوّن فيها مشاعره بذهنٍ صاف! أووو يا آرثر! لا تحدثني عن الأخلاق!".

قاطعه آرثر وهو يلوّح بكأسه عالياً، وقد طاف على شفتيه شبح ابتسامةٍ ثم اختفى سريعاً كرَفَّة فراشة:

- "يا دكتور موم، أنا أتفق معك، لكن بشكل شخصي وليس كشاعر، فالفن في نظري هو الاختراع الأعظم للبشرية. الفنّ أهمّ من الدين، وعليه دائماً أن يكون مُقيداً بالأخلاق ليكسر لنا تلك القيود، فهي إن لم تكن قائمة فَقَدَ الفنُّ جزءاً كبيراً من

عظمته وهو الحسّ الثوري والتنويري، ليفتح أعيننا على عمانا. إن كنت تنوي أن تجرّني إلى مقارنة تستعرض لي فيها روايتك الوحيدة فلن يجدي ذلك معي، فأنا لا أهتم بأحياء لندن الفقيرة التي طالما استوحيت منها أفكارك، وتحديداً لامبث، فكيف لي أقرأ عن فتاته التي نالت تلطّفك واهتمامك؟".

ارتعشت يدا سيري على إثر تلك اللهجة التي تحمل في جوفها بعض التفاصيل الفضائحية، وردَّ موم:

- "لا تترفّع كثيراً أيها الشاعر، فإنك لن تعرف أهمية التواضع ما لم تسافر مثلي لتجوب بلداناً لا تعرف البرد ولا النظافة ولا التحضّر ولا الأكل بفمٍ مغلق. أنا أسامحك يا آرثر، فأنت لا تعلم شيئاً عن العالم، أنتَ محدود الأُفق، وجدتَ جيوبك ملأى بالنقود دائماً، ووجدتَ الناسَ حولك مزارعين بسطاء، فحمَلَك ذلك إلى أنْ تكون فظّاً، لكن تذكَّرْ أنك عندما تكون في لندن تصبح شخصاً آخر، شبحاً لطيفاً أنا أحبه".

- "موم! لا تُثِرْ عواطفي، فأنا حقاً لم أزُر الشرق مثلك، لكنني أعلم أنّ الفنّ هو الحيلة الأخيرة للإنسانية، فانظرْ إلى الرجل الإنكليزي مقارنة بنظيره الفرنسي تجد ما أرمي إليه. حتى صديقنا فيرن لا يحلم إلا بإقامة معرض كبير في باريس، والرجل الباريسي لا يفضّل أن يتعلّم الإنكليزية، بينما نحن نتفاخر بمعرفتنا الفرنسية. والشاعر عندنا يخاف التجربة والمعرفة، والعكس عندهم. وإذا صحّ أن البريطاني والفرنسي يتفقان في منظورهما للفن، فإنّ المعالجة تختلف. انظر إلى رسامي وفناني فرنسا ستعرف ماذا أقصد. لطالما كانت الأخلاق هي الهدف. فالفن يؤدّي رسالة الدين التي لم تفلح في اجتذاب بعض المتمردين مثلك!".

- "أظنك تلمّح إلى لهجتي الفرنسية. أنا أعتزّ بها وأفخر بأنني كنتُ فتى باريس المدلل، وما زلت. أما عن الأخلاق فسنرى إن كانت تستحقّ بعض الجهد الذي توليه لها".

وهكذا استمرّت نقاشات الفنّ وسجالاته الأبدية وأحاديث مجتمع المثقفين. سيري بالها مشغول بموم الذي عاد إلى حياتها أقوى من ذي قبل، لكنها خائفة من اختفائه من جديد، فهي تعلم تماماً أنه يحبّ الأسفار البعيدة والمغامرات مثلما يحبّ أن يلعق لسانها.

قضوا أكمل النهار في محاولات فاشلة لصيد السمك، ومن ثم تجوّلوا في الحقول والأدغال العشبية وجابوا الحدائق المجاورة. ولم تتمكن سيري من منع نفسها من إغواء موم، الذي خرّ صريعاً أمامها. اختفيا وراء شجرة ضخمة وتبادلا القبلات واللمسات السريعة، لكنها أخبرته بعد أن لوّعته جيداً بأن عليه الانتظار عدة أيام. ثم لعبوا الورق وأخيراً ذهبوا لتناول وجبة الغداء في منزل فيرن الذي لم يسمح لهم بمشاهدة مرسمه أبداً. كانت بعض اللوحات المكتملة خارج المرسم، شدّت انتباه سيري وإيميلي لوحة معلقة أعلى سطح الموقد وكانت لكاردينال على فراش الموت، ووقفتا مذهولتين أمامها وقد نالت تلك اللوحة إعجاب سيري بشكل لا يمكن وصفه. ضحكت ضحكة عالية كأنها تعرّضتْ إلى موقف محرج دون قصد، وتداركت الأمر بأن سألت فيرن بعد أن تناولت من الخادمة كوب الماء البارد وطلبت منها إعداد الشاي:

- "سأطلب منك يا فيرن بدافع الصداقة التي بيننا أن تعلّمني الفن والرسم، فأنا في أشد الحاجة إلى تعلّمه لأنني أحبّه وأشعر بألا غنى لي عنه، ولديَّ أفكار عديدة لعدد من اللوحات والتصاميم وأنا الآن لديّ فكرة...".

في تلك اللحظة لاحظت على مكتب خشبي من الأبنوس بعض الورق والريش ومحبرة، ولم تتمالك نفسها فجرت وحاولت أن ترسم شيئاً مبهماً. ضحكوا عليها من شدة حماسها، فما من شخص يستعمل المحبرة ليرسم لأنّ الريشة لا تصنع خطوطاً ملوّنة بأي حال. لكنها رسمتْ شيئاً آخر. لقد رسمتْ كرسيَّ جلوس مريحاً بنقوش متقنة وخطوط انسيابية جميلة في لحظات معدودة، وقد كان حقاً كرسيّاً جميلاً يناسب الرجل البريطاني الذي يحبّ الهدوء والراحة ويَنشُد أن يشعر دائماً بأنه سيد العالم حقاً. اقترح عليها موم أن تبيع التصميم إلى إحدى الشركات في لندن، واصفاً الكرسيّ بأنه سيكون "كرسي القرن العشرين". على مائدة الغداء قال لها فيرن:

- "إن موهبتكِ يا سيري لهي فنّ حديث. أنا أعتقد أننا اليوم في قمة مجدنا، والعالم وصل إلى ذروة التحضّر، والصناعة تضخّ الروح في العالم الخَرِب، وسيحتاج الصُنّاع إلى أعمالك أكثر من جماهير الفن. أنا أعتقد جازماً أنك تمتلكين موهبة خارقة في التصميم، وعليكِ الاهتمام بها".

لن تتجاهل ذلك الأمر، وعندما تعود إلى لندن ستذهب إلى مدرسة تعليم التصميم، وستساعد أباها كثيراً في بعض الأمور المتعلّقة بالعمل في ما بعد، وذلك ما سيجعل مستقبلها باهراً. والفضل يعود إلى فيرن الذي هداها إلى تلك الفكرة.

أما الحدث الأكثر رعباً، والذي أخبرتكم بأنها لن تنساه، فقد حصل في تلك الليلة الحافلة التي شربوا فيها كثيراً كأنهم همج برابرة. قرب منتصف الليل ذهب موم إلى الكوخ معتزماً الكتابة، وصعد آرثر إلى غرفته، وانزوت إيمي تحت الغطاء وغرقتْ سريعاً في النوم بعد اليوم المتعب وعدة كؤوس. بقيت سيري تفكّر في أمرٍ آخر... الفتى

الوسيم وشعره الذهبي؛ آرثر، الشاب الذي يكبرها بخمسة أو ستة أعوام، وليس له صديقة. وتذكّرت كيف أنها رأته مُثاراً بعدما شاهدها مع موم خلف الشجرة. كانت الغيرة تفضح رغائبه. "الغريزة أقوى من الأخلاق". عرفت أنه رغب فيها كرغبته في الحياة وفي أن يصبح شاعراً مجيداً كشكسبير، ثم أخذت الأفكار تلعب برأسها وتدور بخلدها الأسئلة: "هل له حبيبة يا ترى؟"، "كيف يفعلها؟". وكلما حاولت النوم والانشغال ضدّ أفكارها تحرَّك صدرُها باللوعة والغواية، ولم تستطع أن تقاوم الأمر، فتسلّلت من فراشها بهدوء، اقتربت من النافذة واختلست النظر عبر الزجاج إلى الكوخ فوجدت المصباح مُضاءً، "إذن فموم غارق في الكتابة أو القراءة"، أطفأت المصباح وعادت إلى وسادتها البيضاء من جديد. في ذلك الظلام الحالك أخذت صورة آرثر تراودها، فتارةً تتخيّله بملابس بحّار عاري الصدر وتارة أخرى يأتيها في شكل دوق غامض، ولم تمنع نفسها من إطلاق زفرات بصوتٍ عال، عندما لم تنتبه لها إيميلي أو تتفاعل علمت أنها تغطّ في نوم عميق، تقلّبت وأسلمت نفسها إلى أحلام يقظة ناعمة وتركت خيالهاً يفعل ما يشاء، وصوّر لها ذلك الظلام أن لا أحد يرى ما تنوي فعله، عند هذا الحدّ قرّرت التوقف وقنعت بأن ذلك لن يجدي نفعاً، أخذت تعدّ الخراف أملاً في النوم، ارتخى جسدها وانتظم صوت تنفّسها ودقات قلبها، وبين يقظتها ونومها شعرت بأن هناك خطوات داخل الغرفة لكنها كانت بعيدة جداً، كأنها تستعيدها في ذاكرتها التي فشلت اليوم في إدخال أوسكار إلى تفاصيلها اليومية، إذ يبدو أن هناك مؤثرات أقوى منه، لكنها شعرت بأن أحدهم لمس غطاءها فسيطر الخوف عليها وتسمّرت في أتمّ استعدادها لإطلاق صرخة قوية. كتمت أنفاسها وترقبت. مضت الدقائق ببطء رغم كثرتها، لم يحدث شيء بل لم تلحظ أيّ فعل يدل على أن ما شعرت به

حقيقي. تشجعت، وفي قرارة نفسها هلاوس. انسحبت من جديد بعيداً عن الفراش لتسترِقَ النظر من وراء النافذة إلى الكوخ حيث ينام موم، وجدت النور مُطفأً هذه المرة فعرفت أنه الآن في عالم آخر، وعندما همّت بالرجوع إلى فراشها ألحّ عليها شعور داخلي بأن تخرج فربما تجد آرثر ساهراً وحده فتبادله أطراف الحديث. وعلى ضوء بقايا نار المدفَأَة شاهدت طريقها وكان واحداً، السلّم المؤدي إلى الدَّور العلوي، فكرت في مغامرة صغيرة كتلك التي فعلتها مع إيميلي ولم تريا فيها سوى الظلام، مشت على أطراف أصابعها وصعدت درجات السلم وهي ترتعد من خوف لا تعلم له سبباً. وأخيراً، أمام غرفة آرثر، من أسفل الباب الخشبي، ظهر بصيص ضوء ضئيل فعرفتْ أنه صاحٍ. راجعت أفكارها في ما ستسأله إن طرقتْ الباب! ربما تخبره بأنها خائفة؟ لكن ماذا سيكون ردّ فعل موم إن علم بذلك في اليوم التالي دون قصد؟ حتماً سيشكّ في نواياها كما يفعل دائماً، قد يتخلى عنها؟ لكن الآن لا يمكن لها أن تعود بعد كل ما فعلتْ. شعرت بأسفل بطنها يرتعش ويهتز، خُيِّل إليها أن قلبها يصرخ كصافرة رجل شرطة في ليل لندن. وجدت كفّيها الناعمين يرشحان العرق المختلط بزيت المسك الذي تستخدمه ليفوح العطر الذي دفع بنشوتها إلى الحدّ الذي لا يمكن لها بعده أن تتراجع، لكنها أصرّت أن تتخطى الغرفة وتدخل إلى ذلك المكان الخفيّ حيث ستكتفي بمشاهدته فقط، أو ربما سيكون ذلك أولاً، ومن ثم ستضع خطتها. دون أدنى صوت، وبمهارة عالية، دخلت غرفة المخزن وأزاحت كل ما اعترض طريقها إلى أن وضعتْ عينها في الثقب. في البدء كانتْ الصورة غير واضحة، وكأنها تنظر داخل برميل مليء بالجعة، لكن خلال لحظة بدا كل شيء واضحاً أمامها؛ واضحاً كولادة طفل، كغليان الماء، كموسيقى أماديوس موتسارت، واضحاً كنفسك أمام المرآة. هاهلا ما رأت، كتمَتْ

صرختها القوية التي كان من الممكن أن يسمعها جميع سكان بيتشي هيد. وضعت يدها في فمها غير مصدقة ما رأت. ارتعشت، تصبّب العرق من جسدها كلّه، سال أنفها وسقط لعابها دون وعي منها، التصق قميص نومها بجسدها الذي أصبح قاسياً متصلّباً فجأة، شعرت بأن قلبها يضرب بشدة كل شيء، غاضباً، وأن بإمكانه أن يكون نذيرَ حرب إن سُمِع. لم تعرف كم قضت من الزمن خلال ذلك، لكنه ليس زمناً قليلاً، انهمرت منها قطرات دمع كثيفة، هطلت بسرعة؛ كالأمطار في جنوب الهند البريطانية، وأخيراً أطلقت زفيراً حاراً لاهباً أشبه بحمم بركانيه ثائرة خرجت عنوة في اللحظة التي شعرت فيها بحاجتها إلى استخدام دورة المياه، لم تكن قدماها مستعدتَين للمغادرة فقد تشنجتا من الوقفة الصلبة الطويلة، لكنها انتزعتهما بقوة خائرة وعادت أدراجها بسرعة، وعقلها لا يستوعب ما رأت. اختفت تحت الغطاء كأنها أقدمت على جرم لا يغتفر، صدرها يعلو ويهبط بقوة. لم تلحظ أن إيميلي لم تكن موجودة. فما رأته هناك كان فوق قدرتها على التحمل. تكرّر المشهد في ذاكرتها مليئاً بضوء الشمع الأصفر فاندفع ما في بطنها خارجاً، سكبت كل ما في جوفها على السجاد ولا تزال بطنها تنقبض وجسدها يرتعش ويتعرق.

في صباح اليوم التالي ستجلس إلى جوار النافذة طوال الطريق جاحظة العينين. لم تنم طوال الليل ولن تنام إلا بعد يومين آخرين. ستعود إلى لندن بالقطار. هربت وحدها من هناك، تصفعها الصدمة!

17
الجنتلمان

بعد ذلك، أصابت سيري لوثَةٌ دينية كبيرة، وأرادتْ أن تصبح راهبة لا تنقطع عن التأمّل والاعتكاف مع الكتاب المقدس. لكنَّ ذلك لم يحدث. عاشتْ فترة من الاكتئاب أعقبتها مداومة على قداس الآحاد وإشعال الشموع والاعتراف بشكل راتب. لم تكن تعلم أنها ما زالت تحت الصدمة، وهي صدمة قوية بحق! لم تحاول الخروج، بل وجدت ملاذها في الكنيسة ومراجعة خُلقها وسلوكها. بعد فترة أخرى شغلتْ نفسها بدراسة الرسم والتصميم، وانقطعتْ عن إيميلي وموم تماماً، في الحقيقة هو مَنْ اختفى فجأة كعادته! مضتْ الشهور الطويلة وهي لا تقوم بشيء إلا التعرّف على أنماط الفنون ومدارسها ومحاولات لرسم بعض النقوش. في العاشر من تموز 1899م احتفلت بعيد ميلادها العشرين. أهداها والدها مرسماً وخصّص له العليَّة لتأخذ راحتها، جهّزه لها نجار متخصص استمر يعمل على مدار أسبوع كامل. وأيضاً من جديد أصابتها الوحدة والضجر واعتادت على نوبات البُكاء ثم حدث أن جوّعتْ نفسها واحتقرتها. أصبحتْ لا تخرج إلا لتذهب إلى مدرسة الفنون يومين كل أسبوع، لم تتعرف إلى رجل جديد كما لم تُقِم علاقة منذ تلك الأيام في إيستبورن، والتي مضى عليها الآن حوالَي عامين إلّا قليلاً.

ثم انخرطتْ في نشاطات خيرية مع بعض السيدات، فكنّ يجمعن التبرّعات لصالح الأيتام في الدُّور التي يبنيها والدها وأحياناً لصالح أحياء لندن الفقيرة، وأحدث ذلك تغييراً تدريجياً في حياتها، بل أعاد إليها بعض المعنى. ويوماً بعد يوم عادت ابتسامتها الرائعة من جديد،

اهتمت بالمعمار الباروكي، ثم أخذت تجوب بعض أرجاء المملكة لتتعرّف على القصور الباروكية لتقارنها بالأعمال القوطية، وكان أشهرها آنذاك قصر خليج كارديڤ الغامض، الذي تُحْكَى عنه الحكايات وتنتشر حوله الشائعات. في الوقت الذي كانت كلّ سيدة من سيدات المجتمع اللندني مستعدّة للتخلي عن أحد أصابعها البيضاء مقابل خبر مؤكد لفضيحة مشهورة تسبق بمعرفته الأخريات، لكن سيري لم تواصل في ذلك الطريق. فانگلترا في قمة مجدها، وتلك التصاميم لم تكن ذات فائدة حقيقية في ذلك التوقيت، ببساطة لن يهتم بها أحد. حدث وأن عرّفها والدها مرة إلى سيدة نبيلة من أثرياء دبلن تبحث عن ديكور ليس له مثيل لڤيلتها الريفية، فقدّمت لها سيري تصوّراً فريداً للبهو والغرف والمدفأة، وأصبح حديث المجتمع هناك، بعد أن نفّذته السيدة بأدق التفصيل وكلّفها مبلغاً معقولاً من المال، مما أعاد إلى سيري الثقة بنفسها وفتح أمامها نافذة حلم جديد، لكنها دائماً ما كانت أسيرة لما حدث في تلك الليلة في منزل آرثر الريفي. كانت صدمتها أقوى من محاولة التعايش معها، وأخذت تفكر مراراً طوال السنتين الماضيتين في حقيقة ما شاهدته؟ إلى درجة جعلتها تشعر بأن ما شاهدته هناك لا يعدو أن يكون خيالاً مريضاً، لكنها لم تقبل تلك الفرضية التي تُنافي الواقع كلياً. ذات صباح وقعت في يدها صحيفة "مورنينغ بوست" والتي كانت تتحدث في فقرة صغيرة عن رواية جديدة للروائي سومرست موم، وخبر عن الكاتب في إحدى رحلاته المثيرة إلى فرنسا وإسبانيا، وقد ساءها ذلك كثيراً وعادت لمسة من الحنين إلى نفسها برغم كل ما حدث وما رأت! خصوصاً بعد أن دغدغت جوانحها الرغبة والشهرة التي يحظى بها موم الآن.

لكنها الآن تفكر كثيراً في السفر إلى أمريكا، تلك البلاد التي لا يمكن أن يتجاهلها أحد، وفكرت أنها من الممكن أن تكون ممثلة

مشهورة، لطالما رغبَت في ذلك، وتخيّلت نفسها وقد أصبحت نجمة مسرح تُوضَع صورها في كل مكان، وتمنت أن يركع أمامها موم باكياً لأجل أن تنظر إليه فقط. فهي تظن أنها جميلة جداً وذلك سببٌ كافٍ لأن يلهث وراءها جميع المنتجين، لكنها أيضاً كانت مولعة بمكان آخر، وهو الشرق، المستعمرات الجديدة، الحياة الاستوائية، الغابات الكثيفة والشمس الدافئة والرعاع البرابرة المتوحشين. أصبحت تحتقر التحضّر والرقيّ والآلة. إن الإنسان المتحضّر لهُوَ شخصٌ يتعلم أولاً كيف يكذب، ومن ثم كيف يجعل الناس يصدقون كذبته، والوفاء عنده كوفاء الحمار لصاحب الغلة إذا ائتمنه عليها، والرغبة عنده لهِيَ أمرٌ عاديّ لا يتجاوز البصق في الصباح، خارج المبصقة أو داخلها، لا يهم! والانحطاط الأخلاقي لهُوَ سمَة الرجل الأزلية مهما علا شأنه وارتقى بالعلم والحضارة. شاهدت كثيراً مما يدعم آراءها المتمردة، فقد رأت بأم عينيها الأطفال في عمر العاشرة يعملون في مصانع النسيج في يوركشاير، ويتسوّلون بقايا الخبز في سوهو والحي الصيني وعند أغلب محطات مترو الأنفاق. كما رأت كيف يستغل الرجل المتحضر هذا الفقر، وسمعت عن الأطفال في مصانع مانشستر حيث يعملون في أماكن سيئة جداً لأكثر من عشر ساعات متواصلة مقابل عشرة بنسات. وسمعت عن المهاجرين الصينيّين والهنود المصابين بالجدري والمرتمين في أغلب الموانئ يتسكعون ليلاً في ممشى النهر، وعن لندن المليئة بالرجال الخطرين واللصوص الذين سيقتلونك من أجل بنس واحد أو يحزّوا إصبعك لأجل خاتم من النحاس الرخيص، وعن المناجم التي لا تتوقف عن العمل وتنهار على العمّال الجوعى، كل هذا أقل قسوة مما يحدث في المستعمرات البعيدة التي أرادت رؤيتها بأمّ عينها.

رغبتْ في السفر مع والدها إلى القاهرة التي طالما سمعت بسحرها ولياليها الحالمة، لكن ذلك لم يحدث فقد ظهر موم في حياتها من جديد.

شاهدته خلال عرض إحدى المسرحيات، يجلس في مقصورة فخمة ويرتدي حُلَّة فاخرة جداً وتبدو عليه علامات الثراء والوجاهة الاجتماعية، رأته عبر المنظار الدقيق ولاحظتْ الفتاة التي كانت تجلس إلى جواره طوال فترة العرض، كما انتبهتْ أيضاً إلى الفتى الإسباني الوسيم الذي يجلس إلى جواره بجبهته العريضة وسُمرته الناعمة وربطة شعره المُرتجلة، لم تحتمل ذلك فخرجت غاضبة. وطوال تلك الفترة كانت مشوّشة البال لا ترى سوى الضباب، تقرر أمراً وتفعل أمراً آخر، ولا تتخذ القرار المناسب مهما كان بسيطاً.

شاهدته لاحقاً عدة مرات، الأولى أثناء حفل عشاء في مطعم النادي، والثانية في صالة مزادات مشهورة، أما الثالثة فكانت في غرين بارك بالصدفة؛ عندما وجدته في طريقها إلى محطة المترو. في عقلها الباطن تقبّلت وجوده في حياتها من جديد رغم تعمّدها تجاهله، في الوقت الذي لم يكن موم قد شعر بها أو رآها في كل تلك المرات.

أكلتْ الأيامُ بعضَها، وأتى اليوم الذي أرسل فيه موم خادماً خاصاً يحمل دعوة فاخرة لحضور مسرحية من تأليفه مرفقًا معه رسالة مختصرة يخبرها بعودته بعد رحلة طويلة ومُجهدة، وبأنه "يسامحها" على ما فعلته، وأن الأوان قد آن لأن يضعا كل ما حدث وراءهما، كما أرسل قبلاته في مؤخرة الرسالة. وكان ذلك المسرح في الجوار فقررت أن تذهب.

استعدت جيداً وتأنّقت كثيراً كأنها إحدى أميرات البلاط، ارتدت فستاناً متكلّفاً من البوبلين مطروز على يد خياط مغربي ماهر، أحمرَ كالعنب المعصور، جدلتْ شعرها عالياً وزينته بطوق وزهرة صناعية، ارتدت القفازات المرصعة بالحُلي، وأخيراً القبعة الكبيرة الموشاة بخيوط مرمرية، وطلبتْ عربة خاصة. قرّرت في نفسها أن تلقنه الدرس القاسي، والأصعب.

في مكان محجوز سلفاً، بجانب المقصورة الرئيسية، جلست. بدأ العرض بمقدمة موسيقية تم تأليفها خصوصاً لأجل العرض، صفّق الجمهور بشدة، رُفِعَ السِتار ومِنْ ورائها تقدّمتْ خطوات بطيئة كالأيام في المقبرة. كان موم يرتدي معطفاً كبيراً من الفرو وقد بدا عليه حنوّ ولطف لا يليقان بسواه، تجرّدت من كل ما عزمتْ عليه وصاحتْ به مغتبطة:

- "آه يا مومي! أين كنتَ غائباً؟!".

وخلال لحظات طمس موم سنتين من الغياب في لوعة شوقه وعنفوان قبلاته اللاهبة وحديثه المُنمّق المثير. لم يكن ليجاريه أحد عندما يتعلّق بامرأة، لا بد وأن يحوز على قلبها. فحكى لها عن لياليه الساحرة المشوقة مدغدغاً حواسها بنشوة غجرية حاصرتها كتكّة الساعة، طارت منها ضحكة أثارت غيرة الحضور وتلاشتْ معها أفكارها التأديبية سريعاً. ذابت كما تذوب الزبدة في النار.

بعد نهاية العرض خرجتْ تتأبّط ذراعه كزوجة فُضلَى، كما حُظيت بكلمات الإطراء وقُبِّلَتْ يدها مراراً وناداها أحدهم بـ "مدام موم" فأحسّتْ بالنّصر. ربما هي صادقة جداً في كثير من الأمور لكنها كانت ضعيفة دائماً أمام الشهرة والوسامة والشباب. أوصلها إلى منزلها فلم تسمح له بالدخول ولم تدْعُه إلى شرب الشاي أو المشروب كما تقتضي قواعد اللباقة، لم تُظهر الاهتمام عندما طلب منها مقابلته نهار اليوم التالي في شقته القديمة.

كان موم يتمتع بصحة جيدة جداً وعقل سليم وثقافة عالية، ووجدت سيري أنه الآن مناسب جداً ليكون زوجاً لها أكثر من أيّ وقتٍ مضى، وعقدت العزم على ذلك. وفي غمرة أفكارها تلك الليلة، شعرت بتعاطف كبير معه، وتذكرت حكاية يُتمه المُبكر وطفولته

القاسية مع عمه القس الكاذب الجاحد البخيل، والثروة التي تبددت، والآلام التي مرَّ بها، ورأَفت به لأنه سليل أسرة عريقة ضلَّ طريقه كثيراً نتيجة للتربية المميزة التي تلقاها في طفولته بباريس، ولاحقاً تغيّرت حياته عندما عاش كنف عمه الكريه، ولا حَلَّ له سوى امرأة مثلها؛ تعيد إليه كل ما فقده وتُنير دربه نحو الخير. وأمّلت أنه بإمكانها أن تصنع منه رجلاً ناجحاً كوالدها، ووعدت نفسها بأن ترعاه جيداً إذا تزوّجا، ولخّصَت جميع مشاكله في أمر واحد: "أنه بحاجة إلى امرأة ذكية ومتعلمة ومتحضرة مثلها". نامت في قلب ذلك الحلم حتى الصباح.

أسرعتْ الأيام وسيري تتجنب لقاءه وتبتعد عن الأماكن التي يرتادها. يزورها أحياناً فيشربان الشاي أو العصير معاً. وحدث أن التقى بوالدها الذي دعاه إلى العشاء واعتبرت ذلك خطوة إيجابية مهمة في حياتهما معاً، لكن موم لم يكن يهتم لأمر الزواج البتّة، ولا تعني له الأسرة كياناً مثالياً للاستقرار، لم تكن تعلم أن لدى موم العشرات من العشيقات والخليلات والفتيات اللاتي يرتمين في حضنه بسبب وبلا سبب، لكنها بالفعل كانت المميزة وسطهن، وأكثر ما كان يعجبه فيها هو روحها المنطلقة ورجاحة عقلها والذكاء الذي يشعّ من عينيها، إضافة إلى الجو المرح الذي تخلقه حولها.

في نهاية كانون الأول من العام 1899م تقدَّم لها رجل ثريّ بوساطة إحدى جاراتها المسنّات وتدعى "الليدي آن مونتيزوري"، وهي كائن من فصيلة الرخويات، كريهة الرائحة قميئة الوجه وجسدها عبارة عن كوم من التجاعيد تغطيها بشرة وردية، تملك صالوناً مشهوراً وعريقاً يرتاده كبار رجال المجتمع والسياسة وبعض مشاهير لندن القدامى ويسهرون في حفلات لا تنتهي. شاهدها الرجل كثيراً فهو يمتلك

سلسلة من المتاجر العصرية في عدة أماكن ويدعى "هاري سيلفريدج"، وعندما تناقشت خلال ذلك العشاء مع موم وطرحت عليه ببراءة وراءها قصد: "هناك من تقدّم طالباً يدي مسيو سومرست". ردّ عليها بسؤال بارد: "هل هو شخصٌ جيدٌ؟". ثم نصحها بأن الزواج موضوع شخصي لا يجب على أحد التدخل به. على ذلك النحو كاد الغيظ أن يفجر كلتا عينيها، لكنها تمالكت أعصابها بقوة إلى درجة أنها شعرت بأن إحدى أسنانها قد تسقط فجأة، ثم تظاهرت باللامبالاة.

خلال ذلك الشتاء وفي عشيّة عيد الميلاد، وبينما يتساقط البياض الثلجي من السماوات كأنه رسول جديد للخلاص، كانت سيري تتعرف إلى الخطيب المتقدّم في السن "هاري". التقته في صالون الليدي آن، وهو رجل لطيف طيب المعشر وودود، سليم الروح واللسان، مهندم ولديه طموح تجاري كبير وهو شخص عِصامي بنى نفسه بنفسه. لم تشعر بأنها غريبة عليه أو أن هذه الجلسة قد تم الترتيب لها جيداً لتبدو كالصدفة المجردة. في بداية حديثهما معاً كانا جادّين تماماً، فأخذا يتناقشان في آخر لمسات الموضة وبيوت التجميل الباريسية وظاهرة هروب الفتيات إلى أمريكا وحكايات الفتيات الأمريكيات الجميلات اللاتي لا يتوانين عن فعل أنكى الأمور وأكثرها خلاعة. فجأة أثناء تلك المحادثة سقط القناع الفولاذي الذي كان يرتديه وأبدى إعجابه بها وتوقه الشديد إلى رؤيتها وهي ترتدي خاتم زواجه الماسي. لكنها لم توافق، طلبت منه أن يؤجل الحديث في ذلك الأمر إلى وقتٍ لاحق. وذات ليلة، بعد عدة لقاءات دافئة في مطاعم ونوادي وحانات ارتاداها في أوقات متأخرة بعد أن تمشيا من نوافير الهايد بارك وحتى السيتي، أُصيب أحد أحصنة العربة فاضطرا لزيارة بيته الجميل الذي كان بالجوار. وجدتْ لديه خدماً غاية في الهندام والرُّقيّ، طاهيهِ

الخاص كان من إحدى المستعمرات الشرقية "هندي أسود اللون". جرس بابه الخارجي قديم وأثري من النحاس الأصفر، إلى جواره لافتة مصقولة من صفيح فلورنسا تتوسّط فوانيس غاز كبيرة مزيّنة بنقوش دينية يعلوها الصليب المقدس. ارتمتْ على أريكة من الريش المنفوش غاية في الراحة والنعومة، رائحة البخور الهندي تملأ المكان كأنها في إحدى ليالي الشرق السحرية برفقة شهريار. تناولا العشاء على طقم أطباق صينية لم ترَ له مثيلاً حتى عند والدتها المهووسة بجمع ذلك النوع من تجهيزات المائدة، والتي كانت أدواتها من الفضة الخالصة. قدّم لهما الطاهي الشاب طبق التحلية فخجلت أن تسأل عن نوعها أو مكوناتها. انبهرت باللوحة التي تتصدر قاعة الطعام، كانت لوحة كبيرة ليسوع والمجدلية وحولهما الملائكة يحملون أكاليل الزهر. الآن أصبح من الصعب عليها أن تتفادى رائحة الشراب القوي المستورد من فرنسا. الوقت متأخر، لم يكن سهلاً أو مقبولاً أن تفعل ذلك! إن علمت إيميلي بالأمر لاعترضت عليها ولاتهمتها بعدم اللباقة، حتى والدها الذي ظّن أنها أصبحت فتاة عاقلة ولا يخاف عليها كان ليفقد عقله إن علم ما ستفعله، لكنّ الأشياء تحدث، فهي لم تتفادَ الطريق الذي يؤدي في النهاية إلى السرير العريض في غرفته الواسعة ذات الستائر المخملية الناعمة، وانتهى بها الأمر إلى جواره في ذلك الليل. كان جيداً في الفراش. وهي عطشى لما فعله بها، تأوّهت طوال الليل، ونامت مفتوحة العينين.

لاحقاً تردّدت عليه بكثرة وأصبح مدعواً دائماً إلى مائدتهم. والدها يعلم بالأمر فلم تكتم الليدي آن السر، والجميع ينتظرون الخبر البهيج؛ زواج سيري وهاري.

ثم اختفى موم فجأة من جديد، وهي التي كانت تنتظر ردّ فعله عندما يعلم بالأمر، كانت تلاحقه الشائعات وتلوك الألسن أخباره وفضائحه، كما تعرضت سيدات المجتمع والدوقات والكونتيسات إلى أخبار سيري، فقد شوهدت في شُرفة منزل هاري الضخمة في ثوب نوم عارٍ، اتّهمها البعض بالبغاء وسط أصحاب الثروات واتّهمها آخرون بأنها أمريكية أخرى تحاول الاحتيال على جنتلمان حقيقي. لذلك عاد إليها الحلم من جديد، وأخذت تقرأ بعضاً مما يُكتب عن النيل ومصر والسودان، ومجاهيل أفريقيا الأخرى، نسيَت مرسمها وتصاميمها المستوحاة من العصور المظلمة.

في القرن الجديد وصلتْ الاكتشافات العلمية إلى حدود لم يكن يتخيلها أحد، ظهرت عربات لا تجرّها الخيول، الفونوغراف العجيب الذي تخرج منه أصوات فرقة موسيقية كاملة، ثورة الطب والعقاقير، البرقيات التي تمضي في ثوانٍ معدودة، ازدهرت الأسواق بمنتجات الشرق الأقصى والأدنى واختراعات أمريكا وأدوات الصين الدقيقة وعطور الهند البريطانية وألماس أفريقيا ومجوهراتها، كما اختفى العديد من الأشياء مثل العلاج بالحشرات والحلاقين ذوي المهام الطبية، وشهد ذلك العصر نبوغ الطب الحديث في لندن على وجه الخصوص عبر أعمال هنري وِلْكَم الطبية، وبات سهلاً أن تجد كل ما تريد، وأن تسافر إلى أي مكان ولو اخترعته من رأسك، أُحضرت إلى حدائق الحيوان وحوشٌ ما رأى أهل مدينة الضباب مثلها من قبل. القطارات تجوب أنحاء أوروبا من الشرق إلى الغرب، كل ذلك يحدث وسيري لا تفوّت فرصة للمكوث عند هاري، الذي ارتفع معدل نشاطه الجنسي بقدرٍ غير مسبوق، وأخبرها بأن عقد نهاية الثلاثينيات عند كل رجل هو الموسم النهائي لعنفوان الجنس.

لكن في ذلك العام قُتل مئات الجنود في ليديسميث بجنوب إفريقيا، ودعا عضو مجلس العموم الإيرلندي إلى الثورة ضد الحكم الإنكليزي واستقلال بلاده. ثم خرج للعمال صوتٌ يطالب بحقوقهم ويدافع عنهم، تمثّل في رامزي ماكدونالد، السياسي المدافع عن العمّال. وصدرت رواية جديدة لموم، وانضم صديقه وينستون تشرشل إلى البرلمان، ازدهرت الرحلات البحرية وأصبح الإنكليز يسافرون لقضاء الشتاء في المستعمرات الاستوائية.

ثم ظهرتْ إيميلي من جديد بعد أن قضت وقتاً في مسقط رأسها، عادت الليالي الجميلة مرة أخرى. لم تكن تُذْكَر إحداهما إلا واقترن اسمها بالأخرى، فإن سأل أحدٌ عن سيري ولم يجدها سأل عن إيميلي والعكس. طلبت منها سيري أن لا تخبرها ولا تحكي لها عن أيٍّ مما يخص تلك العطلة في إيستبورن، وأن لا تعاتبها مطلقاً. لكنّ إيميلي حاولت الشرح بأن ما فعلته أثار حيرتها وليس سخطها. لم تترك لها فرصة، وطالبتها بأن لا تذكر تلك الأيام أبداً وإلّا كانت هذه نهايتهما، واقتلعت منها وعداً قدسياً شديداً أوفت به إيميلي على مضض. تأكدت سيري بعد ذلك من أن إيميلي لم تعد صديقتها، رغم أنهما تحاولان إظهار ذلك الحب والحنين وأنّ من الأفضل أن تبتعدا عن بعضهما البعض لفترة ليست قليلة.

في تلك الفترة تنامت الثورة الصناعية في جميع أرجاء المملكة، واستمتع العامة بالرخاء والعيش الرغيد وراحوا يدعون للملكة بطول العمر بعد أن تعرّضت لوعكة صحية ألزمتها الفراش الأبيض في أوزبورن بجزيرة وايت. وسيري تعيش بعيدةً عن كل ذلك في أحضان هاري الذي نسي أمر الزواج، بينما كانت سيري تعتبر أن وقته قد حان. في تشرين الثاني توفي أوسكار وايلد في فرنسا وأتى الخبر

الفاجع. حتى عندما يموت والدها بعد ذلك بخمسة أعوام لن تحزن عليه كما حزنت على وايلد. انتحبت كأنها فقدت قطتها الأليفة ثم اغتمّت وعاشت لحظات حزن وأسى لا تنتهي. لم يستطع أحد أن ينتشلها من تلك الدوامة، شعرت إيميلي بأنها يجب أن تفعل شيئاً، فاقترحَت عليها أن تسافر إلى القاهرة، خصوصاً أن والدها ينوي ذلك لارتباطه بعمل في الخرطوم. وافقت دون ضغط شديد. رفض هاري مرافقتهم وتعلّل بالعمل، أصابتها مرة أخرى خيبة الأمل التي أكدّت لها أنَّ الرجل لا يصلح لشيء عدا الجنس، وغرقت في التأمّل في نوعية الرجال الذين يرميهم القدر في طريقها، ثم انغلقت على نفسها وانطوتْ ولم تعد ترد على الرسائل أو تقبل الدعوات واعتزلت المجتمع قُبيل سفرها.

في العام 1900م كانوا في القاهرة بعد رحلة بحرية كئيبة مليئة بالمخاطر. لكن المدينة لم تَرُق لها كثيراً رغم إعجابها بها، فهي مليئة بالأوروبيين المغامرين والڤيكتوريين العظماء وصائدي الجوائز وأشباه هاري سيلفريدج، وهذا ما جعلها تقضي فيها أقلّ فترة ممكنة. في القاهرة التقوا بثلاث راهبات وشمّاس وخمس ممرضات كنّ في طريقهنّ إلى الخرطوم لأغراض تبشيرية وطبية، وأقنعوا سيري بمرافقتهم. أو في الحقيقة لم يجتهدوا كثيراً لإقناعها فقد كانت تريد فعلاً أن تذهب بعيداً بعد أن عادت إليها لوثتها الدينية، بل أكثر من ذلك؛ كانت تريد أن تنسى كثيراً من الأمور التي لن تنساها إلّا في ظروف مختلفة. تُمنّي نفسها برؤية مناظر جديدة، لتغسل حزنها. انخرطت مع الكنيسة بعد أن انقطعت عنها منذ أن تودّد إليها هاري، لم يُبدِ والدها اعتراضاً في أن تسبقه إلى الخرطوم، فقد كان مطمئناً عليها وسط الراهبات، وكان قد مضى على مجزرة مقتل جورج غوردون أكثر

من خمسة عشر عاماً، وهو الأمر الذي يمثّل هاجساً مرعباً لأغلب الإنگليز ذوي المعرفة العامة بالأخبار في هذا الجزء من العالم، لذا في آخر لحظة قرّر والدها مرافقتهم خوفاً عليها رغم علمه أنَّ الوضع أصبح آمناً تماماً وتحت السيطرة منذ زمن.

في العشرين من كانون الثاني 1901م، وصلا إلى الخرطوم ونزلا في بيت الضيافة بعد رحلة شاقة وطويلة استمرت أكثر من ثلاثة أيام، حيث يحتضر ما يطلقون عليه "الشتاء" ويلفظ أنفاسه الأخيرة بشمس حارقة لا تنافسها أعتى التنانين الأسطورية في الحكايات الصينية.

رويداً رويداً بدأت بالتأقلم، خصوصاً مع وجود تلك النوعية من البشر والأحاديث والمجاملات التي تجد رواجاً طيباً وسط من هم بعيدون عن أوطانهم. استقبلها الإداريون والموظفون القدامى بطيب خاطر واحتفاء مبالغ فيه، ولأسباب لا تقتصر على جمالها الفاتن وجسدها الجميل وعينيها النجلاوين الحوراوين فقط، بل كذلك لحسن ذوقها وتعاملها البديع الذي أعاد إليهم ذكرى أوطانهم وزوجاتهم وأحبائهم. أحبت المكان مثلما أحبها. لاحقاً تعرّفتْ إلى بعض الأطباء والمفتشين ورجال السياسة والدين الذين طمأنوها وأخبروها عن المدينة التي لا تعرف عنها الكثير. قدّمت نفسها كمصممة للديكور، كان كثيرٌ من العمل في انتظارها، والخرطوم تزدهر يوماً بعد يوم. تجوّلت فيها راجلة، تمشّت في شارع ريجنالد ونجت العريض وجلست تحت أشجاره الباردة الظل، ومرت بشارع اللورد كتشنر وتذوّقت أحلى الوجبات في مطاعمه الراقية، واختلطت ببعض أهل البلاد غريبي الأطوار، رحّبوا بها بلغة إنگليزية لا تشوبها شائبة إلا لونهم الأسود الداكن، وكم أثار دهشتها الأمر كله! ركبت مركباً في نهر النيل وشعرت بأنه نهرٌ مقدّس يلتف حول المدينة كما

تلتف إسورة العاج التي ترتديها في يدها اليسرى والتي نقشت بداخلها اسمها بأحرف عربية واضحة. بعد أسبوع أو أثنين أصبحت معروفة لدى المجتمع الراقي والبعثات الدبلوماسية هناك، وتعرفت إلى كثير من أبناء الجاليات الأوروبية، وسمعت أنهم سيقيمون لها حفل استقبال كبيراً. أصبح كل من يبحث عن زوجة يجد فيها ضالّته، ولم يكن هناك استثناء.

في قصر الضيافة يأتي الجميع ويرحلون، ما عدا أولئك الممرضات اللائي تقرّبن منها وأصبحت تحسبهنّ من أصدقائها، يقصُصْن عليها حكايات عملهنّ المرهق كل مساء ويخبرنها بالمواقف اليومية والطرائف المعتادة من السودانيين، ولا يخلو الحديث من السخرية منهم أو تقليد طريقة حديثهم أو جلوسهم. أحست سيري من جديد بأن روحها تجلّت في حضرة هذه البلاد، وأن يسوع قد باركها كما باركها ذلك الشمّاس المتبتل قبيل سفره جنوباً واهباً إياها قبلة محتقنة وخافية.

لكن حدث لاحقاً ما غيَّر كثيراً من خططها، وأفسد عليها كل شيء، ففي الخامس والعشرين من كانون الثاني، أتى الخبر المحزن في ليلة باردة "موت الملكة ڤيكتوريا، ملكة بريطانيا العظمى وأيرلندا وإمبراطورة الهند ودول الكومونويلث ومصر والسودان". استعدّ الجميع للرحيل والمغادرة لمحاولة حضور الجنازة أو المشاركة في العزاء الرسمي. أصدر السير ريجنالد ونجت؛ حاكم عموم السودان، أوامره باختيار وفد رفيع يتكوّن من شخصيات تمثّل الحكومة الإدارية والرموز الاجتماعية والقيادات الأهلية وتجهيزه للسفر لتقديم التعازي. بينما انشغل السياسيون بخطبة العرش الجديدة وبوليّ العهد الذي كان مقرباً للسير ونجت. عندما غادرت الوفود وخلَت

الخرطوم وبيت الضيافة، كانت سيري ووالدها قد حزما أمتعتهما أيضاً واستعدا للمغادرة إلى مسكنٍ راقٍ في شارع كتشنر، يتكوّن من طابقين ويطلُّ على النيل مباشرة، فأمام والدها الكثير من العمل هنا. وتنتظرها أحداث عظيمة... تَحُول دونها الأيام فقط.

هناك بدأ عهد جديد مع سيري سيغيّر حياتها بشكل جنوني، حيث ستلتقي بالرجل الذي كلّف والدَها بالحضور وبناء مدرسة عظيمة تخليداً لذكرى الشهيد جورج غوردون الذي قُتل بطريقة مأساوية ودمٍ بارد في هذه المدينة من قِبَل بعض الهمج الثوريين الذين أنهوا بذلك كلّ الفرص لاستكمال النهضة التي كان مقرراً أن تقوم في بلادهم. كان والدها قد تعرّف إلى ذلك الرجل الغامض يوم جمع التبرّعات لبناء المدرسة التي كانت تكلفة بنائها تُقدَّر بحوالَي مائة وعشرة آلاف جنيه، ولم يكن وزير الخزانة السير آرثر بلفور يستطيع توفيرها، أخبرها والدها بأن هذا الرجل قد تبرّع ببناء هذه المدرسة قائلاً: "تخيلي معي يا سيري! لقد تبرّع بمائة ألف جنيه... مائة ألف من الجنيهات نقداً، يا له من رجل كريم".

18
في الخرطوم

بعد فترة إقامة تجاوزت الثلاثة أشهر في مقر إقامتها، جوار الدبلوماسيين رفيعي المستوى وبناية "الفرنسي" ذات الطوابق الأربعة وهي الأكبر في البلاد؛ حيث كان أغلب قاطنيها من الأوروبيين القُدامى الأمر الذي ساهم في تخليق روح أخرى للفتاة الوافدة، أصبحتْ سيري من رموز المجتمع ومحطّ الأنظار ومن لم يرَها سمع باسمها. في نيسان أقام لها أفراد البعثات الأوروبية وقُدامى الإداريين وموظفي الحكومة البريطانية حفل استقبال رائع -رغم تأخره-وهو سلوك مُتبع هنا كما أخبروها. كان أول حفل بعد الأحزان والمشاق التي تكبّدها الكثيرون في السفر إلى لندن والعودة بعد وفاة الملكة ڤيكتوريا. في تلك الأيام كانت الخرطوم تنتعش شيئاً فشيئاً وتزدهي أمسياتها بالعروض الموسيقية والحفلات الراقصة، وتمتلئ المشارب والحانات مبكراً، ويتجمهر الناس أمام المراقص وأماكن الرفاهية الليلية. امتدت إلى هنا ظاهرة رواد أحاديث الصالونات الليلية وحفلات الكوكتيل التي تتخللها أخبار البلاد ويتحول جزء منها إلى ريف إنكليزي مصغر. وبينما يُمَنِّي جميع الشبَّان أنفسهم برؤية سيري لكثرة ما سمعوا عنها أخيراً، هي التي لم تكتفِ الشائعات منها، أصبح اسمها مرتبطاً بجو أسطوري بالغ الدقة كتحطيم قطعة بندق دون كسارة؛ أمر يحتاج إلى مهارة نادرة. ومنذ اللحظة الأولى التي زارت فيها خيال أحدهم لم يتوقف الأمر، وصار كل واحد من أولئك الضباط يرى أنه الأحق والأجدر بصحبتها، ينافسهم في ذلك القناصل والسياسيّون ونوّابهم الذين في الغالب يعلمون جيداً كيف

تُعامَل امرأة بعيداً عن الوطن دون زوج أو حبيب! إضافة إلى مئات العشرات من الموظفين العاديين والقساوسة والأطباء والتُجّار وغيرهم ممن يعانون الوحدة الشديدة، والكبت الأكثر وحشيةً من حصار الخرطوم نفسها.

"ذلك الحصار والكبت الذي دفع بغردون إلى الظهور على حقيقته وانتظار مقتله الحتمي بعد الجرائم الجنسية التي كان يقترفها من وقت إلى آخر، خصوصاً بعد إغوائه بعض الغلمان الصغار الذين كان يشرف على تعليمهم وكان أغلبهم من الفقراء. وهو كمعجبه اللورد كتشنر، لا تبدو عليهما علامات الاهتمام بالجنس، وشأنهما في ذلك شأن العديد من الإداريين آنذاك، خصوصاً وأن اللورد كرومر كان لهم بالمرصاد؛ يتحين الفرص لإرسال تقاريره عنهم رغم إقامته في القاهرة البعيدة. كما كان رئيس الوزراء السابق جلادستون قبيل وفاته يعاني أشد الأمور سوءاً وهو الإحساس بأنه تباطأ في دعم غردون، ولازمه شعور بالأسى تجاه مقتله، وهو ذات الشعور الذي لازم غردون طوال الحصار. وبينما كان يخرج في إهاب الطبيب ليخبرهم بأن يأكلوا لحاء أشجار النخيل، أو يقوم جائعاً ويأمر جنوده بنبش باحات المنازل بحثاً عن حبوب. كان يسأل ربه أن يحمّله مسؤولية جميع ما ارتكب من جرم، ثم انتظر مقتله عارفاً أنه النتيجة الحتمية، راضياً بمصيره، يدفعه شعور خفي بأنه يستحق ما سيحدث، مؤكداً لنفسه: "كان من الأفضل لي أن أكون شاباً خصياً منذ الرابعة عشرة من عمري"[17]. لازمه شعور بالذنب ومقت النفس والدونية واحتقار الذات، وفضّل

17- Quoted mA. Nutting, Gordon: martyr and misfit (London, 1966), P.319.

مواجهة مصيره، وهو الذي كان يعتقد أن الموت نفسه لن يكفّر له ما اقترفت يداه في هذه البلاد".

وبينما تضطرب الهوية الجنسية لبعض الأوروبيين المكبوتين في الخرطوم، والذين يبحثون عن رفقة خيال مريض لامرأة بيضاء كمن يبحثون عن بعض البطاطا في حقل الباذنجان! لا يمكن أن يجدوها بتاتاً؛ كان البعض الآخر يجد في مومسات حبشيات أو مصريات أو سودانيات مآربه، بالطبع بعد مساعدة كبيرة من الجن وأنواع الشراب الأخرى. ظهرت فجأة وسط كل ذلك سيري، بجمالها اللاهب المثير وشعرها الأشقر الناعم، وحيويتها الدائمة كأصوات صافرات القطارات وذكائها المتقد كمفتش البوليس السري، وفوق كل ذلك حداثة سنّها والأنوثة التي أفسدت القناعة التي كان يحظى بها كل أولئك المساكين تجاه النساء من حولهم.

في طيّات تلك الحفلات الراتبة يتم توجيه الزائر الجديد وتقديم الوعظ وتعريفه بتفاصيل البلاد وطبيعة أهلها وميولهم، وعلى ما يبدو لم تكن سيري وحدها محطّ الاهتمام في حفلها لكنهم كانوا لا يرون غيرها، برغم أن هناك بعض المدرّسات الجديدات اللائي يتبعن لإحدى الإرساليات الكاثوليكية وبعض الممرضات وزوجتَيْ طبيبين لم تعودا إلى لندن لأكثر من خمسة أعوام، وكانتا دميمتي الشكل تكسوهما لمحة من الرجولة كأنهما محاربتين في حرب القرم. بخلافهنّ كان هناك القنصل النمساوي، وبعض الدبلوماسيين، والأب جورجي موريتي، ورجال أعمال فرنسيون، وتجار أقمشة هنود، ومغامرون أمريكيون، وصائدو ثروات من أقاصي العالم، في "غوردون ميوزك هول" اجتمعت أوروبا كلّها وبعض المصريين واليونانيين وقِلّة من السودانيين الأفندية بطرابيشهم الحمراء القانية

ولونهم الأسمر البلحي. وفيها اعتمرت سيري قبعة ڤيكتورية ينتصب أعلاها طاؤوس خجول وأحد فساتين الدانتيلا الموشاة بخيوط الحرير، كان الجميع يرتدون الملابس الرسمية. ارتفع صوت أنخاب المسرّة وفرقعات الكؤوس والضجيج المعتاد في تلك الأماكن. وسط تلك الأجواء الاحتفالية كان هناك رجلٌ في منتصف العمر، حوالي خمسين عاماً أو أقل قليلاً، جلس في أحد الأركان يدخن ويرتشف الإسكوتش، ببدلة بنية من الصوف رغم حرارة المكان والطقس في ذلك اليوم، يرافقه اثنان من الوجوه الجديدة فضَّلا الملابس الخفيفة فكانا كأنهما في جولة رياضية صباحية في حديقة المديرية. وبينما لم تلاحظ سيري ذلك الرجل فإنه هو أيضاً لم يلاحظها، لكن عطرها القويّ كان جاثماً في خياشيمه كرائحة مخزن قديم للنشادر، وقد كان كسولاً إلى درجة أنه لم يقدّم نفسه إلى أحد ولم يهتم بمن يقدمون أنفسهم إليه. وخلال بضع دقائق كان جميع الحاضرين قد نسوه تماماً وتجاهلوه كأنه صوت شخير مزعج لرجلٍ يأخذ قيلولة متأخرة. أزعج نفسه كثيراً بساعة جيبه الذهبية، ينظر إليها كل خمس دقائق، كأنما هناك موعدٌ ضلّته العقارب التي لا تعرف التوقف.

يرتفع صوت سيري مرة بعد مرة، بضحكة مشرقة كشمس آذار وأسنان كثريا القاعة الملكية. يتحلق حولها المحتفلون ضحكاً بقصد أو بدونه، واللطافة والمرح هما حليفاها الدائمان ومع الجميع، تعرّفت إلى عدد مقدر من الناس رحّبوا بها ترحيباً حارا وكلٌّ يخبرها بتفاصيل خاصة أو دعوة، "عليكِ بمتجر ميريزا الهندي إن نويتِ شراء زيت البعوض"، "حسناً يا حلوتي! إن أفضل أنواع الجبن هي تلك التي يخفيها تادرس اليوناني في مؤخرة محله"، "أيتها الصغيرة الجميلة! إنني أدعوك إلى رحلة صيد جنوب الخرطوم وراء شجرة غردون"، "إذن

سأخبرك سراً ما دمتِ حديثة العهد بهذه البلاد، لا تذهبي وحدكِ إلى سوق الشمس ويمكنني أن أدعوك إلى شراب مميز في حانة شناكا اليهودي في الجوار، بضعة شوارع فقط في شارع السردار". وبينما تبتسم هنا أو تومئ برأسها، غير مدركة ما تورط فيه نفسها من وعود بالنسبة إلى رجال وحيدين أفقرهم السهر وأرهقتهم إعادة قراءة نفس الكتب والروايات، يسألها أحدهم: "كيف الحال في لندن؟ وهل صحيح أن التايمز قد تلوث؟"، "آه تذكرت! مـ مـ ماذا يقول الناس عن الملك الجديد؟ هل خرج؟ هل شاهدتِ خطبة العرش؟". تضحك في سرها، إذ يبدو أن الكثيرين يعتقدون أنها حضرت بالأمس القريب. "ما هي آخر عروض الأوبرا والمسرحيات؟"، "هل أحضرتِ معك رواية جديدة أو كتابًا؟". وهكذا الحال ونوعية الأسئلة الديناميكية التي تواجه كل الوجوه الجديدة على الخرطوم في ذلك الزمان، كلٌّ يحاول أن يحتك بها أدنى احتكاك. كم كانت مستغربة في هؤلاء الأوروبيّين وهي تفترض أن أغلبهم نموذج مثالي للنبل والأخلاق الرسمية، لكنها هنا رأت أشكالاً لم يرأف بها البؤس، واشتمّت روائحَ عرفت لاحقاً أنها من أعشاب أو زيوت معينة مثل زيت السمسم قوي الرائحة وكان يستخدم لإبعاد البعوض، ولم ترَ فيهم جميعاً رجلاً وسيماً واحداً يليق بمرافقتها أو يحرّضها على قبول دعوته. ثملتْ وترنّحت وأعلنت عن نخب جديد: "نخب المستعمرة الجميلة وأُناسها اللطفاء". تعالت الصيحات وصفّر أحد الفرنسيين وغمزها. وفي لحظة نشوة فاترة وقعت عيناها على الرجل الجالس بعيداً في الكرسي الهزاز، يدخن غليونه وحيداً، ببدلته الصوفية البنية، وساعة جيبه الذهبية اللامعة، وعلامته الأبرز "شارب السنجاب البري" وقالت في سرها: "أخيراً هناك من لا يهتم بي، إذن أنا لم أسكر

بعد!". بعدها خرجت مباشرة، راجلة مع بعض جيرانها الجدد، مروا في الشوارع الخالية، تلفحهم نسمة نيلية جعلتها تصرخ منتشية: "لقد أحببت هذه البلاد فعلاً، ويبدو أنها أحبّتني". في شارع ونجت شاهدت بعض الشوام وهم يدخنون النارجيلة ويغني أحدهم عبر قيثارة مكوّرة، ثم مرّوا بحانة لورد بايرن، وأدركها السؤال وهي ترى بعض السودانيين بلبسهم الأبيض يخرجون دفعة واحدة: "ماذا يفعلون في الداخل؟" لقد كانت تعلم أن الشراب محرّمٌ عليهم، كانوا ينظرون إليها في وجل وإعجاب جمّ، أحبّت نظرتهم إليها بتلك الطريقة، أحبّت منظرهم وأعينهم تكاد تسقط من شدة التحديق فيها، أحبّت شكل تفاعلهم وأقرّتْ بأنهم راغبون فيها، كما رغب فيها كل من قابلها في هذا البلد، لربما السيدتان القبيحتان أيضاً.

اعترض والدها كثيراً على سلوكها في الآونة الأخيرة وهدّدها بإرجاعها إلى الوطن، لكنها دائماً ما هدّدته أيضاً بالهرب، وهو يعلم جيداً مدى جديتها في ما تقوله، لذلك كان يكتفي بالوعظ. عندما سمح لها بمرافقته في هذه الرحلة ساوره إحساس خفيّ بأنها ستعي خلال معيشتها هنا العيش الرغيد الذي كانت تنعم به في لندن مما سينعكس إيجاباً على سلوكها، لكن ذلك لن يحدث مطلقاً.

أحبت سيري غرفتها التي تطلّ على النهر الهادر، تتمشى بمحاذاته كل صباح حتى شارع نيوبلد، تمرّ بحديقة المديرية وتقف طويلاً أمام تمثال جورج غوردون البرونزي وتتأمّله وهو يركب ذلك الجمل، تتأمّل نظرته إلى الناحية الغربية وحارت كيف له أن لا ينظر إلى السرايا الضخمة التي أمامه! في طريقها تشاهد المتاجر بزجاجها النظيف وفرنداتها الواسعة ذات الطراز العثماني الذي أعجبها وهي تستلهم منه بعض تصاميمها الجديدة، تقف هنا أو هناك لتقرأ الإعلانات المطبوعة

أو التوجيهات، لم يصبها الملل أبداً مع كل أولئك المعجبين والمحبّين والدعوات التي لا تنتهي في النادي الإنكليزي أو الحي البريطاني أو المكاتب الإدارية، وفي بعض الأحيان كانت تزور والدها أثناء قضاء أعماله في مكاتب الحكومة أو في موقع البناء.

أتتها رسالة عبر البريد من إيميلي، قرأتها دون اهتمام كأنها شخبطة في جدران أحد الحمامات العامة:

"إلى سيري توماس برناردو

4 تشرين الأول 1901

أشعرُ بأن لعنة القديس أوغستين تُلاحقني، لدينا في منزلنا موقد وخشب للتدفئة هذا الشتاء، ولن نضطرّ إلى إطعام المدفأة بالكتاب المقدس كما حدث في العام الماضي. هل تعلمين يا سيري أنني قد اقترفت ذنباً كبيراً تلك الليلة؟ اغفري لي يا صديقتي، وليغفر لي الربّ ما ارتكبت من خطايا. كنتُ سأندم أشدّ الندم إن متُّ ولم أخبرك بأن موم فعلها معي. بعد أن وجدنا فراشكِ خالياً في الصباح بحثنا عنك، في النهاية عرفنا من موظف المحطة أنكِ قد غادرت. تلك الليلة لم أفلح في أن أصون صداقتنا فقد شربت، آآآه يا سيري! كم صعبٌ عليَّ أن أخبرك بهذا بعد أن قطعتُ لكِ عهداً بأن لا أذكر الماضي، لكنني لا أستطيع! لقد تغيرتُ كثيراً منذ أن ابتعدتِ عني وأجدُ لك الأعذار دائماً، أصبحتُ أعمل في الدير وبإخلاص أترنم وأعزف مع الجوقة الأناشيد وأصلي لي ولك، كما أن أبي طردني من البيت وهدّدته بالانتحار لكنه لم يتراجع، أخبرته بأني نادمة لأني لم أدسّ له السم ذات يوم. لكنه أخيراً وافق على عودتي شريطة أمر واحد فقط، أن أبتعد عن "آتلي" ولا أفكر في الزواج منه، وقد وافقت، ليس لأن أبي كان مصيباً أو في موضع قوة، لا بل لأن آتلي قرر الذهاب إلى الحرب من جديد،

وهو مثلك قد يكون الآن مع الجيش في أفريقيا، لست أدري أين هو الآن لكنني أعلم أنه في الجنوب، فقد كان دائماً يفضل السفر جنوباً.

أخبريني كيف حالك؟ سمعت أنكِ في بلادٍ رائعة. أخبرني القس بذلك فقد كان هناك، كما أخبرني بأن لديكم نهراً بالغ الجمال، وأن أهل تلك البلاد لا يذهبون إلى الكنيسة ولا يأكلون لحم الخنزير وأن كل ما يفعلونه هو التحديق! ضحكتُ كثيراً عندما سمعت ذلك، وتساءلت كيف طاب لكِ أن تقضي كل هذا الوقت. وماذا تفعلين؟ هل يا ترى ما زلتِ مغرمة بفتاكِ الوسيم؟ يجب عليكِ أن تعشقي رجالاً بحقّ وليس أولئك الكتّاب والشعراء الذين يثيرون اهتمامكِ دائماً. اعترفي بذلك؛ لقد كنتُ محقة عندما حذّرتك منه. لا تحزني فهو لا يستحق حزنك عليه، فقد كان ملعوناً كما تعلمين يمارس الجنس مع الصبيان ويستمتع بما يفعله به الرجال، لا أستطيع أن أتخيّل كيف تواجه زوجته وأطفاله تلك الفضائح! يا لهم من مساكين! يا للعار كيف سيخرجون إلى الشارع؟ ليتكِ تعلمين كم أفتقدكِ. متى تعودين؟ هل تغفرين لي؟ أرجو ذلك.

لا تنسي أن تراسليني، وأن تحكي لي، جميعنا نسأل عنك وننظر عودتك. نسيتُ أن أُخبركِ بأنني قابلت موم بالصدفة في الأسبوع الماضي في نفس المكان الذي كنا نقف فيه يوم افتتاح جسر البرج. كان معه ذلك الفتى الثري "تشرشل" أتذكرينه؟ ذلك الشاب الجادّ، لقد أصبح ضابطاً في سلاح الفرسان، وأخبرني بأنه سافر إلى كوبا والهند وأمريكا وأماكن أخرى. لم يتخل عن حبّه للكتابة. أخبرني بأنه يعمل مراسلاً حربياً وكان عندك في السودان. كان ينشر أخبار الحرب عندكم في صحيفة "مورنينغ بوست" وتمكّن من تأليف كتاب ضخم يتحدث عن بطولاتنا هناك سَمّاه "حرب النهر". أُعجبت به وبثقته في

نفسه. لا أعرف لماذا يريد الجميع في هذه الأيام أن يؤلف الكتب؟ أخبرني تشرشل بأنه ربما يذهب إلى السودان في مهمة سرية قريباً. سأرسل إليكِ هدية صغيرة معه.

أخيراً: أتمنى أن تغفري لي يا سيري.

"لا تنسي مراسلتي"

مع حبي وأشواقي

مخلصتكِ" إيميلي نورثمب"

كرفستها ورمتها إلى البحر مباشرة ثم عادت لتستمتع بالصيد من جديد في تلك الظهيرة الساخنة، تجلس في ظل شجرة جميز ضخمة تقرأ ذلك الكتاب الذي أهداهُ إياها موم منذ زمن في أحد أعياد ميلادها، وبينما تغمز صنارتها تتملّكها ذكريات موم وإيميلي، وتقارن حالها الآن، يمرُّ أمامها الصيادون في قوارب صغيرة، يختلسون النظر إلى ما بين فخذيها العاريين، وصوت لعنات بلغة أصبحت مألوفة لديها يتمتم من بعيد. من في الخرطوم كان لا يلتفت لمنظر فخذيها ومؤخرتها المستديرة كتفاحة حمراء ناضجة!؟ من كان ينكر بأن خيالها فقط يستطيع أن يحشو ذلك المسدس الصغير أسفل ملابسهم ويجذب زناده جاعلاً منه آلة متنعظة شديدة الفتك في تجربة حِمارية كانت محيرة؟! ما تفعله سيري في نفوس الرجال أمرٌ عصيٌّ على الفهم وسرٌّ مبهمٌ غير قابل للشرح. ويوماً بعد يوم كانت تنصّب نفسها ملكة، لا بل إمبراطورة للجمال بلا منازع. وأخيراً تمكن المجتمع الفيكتوري البعيد من اصطيادها بالشائعات التي لم يكن من السهل معرفة مصدرها أو حقيقتها، فتارة تدور الأقاويل بأنها شُوهدت تدخل مبنى السرايا من

المدخل الجانبي في وقت متأخر من الليل يحرسها جندي مسلّح، وتارةً أخرى تلمِّح إلى أن أحد الدبلوماسيين يأخذها في جولة نيلية على متن قارب كبير، وكثيراً ما تداول حسادها أنها شبقة أوقعت أحد التجار الترك في براثن حبّها فذهبت معه بعد أن أغوته إلى أحد الأديرة تحت التشييد ونامت معه. الجميع يتحدثون راغبين في حدوث شيء لم يحدث، ورغبة في إحداث شيء ظنوه صعباً، وأحياناً رغبةً في تحقّق كل ذلك، مما يعني أن لديهم فرصة ولو ضئيلة في أن يحظوا بتدليلها، وأن ينالوا منها بعض الفتات البائد، وطوال شهور طويلة كان لا بدّ أن يقع تحت تأثير فينوس جميع الرجال.

ذات يوم سهل الوصف؛ كونه أغبرَ ذا سماء مُحمّلة بالأتربة، والرياح تتقاذف القبعات وأوراق الصحف، والكآبة تلتف حول الشمس التي احترقت خلف ذرات الرمل، وسيري تحمل مظلتها البيضاء ومروحتها الفيكتورية المنقوشة بالرسوم الصينية، فاجأها "الهبوب" فدلفت إلى أحد المحال التجارية مذعورة، لكن رائحة السمك المتعفن أزعجتها كضحكات اليوناني الخبيثة ونظرته الشهوانيه مكشراً عن أسنان متسخة مختلطة ببقايا تبغ أسود. الناس يجرون ليحتموا من العاصفة التي لا يتنبأ بنتائجها أحد، ودون قصد وجدت نفسها في ممر طويل في شارع اللورد كرومر، وفي اللحظة التي أظلمت فيها السماء وعمّت ظلمة حالكة جرت دون هدى وهي تلتمس الطريق بيدها والهواء يشدّ مظلتها في الاتجاه المعاكس، ترتفع تنورتها وتتعالى أصوات الجري من حولها في كل مكان، صرخت بشدة طالبةً النجدة لكن صوتها ضاع في الزحام، واستمرت تجري وتتخبط. لاحقاً بعد اعتدال الطقس ستجد نفسها جوار أحد المساجد، ولم تتمكن من التفاهم مع أحد، وكلما نظر إليها أحدهم أصابته نوبة ضحك شديدة،

في النهاية أتى أحد رجال البوليس وأخذها إلى البيت وكان والدها مع رئيس الشرطة استعداداً للبحث عنها، بعض جيرانها من سكان عمارة الفرنسي كانوا ينتظرونها في الحديقة ولمّا رأوها كاد الضحك أن يقضي عليهم؛ فقد حوّلتها العاصفة إلى وحش رملي صغير بلون بطن الكلب الريفي. بعد ذلك اليوم قررت أن رحلتها قد انتهت وتوجبت عليها العودة إلى لندن. لكن ذلك لن يحدث سريعاً لأنها ستنشغل بتصميم ديكورات شركة حديثة، وهو الأمر الذي سيترك في نفسها أملاً كبيراً. توازنت خلال تلك الفترة، واكتشفتْ متعة جديدة وهي العمل. كانت في غاية السعادة بما تفعله، ولم يبخل عليها صاحب العمل الكهل بالمال، وأولاها كل ثقته سعيداً بما صنعته له، ثم كافأها بسخاء. تذكرت إيميلي وأن تكتب لها محاولة تجاوُزَ الماضي:

(يؤسفني حقاً ما حدث لكِ، وما حدث مع "آتلي" أيضاً. إن أفريقيا جدّ كبيرة وليست كما تتوقّعين، وهي أكبر من تلك الخريطة التي كنا ننظر إليها. أنا في مكان رائع، لكن الجو حار وخانق فقد امتلأ وجهي وصدري بالبثور وعاد الكلف من جديد، كما أن هناك ذبابة صغيرة إن لدغتك تصِبْك حمى تقتلك فوراً ولا علاج لها، لكننا نأخذ حيطتنا جيداً، لا تقلقي عليَّ. السودانيون المتعلمون لطفاء المعشر وليس كما كنت أتصور، أيضاً هناك الأفظاظ المرعبون ولا أستبعد أن يكونوا وحوشاً، دينهم يحرّم عليهم كل شيء، لديهم لحم الغنم وهو أطيب من الخنزير، الخمر أيضاً حرام عندهم لكنهم يشربونه ويحبون النبيذ ويتلذذون بطعمه. هل تعلمين كيف يقدحونه في بطونهم؟ إنهم يشربونه كالماء بسرعة! كل النساء البيضاوات يعجبنهم لكنهم يفضلون النساء الممتلئات الأفخاذ والمؤخرات، رغم أن بعض البريطانيات هنا يتخذن منهم عشاقاً خفيين ويقلن إنّهم رائعون في الفراش ولا يتعبون أبداً. يفعلونها مرة تلو الأخرى هاهاهه لن أخبركِ المزيد.

ذلك الحقير موم! يا له من كلب متسخ وأعرج، كل همه أن ينام ويكتب ويخون حبي له مع أخريات قبيحات المنظر كأمه الجرباء، أنا لا أذكره، دعينا منه. لقد عثرت على رجل لطيف أحبّني من أول وهلة وصار رهن إشارتي وأناديه بـ "سنجابي" لأن له شارباً كبيراً يذكرني بالسنجاب دائماً، عرض عليَّ الزواج. لا أعلم ما سأفعل. أنا أحتاج إليك يا صديقتي، لكنني لن أغفر لك أبداً.

أحاول أن أعمل في ترتيب الديكور والألوان هنا، ولديّ بعض العملاء الجيدين من الأوروبيين.

يا ترى كيف تبدين داخل ملابس الراهبات؟

سيري برناردو

وضعت القلم. شعرت بأنها كاذبة لا تقوى على أن تعبّر بحقيقة موقفها أو شعورها، لن تقوى على إخبار صديقتها الأقرب بأنها لا تريدها في حياتها من جديد. ثم مزّقت الورقة وأحرقتها. ولن تراسلها أبداً بعد ذلك. الآن تريد حياة جديدة، ولا يهمّها أمرها. يكفيها ما تحتفظ به من ذكريات صداقتهما الطيبة، لن يهمّها موم أو ما حدث، فما شاهدته في الغرفة العلوية تلك الليلة لا يزال حدثاً منفّراً مثيراً للاشمئزاز. بل أكثر رعباً من أن يخونها موم مع صديقتها الأقرب.

انتهى والدها من أعماله هناك وقررا العودة من جديد فقد طال الغياب، وطوال ذلك الوقت لم تكن تعلم أنها أصبحت تعيش في قلب أعنف الرجال حباً، وأنها ملأت حياة كاملة لرجل أرادها بشدة... كي تكون زوجته.

(4)

سَيِّدُ الدُّمَى

"وعرفتُ أنني قُتِلت..

بحثوا عن جُثّتي في المقاهي والمدافن والكنائس

فتحوا البراميل والخزائن

سرقوا ثلاثَ جثثٍ

ونزعوا أسنانها الذهبيّة

لكنهم لم يجدوني قَطّ".

لوركا

19

قصر خليج كارديف

مرّت السنوات، وآلت الإمبراطورية الصناعية الضخمة بكلّ هدوء إلى الرجل القوي "هنري سولومون وِيلْكَم" بعد أن تمّت التسوية مع "أوليف" بسهولة ورضى. انضمّ جيلٌ جديدٌ من الباحثين والكيميائيين والأطباء والصيدلانيين إلى شركة وِلْكَم الذي وضع البحث العلمي على رأس اهتماماته. تعدّدت المنتجات كثيراً وعمّتْ أرجاء وأسواقاً أكبر. وخلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، بعد أن أعاد هيكلة الشركة وضبط العمل الذي استغرق منه حوالَي عامين، تفرغ وِلْكَم لأشياء خاصة وسريّة، بعيداً عن لندن الكبرى وأعيُن الصحف والمحققين والمنافسين والأحقاد.

اختفى في مكانٍ ناءٍ وغامض لا يمرُّ به إنسان ولا حتى شبح؛ قصر قديم يعود إلى كاهن نورماندي مُريب بناه في مُقاطعة ويلز؛ جوار خليج كارديف. يطلُّ القصر على مرفأ لم يعد مستخدماً منذ مائتي عام على الأقل ويتحوَّل بعض الأحيان إلى حوض لصيانة سفن الصيد. خلف القصر توجد غابة من أشجار الصنوبر والطقسوس والأكاسيا، وتحجبه عن العيون حديقة كبيرة وأسوار عالية وصخور ضخمة. هناك، داخل البلاط ذي الستائر السميكة المُسدلة على الدوام والموشّاة بخيوط الذهب، وُزِّعَتْ الشمعدانات الفضية بعناية كل بضع أقدام، بعضها على هيئة امرأة عارية، والبعض الآخر على شكل قنديل روماني. تتدلى الثريّات العملاقة المليئة بالبلور والكريستال وقطع الزجاج الملونة المزوّدة بعِصِيّ ضخمة لحمل الشموع، تتقد واحدةً تلو الأخرى ولا يختفي الضوء أبداً؛ ليعكس الذوق الرفيع لمحتويات

المنزل من أثاث منقوش ومفروشات مطروزة ومُذَهَّبة على الطراز الروماني والڤيكتوري. سجّاد أغبر ولوحات نادرة وجداريات غريبة وأسطح مناضد قبع أسفلها حمّالون من خشب الساج ومقاعد وثيرة مليئة برائحة الزمن رغم تماسكها وهيبة الجلوس عليها. تماسَك في أحد الأطراف بيانو كبير مصقول إلى درجة أنه يعكس أقلّ ضوء، كما عُلِّقت كثيرٌ من المخطوطات على الجدران العالية، وعكست مرايا الأسقف كلَّ ما يقع تحتها؛ مما يجعل المكان كأنه مسرحٌ مفتوح الزوايا.

كان البهو واسعاً دائرياً مزداناً بلوحة "Troy" لفريدريك بوريك، اللوحة التي تُصوِّر يوم ولادة تروي البطل. جندي قوي يحمل شيخاً كبيراً عارياً، الشيخ يمسك بقطعة برونزية على شكل شيطان، بينما تهرع فتاة بشعر كستنائي، ويغلق طفل بائس أذنيه بيديه الاثنتين. إلا أنني لاحظتُ تفصيلاً مهماً عندما دعاني وِلْكَم لزيارته أول مرة، فما إنْ دخلتُ ووقعَتْ عيناي على اللوحة حتى لاحظتُ التشابه الكبير بين مدخل القصر في اللوحة ومدخل قصر كارديڤ الذي تحيط به أعمدة قوية، وخُيِّل إليّ أن ذلك التصوير هو لنفس هذا المكان، أو شيء من هذا القبيل! لكن الخوف غير المبرّر الذي أصابتني به اللوحة لم يكن كافياً لصَدِّي فواصلتُ التأمّل.

هناك تمثالان من الرخام الأبيض، جوار السلّم الذي يؤدي إلى الدَّور العلوي، كانا يمثلان شكلاً واحداً رغم تفرُّد كلٍّ منهما بخصوصية معيّنة، فكأنهما كانا يعنيان شيئاً خاصاً يكتمل باقترانهما معاً. التمثال الأول مجسَّم لرجل رشيق القوام ذي طول فارع وأنامل رقيقة رغم عضلاته البارزة القوية وظهره الناتئ وصدره المكتنز بالقوة، يسترسل شعره ويستبيح كتفيه، وبدا كأنّ في عينيه حوَلاً ما؛ فقد كانت إحداها تنظر إلى التمثال الآخر والأُخرى تراها من جميع

الاتجاهات، حتى وإن وقفتَ في زاوية التمثال الآخر وجدتَ أن ذلك الحَوَل قد استقام، دون أن تجد لذلك تفسيراً. وكان الشابّ الأبيض الفاتن منحنياً قليلاً من أعلى صدره وهو يحمل في يدِهِ المبسوطة إلى نهايتها زاويةً نحاسية لامعة كتلك التي يستخدمها النجّار، وبدت مستقيمة تماماً كأنها من فعل مهندس وليست عملا فنياً، وباطن يدِهِ الأخرى موجّهٌ إلى الخلف ناحية التمثال الآخر وفي داخلها نقشٌ غريبٌ بارزٌ لِعَين آدمية تحيط بها كثيرٌ من الخيوط المذهبة المستقيمة التي تشكل مثلثاً متساوي الأضلاع. كل ذلك داخل دائرة يبدو أنها ترمز إلى الشمس بأشعتها الذهبية. وفي انحناءة الشاب الأبيض يظهر رداءٌ يلتفّ حول خصره، مما يجعل منه إمبراطوراً أو محارباً من عصر آخر، تبرز من خلال الرداء عظْمَة الفخذ على نحوٍ طبيعيّ وتنحني الساق باستقامة، كأنما أراد النحّات أن يصنع من انحناءة قَدَمه مربّعاً غير مكتمل، وهو وضع يَصعُب على الآدميّ تقليده وقوفاً كما في التمثال. أمّا التمثال الآخر فقد كان جاثياً على الأرض مكوِّناً شكلاً هندسياً معيّناً، ويحني وجهه فلا يكون منظوراً إلا من الأسفل، وكان شاباً فتياً كرصيفه الآخر. يحمل في يده صولجاناً ويرتدي قبعة غريبة الشكل وعلى يده اليمنى فرجارٌ نحاسيٌّ، وكان عارياً تماماً، ودون عضو الرجولة، بينما نما شعر عانته كثيفاً وبدا كأنه يسترق النظر إلى كفّ التمثال الآخر، إلى العين تحديداً، لأنّ التواء رقبته لم يكن منطقياً ولا ملائماً للطريقة التي وُضِع بها التمثالان. رغم أن لكلٍّ منهما حكايته إلا أنهما كانا يشكّلان شيئاً ما معاً. فكرتُ فيهما كثيراً وأخبرت وِلْكَم بأننا في مكان غير اعتيادي إطلاقاً. أخبرته بأنني خائفٌ. كنتُ أعرف الكثير عن أمثال هذه القصور النائية، جميع ما سمعتُه عنها كان مرعباً.

كنتُ مُتلهّفاً لأفهم؛ ماذا يفعل رجل مثله في هذا المكان المثير للتساؤلات؟ كان القصر الكبير خالياً تقريباً إلا من بضعة أشخاص:

"كيت"؛ مُدَبِّرة المنزل البكماء التي تحمل عينَيْ قطة برِّيّة، وهي تقيم في غرفة خارجية. "فيلكس" الذي لقّبتُه بعود الثقاب؛ رجل أعمى طويل القامة ذو رأس أصلع أكثر قتامةً من لون بقية جسده، وهو الرجل العالِم بممرّات القصر ودهاليزه وأبوابه السرية وكل خفاياه، يُقِيم في غرفة قصية جوار باب العمال الخلفي. "دانيال"؛ الطباخ العجوز الذي يشكو من النقرس طوال الوقت ويقيم في غرفة خارجية جوار كيت. "جون"؛ حارس البوابة الخارجية العنيد والمصاب بجنون الارتياب ويجلس طوال الوقت مترصّداً ومتحفزاً في كامل استعداده للغرباء أو المتطفلين. "ستيف" و"مالون"؛ خادمان يقيمان في كوخ خشبيّ خارجيّ ولا يدخلان القصر إلّا عند الطلب، ويقضيان الوقت في لعب الورق والتدخين ورعاية الحديقة وبعض الأعمال الأخرى، وهما في نهاية العقد الثاني من عمرهما، متشابهان كأنهما توأمان، في عيونهما بؤس وحزن مبهم. أمّا الشخص الأخير فقد كان رجلاً قزماً، خفيف الحركة وممتلئ الجسم بشكل غير متكافئ، يحبّ التعطر والاهتمام بمظهره، يوحي وجهه بالبراءة والرِّقّة إلى درجة البلاهة، يتحدث الويلزية بطريقة الرُّعاة ويظهر عليه التكلُّف الباهظ، لم أحبّه قطّ، فيه شيء غامض، كاسمه الذي يُنادى به؛ "بختيشوع".

لاحظت أن وِلْكَم لا يتخاطب مباشرة إلا مع فيلكس الذي ينصت إليه جيداً ثم يذهب دون أن يُخطئ طريقه. كم كنت حائراً في الآلية التي يتعامل بها رجل أعمى مع سيدة بكماء؟! وفيلكس هو الشخص الوحيد المسموح له بالاقتراب من الطابق الأول حيث يقيم وِلْكَم، أو من الطابق الأسفل للبناء حيث تهالكتْ الحوائط ونخَرها الماء والإهمال وسادتْها رائحة العطن، وهو من يحضر إليه فطوره وشرابه واحتياجاته كلها. لكن عندما يجلس وِلْكَم في البهو فإنه يكون متاحاً للجميع برغم قِلّة حديثه.

يوم وصلتُ إلى خليج كارديف كان الجوّ صحواً يبعث النشاط في كل مكان، نهاية شباط حسبما أتذكر. ركبت عربتي وطلبت من الحوذي أن يمضي بي وسط البراري اليانعة الخضراء. وبينما تتفتّح زهرة جينسنغ جميلة، ويغرّد طائرٌ في مكان ما من حولي، كنتُ أفكر في وِلْكَم، وأسأل نفسي: "ماذا يريد مني في هذا التوقيت بالذات؟" وهو منقطعٌ في ذلك المكان منذ عدةْ أشهر، لم يخبر أحداً بمكانه، فهو الرجل الكبير كما تعلمون ولا أحد يستطيع أن يسأله عن سبب غيابه أو أين يمضي ويكون. في الحقيقة كنت أعلم أنه سيعود إلى لندن باقتراب عيد الفصح اليهودي، وسيحتفل معنا جميعاً في منتصف نيسان. كنا في انتظار العطلة؛ منذ موت سيلاس بوروز وتفرُّد وِلْكَم بإدارة الشركة لم نجد راحة، فقد تغيرت مواعيد العمل، والأجور بالطبع. ألغى الرواتب الشهرية وأبدلها بصرفيات أسبوعية تُحْسب بناءً على عدد ساعات العمل اليومية إلّا في بعض الحالات الاستثنائية، لكل ساعةٍ أجرٌ معين، ومن يعمل خلال الليل يتضاعف أجره. وكان نظامه الجديد مُحفزاً فعلاً ودفعنا إلى العمل بشكل مضاعف. وقد سَنّ حداً أدنى لساعات العمل خلال اليوم، ومن قلّ عمله عن حده الأدنى فقَدَ وظيفته وخُصِم منه ما يوازي أجر ساعتين لكل ساعة غياب. كنت الشخص الوحيد الذي يتلقى مبلغاً كبيراً بالمقارنة مع الآخرين رغم قلة حجم عملي. وصلَتْ بي العربة إلى الميناء التجاري، توقّفتْ وأسرع الحوذيّ يفكّ رباط الخيول لتأخذ راحتها فقد كانت رحلتها طويلة. تلقيت رسالة وِلْكَم في بريستول؛ حيث كنتُ أشرف على الترتيبات النهائية للشحنات الطبية المبعوثة إلى الأسطول الملكي الذي يحارب في أقاصي جنوب أفريقيا (حرب البوير الثانية 1899/ 1902م)، وكان للشركة مكتب هناك للشحن. كان ميناء بريستول مزدحماً فسارعتُ باختيار الرحلة الأسرع ومضيتُ أقطع جبال الماء إلى غولدكليف، ثم

انطلقتُ منها في سفينة أخرى إلى كارديف. عند وصولي استأجرت عربة بأربعة أحصنة قوية لا تشبع من أكل الشعير، ومع تنازل الشمس عن العالم وصلتُ إلى القصر الذي كان واضحاً لي وترجّلت بأمر من الحارس الذي لم يسمح للعربة بالدخول، مما اضطرّني بعد أن قدّمت إليه إذن الدخول إلى المشي راجلاً حواليَ فرسخ إلا قليلاً. وجدتُ الظلام قد حلَّ، لكن القصر، أو قل القلعة الحجرية، كانت ساحرة، وكلما اقتربت ازداد إعجابي بها وبطرازها الرفيع الذي لم أرَ له مثيلاً.

ظهر وِلْكَم في استقبالي، بملابسه كاملة كعادته، يرتدي قبعة بيضاء كبيرة، وبدا مزهوّاً بعزلته. جلسنا في إحدى الغرف الكثيرة خلف البهو؛ غرفة مكتب بمقعدين فقط يفصل بينهما مكتبٌ خالٍ من أي شيء حتى الغبار، وتدور حول الجدران مكتبة ضخمة. لاحظتُ أنه لم يضع يديه قطّ على سطح المكتب ولم يُرِحْهما على مسند المقعد، ظلّ عاقدهما وهو يتحدث معي في عدة موضوعات حول العمل، ثم طرَق أحدُهم الباب طرقتين متتابعتين فنهض وأعلمني بأن الأكل جاهز. سرنا في ممر طويل حتى وصلنا إلى غرفة مضاءة بأكثر من مئة شمعة كبيرة، بها طاولة طعام تزيد عن العشرين قدماً بقليل. جلسنا متقابلين ومتباعدين عن بعضنا البعض إلى درجة أنني لا أسمع صوت ضجّة طبقه ورنّة سكينه، تفصل بيننا المسافة والحيرة وحساء الخضار ولحم العجل. أخبرني بأنه وضع في هذه الغرفة كرسيين فقط كجميع أجزاء القصر. لا يوجد في مكان واحد أكثر من مقعدين، لأنه لا يحبّ أن يقاطعه أحدٌ بالحديث أثناء الأكل لذلك يجب أن يكون الآخر بعيداً، ثم لأن الحديث بين شخصين فقط يضمن الخصوصية، ولاحقاً إن تفشّتْ الأسرار وانفلتَ كتمانها عَرَفَ من أين خرجت. "الرجل الذي لا يملك أسراراً في حياته هو شخصٌ بائس بلا شك. ولا يوجد ما يحمل قيمة في حياته" هكذا أخبرني بعد أن أنهينا وجبتنا.

خرجنا لنتمشّى قليلاً في الحديقة الشاسعة، بينما أخذ يدخّن غليونه بتلذّذ. كنتُ متعباً لا أقوى على جرّ رِجليّ ولا أعلم أين أضعهما لكنّني لم أتمكن من الاعتذار عن مرافقته. كان في مزاج مناسبٍ للحكي وأخذ يخبرني بالعديد من الأشياء، في الحقيقة لم أكن أعلم حقّاً لماذا كان عليه فعلاً أن يخبرني بها، وأدركت أنه يدفن في ذاكرتي البسيطة العديد من الأمور التي أخافها أكثر من خوفي على نفسي. كنتُ أودُّ أن أصرخ في وجهه وأخبره بأنني لا أريد سماع ذلك لكنني لم أقوَ، لم أجرؤ، وسرحت بعيداً؛ كيف لم ألحظ داخل القصر أي شخص، أين اختفى الجميع؟ من ضمن ما أخبرني به هو حصوله على عدة مقتنيات هامة وضمّها إلى مجموعته؛ من ضمنها عصا تشارلز داروين شخصياً، وفرشاة أسنان نابليون بونابرت الذهبية، وكان يستخدم كلمة "حصلتُ" بدلاً عن "اشتريت" رغم أنني كنت أتابع بنفسي فواتير الأموال الضخمة التي ينفقها على مقتنياته الثمينة. بعد تمشية طويلة سمح لي بالانصراف للراحة، وأخبرني بأن فيلكس سيدُلّني على غرفتي. كنا قد التففنا حول المبنى من الخلف، فأشار إلى ناحية بوابة جانبية مدرجة غير مضاءة، وعندما نظرت وجدت الأعمى ينتظرني يحمل في يده مصباحاً. استأذنته وتمنيت له قضاء ليلة سعيدة وذهبت حائراً إلى مُرشدي الأعمى. كيف له أن يحمل مصباحاً لا يرى به شيئاً؟ ولدهشتي الشديدة وجدت تلك الناحية من القصر خالية تماماً من الأثاث واللوحات والتكلُّف. قادني الرجل ذو الخاتم اللامع والحذاء العالي إلى غرفة في الطابق الأول، واسعة نقية الهواء سقفها مرتفع، كان يمشي دون أن ينظر إلى الأسفل، وشككتُ بأنه فعلاً ضرير فقد كان لا يخطئ أبداً إلى درجة أنه أفلح بلا تردّد في تعليق المصباح على ذراع مخصوصة وأنا المُبْصر لم أكن لألحظها حتى. هكذا حاولت قضاء الليلة اليانعة الجميلة ذات النسائم البحرية ورائحة

الصنوبر القوية. لم أتحرك من سريري بعدما رقدت، لكن النوم لم يزرني أبداً تلك الليلة. قضيتها أفكر في ألف سؤال وسؤال، وصوت تلاطم الموج في جرف القصر البحري يفزعني، وتهبّ الريح بوشوشة الأشجار العالية فأتخيل أن حدثاً بشعاً سيحدث!

في الصباح خرجت أتمشّى قليلاً، ودُرت حول المكان لأستكشفه، لكن ذلك القزم الذي يصعب ذكر اسمه أتى باحثاً عني وأخبرني بأن السيِّد ينتظرني لنشرب الشاي معاً. وجدته جالساً بملابس سوداء فضفاضة وحول عنقِهِ ربطة حريرية راقيَة. جلسنا داخل ظِلّ شجرة سنديان، وكان وِلْكَم يحب أن يشاهد الشروق من تلك الناحية ويدخن غليونه. صبّت لي كيت الشاي ووضعتْ لي قطعة سكر دون أن تسألني وأضافت عوداً صغيراً ذا نكهة مميزة. لاحظت أنها جميلة للغاية في ذلك الصباح كأنها جزءٌ منه، بعض ملامحها شرقية ولونها كأنه شرابٌ صافٍ، عيناها مُتَوهِّجَتان بلون الغابة ولها ابتسامة جميلة كابتسامة طفلٍ نائم، شعرها معقوص بعناية فائقة. قدّرت أنها في الأربعين أو أقلّ بقليل، لكنها كانت تحمل قسوةً من نوعٍ ما، شعرتُ بذلك عندما مدت لي إبريق الشاي لتصبّ مزيداً، كان إبهامها يضغط بشدة على الإبريق رغم سخونته، يدها قوية مليئة بالزغب، ولا تنظر إلى أحد في عينيه أبداً، كما لا تنظر نحو الأرض، تُحرّك أصابع قدميها باستمرار كأنها تعزف بها على بيانو العشب، وخُيِّل إليّ أنها تسمع جيداً وتتكلّم. أخرجني وِلْكَم من ذهني عندما راح يخبرني بأنه اكتشف هنا شيئاً جديداً على البشرية، وأنه سيخبرني به في الوقت المناسب. أراد مني أن أظل معه لأسبوع ريثما يستعدّ للعودة إلى لندن، وقال لي بالحرف الواحد: "لن تملَّ أبداً يا عزيزي يوري، فأنا أقضي هنا أعظم أيام حياتي، وستعرف في الوقت المناسب لماذا علينا جميعاً أن نبتعد في بعض الأوقات".

أعتقِد أنه يعتبرني صديقاً مُقرّباً؛ فهو كما أعرف لم يكن لديه صديق غير سيلاس بوروز، لكن رغم علاقتي المتميزة معه لم أكن أشعر بذلك. تذكرت العديد من المواقف التي عاملني فيها بلطف وأولاني ثقته المطلقة وأغدق عليَّ من كل شيء دون حساب، تخيّلت حاله وفراغه الكبير بحثاً عن شخص يحدّثه ويحتفل معه بالنجاح، تذكّرت عندما أرسلْنا أول شحنة من علاج الملاريا إلى الهند والهدية التي قدّمها لي. رغم أن عملي معه كان بعيداً عن أي علاقة مباشرة بما يحدث في مبيعات الشركة، إلّا أنه خصني بتلك اللحظة، وكان ذلك كافياً ليجعلني أكرهُ نفسي قليلاً، إذ يبدو أنني لا أعير اهتمامه أو لطفه بالاً، كما أنني دائماً ما أفكر في العمل، ناسياً أنني مع ربّ العمل نفسه وليس عليّ أن أقلق إذ إنَّ وجودي هنا بأمر مباشر منه.

خرجنا في ذلك الصباح إلى البحيرة في قارب بمجداف، وذهب معنا ذلك القزم الذي أصبحتُ أمقته حقاً، كان مجدّفاً رائعاً لا يتحدّث، يعتبره وِلْكَم كائناً خفياً تماماً ويتجاهله. حاولنا الاصطياد والتشاغل بالحديث عن أمور مختلفة وسألني:

- "ما رأيك يا يوري في الشحنات التي نصدّرها إلى الهند الشرقية؟".
- "أنا لا أعرف بالضبط إن كانت ستحقق أرباحاً جيِّدة، لكنني أعلم كل العلم أنه ما من مواطن متحضّر ورأى علامتكم إلا واشترى منها".
- "أقصد أصناف الدواء ومستحضرات الوقاية من الأمراض؟".

أجبتُ متلعثماً:

- "أنت تعلم يا سيدي أنني رجل لا أمرض كثيراً. حسناً، في الحقيقة أنا أجهل تماماً كل تلك الأصناف!".

- "أوه يا يوري! لم أعرف أن شركتنا ترهقك كل هذا. هيا أخبرني إذن يا محاميَّ، ما هي الدعاوى الجديدة؟ أظهَر أحدُهم مقلّداً منتجاتي؟ أم يا ترى طالبَني أحدُهم بدفع تعويض لأن أقراصي المغلفة لم تشفه؟".
- "هي الأمور المعتادة، لا شيء جديد، لكن حجم تجارتنا مع المستعمرات في ارتفاع كبير، وكما أخبرتني فإن الجميع سعداء بمساندتك وخبراتك لحماية الجنود من الأمراض، لعل ذلك يساعدنا في القضاء على ما يصدّره التجار الأمريكان الذين يسعون إلى منافستنا بشتى الطرق".
- "لا، لا أحد يمكنه منافستنا، ما قُدِّر له أن يكون لا يمكن إيقافه، لقد خرجنا من السبطانة ولا مجال لأن نخطئ الهدف، كما لا مجال للعودة!".
- "ربما يمكننا تقديم خدماتنا إلى مزيد من المستعمرات الجديدة".
- "ماذا تقصد؟".
- "لقد انتصرت جيوش الرفيق كتشنر على حركات المقاومة وأخضع جنوب مصر بأكمله لسلطة الملكة. كان ذلك منذ عدة أشهر".
- "هل تقصد السودان؟".
- "نعم، لقد هرب الثوار الملاعين قتَلة الرفيق جورج غوردون".
- "إذن فعلها كتشنر...".

غمغم بصوت خفيت:

- "... كما وعَد".

ثم واصل حديثه:

- "بمجرد أن نعود أبلِغ قسم البحوث بأنّ عليهم دراسة تلك المنطقة وأمراضها ومناخها وأوبئتها لندرس ماذا يمكننا أن نقدمه لهم".

وهكذا مضى النهار؛ نتحدث كأننا نتعرّف على بعضنا البعض عبر أحداث الآخرين. لا أنكر أنني في إحدى اللحظات أُعجبت به وبطريقته اللطيفة في التعامل، لكن ذلك الجدار العازل كان لا يزال موجوداً رغم كافة الجهود لهدمه. عدنا مرهقَين دون أن نصطاد سمكةً واحدة، ووجدنا في انتظارنا على الغداء لحم الغنم والنبيذ. ساعدتني كيت في خلع معطفي. كنتُ جائعاً.

أخيراً شعرتُ ببعض الراحة وبأنه يمكنني الآن نيل قسط وافر من النوم، لكن ذلك لم يحدث كما ظننت وطلب مني وِلْكَم أن أرافقه ليُريني بعض الأماكن. دلفنا إلى سرداب طويل تحفّه الشموع، كان الوقت عصراً، وبعض الريح تعبث بكل شيء. وما إنْ اجتزنا الممرّ الطويل حتى وجدنا باباً ضخماً موصداً بالحديد عالجه وِلْكَم لنجد سلّماً ينزل إلى الأسفل نحو القبو. تقدّم واثقاً وكشف الظلام، فتبعته بحذر لأن المكان أضيق من أنْ يسعنا نحن الاثنين في ذات الوقت. أستطيع شمّ رائحة الجرذان الجائعة وبرازها النتن وتسافُدها الشديد. عند وصولنا إلى منتصف الغرفة الباردة التي كان الماء يتسرّب إليها أخبرني بسرٍّ صغير: "سيشهد هذا المكان كشفاً عظيماً تتحدث عنه البشرية طويلاً". في تلك اللحظة بدأت الجرذان الضخمة بالخروج من مكامنها وأصابني الخوف، وكِدتُ أن أفقد وعيي عندما وجدت الرجل الستيني "فليكس" يقف ممسكاً بمقبض الباب. بعد خروجنا ربت وِلْكَم على كتفه وشكره بقصد معيّن لم أدركه.

مرت ثلاثة أيام وأنا في انتظار أمرٍ ما يبرّر لي على الأقل لماذا يُسمحَ لي أنا، دونهم أجمعين، بالدخول إلى هذا الحصن المنيع. وذات ليلة كنت أفكر في ما ظلّ يكتنف وِلْكَم من غموض منذ أن تعرّفت عليه في حفل ساهر قبل حوالي عشر سنوات، ذلك الحفل الذي حضرَته صفوة لندن بما فيهم وليُّ العهد واللوردات والدوقات والوجهاء بعض الأساقفة والمشاهير. كنتُ ضائعاً وسط ذلك الزحام، جديداً على المجتمع، وعائداً للتو من أوكسفورد حيث درست القانون. وكنتُ شاباً فتياً في منتصف العشرين، متأثراً بجيلي، شعري طويل، وأكره الرياضة. قدّمني زميلي أوسكار ويلز وايلد إلى هنري سولمون وِلْكَم، وحتى ذلك التوقيت لم أكن أعرف أنه من البنّائين الأحرار، وأنه أيضاً كان في ترتيب متقدم. أكدّ لي ذلك ما سمعته يحكيه للسيد رئيس الوزراء، وكيف أنه سيأتي قريباً رئيسٌ جديدٌ للولايات المتحدة الأمريكية، وأخبره بـأن اسمه سيكون "ثيودور روزفلت". لاحقاً اغتيل الرئيس "وليام مكينلي"، واعتلى رفيقنا العرش. تزامن ذلك مع وصول العديد من الأحرار إلى سدة الحكم، مثلما سيحدث هنا في بريطانيا العظمى. وكنتُ حينها بسيط الرؤية يجري في عروقي الخوف كجري الهواء في رئتيَّ، لذلك حافظت على سرية كل ما سمعت ولم أَبُح بشيء، وكأنني لا ألحظ ولا أفطن. بعد ذلك الحفل أذكرُ أنني أيضاً كنتُ حائراً، فقد تعرّفت إلى عدد من الناس، لكن من الذي كان يعرفني سلفاً لتصلني بفضله مثل تلك الدعوة؟ كان ذلك أمراً مدهشاً لي ولم أجد له تفسيراً! بعدها عاملني وِلْكَم كصديق قديم وآل بيَ الحال إلى العمل مستشاراً قانونياً للشركة؛ بامتيازات عديدة وتدليل من المعلم الأوحد. وقد ناسبني ذلك كثيراً، فعدتُ إلى هوايتَيّ القراءة والكتابة، ولازمني التساؤل: كيف يا ترى حصلت على تلك الوظيفة؟ ومن الذي كان يعرفني حينها ليدعوني إلى ذلك الحفل؟

20
حارس الهيكل

عدنا، لكن بالبرّ هذه المرة. قضينا ثلاثة أيام في الطريق، وكانت العربة الخاصَّة بوِلْكَم غاية في البهاء والفخامة، تجرّها أربعة خيول سوداء لامعة كأنها سماء مرصعة بالذهب، وكان فراؤها نظيفاً وناعماً كما لو أن الربّ هو الذي خلقها بيده ذاتها ولم تصنعها يدُ العبد. تصهل الخيول فتُحرّك ذيولها القوية وترفس بحدواتها الجبارة الأرضَ، ولا تتعب ولا تتوقف لتلتقط أنفاسها ولا تنشغل بغير الطريق. أصبحنا مشهداً يتوقف من أجله الريفيون عند مرورنا بنيوبورت وساينسستر بل حتى مواطني سويندون حيث قضينا الليلة، أما لاحقاً في غلوستر فقد خرجوا من الحانة ومرّروا أصابعهم الراعشة في أطراف المقصورة المصقولة. وارتاحت الأحصنة في حظيرة مميزة كانت منامةً لبعض العمّال.

طوال الطريق كان وِلْكَم صامتاً لا يمرّ الهواء ذاته من شفتيه. يضع يديه على عصاه قبالتي وينظر أمامه مباشرة، ساهماً ثابتاً كأنه قطعة جرانيت مَحفورة. لا أعلم فيم يفكر، لكنني كنتُ بدَوري غارقاً في الأيام التي قضيتها في القصر؛ خروجنا لصيد السمك وجلسات شرب الشاي بينما أحدّثه عن كتاب قرأته مؤخراً أو أوضح له أمراً أو خبراً. كنتُ مُمتناً طوال الطريق، أشكر الرب على نعمته وأشكر وِلْكَم على كل شيء.

في لندن وجدنا ترحيباً واستقبالاً لائقاً من كبَار الموظفين، لكنه كان مشغولَ البال هائم الأفكار. لم يُجْرِ إلّا المقابلات السريعة في مكتبه. حاولت أن أتفادى الجلسات التي يكون حديثها همساً لأمنحه

الخصوصية، لكنه لم يسمح لي بذلك، لم يأذن لي أبداً، طلب مني الانتظار بإشارة واحدة من يده، وناداني بعبارة غامضة:

- "انتظر يا حارس الهكيل!".

طرحتُ الأسئلة على نفسي من جديد: "من هو حارس الهيكل؟ وماذا يقصد؟ وبالأصح ما هو الهيكل المقصود؟ هل يقصدني أنا؟". تلفّتُّ خلفي ولم يكن هناك أحد، حتماً يقصدني أنا بتلك الجملة. عصفت برأسي الأسئلة لكنني فجأة عدتُ ثلاثة عشر عاماً إلى الوراء؛ بالتحديد إلى العام 1886م لا أذكر أي شهر بالتحديد! لكن ذلك كان اليوم الذي دخلت فيه محفل أدنبرة بتوصية من بعض رفاقي في جامعة أكسفورد وأقسمت بمهندس الكون راكعاً والرئيس الأعظم يدعو لي: "أيها الإله القادر على كل شيء، القاهر فوق عباده، أنعِم علينا بعنايتك وتجلَّ على هذه الحضرة ووَفِّق عبدك -هذا الطالب-للدخول في عشيرة البنّائين الأحرار إلى صرف حياته في طاعتك ليكون لنا أخاً مخلصاً حقيقياً... آمين". ترى هل كان وِلْكَم حاضراً في تلك الليلة؟ يا لفجيعتي إذا كان ذلك صحيحاً! هذا يعني أنَّ كلَّ ما حدث لي ليس صدفة أو حسن طالع أو باجتهادٍ مني كما كنت أعتقد! لا. إذن كل شيء مُدبّر منذ البدء، كل شيء يمضي مثلما خطط له أحدهم. يا للمصيبة! يا للهول إذا كان ما أستنتجه صحيحاً! بالأصح "يا ويلي!".

طردت نظرية المؤامرة من رأسي بينما تطرُق أذنيَّ رنة مجهولة، ويعبث بحواسي شعور عاصف جعلني أشعر بأنني مثل طاحونة هوائية؛ لا يجب عليَّ أن أعرف اتجاه الرّيح ولا أين أمضي أو ماذا أطحن، عليَّ فقط أن أدور وأدور وأدور! أعتقد أنه طريقي، ولا أعلم كيف يتم تنظيم ذلك بشكل دقيق. كلنا طواحين هوائية تدور في مكانٍ ما دونما علم منها أنها لا تتخذ أي قرار حتى في دورانها. أخرجني من شرودي قائلاً:

- "سألتقي بشخصيات مهمة بعد قليل وأريدك أن تكون حاضراً. انتظر واصبر فإن الصبر امتحان، والامتحان الحقيقي هو الذي لا ننتظر نتيجته!".

عبارة مبهمة كنظرته. بعد وقت وجيز دخل علينا شابٌّ يُدعى تشستر بيتي، وكان عائداً للتو من أمريكا حسبما سمعت. حيَّاه وِلْكَم بتكبُّر وتعالٍ ثم سمح له بالجلوس بعد أن تعمّد تجاهل ذلك نحو دقيقة أو اثنتين. الرجل مهذبٌ ولطيف، يحمل في يده لفافة كبيرة بسطها على الطاولة ما إن أشار له وِلْكَم. تعجّب سيدي مما رأى فقد وقف حالاً، وضع نظارته وأبعد قبعته وخلع خاتمين كبيرين من يده وانحنى من فوق مكتبه ينظر خلال دخان غليونه. كان تشستر مستمتعاً؛ فقد طغى على هيبة وِلْكَم الإعجاب وتوسّع منخراه وانعقد لسانه وانكمشتْ جبهته، حتى شاربه الكبير أظنه قد اخشوشن وانتصب. قال تشستر مفاخراً بمعروضاته:

- "إنها مخطوطة نادرة ولا تقيَّم بثمن تعود إلى العام 1504م و...".

قاطعه وِلْكَم بحدة:

- "ليس هذا ما أخبرتَني به في الرسالة، أنت تعلم ما أريد! أين مخطوطة الكاهن الإسكتلندي؟".

يقصد بالكاهن الإسكتلندي جيمس أندرسون والمخطوطة المقصودة هي الدستور الماسوني الذي كتبه في العام 1721م. لكن تشستر تهرّب من الإجابة:

- "لقد وعدتك لكن الأصل ليس لديَّ، هل يمكنني أن أعرض عليك نسخة بنجامين فرانكلين؟".

- "لا! أحضِرْ إليّ ما أردتُ وإلا فأنت تعلم ما سأفعل!".

ارتعش الشاب، هبّ من كرسيّه ثم جلس قبل أن يقول:

- "هل تهدّدني أيها المعلم؟ أنا لا أقبل ذلك، عليك القبول أو الرفض ولا شيء آخر!".

بكل الصرامة التي يحملها هذا العالم ردّ عليه محذراً:

- "انتبه إلى حديثك يا ولد! عليك أن تفي دائماً بما تعد به كي لا تكتسب أعداءً جدداً أنت في غنىً عنهم!".

- "حسناً، لقد تركتها في نيويورك وهي آمنة، كنتُ بحاجة إلى المال، لكنني سأعرض عليك عرضاً إن وافقت عليه آلت إليك، وها أنا أُعطيك كلمتي".

أجابه بإيجاز:

- "قل!".

- "سأبادلك إياها برسومات الهيكل المقدس وخرائطه، علمتُ يقيناً أنها عندك".

كنتُ حائراً في الحوار، وأنا الذي يجلس كالجرذ في ركن غير مرئي، فلست أعلم حقيقة كل هذه الأمور التي يتحدثان عنها، لكنني تابعت ضحكة وِلْكَم الساخرة، ثم جلس يحرك رجله في الهواء ويضرب بكفه بفخذه، وهو يضحك هازئاً:

- "هاهاها! هل تعتقد أنَّ هناك أدنى وجود لما يُسمّى الهيكل؟ لا تخيب ظني فيك!".

- "أخبرتك بأنني أعلم أنها لديك... أنا واثقٌ من ذلك".

- "إن كنت تقصد مخطّط فان أدريشم فهو موجود، وإن كنت تعتقد بوجود الهيكل فحريٌّ بك أن تراجع الكثير من الحقائق".

أجابه الشاب اليافع:

- "أنا راضٍ الآن. سأعود قريباً ومعي مخطوط الدستور".
- "حسناً... اتفقنا".

بسط أمامه على الدرج قطعة ورقية مستطيلة وأخذ يحدثه:

- "أنت تعلم أنني أهتم كثيراً بالمخطوطات وأقتنيها وأجمّعها، لكني مهتمّ بالمخطوطات الإسلامية والشرقيّة أكثر من غيرها. واليوم أنا أعرض عليك مخطوطاً عظيماً لمكانٍ مهم، وأنت كما تعلم بأمري أدرس هندسة التعدين في جامعة كولومبيا وأعرف أماكن الذهب والنحاس وأعمل كل جهدي. أنا أعلم أيضاً باهتمامك بعلم الجيولوجيا والتعدين، ولو أنني أستطيع أن أبلغ هذا المكان لما ترددت لحظة في ذلك، لكن أنت رجلٌ مغامر تفعل ما تشاء والجميع هم حلفاؤك. دعني أعرض عليك ميثاقاً مهماً لرجلين من شرق أفريقيا؛ هذا المخطوط هو مخطوط اتفاقية سلطنة سوداء قامت في مكانٍ ما جنوب مصر اسمه السودان. أُسِّسَتْ هُناك مملكة قوية كان اسمها "مملكة فُنْج" صمدت مئات السنين وهَزَمتْ دويلاتٍ عديدةً وبادتْ بسببها حضارات كانت تقوم في جوارها وأخضعت ملوكاً عظماء حتى سقطتْ في أيدي حُكّام مصر الذين سرقوا كثيراً من حضارتها المدفونة، ولا أستبعد أنهم غزوا تلك البلاد فقط من أجل ذهبها وثرواتها التي يعود بعضها إلى ملك قديم يُدعى "الملك مويا"، كان يُسمّى "ملك ملوك الجبال والأنهار" ويعود إلى حقبة ما قبل التأريخ. تقع أرض هذه المملكة الآن ضمن منطقة نفوذ انكلترا وملكتها الموقَّرة، وأنا أعلم أنهم هنا يهتمون بذلك المكان، وأن أرض الذهب الجديدة ستكون قبلة

الأنظار في الفترة القادمة، لذا أنا أطلب منك بكل تواضع، ودون أدنى شكّ في مقامكم الرفيع، أن تعرض هذه المخطوطة إلى أصدقائك في إدارة المستعمرات".

- "حسناً! لمن المخطوطة؟".
- "هي اتفاقية ملوك الفُنْج ومخطوطة عهدهم وشروطهم. وسيَهُولك الأمر إن تمكّنتَ من ترجمتها وقراءة ما بها".
- "حسناً، سأبلغكَ، والآن اسمح لي وتفضّل بالذهاب".

لفَّ الرجل مخطوطته جيداً وخرج بعد المعاملة الحاسمة. تابعني وِلْكَم بنظرات عميقة ثابتة وقال لي:

- "وأنت معي لا تنسَ شيئاً مما تشاهد. بعد عدة أيام سأسمح لك بالرجوع إلى سابق عهدك، وربما تفهم كل شيء بنفسك، لكن مهما طالت حيرتك فستفهم... حتماً ستفهم".

عند هذا الحدّ سمح لي بالانصراف، وأمرني بأن أرتدي حلّة سوداء وأن لا أضع قبعة عندما أزوره غداً صباحاً.

***

علمتُ منه في اليوم التالي أنه قد ذهب لزيارة أحد جنرالات الجيش البريطاني وقدّم له التهاني الحارة لنجاح إدارته في المستعمرات، وإحكامها السيطرة على جنوب أفريقيا والسودان والتوسّع الكبير الذي حدث في الفترة الأخيرة، وأكد له أنه سيكون سعيداً دائماً بذلك النجاح الذي يثبت أن المملكة هي سيدة العالم دون شكّ. كما عرفتُ أنه قد بعث التهاني إلى الملكة ڤيكتوريا وإلى ابنها وليّ العهد حاكم ويلز. أخبرني بأنه قابل اللورد هوراشيو هربرت كتشنر القائد الأعلى للجيش في مصر والسودان وهنّأه بنجاحه العسكري والأكاديمي. كان كتشنر

قد تسلم في تلك السنة درجة الشرف الفخرية من جامعة أدنبرة في سكوتلاند. وبدَوره طلب منه كتشنر المشاركة في التبرعات التي تهدف إلى تخليد الرفيق جورج غوردون ببناء مدرسة تحمل اسمه في مدينة الخرطوم. كما قابل عنده رئيس الخزانة؛ اللورد آرثر بلفور، الرجل الذي يحمل همّ اليهود لكن ليس بذاك القدر الذي يحمله وِلْكَم. وقابل أيضاً اللورد ليونيل ولتر دي روتشيلد المصرفي والسياسي وعالم الحيوان وهو الشخص الذي سيرسل إليه السير آرثر جيمس بلفور الرسالة التي تحمل وعداً بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.

لاحقاً كنتُ حاضراً في حملة جمع التبرعات، كان وِلْكَم معجباً بنشاط اللورد كتشنر أيّما إعجاب، جمعَت بينهما محبة أصيلة وتفاهم كبير. قدّم كتشنر خطاباً ملهماً حول أهمية نقل المعارف البريطانية والعلم إلى تلك المنطقة، كما شرح الفائدة المباشرة وغير المباشرة من تقدُّم ذلك البلد. وقال إننا في انتظار خير وفير من تلك الجنة، وتوقع أنّ تتجاوز التكلفة المائة ألف جنيه، وهو مبلغ كبير رفض اللورد آرثر بلفور رئيس الخزانة الكاره لليهود توفيره، أو الموافقة عليه، متعلّلاً بأن الوضع الآن لا يسمح بذلك، ودعا إلى أن يتم اكتتاب المساهمات. انهالت التبرّعات من المدعوّين في النادي الملكي. تبرّع كتشنر بمائة جنيه، وتبرّع رجل مقاولات وباني دُور أيتام مشهور اسمه توماس برناردو بمبلغ خمسمائة جنيه، وكان مهتمّاً ببناء المدرسة وموقعها وإمكانية المشاركة فيها. توالت التبرعات حتى بلغت حوالي ألفي جنيه، وهو مبلغ محترم في يوم واحد. لم يتبرع وِلْكَم كما توقعت بل اكتفى بالمراقبة حتى النهاية ثم خرج.

منذ أن مات سيلاس بوروز أمَر وِلْكَم بإغلاق مكتبه القديم ولم يعد يستخدمه إلا نادراً. كان يقابل ضيوفه في مكتب بوروز، لكنه

دعاني في ذلك اليوم إلى مكتبه الدائري. فتحَت لي السكرتيرة الغبية الباب الضخم ووقفَتْ بالخارج؛ لم تكن حتى تنظر إلى الداخل، كأن هناك وحشاً مختبئاً لها خلف الباب، وما إن وطئت قدماي السجاد حتى أغلقتْ خلفي الباب بقوة وأدارت المزلاج. تلفتُّ حولي، كان الظلام دامساً رغم ملاحظتي للستائر الحمراء المُسدلة والنوافذ ذات القضبان الحديدية القوية من ورائها. أحسست بأن المكان كبير وسطحه مرتفع ولا يُنظّف يومياً، كما أن به العديد من المواد العطرية والأعشاب ذات الروائح النفاذة. تلمّستُ الهواء بيديَّ وسمعت وِلْكَم ينادي من مكان ما حولي بعبارته الغامضة:

- "قُمْ يا حارس الهيكل!".

سمعتُ فرقةً تعزف لحناً فرنسياً أعرفه جيداً لجون باتيست لولي، وتسرَّبَت إلى أنفي رائحة دخان معطّر قوية، ودون إرادةٍ منّي تراءت لي طفولتي البعيدة التي لم أكن أعتقد أنني ما زلت أحتفظ بها في ذاكرتي. صوت أمي يردّد على مسامعي اللحن ذاته، لمساتها وهي تحدّق في وجهي كما يحدق القمر في الأرض. طافت على وجداني ذكريات جميلة وأخرى حزينة، مثل اليوم الذي انتحر فيه أبي، كيف وجدنا رأسه مفتوحاً عند المنتصف والدّم يلطخ الحائط، بينما يده تحكم قبضتها على المسدس والدخان يتصاعد من تلك الفجوة التي أحدثها في الجدار. استعادت يدي ملمس القماش الخشن الذي أصرَّت أمي على أن يكون ثوب حدادها، وشممت رائحة حبيبة صباي التي كنتُ أطلق عليها اسماً شكسبيرياً يعجبني "كريسيدا". أحسستُ بشعرها يلامس وجهي، وبنصف ابتسامتها الذي لم يكن يفارقها. رأيت شمس الأصيل تسقط ثم ترتفع من جديد، العالم يدور من حولي، أنا أدور عكسه، ثم أنا أدور وحدي والعالم ثابت. انهمرت الدموع من عينيَّ

وتذوّقتْ طعمها المرّ كأحزاني، كأنني أخرج من شرنقة مقدّسة وأتحوّل إلى وحش جبار. صاح بي من جديد دون أن أراه أو أعرف من أين يأتي الصوت:

- "يا حارس الهيكل! اجْثُ على ركبتيك".

دون إرادتي، مرة أخرى، سقطتُ على ركبتيَّ، ضاحكاً باكياً تجتاحني اللّذة وتضربني الآلام، كأنني شخصٌ آخر! رأيت نفسي وأنا مغمض العينين، رأيتني من أعلى وشاهدتُ وحدتي وخوفي، ضياعي وستري، ثم لواذي بدراسة القانون الذي كنتُ ألبسه درعاً كما ألبس الروب الأسود أمام القاضي وأغطي رأسي بالشعر المستعار المجعّد. رأيتُ فشلي الداخلي يطفو، وجسدي المتهالك ينهار، وروحي النخرة تنكمش كأنني زهرة زنبق تجاهد أن تعيش وأن تخرج عُصارتها وروحها. ارتفع صوت الفرقة الموسيقية، لم أعد أسمع غيرها. انسدّت أذناي. دُوَار... دُوَار. أخيراً وجدتُ نفسي أشدو بالكلمات التي لم أتخيل ولن أصدّق أنني أحفظها جيداً، وبالفرنسية:

تحت ضوء القمر
صديقي بييرو..
أَعِرْني ريشتك
لأكتب كلمة..
فشمعتي قد ماتت
وماعاد لديَّ نور..
افتح لي بابَكَ
محبة في الله..

ثم اعترتني حالة من الهيجان والرعشة وأنا أعيد ترديد العبارة الأخيرة مترجّياً أمراً لا أعرفه، "محبةً في الله... محبةً في الله". شعرت

بأنني متسول في ميناء ليفربول، وبدرَت عن جسدي هزّة عنيفة، ارتعش فمي وسال لعابي وتناثر، ثم التويت كمن هو في حاجة شديدة إلى قضاء حاجته، وشعرت بأن الدنيا من حولي تدور بشكل فوضوي، سال أنفي وشهقت. لكن، لعجبي، تلا وِلْكَم تزامناً مع عزف المقطع الأخير من اللحن وبلغة فرنسية عتيقة لا أعرف من أين أتى بها:

تحت ضوء القمر
لا نرى إلّا قليلاً..
ابحثْ عن ريشة..
أو ابحثْ عن نور..
ابحثْ بهذه الطريقة..
لن تعرف ماذا تجد؟
لكنني أعرف.. أن الباب
خلفك قد أُغلِق.. يا حارس الهيكل

ولمّا مرّت بمسامعي عبارة "يا حارس الهيكل" زاد هيجاني، وانتابتني نوبة بكاء حاد هذه المرة تصاحبها ضحكات عالية تطغى على صوت الفرقة العالي الذي لا أعلم من أين يأتي. وفجأةً سقطتُ على وجهي مرتطماً بالأرض وأنا أنتفض كأني أُخرِج الروح وأشعر ببرد شديد وتوهان حاد. مرّت أمامي حيوات أشكُّ بأنني عشتها من قبل ومناظر لا أعرف حقيقتها ولا أذكر أنني رأيتها، وذكريات لا أعتقد أنها تخصّني أو أنني كنتُ جزءاً منها. من أنا؟ من معي بداخلي؟ قال لي وِلْكَم بلهجة الحُجَّاب:

- "يا صاحبَ الدّمِ الأزرق، أيها الفارس المجهول والنبيل الضائع، يا حفيد حيرام المجيد، ويا حارس الهيكل التقيّ؛ دَعْ خطاياكَ كلّها وعُد إلى ما فاتَك، ما أنت سوى روح، وما

الروح إلّا حلقة وصل تلتقي بالأجساد الطاهرة فتذوب فيها وتنصهر معها. هكذا يتفوق الإنسان على نفسه، يا صاحب الحظوة، يا حارس المعبد، يا أمير الظلال، يا حارس الهيكل".

كنت أتلوّى كأنّ ألف ثعبان قد لدغوني ونفثوا سمومهم في جسدي. رمى إلي بملابس غريبة وطلب مني أن أرتديها. فعلت ذلك بسرعة شديدة حائراً في نفسي، ثم ظهر لي أخيراً، وارتفع الضوء من ورائِه. لم يدعني أتأمله جيداً، لم أقوَ أن أنظر إليه، اقترب مني ببطء، كان فيه أمرٌ عجيبٌ لم أتبيّنه بسرعة ثم لاحظت أن العباءة التي يرتديها كانت مطعّمَة بأحجار كريمة من مختلف الأنواع والألوان، واصل اقترابه مني، استندت إلى نفسي كأني أستند إلى شخصٍ آخر وارتفعتُ عالياً، شممتُ أنفاسه قربي، قلبي يتوقف، ثم وضع يده على صدري، قلّدني نيشاناً لامعاً ومضى ورائي يحرّك يديه حولي ويقول:

- "كن كعين العناية الإلهية، تراقب كل شيء وتعرف كل شيء ولا تنام أو تتعب. كن صالحاً كمن حَمَى الله في الأرض. مهندس الكون الأعظم يناديك، قم على أقدامك وتقدّم لتشرب. أقسم بمهندس الكون الأعظم أن لا تفشي الأسرار ولا الطقوس ولا العلامات".

اكتمل وقوفي بسرعة وتقدّمت إلى الأمام، وضع لي كوباً نحاسياً كبيراً في فمي، كان مليئاً بمشروب حلو لاذع، رشفتُ منه رشفةً واحدة، مدَدتُ يدي لأشرب المزيد، أمسك بيدي الباردة وحرّكها فسكب القليل منه في رأسي، ثم ضغط على كتفي بعد أن أدارني، فجثوت أمامه. كان الضوء الكبير هذه المرّة ورائي أنا، أمّا هو فقد كان أمامي؛ كامل البهاء كأنه شعلة من نور، مرتفعاً كأنه جبل، هادئاً، يحمل في إحدى يديه صولجاناً ذهبياً قصيراً. ضرب قدمي فعدّل

وضعها ووضع شيئاً في يدي، وهنا تذكرت أمراً مهمّاً كأنني في حلم؛ "رجل الرخام الأبيض الذي يحمل في يده الفرجار في بهو قصره بخليج كارديف". كان وضعي يحاكي ذلك التمثال. ذكرى أخرى أصبحتُ أهربُ منها باستمرار.

أخذ وعيي بالتراجع حتى أضحيت كالمغيّب. كل الأنحاء أمامي بياضٌ غير مستقر، ثم أفقت ورأيت وِلْكَم يقوم ببعض الأشياء التي لا أذكرها جيداً -لربما أسكرني المشروب القوي- ويفعل بعض الحركات التي جعلتني أصرخ وقتها دون أن أتذكرها لاحقاً، كان يقول كلاماً مبهماً ويهمس به في أذني، في تلك اللحظة أنا قطعة طين في يد خزفي ماهر يشكلها كيفما يريد. وعرفت أنني بعد هذا الأمر لن أعود كما كنت.. أصابتني الهلوسات ونسيت كل حياتي ثم نمت صاحياً.

عندما استعدت ذاكرتي وجدتُ نفسي ممدّداً على سرير حديدي قاسٍ، والنور يؤلمني من شدّته وجهرَته. كنت ساعتها أشعر بتجلٍّ إلهيّ ونقاء طبيعي كوليد في شهقته الأولى. رأسي خفيف وحواسي متحفزة تعي كل ما حولي، أسمع أدقّ الأصوات وأشتمّ أدقّ الروائح وأرى إلى كل مكان، أتذوّق المكان عبر الهواء وأتحسّسه بقلبي. بهرني وهالني ما رأيت. خلف مكتبٍ ضخم منقوش برسومات ذهبية عتيقة ومؤثرة جلس وِلْكَم مسترخياً في مقعد وثير من الجلد البنّي، كان يرتدي تاجاً لامعاً نُقشت فيه عينٌ داخل مثلث والمثلّث بدَوره داخل شمس، ويمسك بيده ذات الصولجان الذهبي، أمامه كتابٌ كبيرٌ أصفر اللون. كان مبتسماً أمامي في راحة، قال لي:

- "لقد ولدتَ من جديد، وسيكون الربّ مُعِينك".

عاينت حولي كأني أشكّ بما قاله. كانت الغرفة فسيحة وعالية تتصدّرها لوحة كبيرة جداً لوِلْكَم علّقها أعلى مكتبه تماماً وكان إطارها

ذهبياً برّاقاً، وفي الجانب المقابل تراصَّتْ العديد من اللوحات النادرة والمحفورة والمخطوطات والمقتنيات الشخصية؛ سيوف وبنادق وأسلحة صغيرة ومباضع خطيرة الشكل. توقفت بنظري عند موضع معين وتجمّدَت نظراتي. أخبرني دون أن أسأل:

- "إنه بورتريه لجورج واشنطون بلباس الماسون، وهي لوحة نادرة جداً".

ثم أخذ يستعرض عليّ بعض مقتنياته الغريبة:

- "انظر إلى تلك؛ هُناك، إنها خزانة أسراري الكبيرة، لقد استغرق بناؤها حوالَي ستة أشهر، وهو ما دفعني لاحقاً إلى شراء هذا المبني لصعوبة نقلها. أحتفظ داخلها بالعديد من أقنعة الموت من ضمنها الوجه الفولاذي غير القابل للصدأ والذي يعود إلى الجلاد البرتغالي. وبها أيضاً قناع موت الوزير ديزرائيلي بنجامين.

نظر إليَّ بنوع من الفخر وأنا مذهول، فاستأنف حديثه يرمي إلى إبهاري بقدر ما يستطيع:

- "انظر إلى تلك الجمجمة، استخدَمَها رجال القبائل في غينيا الجديدة لمئات السنين خلال رقصاتهم التي يعتزمون عبرها تكريم الموتى، أو استعادتهم".

وجدتها متقشّرة وأُعِيد طلاؤها بمادة شديدة البياض، لم يتمكن أن يخرجني من صمتي فمضى مشيراً إلى اتجاه مختلف وأنا أتابعه بنظراتي:

- "انظر إلى هذا المقعد، إنه أول مقعد متخصص لعلاج الأسنان!".

صدقاً كان آلة عذاب حقيقية، ويكفي منظره لقتل المريض الذي سيجلس عليه، فأشحت بنظري. لاحظت شيئاً غريباً إلى جواره، فبادر يخبرني بزهو:

- "إنه كرسيّ ولادة، أسمعت عنه؟ كان يُستعمَل قُبيل أن يقوم أمثالي بتطوير العالم والطب. كانت المرأة تقف في المنتصف تماماً، وتُقيَّد يداها في أعلى الكرسي، تُباعِد رجليها ويتم إمساكها بتلك المقابض. وكما ترى، لا مكان للجلوس؛ مما يضطرّ المرأة الحامل إلى الانحناء قليلاً وهو الأمر الذي يسهل عملية الولادة حتماً، حسبما كان يعتقد أولئك الأغبياء".
- "يا إلهي الرحيم!".

أشار من جديد إلى جهاز جحيمي آخر:

- "هذا الكرسيّ الصدئ المتهالك المخيف يعود إلى الشرق الأقصى، الصين بالتحديد، وكما ترى فهو مصنوعٌ من الشفرات الحادة والإبر الدقيقة التي تزيد عن الألف بقليل. كان الصينيون يجبرون ضحاياهم على الجلوس عليه ومن ثمّ يربطونهم بذلك الحزام القوي لفترات طويلة أو إلى أن يمتلئ الوعاء أسفله بالدم... قطرة قطرة".

قلت عبارة كاملة وبصوتٍ مسموع هذه المرة:

- "ومن أجل ماذا يستخدم؟ هل هو علاج لمرضٍ ما؟".

تلوّنت عيناه ورأيت فمه يتلعثم مضطرباً كأنه لا يريد الإجابة قبل أن يقول لي:

- "لا، هو فقط للتعذيب! للتعذيب وإخراج الاعترافات فقط".

بينما كان يمشي منتشياً بمعروضاته، توقف أمام خزانة قصيرة طويلة ذات واجهات زجاجية وشرح لي محتوياتها:

- "أمّا هذه المجموعة فهي عبارة عن محاقن مختلفة كانت تُستخدم في حضارات عديدة، هل تصدّق أنها حقن شرجية؟!".

لم أستطع أن أتفاعل مع ما قال وتأفّفت فاقترب مني ومدّ إليّ يده قائلاً:

- "تعالَ، سأريك شيئاً مهماً جداً بالنسبةِ لي وقد كلفني كثيراً. هل تصدّق أنني أتيت بتلك السيِّدة من البيرو؟!".

انتفضتُ رعباً وأنا أقول:

- "مَن؟ أي سيدة تقصد؟".

تجاهل سؤالي، ثم جرّني من يدي ونزلنا عبر سلّم كان مُخبّأ وراء مكتبة صغيرة، شعرت بأن قدميّ حافيتان وأن ملابسي قد تبدّلت، لكنني لم أهتم ومشيت خلفه إلى الركن؛ حيث رفع قطعة قماش كبيرة عن صندوق ضخم تعلوه واجهة من الزجاج الشفاف وكان مضاءً من الداخل بواسطة الغاز:

- "هذه جثة كاملة ومحنطة جيداً لامرأة بيروفية. تأمّل جمالها الفريد وفتنتها الساحرة".

ألصق كفيّه ببعضهما وغاص في لحظات تأمّل وسموّ حتى اعتقدت أن روحه قد ذهبت بعيداً عنه. أعاد تغطية الصندوق وقال لي:

- "أتذْكُر تشيستر بيتي، الشاب بائع المخطوطات؟".

- "نعم".

- "إنه لن يأتيني بما طلبتُ أبداً، هل تعلم لماذا؟".

هززت رأسي نافياً.

- "لأن ما طلبتُه موجودٌ هنا جوارك على تلك الطاولة. انظر إلى ذلك الكتاب الأصفر العظيم".

لا يمكنني أن أصف مدى دهشتي ومفاجأتي، عجزتُ عن التعبير ففسّر لي:

- "تلك النسخة التي يحاول أن يأتيني بها من نيويورك أنا من سأبيعها له، وستكون مزورة، ولن أشتريها منه من جديد. أفهمتني يا حارس الهكيل؟".
- "لا أفهمك حقاً في هذا الموضوع!".
- "هذا هو المطلوب، ليس عليك أن تفهم، بل عليك أن تطيع وتتابع وتحتفظ بكل شيء في عقلك. ذلك الكتاب ستكون أنت حارسه، وحارس جميع أملاكي. سأعطيك مطلق الصلاحيات، وستكون مخوّلاً لكثير من المسؤوليات، ستكون العين التي أرى بها والأذن التي أسمع بها. أنتَ الرجل الثاني من بعدي. لم يكن اختيارك عشوائياً أو صدفة، لقد رُتِّب كل شيء منذ زمن بعيد. ذات يوم ربما أحكي لك، أما الآن فهيّا، اسلكْ ذلك الممرّ لتبدل ملابسك ولنخرج من هنا".

21
الخبير الأعظم

أنا متأكّدٌ من أن هناك أمراً غامضاً يحدث في قصر كارديف. صوَّر لي عقلي ذلك وأكّد لي إحساسي الذي لا يخيب. لا تزال تلك الأيام تسيطر على تفكيري، وأصابني هوسٌ بتفسير ما حدث وما سيحدث، فكل ما حولي يوحي بالغموض، حتى النقوش التي زُيِّنت بها بوابة القصر كنت أعتقد جازماً أن لها من المعاني والدلالات ما يجعل الطفل كهلاً أشيب. تفكرت كثيراً في تلك العلامات أو قل ذلك الشعار الغريب لحرف دبليو"W" وأعلاه عمود طويل بدا لي كمسلّة رفيعة. وجدتُ هذه العلامة في أكثر من موقع؛ في أطباق الأكل والملاعق، في رخام الحمامات وبلاط الأرضيات، وطُرّزت في الشراشف والوسائد ومناديل المائدة. كانت أحياناً بلون أزرق أو بخيوط ذهبية وأحياناً أخرى بالحرير، حتى إنّها تصدّرت صندوق التبغ الخاص بوِلْكَم، وغليونه الجديد المصنوع من العنبر، وكانت منحوتة أيضاً على سنّ الحوت التي كان يستخدمها كمطفأة. إنه هوس شديد، أنا أعلم. لكن الأمر تفاقم وازداد غرابة عندما كنت أقرأ صحيفة (الديلي تلغراف) ذات يوم وطالعت موضوعاً صغيراً عن وِلْكَم. وَصَفه المحرّر بـ "رب الطب الحديث" وكيف أنه اكتشف عقارات جديدة لأمراض كانت تفتك بالناس منذ الأزل، وأَدرَج أيضاً من ضمن أوصافه أنه "مكتشف إكسير الحياة الجديدة". سألت نفسي كثيراً من الأسئلة مراراً وتكراراً لكن لم يعد طرحها يفضي إلا إلى مزيد من الحيرة. أهو في هذا القصر منذ فترة؟ أكاد أجنّ! هناك حلقة مفقودة لا أستطيع الوصول إليها.

وِلْكَم رجل لا يمكن معرفته، لا يمكن وصفه، ولا يمكن تحليله أو فهمه، إلى درجة أنني وخلال أسفاري الدائمة معه لم أعد أكترث بالتفاصيل التي لا أجد لها تفسيرات. مثلاً، عندما عدنا من كارديف إلى لندن على وجه السرعة، لم يقم بزيارة معمله في شارع يوستن، وهو أمر غريب يخالف عادته! لكنني تجاهلت ذلك رغم علمي أن معمله هناك يجري التجارب التي يقوم بها أطباء مهرة وكيميائيون أفذاذ. لكن عندما أتذكر أطراف حياته فإني لا أستغرب. في العام الماضي، عندما رافقته في رحلة جُبنا فيها بعض أرجاء أوروبا، وهي رحلة سريّة كما أعتقد؛ فهو لم يُبلِغ بها موظفي شركته ولا الإداريين الأفذاذ الذين يشرفون على أعماله. كل ما حدث حدث بسرعة، رغم أنني متأكد من أن وِلْكَم أعدّ كل شيء بدقة فائقة، فجأة وجدنا أنفسنا على متن باخرة في طريقنا إلى روتردام التي قضينا بها يومين في ما أذكر، لم يغب عن ناظري كثيراً، لكنه أخذ يجري المحادثات مع أشخاص كانوا يحضرون كل يوم إلى الفندق الذي أقمنا به. لم أعرف ما يدور بينهم، ولم أجلس بينهم للحديث، ولم يعرّفني وِلْكَم إليهم. كنا نجلس إلى الطاولة لتناول الفطور المكوّن من الخبز والخضار أو السمك، ثم يستأذنني وِلْكَم ويذهب إلى طاولة أخرى، يتركني وحيداً أقضي الوقت في قراءة كتاب أحمله معي أو أطالع الصحف التي لا تخبرني شيئاً.

ثم سافرنا شرقاً بعربة قوية تجرّها ستة أحصنة، اجتازت بنا الحدود الألمانية إلى دوسلدورف. كانت الرحلة شاقة جداً واستمرت يومين كاملين تأخّرنا خلالهما كثيراً بسبب الصقيع والطرق الملتفّة حول الجبال، لذلك عند وصولنا ارتحنا عدة أيام في المدينة الباردة. لم أغادر غرفتي في الفندق؛ إذ إنَّ الحمى أصابتني، وزعم وِلْكَم أنه لا يحمل معه دواءً، ولاحقاً اكتشفت عكس ذلك. المهم، كان هو سعيداً بتلك الزيارة، وذكر لي أنه حصل على شيء نادر وعظيم وعهد به إلى شركة

شحن خاصة. لبَّيْنَا دعوة أحد الرجال الهاربين من العدالة في فرنسا، وقضينا معه ليلة كاملة في قصره الذي كان بارداً برغم كل المواقد المُشتعلة والمدفأة العملاقة. تحدّث مع وِلْكَم حول أمرٍ ما يخصّ اليهود وشتاتهم. ثم زُرْنا متحفاً للفن، وخرجنا في جولة على أديرة وكاتدرائيات غريبة الشكل. كُنّا نذهب كل يوم لمشاهدة مكان مختلف، يرافقنا رجلان، إضافة إلى الحوذي الذي لا يزال يرافقنا. ما يستحق الذكر في هذه المدينة هو أنّ وِلْكَم قد طرَق غرفتي ذات ليلة في وقت متأخر، كان في ملابس النوم ويمسك بغليونه متوتراً، طلب منّي أنْ أحْضُر إلى غرفته بعد ربع ساعة بكامل ملابسي، ومن حسن حظي أنني لم أكن مستعداً للنوم وفي وعيي الكامل. ارتديت ملابسي بسرعة وذهبت إليه أحمل هواجسي وحيرتي والشكوك. لكن لم يفتح لي الباب، ثم أرسل إليّ ورقة من أسفل الباب مكتوب عليها: "غادر". يُخيّل إليّ أنه كان يبكي. أعتقد أنني سمعته يبكي.

من جديد ركبنا عربة قوية وجدناها في انتظارنا، قادتنا خلال الغابات والأنهار إلى أن وصلنا بعد يوم كامل إلى دوقية لوكسمبورغ. هناك نزلنا متخفيَيْن في دير عتيق، وقابلنا رجل دين مهيب الشكل إلى درجة أنني ظننته البابا نفسه. لا أجد ما يمكنني أن أذكره من تلك الزيارة ولا أعرف سبباً لها، غير أنه طاف في الدير يعاينه ويدوِّن ملاحظاته في دفتر صغير. عرض عليه القساوسة والرهبان أموراً شتى في غرفة خاصة لم أتمكن من دخولها معه، إذ إنّه طلب مني الانتظار، لكن ذلك لم يمنعني من محاولة التعرف على ما يجري. لو سمح لي خيالي أن أفترض أمراً سأفترض أنه سيشتري الدير! وأنا أعلم أنَّ ذلك غير ممكن. قبل أن نغادر طلب وِلْكَم مقابلة الفتى قارع الأجراس، دار بينهما نقاشٌ شديد تكدّرا على إثره، ومضينا نحمل معنا صندوقاً عتيقاً وكبيراً ذا قفل ليس له شبيه.

ثم غادرنا إلى جنيڤا عبر البحر. كانت رحلة لطيفة جداً لولا الصقيع الشديد، وكادت الباخرة أن تنقلب في إحدى المرات. أخيراً وصلنا ووجدنا في انتظارنا هناك شخصَين لا يوحيان بالخير، لكن السمّة المميزة لجميع من قابلناهم أو من كانوا في انتظارنا هي توقيرهم الشديد لوِلْكَم إلى درجة القداسة، لم أر في حياتي شخصاً يحظى بهذا التبجيل، وشعرت بأن سلوكهم لا ينبع من تملّق لمال أو محاباة لشخصه، بل هو أمرٌ روحانيّ تماماً، كما يُقدَس الشمّاس يسوع أو يوحنا المعمدان، ينحنون في وقوفه ويعقدون أيدهم خلف ظهورهم، لا يجلسون إلا إن جلس أولاً وينهضون قبل أن ينهض، لا يأكلون قبله ولا ينهون طعامهم بعده، عندما يتحدثون إليه لا ينظرون إلى وجهه كأنه يضاجع أمهاتهم، ومعظمهم أشخاص متعلّمون لا شك في ذلك، وبعضهم ميسورو الحال، كان ذلك بائناً من ملابسهم وحليهم وعصيّهم الأبنوسية أو العاجية الفاخرة، لكن شيئاً بداخلهم يجعلهم مسلوبي الإرادة تماماً أمامه. ولم أعلم شيئاً من زيارة جنيڤا التي غادرناها إلى فلورنس، وكان غاضباً لسببٍ أجهله، مما جعله طوال الطريق يدخّن غليونه دون توقف، وبين سحابات الدخان كنت أرى عينيه العميقتين كعيني حصانٍ أعمى، مخيفتان ترتجف لهما أطراف بدني. ومن منتهى سكوته أخبرني:

- "لا تصدق كل شيء، ولا تشكّك في كل شيء، قِف على الشرفات وتأمّل الموقف من بعيد فإن الحقيقة لا يمكنها أن تختبئ ولا يمكن للشك أن يموت!".
- "أنا لا أفهمك يا سيدي!".
- "سأخبرك أمراً واحداً فقط".

وبينما العربة تهتز إثر الحجارة والطّرق غير الممهدة جيداً، وهو دائماً ما كان يفضّل السفر عبرها رغم ما تستهلكه من وقت وجهد،

والخيول تترنّح تحت سياط الحوذي الغاضب، ونحن نتدثر بالفراء ونرتدي القفازات السميكة، فتح النافذة وأشار لي "انظر"، فنظرت إلى سبابته متوتراً، ضربني على رأسي قائلاً: "لا يوجد شيء هنا، انظر هناك". فهمت. ثم مدَدتُ بصرى إلى الناحية التي يريد، ولم أجد أمامي إلّا الجبال المُغطاة بالثلوج وبعض الأشجار تلوح ملتفّة بالبياض، ولا شيء آخر... فقط الفراغ.

- "يوري، لقد اصطفيتك، أنا أبحث عن مكانٍ معين ومناسب فحسب، لأن شمس المستقبل ستشرق من ذلك المكان".

أرعبَتني ضحكته، اقترب مني حتى لامس شاربه الكث وجهي:

- "استعد يا يوري، فما بلَغه العالم الآن لا يضاهي شيئاً مما سأصنعه لاحقاً، جميعنا نموت في النهاية، لكن لا نموت دون أن ننجز ما خُلقنا لأجله. بخلاف ذلك لا يمكن تسميتنا بشراً! ومن لم يترك أثراً سيتلاشى مثل الشمعة التي تُفني نفسها لأجل هدف ما!".
- "لستُ أفهم يا سيدي!".
- "فقط كن مستعداً، قريباً لن يروي الحكايات غيرك. وأنا واثق من أنك أفضل من يرويها، لا تشغل بالك الآن، فوقتك لم يأت، راقب جيداً في هذا الوقت، وذات يوم ستخبر العالم عن رجل عظيم لم يكن يتحدث كثيراً".

ثم ابتسم في رضا. دارت بخلدي الألغاز، هل يا ترى شاهدتُ شيئاً لأحكيه؟ قطعني عن تفكيري ضرب عصاه في الأرضية الخشبية، بل كان نقراً خفيفاً، جعلني متوتراً أشعر بالغباء الشديد.

بعد يومين ونصف تقريباً قضيناها في الطريق وصلنا إلى المدينة التي كانت عاصمة للبلاد قبل ثلاثين عاماً. كان وِلْكَم يعرف إلى أين نحنُ

ماضون فما إن أخبر الحوذي بالمكان المنشود حتى أوقف العربة وسأل أحد المارة، وهكذا وصلنا إلى الكاتدرائية القديمة وفهمت أنه زار المدينة في وقتٍ ما، خصوصاً أنه شدّ حبل قرع أجراس البوابة بنغم معيّن. خرج إلينا رجل بزي كهنوتي أسود وكأنه كان ينتظرنا، سلّمَنا رسالة مختومة بالشمع، تحوي عنوان المكان الذي سنذهب إليه، رافقَنا مرشد يافع كان حريصاً على أن لا يتأخّر، قادنا عبر دورب وجسور حجرية آية في الروعة والجمال.

كانت الجداول تعكس أشعة الأصيل الذهبية، وتنام الشمس رويداً رويداً وترفد الكون بالحمرة كأنها ذُبِحَتْ ولم تغرب، الهواء الذي يدخل إلينا لم يكن عَطِراً فحسب، لا، بل كان طاهراً كزفير الرُّضع، أحاط بي شعور بالورع والتقوى. هبط الليل سريعاً ولم يقطع تأمّلي في رحابة هذه المدينة وإحساسي الداخلي بها. أخيراً نزلنا إلى شارع منحدر أفضى بنا إلى شارع آخر حيث وجدنا ڤيلّا صخرية ضخمة، لا بل هو قصر أو قلعة عملاقة، لا بل أعظم من ذلك بكثير. كانوا يتوقّعون حضورنا منذ يوم كامل وخافوا علينا من عاصفة ثلجية خلّفتْ دماراً رهيباً. رحّب بنا رجل ثرثار يدعى بنتلي، وهو إيرلنديّ لأم فلورنسيّة، لم تتغير لكنته رغم الزمن، عصبيّ، لديه نزعة ثورية وأناركي غير متحفظ. استقبلنا بشكل رسمي وأرسل لإحضار كل الخدم الذين اصطفوا خارجاً بالمصابيح، ثم دعانا إلى الدخول، وهو يكرّر بعض العبارات بشكل بغيض مثل "أنتم تعلمون"، أو "كما تعلمون"، وهو واسع الاطلاع على التاريخ الفلورنسي ويفاخر به كأنه أحد أبطاله.

بدأ المطر يفعل فعلته، لكنّ وِلْكَم لم يدخل، بل راح يتأمل المبنى العتيق من الخارج متعجباً. تناول أحد المصابيح وبدأ بالأسطبل الذي كان يتسع لأكثر من خمسين حصاناً، جواره مخزن للغلال وطاحونة

ونافورة ماء تحيط بها أحواض صغيرة مستديرة الشكل ويخرج منها جدول تحفّه النوافير على هيئة ثعابين، وفي الجانب الآخر انفردت حديقة غنّاء بالمساحة، في الخلف بئر وقبو يحوي عشرات الغرف الصغيرة، وبتَباهٍ واضح أخبرنا بنتلي الذي كان يمشي خلفي كما كنتُ أمشي خلف وِلْكَم:

- كان يمكن الانتظار حتى الغد لتتعرّفوا إلى البناء، لكن لا بأس إن كان هذا مطلب سيدي المعلّم العظيم. بُنِيَ هذا المكان قبل ثلاثمائة عام بأوامر من الكاردينال لورينزو دي ميديتشي، وهو كما تعلمون حاكم فلورنسا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، كان جبّاراً انتشر في عهده التعذيب والسجن دون محاكمات، كما كان أديباً وراعياً للفنون. استغرق بناء القصر عقدين من الزمان لتميّز وصعوبة تصميم فريد لفيليبو برونليسكي، وهو كما تعلمون كان مهندسًا معماريًّا ونحّاتاً ورساماً وسينوغرافيًّا من عصر النهضة. بعض أهم إنجازاته تصميمه وبناؤه قبّة كاتدرائية القديسة ماري، وكان بناء تلك القبّة تحدّياً هندسياً للقواعد الهندسية في تلك الحقبة، كما يُنسَب إليه اكتشاف المنظور في الرسم، وهو الشيء الذي أضفى على رسوماته لمسة ثلاثية الأبعاد. لا تخافوا لن أطيل عليكم. عاش هنا أبناء وأحفاد دي ميديتشي العظيم من ملوك وملكات ودوقات، وكان دي ميديتشي صهراً لأغلب ملوك أوروبا. عاش في هذا المكان لورينزو العظيم، وللعجب أيضاً عاش هنا أيضاً عدة أسابيع سافونارولا، قُبيل أن يُقبَض عليه ويزجّ به مصفّداً في السجن. بالطبع تعرفون الحكاية، وكيف أنه بعد أن أُعدِم شنقاً بحبل قصير، وبعد أن أشعل فيه الفلورنسيون النار رفع يده ودعا لهم بالرحمة.. ألم أخبركم بـ...".

قاطعة وِلْكَم بطريقة محرجة:

- "أنا لا أهتم بتلك الأحاديث الجانبية كثيراً. أرجوك أخبرنا عن القصر فقط".

أطرق الرجل وجهه ثم واصل:

- "عاشت هنا أيضاً ماريا دي ميديتشي في خوف دائم بسبب صراع السلطة، وقد أراد لها والدها أن تكون بعيدة عن عائلة باتسي الحاقدة على حكمه والتي تعدّ المؤامرات واحدة تلو الأخرى للقضاء عليه. عاشت ماريا سعيدة وأنجبت عدداً من الأمراء والأميرات ثم أهدت القصر إلى ابنتها هنريتا بمناسبة زواجها من ملك انگلترا تشارلز الأول، لكنهما لم يقيما فيه وذهب القصر من جديد إلى الأميرة آن ستيورات الحفيدة الملكة، وقد كانت تؤمن بقضية زوجها ذي المطالب اليعقوبية[18] وبموت آن لم يعد للمكان راعٍ؛ فالملكة كان تقضي عطلاتها هنا، ثم انتقل القصر إلى آخر الأحفاد وهي الأميرة ماريا لويزا، بعد وفاتها استولت الكنيسة على المكان الذي احتمى فيه بعض الرهبان الهاربين من سجن الباستيل في فرنسا عقب الثورة الفرنسية ثم اشتراه في النفرة الكنسية الكبرى لجمع التبرعات في العام 1803م يهودي بلجيكي، ويُقال إن هذا المكان قد شهد أبشع الجرائم وسالت الدماء أنهاراً لأن ذلك الرجل كان يخفي ذهباً مسروقاً من البلاط في بروكسل. بعد قيام الثورة

18 - حركة سياسية كان اتباعُها يطالبون بحقّ الملك جيمس الثاني في حكم إنگلترا، الذي قامت عليه الثورة في 1688م وقد انتقل الحكم بعد ذلك بفترة إلى بيت هانوڤر وهي أسرة من أصول جرمانية ألمانية حكمت إنگلترا منذ العام 1714م، من أشهر حكامها الملكة ڤيكتوريا.

البلجيكية اطمأنّ لانجلاء الخطر وأظهر نفسه للعامة، ودخل الحياة الاجتماعية من أوسع أبوابها، وأقام الحفلات الباهظة والمآدب الفاخرة. وخلال سنوات قليلة كان يمتلك نصف المدينة بعد أن أسّس بنكاً، لكنه جذب إليه الأنظار، وكان هناك من يتربص به. وذات يوم وُجدَ مذبوحاً ومطعوناً مع أطفاله الخمسة، كما قُتل جميع من كان في القصر بوحشية، جرت الدماء لتصبّ هناك في مدخل القبو كالشلال. وضعت المحاكم يدها على القصر مرة أخرى في العام 1845م وأصبح مستشفىً ملكياً خاصاً، لكن حدَثَ وألَمّ وباء غريب بجميع المرضى والأطباء وماتوا متخشّبين ومتعفّنين، وأُغلِق المكان بأمر الشرطة. أصبح الجميع يخافون الاقتراب منه، بل أقدَمَ المزارعون المقيمون في الجوار على الرحيل، وفي عموم المنطقة ما عاد يوجد أحد؛ إذ أصابت اللعنات المكان، وأراد رئيس الشرطة الذي كان فاسداً أن يتخلّص منه فباعه بثمن بخس إلى رجل صناعة ألماني مات في الغرفة الكبيرة في ليلته الأولى هنا. وكما ترى، منذ عشرين عاماً وأنا أقيم هنا أملاً في بيعه أو استئجاره لصالح ورَثة الرجل. ولأنك رجل أمريكي مغامر فأنا لا أخفي عنك أي حادثة صغيرة كانت أو كبيرة، وهم قد أرسلوا لي كما تعلم وأوصوني جيداً لأكون في خدمتك. وكما تشاهد بأم عينك، كلّنا نعيش هنا في راحة تامة ولا نلاحظ أي شيء غريب. ومهما قيل عن هذا المكان فقد كان ذلك منذ زمن طويل، وكما تعلم فقد تقدَّم العالم الآن ولم يعد للخرافات مكان بين الناس، و...".

قاطعه وِلْكَم بصوت يتقاذفه الهواء ويتخلله الدخان:

- "لم أر أحداً يحفظ تاريخه الشخصيّ بهذه الدقّة فما بالك بهذا القصر! أهنّئك على صدقك وأقدّر لك صراحتك وتفضّلك بالشرح في هذا الطقس السيِّئ. شكراً. يمكننا الآن أن ندخل".

كان الخادم في انتظارنا بعد أن أنزل حاجياتنا من العربة، أخذ منا المعاطف والقبعات والعصي، جلسنا على مقاعد خشبية جوار النار، ولأول مرة لاحظت التجاعيد وهي تمرّ في خطوط متعرجة على وجه وِلْكَم، وسقط خدّاه في متاهة السنين، ربما كان الدفء قد أرخى وجهه لكن حتماً لم يكن هناك مفرّ من تقدّمه في العمر.

تناولنا لحم الأوز وخبز الطحالب في العشاء، جلسنا نشرب نبيذ (مارسالا) القوي بعد أن رفض وِلْكَم أن يأخذ قسطاً من الراحة. كنتُ تعباً وكلّي رغبة في الذهاب إلى الفراش، ودارت الأسئلة حول الغرف والمحتويات:

- "المكان كما ترى أسواره عالية، يقع في أرض مساحتها اثنا عشر هكتاراً، وبه مبنيان، و...".

تلعثم قليلاً، دعك عينيه وتثاءب، ثم سأل وِلْكَم بكل صراحة موجّهاً إصبعه نحوي:

- "هل أتحدث؟".

أومأ له برأسه موافقاً وعبّأ غليونه بالتبغ وغاص في مقعده مستمعاً:

- "هذا هو المبنى الرئيس، فكما ترى يحتوي الطابق الأرضي المكتبة والصالونات وقاعة الطعام وقاعة الحفلات وغرفة البيانو وغرفة الغسيل ومخزن الطعام والمطبخ وثلاث غرف ومرافق. والطابق العلوي به 22 غرفة تطل على الجوانب وغرفة واحدة فقط تطل على البوابة الرئيسية وغرفة أخرى

تطل على الساحة الخلفية ويربط بين الغرفتين ممرّ سري مخبأ في أحد الدواليب الحجرية، وبه غرفة استحمام كبيرة وشرفة عملاقة تَسع ستّين شخصاً بالغاً، وقاعة اجتماعات فارغة. أمّا الطابق الأعلى فيضمّ مخدعاً ضخماً جداً وغرفة مكتب بها باب سري يؤدّي إلى القبو الخارجي عبر سلّم حلزوني ويُفتح بجرّار مربوط إلى خطاف موجود في أحد التماثيل جوار النافذة السحرية والتي من خلالها تستطيع النظر في عدة غرف عبر نظام مَرايا صمّمه ونفّذه غاليلو غاليلي، ونُحت المكتب في الصخر على هيئة تابوت العهد وطلاه ذلك اليهودي بالذهب، وجميع محتويات الغرفة من مقاعد وثيرة ومناضد وتماثيل نحتها مايكل أنجلو بل حتى الشمعدانات نُحتت في الصخر، ويمكنك أن تقول إن هذا المبني بُنِيَ من صخر جبال سردينيا القوية، وجميع من مروا بهذا المكان كانوا من هواة جمع التحف، لذا عندما اجتاح الطاعون الجزيرة حصل هذا المبني على كثير من التحف التي كان لصوص الموتى يسرقونها، لذلك في مجمله هو تحفة نادرة. أمَّا المبنى الثاني فهو يقع خلف الحديقة، وبُنِي مشابهًا للقصر الذي أهداه غراندوق توسكانا فرانشيسكو دي ميديتشي إلى عشيقته في شارع "فياماجيو" جوار ميركاتو، لكنه نسخة مصغرة ومعدلة، ويحوي ثماني غرف وقاعتين، به لوحات من الفسيفساء والمرمر التي زيّنت أغلب المباني كما ترى من حولك، أما القبو الخارجي فإنه لأمر عجيب؛ متاهة عملاقة إن لم تَخبُر دروبها وممراتها لما خرجت منها حيّاً أبداً ولمتَّ جوعاً وعطشاً، فهو يحتوي على 48 غرفة صغيرة على شكل زنازين بقضبان قوية ولا يدخله ضوء الشمس، به ممرات تقود إلى ممرات أخرى وهي متاهة كبرى. الآن أنا

أحفظها تماماً فنقطة الدخول ليست هي نقطة الخروج، وما إن أُغلق الباب فإنه لن يُفتح من الداخل أبداً، أما الخروج فمن إحدى بوابتين؛ الأولى هي السلم الحلزوني نحو غرفة المكتب في هذا المبني، والثانية تقود عبر سلسلة دهاليز مظلمة إلى خارج القصر وراء التلة. وقد أستُلْهِمَتْ هذه الفكر من قصر حصن "بل فيردي" الذي بناه ميديتشي الكبير لحماية أسرته وكنوزه. والأرض في ذلك القبو رطبة بسبب النهر القريب والتنفس صعب والرطوبة عالية، كما أن بعض الزنازين ضيقة إلى درجة أن الشخص البالغ لا يمكنه الجلوس فيها أبداً، وحتى الطفلَ ذا الخمسة أعوام لا يمكنه أن يجلس، ولا علم لي كيف كانوا يستخدمونها وفي أي شيء. كما أن الأرض مسمومة، أحياناً يخرج منها الزبد وتموت الحشرات في الصيف ما إن تدخل إلى القبو، ولا أحد يقترب منها. وفي المرتين أو الثلاث التي تعرفت فيها على المكان وخَبُرت دروبه بواسطة الخريطة سمعتُ أصواتَ صيحات ألم من أطفال صغار وبكاء رُضع ونساء يولولن ورجال ينتحبون كأن أطفالهم قُتلوا أمامهم، لكن المكان كان خالياً أمامي مما جعلني أشكّ في أن الشراب قد لعب بعقلي، ثم إنني سمعت تلك الأصوات من جديد عندما كنت أجرّب تزييت مفاصل البوابة السرية من غرفة المكتب، وكل ذلك لهو أمرٌ خارق أنا لا أؤمن به. أمّا الماء فإن له مصدران؛ الأول في الحديقة وهو نبع صاف نستخدمه في الشراب والأكل، والثاني هو البئر ونستخدمه للأغراض الأخرى. والأسوار غاية في الارتفاع كما تعلم، ولم يحدث أن تسلّقها أحد، والمكان منعزل تماماً، وقد بنى ميديتشي أغلب قصوره داخل المدينة كما تعلم، لكنَّ الأمر مختلف مع هذا

المكان، ولا أحد يعرف سرّه مهما أخبرتك. وقد يكون كل ما قلته بالنسبة إلى سيرة القصر خطأ، فقد وجدتُ ما حكيته لك في كتاب بعد أن استلمت عُهدته لعرضه وتسييره كما سبق وأخبرتك، وكان ذلك منذ أمد بعيد، وفي اليوم الأول الذي حضرت فيه إلى هذا المكان عاهدتُ نفسي على أن لا أعود إلى بلادي إلا إن تحرّرت من حكم الطاغية وأُعِيدت إلى إيرلندا حقوقها وحريتها وأرضها. وكما تعلم...".

قاطعه:

- "حسناً يا بنتلي، هدّئ من روعك، أرى أنك لم تهمل شيئاً ولك في ذلك نصيب. أنا أشكرك. قم الآن لتنام وغداً ننظر في أمورٍ أخرى".

أخرجتُ ساعة جيبي البيضاء فوجدتُها تجاوزت الرابعة صباحاً بقليل ولن أستطيع النوم، قادني بنتلي إلى غرفتي التي كانت جوار غرفته في مؤخرة الممر الأول، بينما نزل وِلْكَم في الغرفة العتيقة. خاب ظني في أن لا أنام ولم أشعر بنفسي حتى أتى الصباح.

أيقظتني فتاة فلورنسية ساحرة اسمها ستيلا ولا تتكلّم الإنگليزية إلا جزافاً. تناولتُ فطوري وحدي فقد خرج وِلْكَم باكراً. كيف لهذا الرجل أن يكون بهذه القوة؟ لا شك في أنه قد اكتشف إكسير الحياة ولا يخشى الموت ولا يهدّه التعب مثلي. قضيتُ ذلك اليوم في مراجعة الأوراق الثبوتية والقانونية للقصر بموجب مذكرة صغيرة من وِلْكَم تركها لي مع أحد الخدم، ثم في المساء حاولت الدردشة مع ستيلا قليلاً لكن اللغة كانت تقف بيننا وأظن أنَّ لبنتلي هدفاً من تعيين أمثالهم من الخدم، فأنا لا أتخيّل أنه يوجد أحد في العام 1899م لا يتحدث الإنگليزية، إنه لأمر محيّر!

لم يقابلني وِلْكَم في ذلك المساء ولم يرسل في طلبي حسبما توقّعت. في اليوم التالي جاءني بنتلي ليخبرني بأن أستعدّ للسفر، ولم يكن استعدادي يستغرق وقتاً طويلاً، لذا حاولتُ التقرّب من الفتاة الجميلة وسمحتُ لنفسي بأن ألامس يدها عندما أحضرَت الماء إلى غرفتي بعد الغداء الذي تناولته أيضاً لوحدي. صرخَت فيَّ بلغتها الموسيقية ولهجتها الجبلية، ولم أفهم إن كانت سعيدة بذلك الفعل أم لا. هؤلاء الإيطاليين قوم غريبو الطباع في كل شيء؛ مشيتهم صيحاتهم وملابسهم وعطورهم، بل حتى كلماتهم كانت ذات نهايات غاية الانسياب، وهم قوم يتحدّثون بأصواتٍ عالية والرجل الإنكليزي الجنتلمان النبيل لا يعرف التعامل معهم لأنهم مجبولون على الحركة الدؤوبة ومفطورون على العمل، لم أحبهم رغم حبي للمدينة. بعدها رجعت إلى غرفتي أقرأ من كتاب عن الماغنا كارتا، وهو الميثاق العظيم للحريات في انكلترا صدر في 1215م. ذلك المساء ذهبت مع بنتلي إلى المدينة وقمت بتسوية بعض اللوحات والمقتنيات والتحف ودفعت ثمنها نقداً ووجدت أن المقاهي تنتشر في المدينة بشكل لافت وهالني ما رأيت فيها من عجائب، وآمنت بأن التقدم في العالم أجمع يخرج من بلادنا التي أرجو الله أن يحفظها. لففت الأشياء القابلة للكسر بالقماش جيداً ورتبتها في الصندق استعداداً للسفر من جديد.

وراء عربة شحن الأمتعة القوية التي تجرّها أربعة خيول كنا نجلس في عربة أخرى ذات مقصورة فاخرة والحوذي الضخم يجلس في المقدمة وليس في المؤخرة كما عندنا في لندن، ثم تحركنا بمحاذاة البحر هذه المرة. تلك هيَ الرحلة الأطول في جولتنا، وقد عانينا فيها أشدَّ المُعاناة واضطررنا إلى المبيت مرتين في القرى الصغيرة، في أوضاع لا أعلم كيف أمكن لسيدي أن يتحملها. بعد ثلاثة أيام كاملة، كنا نستبدل خلالها الجياد كل يوم ونسير لأكثر من خمس عشرة ساعة،

وصلنا إلى إمارة موناكو ونزلنا في منتجع ساحلي باهظ التكلفة، لم يكن ينتظرنا أحد كالعادة. ضاعف وِلْكَم أُجرة العربتين ونقَدَ الحوذيّ أجره. نزلنا إلى الاستقبال وقرعتُ الجرس طالباً الخادم. وهنا حدث أمرٌ مُحيّر لا أجد له تفسيراً ولا سبباً وسط كل الألغاز التي تحيط به، فعندما طالب موظف الفندق بالأسماء لتدوينها في دفتر النُزلاء، كذب عليه وِلْكَم وأعطاه اسماً غريباً كليَّاً هو "سباستيان ميلموث".

لم أكن لأسأله ولم يكن ليخبرني. ظننته أرادني أن أسمع ذلك الاسم ولا أدري لماذا؟ وجدتُ المكان مريحاً، الغرف مشرعة إلى البحر وألوانها جذابة، الإطلالة رائعة ولا أجد أبهى منها في هذه الدنيا، يعمّ اللون الأزرق محيط نظري. قضينا اليوم الأول في النوم والتمتّع بالحمامات والتدليك، وفي اليوم الثاني خرجنا إلى الشاطئ، ولم تكن البقعة التي اخترناها مأهولة بالناس. الطقس دافئ إلى حدٍّ ما، وحينما سطعت الشمس دفَنَ رجال المساج الصينيون وِلْكَم إلى رأسه في الرمل وظلَّ كذلك طوال ساعتين. كنتُ قد استأجرت درّاجة وطُفتُ بالمكان، وهي متعة لا تضاهيها متعة، ولا تقارن بالمتع المعروفة بما في ذلك التزلج أو الصيد أو الخروج في يوم مشمس. بعد يومين بدأ المكان يمتلئ واقتربت نهاية السنة وبداية القرن الجديد.

قضينا ثلاثة أيام نستمتع بالعطلة وفي بالي السؤال المعتاد: "ماذا سنفعل؟" وعندما سألته أجابني بهدوء:

- "لا شيء! إننا في عطلة. افعل ما يحلو لك، وحذارِ من الدراجات في هذا الطقس فقد قتلت سيلاس بوروز".

وتذكّرت ما حدث قبل أكثر من خمسة أعوام لرائد الشركة. وتقاطرت في بالي وقائع ما حدث؛ منذ أن أتى بوروز بوِلْكَم من أمريكا، وشراكتهما معاً، والانتشار المطلق الذي حقّقاه، ثم موت

بوروز المفاجئ الغريب! لكنني لم أدع التفكير يستحوذ عليَّ وجواري الملاهي، والنوادي، والنساء الرائعات يتجوّلن في كل مكان مع أثرياء العالم ويتراشقن بالعبارات الجميلة والورود، والحفلات الراقصة، وعروض السيرك لا تنتهي، والمسرح الممتلئ دائماً بالمتفرجين. المكان يضجّ بالحياة، وكنا فعلاً في حاجة إلى ذلك، المنتجعات والفنادق تحتفل بعيد الميلاد المئوي بشكل متفرّد وغير مسبوق، ويجري التحضير لاحتفالات رأس القرن على عجل وسرعة، وازدانت الشوارع بالأنوار الملوّنة، وحملت المتاجر إعلانات الهدايا الجديدة والمنتجات الحديثة، وشاهدنا فتيات فرقة فرنسية في انتظار موعد عرضهن، وحضر الفنانون المشاهير من نيويورك ولشبونة، والمغنّون من الأراضي المنخفضة، ومشاهير المال والأعمال والأمراء الوسيمون من وراء البحر. هناك وجدنا صفوة العالم. بالطبع حدثت كثير من الأشياء لا يسعني سردها الآن فربما يستغرق ذلك ما بقي من عمري وقد أصبحتُ كهلاً. لكنني لن أنسى العالَمَ الكبير الذي طفته مع وِلْكَم، لن أنسى الألوان ولا طعم الحلويات الشرقية ولا رائحة العطور، حتماً لا أستطيع أن أنسى وإن أردت.

ليلة رأس السنة كنا في كازينو مشهور، حيث قدّم ساحر أمريكي عروضاً وخدعاً باهرة جداً نالت استحسان الحضور وألهبوا القاعة بالتصفيق الحاد والهياج والصافرات المنتشية، وكان لهم طقسٌ عجيبٌ في الاحتفال؛ ففي الدقيقة الأخيرة من العام أظلموا القاعة وأخذ الجمهور يصيح بالعدّ التنازلي إلى أنْ وصل العدّ إلى 1 وهلَّ علينا العام 1900م، بل القرن الجديد، بالصيحات والمباركات. وكان أعظم ما حضرنا من عروض في عموم المدينة هو العرض الذي يقطع فيه الساحر فتاةً إلى نصفين ومن ثم يعيدها إلى سابق عهدها، كنتُ أجلس في إحدى طاولات الصف الأول جوار وِلْكَم، وأذكر جيداً بدلته

الصوفية الرمادية وشاربه الذي كان في تلك الليلة بذات لون البدلة، لم يرتدِ القفازات لكنه حمل عصاه وقبعته العالية، ولم يدخن الغليون طوال السهرة، لم يشرب غير البراندي، ولم يصفّق إلّا مرةً واحدة، وعندما بدأ الساحر في قَطع الفتاة لم يحبس وِلْكَم أنفاسه وعندما أعادها لم يندهش أو يرسم على وجهه علامات التعجّب، وقف واستأذن. وعندما سألته عن مدى إعجابه بالعرض أدخل يده داخل سترته وأخرج لي ساعة جيبي البيضاء، ولدهشتي لم تكن ساعةً أخرى، لا! بل كانت ساعتي ذاتها، ودون وعي وضعت يدي في جيبي لأتفقدها. كم كنت غبياً عندما فقدتها، أذهلني عرضه أكثر من مشهد الفتاة المقطوعة إلى نصفين، وعندما سألته مغتبطاً: "كيف فعلتها؟" لم يجبني بل قال لي: "انظر" أعاد الساعة إلى جيبه وابتعد قليلاً ثم أخرجها ليُريني أنها بحوزته ثم أدخلها مبتعداً واختفى. مضى الوقت ولم يظهر، كنت أظنها دعابة ثقيلة منه لكنها لم تكن عادته، ولم أفكر باللحاق به بل انصرفت إلى عروض الحَمام الذي يخرج من القبعة الطويلة. وعلى سبيل العادة، بعد حوالي ساعة، أدخلت يدي في جيبي لأتفقد الوقت ناسياً أن ساعتي معه، ولَكُم أن تتخيّلوا كم كانت دهشتي عظيمة عندما وجدتُ ساعتي في مكانها! نعم لقد كانت في مكانها كما وضعتها أول مرة. وهنا عرفت لماذا ذهب وِلْكَم وفي فمه كل تلك الثقة.

كان ساحراً عظيماً. تخيّلوا معي كيف إن كان رجلٌ مثله صديقَكم المقرب، إنه لمجد وشرف لا يتكرر! لذلك كنت راضياً بكل شيء، طائعاً، ويكاد السرور أن يفجّر قلبي.

بعد مرور أسبوع من القرن الجديد أبحرنا إلى كارديف مباشرة، بعد أن أنفق وِلْكَم ثروة صغيرة. لم أره أسعد من ذلك اليوم. عدنا

بسفينة بخارية عتيقة حمّلنا عليها كل الصناديق والمتاع، وفي الأول من شباط كنا في مقر الشركة بلندن نتابع تقارير العام المنصرف ونشرف على الأعمال الإدارية ونتأكد من حركة النقد في البنوك ونقارنها بكمية المبيعات ونبحث عن ثغرات التلاعب إن وجدت، ولم يكن هناك إلا المزيد من الأرباح.

عاد وِلْكَم إلى قصره وتركني هنا، كرجل مسافر نسي مرهماً صغيراً في مقعد القطار ولم يكترث لأمره قط، تركني حزيناً ومضى إلى عالمه الخاص. ترى هل تخلى عني؟ أم سيحقق ما قاله لي آخر مرة: "لكي أعود لا بدّ لي وأن أذهب".

22
كاتم السرّ الوفيّ

عندما زرته في قصر خليج كارديف، بعد أن دعاني لزيارته لأجل أن أقدّم إليه بعض الأوراق والتقارير التي تختصّ بالعمل وبعض الكشوفات نصف السنوية ولمراجعة براءات الاختراعات قيد التسجيل إضافةً إلى الوضع القانوني لبعض الأمور والعقارات، عرفتُ أخيراً بعض الأسرار الخافية عن قصر فلورنس. كان ذلك في نهاية حزيران، وجدته بائس المرأى ويائساً، ربما يعاني من الوحدة أو الاكتئاب، أو لعله شعر بتقدّمه في السن. لم يكترث بتحيتي كما يجب عندما دخلتُ إليه في مكتبه، بل لم يحاول إبعاد رأسه عن الورق والرسومات التي بسطها أمامه، فقط أشار لي بالجلوس بلا مبالاة. شعرت بالضيق؛ عندي وعنده، سألته فما أجابني، أخذت أراجع تفاصيل برقياتنا الأخيرة ومراسلاتنا وأنا أتساءل في سرّي: "هل حدث أن ضايقته بكلمة أو أزعجته؟ هل خرجت من الموضوعات التي يحدثني فيها؟" لم أجد شيئاً. عدتُ إلى ذكريات الجولة الأوروبية واللحظات الجميلة التي قضيناها معاً، وقلت في نفسي: "لعل هناك ما يؤرق باله، حتماً هي الوحدة التي تؤرقه". لا توجد إلى جواره سيدة تعلق ابتسامةً على شفتيه كل يوم، ولا طفلٌ يُلاطفه كل صباح. حتماً ذلك هو ما يزعجه. مددت إليه التقرير الذي تصاحبه عدة أوراق عن بعض الموظفين، وتحرّك المصباح دون إرادة مني فسقط الضوء على وجهه وليته لم يسقط. لم أره على تلك الحال من قبل، بوجهٍ محتقن بالدماء كأنه يوشك أن يموت، عيناه حائرتان لا تُرَيان برغم اتساعهما وفيهما لمسة حزن بريء، كصبيّ اكتشف رفاقه "ثقباً في مؤخرة ردائه

وضحكوا عليه". وجهه لم يكن وجهه، بل كان لشيخ طاعن في السن، مليء بالفشل والقنوط. أمّا أسنانه فقد ظهر لي منها الصف العلوي وكان مرصوفاً ومُصْفرّاً ينبئ عن مزاج عصبي وتدخين شره. لم يتحرك منذ أن جلست، وشعرت بأنني ثقيلٌ جداً على قلبه. عندها فقدت صفاتي كرجل إنكليزي نبيل يتحمل تلك المواقف وصحت فيه من فرط ارتباكي:

- "ما هذا يا سيدي! قلْ لي ما يشغلك؟".

كصياح الفأر في المصيدة خرجت كلماته التي فهمت نصفها الثاني فقط:

- "تحققت النبوءة!".
- "أي نبوءة تقصد؟".
- "ماتت أمي! ماتت!".
- "ومتى حدث ذلك؟".
- "نبوءة الغجرية. حدث ذلك كما قالت بالضبط عندما كنتُ بعيداً، العام الماضي عندما كنا في دوسلدورف، أو ربما عندما تركتُك وذهبتُ إلى بازل!".

حاولت أن أفتح فمي فلم أستطع، وهالني ما سمعت. خنقتني الغُصّة واحتبس حلقي ولم أقوَ على الحديث، تألّمت لألمه، طرقت بيدي درج مكتبه واستأذنته خارجاً بإشارة غير مفهومة. لم يجبني ولم أنتظر منه إذناً، خرجت. كان الوقت عصراً، جلست تحت شجرة السنديان العجوز وطلبت من كيت الشاي وبعض الشراب وكلّفي ذلك العديد من الإشارات لتلك الخرساء التي وجدتها أصبحت بدينة كبطة مدللة، الجميع في ملابس الحداد السوداء، كيف فاتني ذلك ولم ألحظه؟ سألت الخادم عندما مرَّ بي يحمل جاروفاً:

- "متى جاء الخبر؟ وأين توفيّت؟".
- "لا أعلم! لم يأتِ لزيارتنا سوى ساعي البريد المستعجل و...! ظهر اليوم عبر البريد المستعجل، نعم، يقال إنها ماتت بعيداً... في أمريكا!".
- "حسناً.. شكراً لك".
- "هو على ذلك الحال منذ أن قرأ الرسالة، لم يتحرك. أنا خائفٌ عليه فهو كما تعلم أمريكي متقلب وإن كان هادئاً!".
- "ممّ أنت خائف؟ وضح لي...".

تعلثم قليلاً وأخبرني:

- "لقد رأيته يحمل مسدساً... مسدسه!! بعد أن...".
- "قل... بعد ماذا؟".

وشوش في أذني خائفاً:

- "زارنا ظهر اليوم السيد الأعظم!".

وقبل أن أدفعه ليخبرني بحقيقة السيد العظيم هذا، ظهرت كيت تهزُّ كتفيها كأنها دهن خنزير مجمد، وما إن رآها حتى هرب سريعاً كأنه قِطٌّ اختلس قطعة لحم عبر النافذة.

لم يكن وِلْكَم من ذلك النوع الذي تغلبه الحياة فينتحر، ثم خيّل إلينا أننا سمعنا صوت طلقة نارية فهرعنا إلى الداخل بسرعة، ظلت كيت منشغلة بحياكة بعض الصوف تعطينا ظهرها. لم نجده في غرفة المكتب، لحق بنا الخادمان وحارس البوابة والأعمى غريب الأطوار، أما القصير القذر فكان يقف جوار الطاهي ذي الأنف الأفطس. لم يتجرأ أحدهم على الصعود إلى غرفته وكانوا ينظرون إليَّ ثم إلى الأعلى في إشارة واضحة، ولم أكن بحاجة لأعرف أنني من يجب عليه أن

يصعد. لم يهمني شيء غير سيدي وصديقي الحبيب، فهرعت دون شعور وبحثت دون هدىً في الغرفة والصالات الجانبية وغرف الحمام والشرفات، وتذكرت قوله لي: "الشُّرُفات هي نوافذ الآلهة، إن أردت البحث عن شيء لا تنظر إليه من نفس السطح بل ارْتَقِ إلى مكانٍ عالٍ، فالله يراقبنا من السماء العالية، من نافذته الكبرى، من الشرفة الأبدية، وعليك أن تحذو حذو الله في نظرته فحتماً تلك هي الطريقة الصحيحة للنظر". لذا أشرعت الستار السميك ونظرت من الشرفة، ولم أرَ شيئاً فعدتُ حائراً متأكداً من أنه لم يصبه مكروه. حدسي يخبرني بذلك.

واصلت البحث، وفي نهاية أحد الممرات الخلفية أثارني درعان كاملان لفارسين من القرون الوسطى، كانا مثبتين إلى الحائط بإتقان فريد، مرعبين في ذلك الظلام الذي هبط سريعاً. لامستهما فكاد جلدي أن يفرّ بعد موجة ذعر فقد كانا باردين تماماً وثابتين وتوقّعت أن يكونا حيّين! بين الدرعين كانت هناك بوابة قوية ذات مقبض مشغول من البرونز، لم أتمكن من فتحها لكنني شعرت بأن هناك أصواتاً مكتومة تصدر من خلفها، بحثت فيها سريعاً عن منفذ لأنظر منه لعلّي أرى ما يحدث ولم أجد، فوضعت أذني على الباب وأخذت أتسمّع. لم يكن هناك شيء معين، مجرد ضوضاء مبهمة، نزلت وطمأنتهم بحديث غير مفهوم. وإلى القبو مضيت، لم يكن هناك باب سريّ أو سلّم خفيّ. وهكذا أصابني اليأس والتعب. لمَ كل ذلك؟ أحبطني الأمر وتلاعبت بي الهواجس. ماذا لو كان قد أطلق النار على نفسه، هل سأسمح له بأن يموت؟ يجب أن أقف إلى جواره في محنته، يجب أن لا أخيّب ظنه فيّ، يجب أن أفعل شيئاً. وأحسست بالعجز كرجل مشلول أراد الدفاع عن ابنته الوحيدة أمام وحش مفترس ولم تطاوعه رجلاه. انتحبت بشدة.

تعوّدَت عيناي على الظلام، وشاهدت جدارية ذهبية نُحت داخلها اسم "وِلْكَم"، شعرت بأن شيئاً رهيباً يحدث أو سيحدث لكنني أجهله، رغم إحساسي بأنني جزء منه. عدتُ إلى غرفة المكتبة، وجدت أدراجاً سرية مخبأة بعناية لكنني لم أكن أهتم وإن كُتبت فيها جميع أسرار اكتشافاته العلمية، قادتني أفكاري إلى بقعة سوداء مظلمة فلاحظت المكان من حولي، قوائم درج المكتب على شكل مخالب منحوتة في خشب أبيض، شمعدانات من الفضة الخالصة منتشرة في كل مكان كأنه متجر زينة. بالخارج كان فليكس ذو الرأس الأصلع كحبة فاصوليا جالساً في مقعد وقد انضم إليه الخادمان مالون وستيف وكانا يجلسان بلا مبالاة على الأرض ويتشاغلان بمحاولة القبض على أكفّ بعضهما البعض، ما زال دانيال الطاهي ممسكاً بالمقلاة منذ سماع صوت الطلقة، وجون الحارس يتأبط بندقيته ويقف كجندي جديد يجرب بزة العسكرية، وكيت مدبرة المنزل تلغو وحدها وتتلو صلوات بشعة؛ في سرها بالطبع. أما بختيشوع فكان يبتسم في بلاهة. تمالكتُ أعصابي أمام هذا الهُرَاء حتى لا أطأه كما أطأ حيواناً قذراً وصغيراً وضعته أقداره في موطئ قدمي.

قرّرنا أن لا نخطر الشرطة بعد، وما كنا نملك بديلاً غير الانتظار فرُحنا نتبادل الآراء. قلت:

- "أين يمكن أن يكون؟ أين يختفي؟ هل للقصر أماكن سرية نجهلها؟".

قال بختيشوع بصوت تينور لا يناسب هيئته:

- "كان يجلس في مكتبه، وإن أطلق النار على نفسه فكيف تحرّك؟ وأين هي الدماء. لا تقلقوا، سيظهر عندما يهدأ".

أمَّا جوني فقد طرح وجهة نظر مختلفة تماماً وبصوته الأجش قال:

- "مهمتي هي حراسة البوابة وليس من اختصاصي التفكير معكم هنا كالرِّجال الناعمين. أريد الآن أن أعرف من سيعطيني راتبي إن لم يظهر السيد؟".

ردّ عليه عود الثقاب:

- "حسناً يا جوني، بالرغم من أنني لم أرك يوماً، ولا أريد حقاً أن أراك بعد حديثك هذا، لكن لا بأس فأنا ألتزم لك براتبك مثل ما يحدث معك كل شهر، والآن عد إلى عملك".

تحرّك فوراً كأنه يعمل تحت إمرة فليكس. قال مالون وستيف في نفس اللحظة:

- "ونحن؟".
- "عليكما الانتظار والدعاء للسيد، يا له من موقف مهيب لعله يفكر أن يسافر إلى أمريكا!".

ردّا عليّ في نفس اللحظة:

- "حسناً! إذن الأمور كما هي".

انصرفا، وتبعهما دانيال أيضاً. سرحت في فكرة أدخلتها إلى عقلي بشكل تلقائي: "هل سيذهب وِلْكَم إلى أمريكا ويتركني؟ هل سيختفي من جديد؟ لا يمكن أن يفعل ذلك فأنا صديقه... ولن أدعه!".

كنتُ جائعاً بلا شهيّة، وتعباً دون رغبة في النوم. أعطاني فيلكس سيجارة بعد انصراف الجميع وحدثني:

- "إن سيدك رجل نبيل، لكنه غير مرتاح، فهو يرغب في أن يكون سيّد العالم، يعكف أياماً وأسابيع يقرأ ويدوّن ويرسم ويحسب الأرقام، في عقله عقول عديدة ومواهب فريدة لم

يعطها الله لرجل عادي، وأنا غير خائفٍ عليه إطلاقاً. إنه حفيد داؤود وسليمان... وهم لا خوفٌ عليهم".

كان يتحدث رافعاً الكلفة بيننا، كأنه يعرفه منذ زمن بعيد، أو أنهما صديقا دراسة أو شيء من هذا القبيل، وأتاني صوته مرتخياً واثقاً كأنه لا يفشي سراً، كما خاطبني بالرفيق، وهنا حضر إلى ذهني أمرٌ واحد: محفل أبوللو. وتذكرت أين سمعت هذا الصوت من قبل. إنّ من عمَّدني وتلا عليَّ قانون البنائين كان لديه نفس الصوت، أتذكره جيداً عندما طالبني بوضع الفرجار في صدري وأخذ عهدي. نعم إنه هو؛ فيلكس. إذن لقد كان خبيراً أعظم. يا إلهي! كيف لم أنتبه إلى ذلك؟! نعم إنه هو، حتماً هو. قطع عليَّ أفكاري حين قال:

- "يؤسفني أن رفيقك قد مات في باريس، بعد أن عاش حياة جديدة وطلب العفّة بعد خروجه من السجن".
- "من تقصد؟".
- "سباستيان ميلموث!".

كمن وخزني بخنجر في ظهري:

- "من؟!".

وقبل أن يجيب تذكّرت أين سمعت هذا الاسم، نعم هو ذات الاسم الذي سمّى به وِلْكَم نفسه في الفندق. أيعقل هذا؟ لكنه عجّل بالإجابة:

- "أوسكار وايلد! ألا تعرف اسمه المستعار؟!".

إذن لم تكن محض صدفة أبداً. كنت أعلم بوفاته طبعاً، قرأت الخبر، لكنها المفاجأة التي أرعبتني وأسالت لعابي وأفقدتني السيطرة على نفسي، فقد ترابطت الأحداث فجأة أمامي، فمن قدّمني إلى البنائين

الأحرار كان أوسكار وايلد زميلي في أوكسفورد، وهو أيضاً من قدّمني إلى وِلْكَم، والاسم الذي استعاره وِلْكَم في مونت كارلو كان "سباستيان ميلموث" الذي يستخدمه أوسكار وايلد. كأنما سحقتني مطرقة ضخمة. أصابني التبلّد ولا أجد فرقاً بيني وبين كيت الخرساء الآن. أخذت أردد في سري: "لا يمكن أن يكون كل هذا مجرد مصادفة، لا يمكن!". كلما اتضحت لي الرؤية في الأمور التي أجهل أجدها تزداد تعقيداً، وكلما اتضحت الأسرار الملغزة تكَشّف أنها جزء بسيط من منظومة عملاقة؛ كحبة شعير في أمعاء دجاجة أكلها رجل ابتعله حوت قبيل صيده من أجل الزيت، كما تبتلعني الأسرار المكشوفة الآن، لكنها لم تكن تقودني إلا إلى مزيد منها. أمرٌ لا يُصدق!.

عرف فليكس تخبّطي وفسّر صمتي بذكائه الحاد الذي جعلني أحترمه كثيراً:

- "لستَ سوى جزء صغير من العالم يا "يوريبا". لا تقلق ولا تهتم بالمعرفة يا فتاي!".

نطق اسمي كاملاً دون كلفة وبعفوية تامة كأنه يقول لي "صباح الخير" وأحسست بأنني عارٍ فسارعت بالردّ:

- "وكيف لا أهتم؟".
- "ألا تعلم يا فتاي أنّ أشدَّ ما يفتك بالإنسان هو المعرفة؟".
- "ليتني لم أعلم... ليتني لم أعلم!".
- "هوِّن عليك! اِذهب إلى صديقك فهو صافٍ الآن، ستجده في غرفة المكتب!".

مشيتُ متكاسلاً وكلّي ثقة بأنني سأجده هناك، ولم يخيّب الرجل الأعمى ظني، فقد وجدتُ وِلْكَم جالساً يدخّن غليون العنبر، ضحكت

دون إرادةٍ منّي وجلست بروح فاسدة متعرقة وتعيسة. قام متثاقلاً وربّت على كتفي قليلاً ثم صعد إلى غرفته. دون كلمة واحدة.

في فراشي تلك الليلة، وبرغم تعبي وإرهاقي وجُلّ ما حدث لي، لم يزرني النوم بتاتاً. إذن هكذا تمضي الأمور! جميع من في هذا القصر من البنّائين الأحرار. لكن من هي المرأة؟ هل جميعهم كذلك أم بعضهم؟ أيعلم وِلْكَم بأمر فليكس؟ لماذا استخدم اسم وايلد المستعار في مونت كارلو؟ وهل اصطفاني فعلاً لأكون صديقاً مقرّباً أم هي إحدى تدابير الأحرار الكونية؟! كاد عقلي أن ينفجر، وفجأةً لمع في ذهني أمر ما، خاطرٌ وامض وسريع، قذف في رأسي الحقائق ورتق لي بعض الخيوط ثم مضى. قفزت من السرير وأخبرت نفسي كأن ما سأتلوه الآن سيتلاشى إن لم أتفوّه به:

- "سيلاس بوروز قد مات، مات سيلاس في المستشفى وليس في الشاطئ، كما إنه مات نتيجة لمرض أيعقل أن يكون وِلْكَم قد تخلص منه؟ هاه! اللعنة! كيف فات عليَّ هذا الأمر؟ لقد كنتُ الرجل الذي يمكنه أن يكتشف أن بوروز قد قُتل، أنا الرجل الوحيد الذي كان من المفترض أن يكشف ذلك الأمر، لكن وِلْكَم استغلّني ليحظى وحده بالشركة. يا لسذاجتي! كيف لم أعِ الأمر! أنا القانوني الأول في الشركة، كيف لي أن أكون بهذا الغَباء؟ لقد قُتل سيلاس! تخلص منه وِلْكَم، وقرّبني إليه لأنني الوحيد الذي كان يمكن أن يكتشف ما حدث!".

لكن الحقيقة التي اكتشفتها متأخراً هي أنني لم أكن أبداً ذكياً ذات يوم؛ متأخّر الفهم دائماً كماعز أحكم الذئب قبضته عليها. مَنْ غيري كان سيكتشف مقتل بوروز الذي مضت عليه الآن ست سنوات؟ يا إلهي! لماذا رشّحني أوسكار للبنائين؟ لماذا أنا بالتحديد دون جميع

زملائه السابقين في أوكسفورد؟ لماذا اختارني أنا؟ هل هي صدفة؟ أم هو أمرٌ مدبر؟ يختارونني لأنضمّ إليهم وأُنفّذ لاحقاً ما يوكل إليَّ، ومن ثم يقدّمني وايلد إلى وِلْكَم ويتم ترشيحي للعمل لأكون الرجل الأول لأنهم كانوا يعرفون منذ البداية أنني لن أفعل شيئاً يضيرهم مهما اكتشفت. لكن من المستفيد؟ وهل كان أوسكار في ذلك الزمن يعلم أن هناك رجلاً أمريكياً في الطريق إلى بلادنا الآمنة؟ إنه الشيطان بلا شك! يا لتعاستي ويا لغضب يسوع عليّ! يجب أن أعترف. وهنا تذكرت طقوس التعميد والعهد، وأدركت إلى أي مدى أنا متورّط. لكنني لن أصمت، سأخبر سكوتلانديارد بكل شيء، سأذهب إلى أوليڤ، سأفضحهم، لكن بعد أن أجمع الدلائل.

وقبل أن تغمض عيناي من شدة التعب مع مشارف الصباح، دار بخلدي السؤال الأهم: إذا كان كل هذا قد تم الترتيب له منذ عشرات السنين فلماذا يحدث الآن؟ وفيم أنا متورّط دون أن أعلم؟ حتى من قبل أن يصطفيَني وِلْكَم كما ذكر، ويسمح لي بالاقتراب من حياته، من المؤكد أنهم كانوا يخططون لشيء بشع وأشدّ خبثاً من خيانة المسيح.

راودني حُلمٌ مفزع بشدة تلك الليلة، "رأيت نفسي في مكان غريب، وسط جبال عالية شاحبة. شاهدتُ نفسي في الحلم كأنني شخصٌ آخر. كانت لي نظّارة مثل التي يرتديها وِلْكَم، وملابس مثل ملابسه وشاربٌ كبيرٌ أيضاً. رأيتُني أجري في أرضٍ سوداء، جافّة ومتشقّقة، كنت كبيراً في العمر إلى درجة أن ظهري قد انحنى وأصابعي قد التوت وتبقّع جلدي كرقعة شطرنج، أما شعري فقد كان سحابةً بيضاء وحذائي ملطخاً بالدّم. كدتُ أقع ثم نظرت إلى الأسفل فوجدت رباط حذائي قد انحَلَّ، انحنيت أكثر لأربطه فوجدت الخيط مربوطاً في نهاية طرفية الأثنين بقلادة نحاسية مستديرة، كانت مغطاة

بالدم فمسحتها بيدي وقرأتُ رقماً مطبوعاً عليها "4050"، قطعتها ووضعتها في جيبي ثم خلعت الحذاء وواصلت الركض لا أكاد أرى أمامي. الأرض هي التي تتدحرج نحوي ولست من يجري فوقها، هي التي تدور بي، أيقنتُ أنني واقفٌ في مكاني وأنَّ الأرض هي التي تجري تحت قدميّ، لا يمكنني التوقّف أبداً، عليَّ مجاراتها بشكل دائم رغماً عني، وكنتُ أرى نفسي أهرول من قمة جبل عالية، فيها بناءٌ ضخم، ورائي تماماً، لم أره، لكنني أعلم بوجوده كما استوعبت في الحلم، ومن مكاني ذلك شعرت بأنني أنا الله أُتابع من شرفتي ما يحدث في الأرض. زهوت، وفي الوقت ذاته الذي كنتُ فيه الرائي والمرئي، والله، لم أستطع مجاراة السطح المندفع، وسقطت، انجرف جسدي بعنف بين الصخور، غاصت ساقاي في كومة من الأضلع الآدمية والجماجم، وتدفق ذهبٌ أصفر يسحر الألباب في وجهي، فصرخت فرحاً: "إكسير الحياة" لكن الذهب تدفق بكمية كبيرة، وكنتُ أبتسم وأضحك، والذهب يدفنني أسفله بقوة، كنتُ أراني أُدفنُ ولا أهتم أو أتفاعل، أو أنني أنا الرائي، كنتُ شخصاً آخر يُخيَّل إليّ أنه أنا، أو كنت أنا أنا؛ والمرئيّ شخصٌ آخر تخيّلته أنا، لكن في نهاية الحلم غرقت في الذهب الأصفر وغبت عن الأنظار. وهنا زالت الغشاوة عن عقلي وقلبي واختفى أنا المرئي من أمامي، وشعرتُ بأنني سعيد لأنني اختفيت عن ناظري. أدخلتُ يدي في جيبي لأُخرِج ساعتي لكنني وجدتها قد تحوّلت إلى القلادة النحاسية، كانت بنفس حجم الساعة ونفس الاستدارة، قرأت الرقم وأدخلتها في جيب سترتي البيضاء، جوار ساعتي. ولم أُفاجَأ أبداً".

***

منذ تلك اللحظة التي دخلَتْ فيها العربة الضخمة، ذات المقصورة الحمراء الفاخرة، إلى قصر خليج كارديف لم يَعُد وِلْكَم كما كان. وما دار بالداخل هو ما أثار جنونه ولا شيء سواه، فالزائر كان شخصاً مهمّاً جداً، ليس مهماً فحسب بل بالغ الأهمية ولا يتواضع لزيارة أحد حسب علمي. لا يعرف أحد حقيقة الاجتماع السري الذي دار بينهما، لكن وِلْكَم كان في استقباله بملابسه الرسمية، قلقاً متوتراً ينفث دخان غليونه كأنه مرجل بخاري، أخبر الجميع بأنه في انتظار ضيف فوق العادة، وعليهم الاستعداد جيداً، أطلقوا بخور الهند الملكي من مباخر نحاسية كبيرة، وجمعوا الأزهار التي زَيّنت غرفة المكتب حيث اختليا لأكثر من ساعة. في الحقيقة لم يكن وجه الزائر مكشوفاً، ولم يلمحه أحد، رغم معرفتهم به. جاء متّشحاً بملابس غريبة نوعاً ما، ويرتدي قبعة كبيرة ويلفّ حول كتفيه كوفية بيضاء. كان معه كثيرٌ من المرافقين، يطوّقونه إلى درجة تخفيه عن الأنظار، لكنه دخل الاجتماع وحده، ذلك بعدما انحنى وِلْكَم وتناول منه عصاه ومعطفه بنفسه، وطلب من بقية الضيوف أن يكونوا على راحتهم، كيت وفليكس فقط في الخدمة، بينما ابتعَد أولئك الملاعين.

وصَف مالون العربة الفخمة: "لولا أنْ طرَقتُ عليها لما قلت إنها خشبية أبداً، إنه خشب البلوط، أستطيع أن أعرفه بمجرد أن أتحسّسه، وكانت مزوّدة على جانبيها بشعار النبالة الملكي الفريد بتاجه الذهبي، ولها أربعة مشاعل مضاءة بالغاز وسلّم من خمس درجات محفوف الجانبين بالمخمل والقطيفة الحمراء، وزجاجها لا أعلم كيف قُطِع بتلك الأشكال غير المنتظمة. وما يميز العربة هو صوت مشية الأحصنة ذات النغم الواحد والحدوات المصنوعة من معدن لا هو بحديد ولا هو بشيء أعرفه فقد كان رناناً و...". لم أستمع إليه حقاً، فلم يكن يهمني غير سيدي الذي لم يخرج.

بعد يومين قضيتهما في عذاب نفسيّ عدتُ إلى لندن من جديد برفقة وِلْكَم. طلَب مني أن أنتقل من شقتي في الجانب الشرقي من المدينة إلى شقة أخرى بالقرب منه، تقع في شارع ماريليبون. دوّن لي الوصف وأعطاني المفاتيح، لم أكن أحب الويستمنستر فهو لا يشبهني، تعجبني شقتي في لامبث رغم صغرها، ومن نافذتي أستطيع أن أشاهد التايمز وقصر كانتربري. أحب مكاني المتواضع، بين جيراني الذين لا أعرفهم ولا يعرفونني. لكني قمت بالأمر وأطعت. خرجت ومعي حقيبة واحدة وخزانة حديدية، ساعدني الحوذي في وضع حاجياتي ولعن في وجهي حصانه الكسول ومضينا إلى الضفة الأخرى للنهر؛ إلى شقتي الجديدة حيث يقيم الأثرياء، إلى عالم لا يوجد به كثيرٌ من المتسوّلين أو البحارة واللصوص أو السكيرين المزعجين. ذهبت إلى عالم لم يكن يشبهني منذ الأزل ولن أشبهَه. مضيت ولا أعلم ما أنا مُقبلٌ عليه.

23
القرن الجديد

كان العام الأول من القرن الجديد موسماً للحزن؛ تحديداً الثاني والعشرين من شباط. كان يوماً صعباً على العالم أجمع، مساء حزين يعمّه البرد والضباب، رحلت الملكة ڤيكتوريا حفيدة الملك العظيم جورج الثالث؛ الملك الذي بذل كل جهده ليحافظ على مستعمرته الأحدث... أمريكا. في ذلك اليوم، لم يرتح سُعاة البريد بالعالم أجمع، ولا القطارات ولا العربات ولا الخيول، لا القوارب ولا البواخر ولا الرياح، لا كاميرات التصوير ولا الأحذية، حتى لفافات التبغ لم تهنأ في ذلك اليوم، بل احترقت بشدة كحرقة الجماهير التي بكتْ سيدة العرش التي لا يمكن لأحد أن يملأ ما خلّفت من فراغ. هرع الناس والمعزّون من أقاصي العالم في أشكالٍ شتى لحضور جنازتها التي أُقيمت بعد حوالَي عشرة أيام من وفاتها في كنيسة القديس جورج بقلعة وندسور، ثم بعدها بيومين دُفنت بفستانها الأبيض كما أوصتْ إلى جوار زوجها ألبرت بحديقة وندسور في ضريح ملكي لا يشبه غيرها. ذلك اليوم، الذي يتذكره وِلْكَم جيداً، لم تتوقف فيه الثلوج، كأنه كان يبكي ملكته التي حكمت العالم دون شك لأكثر من ستين عاماً.

حضرتْ الوفود من كل صوب وحدب، الصين والهند وأمريكا، مصر والسودان وتركيا، أمراء بلغاريا والنمسا والمجر، الألمان والإسبان والعرب، القساوسة والأطباء والمهندسون، الأرامل والأيتام والمتسولون، ولم يكن يفتقدها أحد أشدّ من حبيبها "توري"؛ كلبها المُدلل الذي كان آخر من طلبتْ إحضاره إليها قبيل أن تطفو روحها خارج الحياة.

أسوةً ببقية المستعمرات حضر وفد رفيع من مستعمرة السودان لتقديم التعازي والمشاركة في تنصيب الملك الجديد؛ ألبرت إدوارد. ذلك الوفد الذي سيغير حياتي ويثقل ظهري بالهموم، ذلك الوفد الذي كم تمنيت لو أنه لم يحضر، أو أننا لم نلتق به أبداً.

كان ضمن الحاضرين رجل قميء، خبيث كبرغوث، يعرف كيف يمتصّ الدم كقرادة دميمة. كل ما يجعل منه شخصاً مهماً هو أنه يحمل في جيبه السودان القديم "بلاد الذهب"، بحضاراته وأهراماته ومدافنه الملكية، برماله الساخنة وخزائن أسراره ومخابئ عظمائه الأبدية. رجلٌ نوَى أن لا يعود أدراجه إلّا بعد أن يُجري صفقة تجارية كان قد انتظرها وبحث عنها طويلاً. من حسن حظّه أن كان يهتم لأمر التعليم والمعارف في السودان، والتقى هناك بوزير المعارف السير جيمس كوري، وكان هذا برفقة هنري وِلْكَم الذي صار لصيقاً ببعض بعثات المستعمرات وخصوصاً موفدي السودان، وأخذ يهتم بتلك المنطقة، منذ أن قابل تشستر بيتي وباعه تلك المخطوطة، لذلك سعى دائماً ليجالس أفراد الوفد يسألهم عن كل ما هناك؛ الموقع والعادات والطقس، الطرق والمدن والموانئ. كان يفترض أن تلك المنطقة تحوي في جوفها أسراراً عظيمة، وما دامت قد جاورت مملكة أكسوم وحضارة الفراعنة فلا شك أن تلك المملكة كانت ذات شأن. يخبره قلبه بأن البقعة التي في المنتصف هي الأهم... مملكة سنّار.

أَسَرَّ إلى هربرت كتشنر باهتمامه بحضارة السودان القديمة، وأخبره بما سمعه قبل عدة سنوات من رحّالة ومستكشفين، ثم أطْلَعَه على بعض التفاصيل التي أخبره بها تشستر بيتي عن ما يمكن أن يكون هناك. ولم يكن الأمر صعباً، وبوساطة ممّرض سابق يتقن العربية التقى وِلْكَم بالرجل الأسود الذي يضحك ببلاهة كما يأكل، كان يحمل اسماً

صعباً فأطلقوا عليه صوتاً موسيقياً يقارب نطق اسمه "إيلي" بدلاً عن "قيلي" والذي كان حاكم مديرية الفونج في تلك الفترة. لم يُخْفِ الرجل معلوماته عن وِلْكَم، أخبره بما فعله الملك بادي السابع بمملكته، كيف خَرَّ منحنياً أمام المصريين، وكيف احتمى الأوصياء الهمج والشُّرفاء وجيش المملكة العرمرم بأحد الجبال الضخمة، إلى أن ضرب عليهم الجيش الغازي حصاراً لا يمكن الإفلات منه. لكن وِلْكَم سأله مقاطعاً: "أنا أبحث عن مملكة فُنج، السلطنة الزرقاء، هل تعرفها؟!". ردَّ عليه قيلي أن مملكة فونج هي ذات المملكة التي يخبره عنها... مملكة سنّار. التي تأسّست بناءً على فطنة رجل قوي وذكي سمع بسقوط الأندلس فأقسم أن يؤسّس مملكةً أقوى منها. وكان للملك عمارة دُنْقُس ذلك... بعد ستّ سنوات.

أثارت تلك المعلومات وِلْكَم لكنه تظاهر بالعكس، شكَر الرجل وانتهى أمر الزيارة، لكن الأمر لم ينتهِ فقد بدأ للتو. قبل أن يَخرُج الرجل أدخل يده إلى خرقة بالية وأخرج منها ورقة صفراء مستطيلة ولوّح بها في وجه وِلْكَم، لم يفضّها أو يفصح عن محتواها، بل عرَضها مباشرة وبلغة إنكليزية لا بأس عليها بالنسبة إلى شخصٍ آتٍ من وراء البحر: "سأبيعك هذه الخريطة. إنها لا تُقدر بثمن، وبها ستعرف مكان ملوك الشمس والظل، وإذا أنت وجدتهم فإنهم لن يتركوك مهما أردت". بالطبع كان حديثه مثيراً وغامضًا. خاب ظني عندما سقط وِلْكَم في الفخ. لم تستمر المفاوضات كثيراً، وانتهى الأمر بالخريطة إلى حوزة وِلْكَم في مقابل ساعة جيب ذهبية باهظة الثمن، علّقها الرجل حول رقبته وخرج سعيداً مكشّراً عن أسنانٍ ناصعة... ناصعة كقمم جبال الألب في الصيف.

***

تدور الأحاديث هنا وهناك، عشيق الملكة الشرقي، فضائح ميراثها، انشقاقات الأسرة الهانوفرية، وصاياها ومذكراتها الخاصة، صراع بيت ساكس كوربورغ، أقاويل حول مؤامرة داخل البلاط، التأخّر المريع لحفل التتويج، وأخيراً غياب وليِّ العهد عن المشهد. لم يظهر وليّ العهد منذ مدة طويلة جداً، بل لم يرَه أحد في العزاء. يدور الهمس عن عزله في قصر بأدنبرة، يتحدّث البعض عن موته فهو على أعتاب عامه الستين، ويؤكد البعض أن ابنه جورج قد أبقاه تحت الإقامة الجبرية في قلعة نائية بأحد أرياف سكوتلاند. وهكذا هو مجتمع لندن الفضائحي؛ يبحث وينبش ويتداول القيل والقال ولا يتعب.

في تلك الأيام كان وِلْكَم يزور قصر باكنجهام باستمرار، يُوْلي الملك المنتظر رعايته الكاملة ويعمل جاهداً على مداواته من مرض أصاب بطنه. وفي الأثناء التي لم تكبح فيها الجماهير جماحها، وبعد مضيّ شهر ثم شهرين ثم ثلاثة دون أن يخرج الملك لإلقاء خطبة العرش التي ينتظرها الجميع، في تلك الساعات المفصلية على الإمبراطورية العظيمة، خرج وِلْكَم إلى قصره في كارديف مجتهداً في إيجاد علاج نهائي للمرض الذي يَحُول دون ظهور الملك، والذي لم يكن سوى "السفلس" الذي نال من الرجل ووجهه البدين إلى درجة أنه تحوّل إلى قطعة بطاطا نهشها فأر جائع. ومنذ أن زار الملك وِلْكَم في ذلك اليوم بقصر خليج كارديف ملتفاً بالوشاح ليخفي انتفاخ وجهه وبشاعة منظره، والمحاولات والاختبارات تجري كل يومٍ وساعة، حركة دؤوبة يشرف عليها أفضل باحثي شركة وِلْكَم، في قبو القصر. حضرت المومسات المصابات بالمرض، مُنِحْن بعض المال الذي لن يَعِشْن ليحققن به أحلامهن، وأُجرِيَت التجارب. الزئبق، محاليل الهيستامين، مستحلب أوراق شجرة الأركان الذي أحدَثَ بعضَ

التحسّن لدى الملك. كان وِلْكَم يبذل كل ما يملك لأجل أن يخرج الملك إلى الناس في تموز، وتم تحديد الموعد المُرتقب.

لم يُهمِل وِلْكَم عنصر الوقت أبداً. لذا قرّر السفر جنوباً وراء البحار، برفقة السير جيمس كوري والدكتور باتريك دين وبعض التجّار. أبحروا لأيام ثم نزلوا بالقاهرة وقضوا فيها أياماً عديدة، ثم توجّهوا جنوباً إلى الخرطوم. ووصلوا في نهاية خريف ذاك العام.

تلك الأيام، كان المطر يعانق أوراق الشجر المتساقط ويغرقها دون انقطاع، يجأر النيل مختالاً ويفوح عطره الطينيّ في الجوار، في شارع سراي الحاكم العام الذي تغيّر اسمه الآن إلى "شارع الملكة ڤيكتوريا" تخليداً لذكراها، كما حدث في أماكن عديدة حول العالم، الشارع الذي تصطفّ في جوانبه أشجار اللبخ والمانجو والنيم والمحلات الراقية والفنادق المبنية على الطراز العثماني وبعض فنون العمارة الأخرى. أمّا مبنى السراي بطرازه الفريد فقد أطلقوا عليه اسماً حركياً بنيّة تجميله على نحو مبالغ فيه، ألا وهو "الطراز الڤيكتوري". وكأنها لعنة أصابت العالم بعد وفاة الملكة، عبارة يكمن في طياتها الكثير؛ "العهد الڤيكتوري"، "الفن الڤيكتوري"، إلخ. كل ذلك الهوس بتخليد الموتى لم يكن عدا قرف! بعد مائة عام ستتداعى إلى مخيلة سامعي تلك الكلمات أنماطٌ مختلفة من الأشياء؛ تسريحات شعر غريبة، قبعات شيطانية، عربات ذات مقصورات متكلفة يجلس خلفها سائسون نجوا بأعجوبة من الجدري أو الجذام والكوليرا، أحذية رجالية ذات كعوب عالية، عصي فريدة الاستخدام، تَكلُّف بارع لا يقارن بمهراجا على هيئة الإله فيشنو، نظارات بعدسة واحدة، حفلات الرقص، دعوات الشاي، استثمارات المستعمرات، الحروب، والأهم من ذلك كله؛ الإمبراطورية التي تحرسها الشمس.

حكى لي وِلْكَم: في شارع السراي، أو "شارع ڤيكتوريا" كما أحَبَّ الجنرال ريجنالد ونجت تسميته، كان الموظفون يمشون مرفوعي الرؤوس كأنهم إوز في موسم التزاوج، متّشِحين بكامل زيّهم رغم سخونة الجو؛ كانوا يرتدون السترات وربطات العنق كأنهم موفدون سامون، يتأبّطون العِصِيّ ويرفعون القبعات احتراماً، كما تحمل السيدات مراوح الورق الصيني أو الريش. ولم يكتفِ ذلك الشارع بإثارة الغيرة في نفوس الزائرين فحسب، بل أصابهم بالأرق لكثرة ضجيجه في الليل وصخب حفلاته. ثمّ إنه كان ينتهي بالبناء العظيم، سراي الحاكم العام؛ البناء الساحر الذي فتن كل الأوروبيين. صارت الخرطوم، بعد انتصار كتشنر، تستقبل الناس بحميمية، آمنة ومطمئنة. تضع ذكرياتها في أيام الكثيرين.

كانت ساحات الرقص في الفنادق ممتلئة بالراقصين وهي تصدح بموسيقى الجراند بيانو، وتمتلئ مخازنها بمختلف أنواع النبيذ والبراندي وبالطبع الويسكي الإسكتلندي الفاخر، حيث كانت تُصنع أفخم الكوكتيلات لسياح من مختلف العالم، لا يعودون إلى بلادهم الصاقعة حتى تكتفي أجسادهم البيضاء من دفء الخرطوم وشمسها الساطعة. اليونانيّون بلكنتهم المضحكة التي تشبه ضحك السعادين، محلات العاج والمصنوعات الجلدية النادرة، المطاعم التي تقدّم أفضل ما يمكن تخيُّله في المدينة التي يلتقي فيها نهرا الحياة.

وبدأ عهدٌ جديدٌ عندما قرّر أحد أهم رجالات العهد ما بعد الڤيكتوري أن يفتح مكتباً في الخرطوم، كان اختيار المكان سهلاً، بناء كبير يطلّ على السراي مباشرة، ومن غرفة المكتب العلوية يمكنك أن ترى النيل، يمكنك أن تعدّ أمواجه الهادئة كالبلاد التي شهدت ثورات ومعارك ثم أرْهقها الهتاف والموت والجوع، فخضعت لسيّدها أملاً في

الغفران. هناك بالأعلى كان وِلْكَم يجلس لمشاهدة الحركة اليومية، نموّ أشجار حديقة السراي، البستانيّ المصري وهو يمرّر رشاش الماء بين الريحان فيشمّ رائحة الصحو، النشاط الكبير والجنود المرتسمين كلوحة من قبل التاريخ لكلاب تتبوّل، يشاهد حركة الأزياء الرسمية بمختلف الأجساد التي تسكنها، بتدرّج ألوانها وتقاسيمها. عبر النافذة الزجاجية العريضة يمكنه أن يعدّ كل شيء: السيارات التي تُعدّ على أصابع اليد، العمائم التي لا تُعدّ أبداً، الشلوخ التي ترقد مطمئنة في خدود الجميلات السّمراوات، المظلات السوداء والبيضاء التي تعكس شخصية من يمشي أسفلها، القبعات الإنكليزية والفرنسية والإيطالية بل والأمريكية أيضاً، المصريين والشوام، اليهود المُسرعين والأحباش الذين لا يفوتهم أي شيء، تجمّعات السودانيين في المقاهي، حديثهم الذي لا ينتهي، باعة الأقمشة المحليين، التجار الجشعين المحزومي الكروش كقنابل على وشك الانفجار، إعلانات المتاجر وصالات الرقص الورقية في الفرندات، صناديق الجن والبيرة وصياح المُنادين وأصحاب الدعوات، المستثمرين الذين أتوا من أقاصي العالم، وُكلاء الأعمال والشركات العالمية الذين يشحنون الصمغ والعاج. أما من الناحية الأخرى؛ حيث النافذة الزجاجية العريضة التي ترتمي خلف شرفة دائرية مزينة بالنقوش الجصية وبعض التفاصيل العثمانية، فقد كان يرى عالماً آخر؛ مكاتب شركات عالمية، الصيدلية الوحيدة، محلات الأجبان والمخللات والزيتون، عصائر الليمون المُثلجة، متاجر الذهب والفضة و(الآثار)، واجهة فندق ڤيكتوريا حيث يقيم، الوجهة المصغرة من سانت جيمس، النخلات الطويلات وبعض الجالسين أسفلها من المتعلّمين من السودانيين بطرابيشهم المميزة والأوراق التي لا تفارقهم أبداً، محلات بيع الزيوت، متاجر الشمع. وعلى امتداد الشارع الباقي كانت المقاهي تتفرّع في شوارع عرضية، وفي نهاية

الشارع كان هناك ما يمكن تسميته "مشفى"، ثم المسجد وسوق المحاصيل، ثم سوق الحمير. ومن بعيد كان يرى المستقبل، مستقبله في هذه البلاد.

لم يستطع مقاومة سحر سراي الحاكم العام يوماً واحداً طوال تلك الفترة، يحشو غليونه جيداً ثم يحمل كأس الشاي الصيني الناصع البياض كلحية سانتاكلوز ويجلس في كرسيه المصنوع من خشب المهوقني قبالتها، يتأمل المكان من منظور شامل، كأنه فلكيّ يبحث عن نجم جديد. يبدأ من الحديقة الواسعة ذات النخيل العالي والذي دائماً ما كان محمولاً على أجنحة الريح، يمضي إلى العشب الأخضر والشجيرات التي لم يكن هناك أجمل وأمتع منها، الطريق الممهد النظيف كأنه قطعة من ويستمنستر، الأشجار التي زُرعت حديثاً لتكون في المستقبل ظلالاً داكنة كظلال القبور، ثم يتابع برَويّة المشهد الخلاب في الصباح. رغم تداخل شاربه الذي أصبح كثيفاً كأنه يتكاثر في مجال رؤيته إلا أنَّ عينيه كانتا قد تعودتا بطريقةٍ ما على حجبه عن الإدراك، كرجلٍ ذي أنف ضخم بحجم تفاحة، تعوّد بمرور الزمن على أن لا يراه. يتصاعد الدخان كثيفاً من غليونه ويلحظ البناء الكبير؛ طابقه الأرضي بفرنداته العريضة الواسعة وأعمدتها المتينة البيضاء، الأبواب الخشبية والنوافذ ذات اللمحة العصرية التي يختفي داخلها ذوق إغريقي قديم بتقوّساتها وتأطيرها، يرتفع إلى ما لا يزيد عن حدّ الشفرة فيرى أفاريز الطابق الأول وشرفاته الملكية ذات اللمسة الرومانية الواضحة التي تداخلت مع الأفكار العثمانية والطراز الإسكندراني، التموج والشموخ المتمثل في ارتفاع السقوف. ودون إرادة يجد أنَّ الطابق الثاني هو الأرقى مكانةً والذي يبدو أنه مكان الإقامة والحجرات الخاصة، بنوافذه المفتوحة ومن خلفها ظهرت الستائر التي تثور في وجه مَشابكها أملاً في الحرية والمُضيّ مع الهواء

اللاهي كتلك اللحظة من الصباح؛ اللحظة التي مهما حاول نسيانها لن يستطيع، فالنيل يحرس تلك السراي التي سيدخلها قريباً، واضعاً يده على أيدي كل القائمين على حكم تلك البلاد.

بدأ العمل، بدأ في تنفيذ أحد أهم مشروعاته التي من المفترض أن تعزّز مكانة شركته وتطوّرها. أيضاً سيكون على مقربة من المكان الذي أسهم فيه بثروة صغيرة؛ مدرسة غردون التذكارية. لذا شرع في الاستعانة ببعض ذوي الخبرة وأراد أن يكون بهو الاستقبال مماثلاً لبهو رئاسة الشركة بلندن؛ مدخل مُحلّى بمرآة كبيرة ومقاعد مريحة للجلوس، وموظفو استقبال خلف أدراج عالية ونظيفة ولامعة تخفي ما وراءها، ومعرض صغير لأهم المنتجات وملصقات دعائية للمستحضرات والعقاقير، إضاءة تتدلى من السقف وليس من الجوانب كما هو مستخدم هناك، ساعة بعقارب ضخمة، مكان بارز لشعار الشركة الغريب على هيئة حصان أقرب إلى الشيطان بذيله المُدبّب والذي استوحاه من الشعار الويلزي، وأخيراً تمثال السيدة والمشعل، ومن خلف الستائر المسدلة في الأعلى يستطيع من مكتبه مراقبة ما يجري بالأسفل، تحجبه الإضاءة المتدلية من السقف الذي يوازي ارتفاع طابق كامل.

وبينما رتّب كل شيء في عقله، أعدَّ العدة للعودة إلى لندن لتحضير بعض الأدوات والإشراف على الشركة والمصانع التي لا تستطيع أوروبا ولا العالم أجمع التخلّي عنها، فاختراعه "أقراص وِلْكَم المغلفة" المليئة بالڤيتامين كانت ترافق جنود الجيش الملكي أينما حَلّوا، وكان منتشراً في نصف العالم تقريباً، ثم الإنسولين الذي غيّر حياة العجائز في العالم، وعلاج الغرغرينا الذي لولاه لانتصر البوير في الحرب التي لا تريد أن تنتهي، إضافة إلى لقاحات الأنيميا الفعالة جداً والتي تُوَزَّع في المشافي أو الصيدليات، والمنشّطات ومضادات الغازات ومخفّضات الحمى التي

تضعها الدوقات والماركيزات في أهم الخزائن خوفاً على أطفالهن من المرض، إضافة إلى الأقراص المهدّئة ومضادات الاكتئاب ومقوّيات القلب، وعلاج تخثّر الدم، ومسحوق نظافة الأسنان، والحلول السحرية في درء اللشمانيا والبلاغرا ومراهم التراخوما. أصبح العالم بفضله يَعرف "الباراسيتمول" و"الريزامين"، ومستحضرات التجميل الباهظة الثمن، وللهنديات البائسات الخائفات من سواد لونهن ودوطتهن الفقيرة مراهم تفتيح البشرة والعناية بها، ولقاطني ألاسكا وسيبيريا والمناطق المنخفضة والمرتفعة غليون الأوكسجين، وللحوامل المهمّشات حول العالم عقاقير العناية والمُكملات الغذائية، وللأطباء الجدد والمتنقّلين عبر البحار والمحيطات ومتطوّعي المنظمات الخيرية حقيبة الإسعافات الأولية. أما بخصوص المستعمرات الاستوائية وموظفي الخدمة المدنية، فقد كان يهمّهم من كل ذلك مرهم إبعاد البعوض والحشرات الذي أصبح لا غنى عنه، بل حتى البدناء أصبحوا بفضله يشربون مسهل الهضم ومسهل التبرّز وزيوت راحة البطن، وأولئك النسوة اللواتي يُردن الاحتفاظ بأثدائهنّ جميلة وشامخة للناس أولاً ثم لأزواجهنّ لم ينسهن، والآن لن تستطيع المُرضعات ممارسة عادتهن الأزلية في الابتزاز والمغالاة في الأجر والطلبات، فحليب وِلْكَم متوافر وصحّي كلبن الأم تماماً، والملح المُذاب في أغذية الرُضع، ولم يخيِّب ظنّ من هم في غاية الأناقة بتحضير صابون التواليت (أونالاين)، والكثير من المنتجات الأخرى التي فكر بها وتوصّل إليها بنفسه أو عبر فريق عمله الذي صار الآن أكثر من ألفي رجل وامرأة. كما أصبحت المعامل الجديدة تنتج المحاليل الوريدية المهمة إضافةً إلى فكرته الشيطانية في تصنيع المحاليل الكيميائية المستخدمة في معالجة الصور الفوتوغرافية والتي كانت أهم صيحات العصر، حيث يتنافس الجميع في الحصول

على صورة شخصية، بل توصّل به الحال إلى تصنيع عربات فخمة سماها "ڤيكتوريا الجميلة"؛ فهو أيضاً لم يفلت من موضة تخليد الملكة، وكانت تلك المقصورات الباهظة الثمن. كل ذلك كان جزءًا يسير من إمبراطورية وِلْكَم؛ رأس دبّوس على سطح الأرض الشاسع، لكن هناك أمراً هاماً كان يبحث عنه، أكثر أهمية من كل ذلك، ومن أجله هو مستعدّ لأن يضحي بحياته حتى، لذلك قرر العودة إلى لندن ريثما يدرس ما يفكر به، استعداداً للدخول في مرحلة متقدمة من إمبراطوريته التي سيستوعب في مجملها بنهاية العام 1910م أكثر من أربعة آلاف موظف.

لكن رسالة مستعجلة جعلت وِلْكَم يترك كل شيء ويعود إلى لندن على وجه السرعة، فالملك لم يقدّم خطبته، ولم يشف من مرضه، وأصبح يعاني الهيستريا وحدة المزاج.

24
خطبة العرش

بعد مضيّ عام أو أكثر على رحيل الملكة لم يظهر وليّ العهد؛ الملك المنتظر. وهو أمرٌ غير مسبوق، وقد أثار الحيرة في الشارع العام، ودارت التساؤلات في كل مكان. كنتُ خائفاً جداً مما قد يحدث، خائفًا من أن يكون وِلْكَم قد فعل به أمراً ما... ربما يؤدي إلى ما لا يمكن تداركه.

أصبحت لڤيكتوريا بحيرة عظيمة في إفريقيا. بدأ الأعداء الدائمون للإمبراطورية في التحالف. الوضع في لندن محتقن ويوشك على الانفجار. ظهر جنرالات الحرب في أماكن عامة مما أحدث بعض البلبلة، وعادت إلى أذهان العامة صورة الحروب التي لا تنتهي. في تلك الأيام العسيرة، وأنا أرَى بعينيّ أن الأوضاع تزداد حرجاً وأن الرجل الإنكليزي النبيل قد أخذ يفقد صبره ورصانته، سيطرت عليَّ نظرية المؤامرة تماماً، وكان قلبي يُخبرني بأنه سيتم التخلص من الملك المرتقب، وأنّ لوِلْكَم يداً كبرى في الأمر، هذا إذا كان حيّاً حتى الآن!

لكنني ارتحت قليلاً بعدما عاد وِلْكَم على وجه السرعة من الخرطوم. لم أكن أعلم بحقيقة تلك الزيارة، لولا أنني قرأت الخطاب بنفسي، بالصدفة وجدته في مكتبي، فلنتفق على أنها ليست صدفة، لكنه بالطبع أرادني أن أعرف وإلا لما علمتُ قط. كان خطاباً ملكياً ينتهي بتوقيع الجنرال ريجنالد ونجت يطلب فيه مساعدة وِلْكَم في المجال الطبي في السودان، ودَعْم مدرسة غردون ببعض المعدات، إضافة إلى الترحيب به كمنقّب مهتم بالحفريات. الحفريات! نعم الحفريات! طوال يومين كنت أردد: "الحفريات! الحفريات!" ما هو

المقصود بها؟ علمتُ لاحقاً أنها عمليات تنقيب واسعة النطاق عن تاريخ تلك البلاد الضائع؛ التاريخ الذي لم يُؤرَّخ أو يُكتَب لأهداف مجهولة. كما أخبرني وِلْكَم بأنه أخيراً وجد علاجاً للملك.

ذهبتُ في أحد أيام شهر كانون الأول لزيارة وزير الخزانة أحملُ إليه خطاباً. قابلني بكل لطف، وطلب مني أن أبلغ سيدي تحياتي. ناولني مظروفاً مغلقاً لم أجرؤ على فتحه، لكنني في الحقيقة فعلت، لم يكن به شيء مهم.

أتى العام 1902م ولم يظهر الملك. وفي كانون الثاني أرسل إليّ وِلْكَم يطلب مني أن أتعلّم بعض اللغة العربية وأن أستعدّ للسفر معه قريباً إلى السودان. كان منقطعاً منذ فترة، وعهد بالشركة إلى مدير جديد، يتابع العمل من حين إلى آخر ولا ألتقي به كثيراً. تطورت أعمالي قليلاً، أصبحت لي الآن سكرتيرةٌ جميلة واثنان من أبرع المحامين الشباب، كما امتلكت عربة يجرّها حصان واحد. أما سيدي فإنه لم يعد بحاجة إلى الخيول بعد الآن، فقد اشترى سيارة بخارية تجري وحدها وتُصدِر صوتاً عالياً. كنتُ سعيداً بما حققت، وخائفاً مما هو في طريقه إليّ.

مرَّ شباط وآذار ونيسان ثم أيار، والملك لم يظهر. غضبت الجماهير ولم تفلح الصحف ولا ظهور بعض الأمراء المحبوبين في تهدئتها، حتى صورة كتشنر التي ألهبت الحماس الشعبي للحرب لم تعد مجدية في أن تحافظ على الشارع العام وهم يطالبون بكشف الحقيقة. هل قُتِل الملك قبل أن يصبح ملكاً؟ كتشنر الآن رئيس أركان، وكلمته مسموعة، والجماهير تثق به أكثر من أيّ وقتٍ مضى. لكن التأثير عندما يقترن بالملك يكون بلا فائدة، كعود ثقاب معطون في الماء؛ لن يشتعل مهما حدث. مرَّ حزيران، ستة أشهر لم ألتق فيها وِلْكَم، ثم أتى تموز وآب

الحنون. وذات ليلة تسلّل الضباب إلى شقتي كلصّ صغير، وكنت مساء ذلك السبت أحتسي بعض الجن وحدي وأستمع عبر الفونوغراف إلى بعض موسيقى شوبان الرومانتيكية، وأسأل نفسي: "لماذا كانت الملكة ڤيكتوريا تتواضع بالذهاب إلى حفلاته؟" لا أجد عنده ما يُرضي غروري الموسيقي، ثم بعد أن لعب الجن في عقلي قليلاً، وأنا الرجل الذي عاش طفولة قاسية؛ مما يجعل بعض الأمور ناعمة في نظري ومزدوجة الإحساس، وضعتُ في أذنيّ جيني ليند بدلاً عن شوبان، ثم بدأت أهزّ قدمي وأنا أضع ساقي عالياً في روب من القماش الحريري كإنكليزي متعجرف. عندها سمعتُ صوتاً في الباب، ثم أطلّ وجه سيدي وِلْكَم والمفتاح في يده. لم أكن أعلم أن لديه نسخة ثانية يحتفظ بها رغم مرور كل ذلك الزمن. كان يرافقه سائقه الجديد، وهو شابّ يافع نحيل وهادئ، يرتدي لباساً خاصاً ويضع قبعة كبائعي الصحف. صرفه وِلْكَم عند دخوله. تداركت نفسي بسرعة وأفقت من المفاجأة وسألته: "ماذا حدث؟ هل كل شيء على ما يرام؟". اقترب مني شاربه قبل أن يظهر وجهه في بقعة الضوء، وجهه مترهل وشاحب كالمرضى النفسانيين. جلس جواري في المقعد بكل أدب، وضع ساقه فأنزلت ساقي فوراً وجلست مستقيم الظهر، استرخى صامتاً. بقينا على تلك الحال بضع دقائق ثم أخبرني:

- "أخيراً وجدتُ علاجاً ناجحاً للملك وطورته عدة مرات، وخلال الأسبوع القادم سيلقي بالخطبة التي ينتظرها العالم. كن مستعداً، سنلبي النداء ونسافر إلى الجنوب، أتمنى أن تكون قد أتقنت بعض اللغة العربية؟".
- "حسناً، هل...!".

قاطعني قبل أن أُكمل حديثي:

- "أووووه! لقد كبرت يا يوري ويجب أن تبحث عن زوجة فأنت لم تعد شاباً".

ولم أقل شيئاً، ألم يكن ينظر إلى نفسه؟. مِن حولي تغني جيني بصوتها السوبرانو وأشعر بأنني أذوب في اللحظة وأمضي صاعداً إلى ما وراء الكون، يغمرني شعور باللذّة والخدر اللطيف، خلفي تتقاطع المصابيح وتنعكس على النوافذ الزجاجية التي تمرّ من خلالها صافرة رجال البوليس، تتقسّم الدقائق ويظهر العرَق البارد على صدغ وِلْكَم. قرَع بغليونه على الكرسيّ وأخذ ينظفه. لم أتجرّع قطرة أخرى إلى أن غادرني من تلقاء نفسه، ولم نتبادل الحديث إلى أن اختفى صافقاً الباب من خلفه في وقتٍ متأخّرٍ من الليل. لم أشعر بأنه رجل وحيد، بل شعرت بأن الوحدة قد تجسّدت به وسكنته. في بعض اللحظات تمنّيت أن أكون امرأة لأحبّه وأتزوّجه لأملأ عليه حياته. لا يمكن أن أدَعَه هكذا، يجب أن أقوم بأمر ما. أنا أفقده، حقاً أفقده، يمكنني أن أشعر بذلك. منذ أن رأيته قبل قليل عرفت أنه الكائن الأكثر تعاسة على وجه الأرض، الكائن الذي أترَفَ نفسه بالعزلة والغرابة رغم كل ما يملك.

في التاسع من آب تأنّقتُ بسترة باهظة الثمن وقبعة سوداء عالية كقبعات الحفلات المسائية، وحملت عصاي الأبنوسية اللامعة وخرجت. كنتُ أخيراً قد أطَلتُ شاربي وأصابتني عادة فتله السيئة، وجدتُ عربتي جاهزة وسائقي مستعداً فركبت. ألم أخبركم بأنني أحضرتُ سائقاً خاصاً بي؟ طوال الطريق إلى القاعة الملكية؛ حيث يلقي الملك خطبته، كنت أفكر بإرسال رسالة إلى إخوة وِلْكَم في أمريكا مستغلاً العنوان الذي أرسل إليهم النقود عبره، لكنني خفت أن أجرّ على نفسي ما ليس لي طاقة بمواجهته. لم أتمكن من الدخول إلى القاعة برغم محاولاتي فانصرفت إلى جوار جسر لندن وجلست قبالة

نهر التايمز أدخّن الغليون وأنتظر دقات الساعة. عرفت من الصحف في اليوم التالي أنها كانت خطبة عظيمة، وبرّر الناس غياب الملك بحزنه الكبير على الملكة والأم والإمبراطورة.

خلال ذلك الشهر أرسل إلينا الجنرال ونجت رسالة يخبرنا بأنّه سيكون في انتظارنا في الخرطوم خلال شهر واحد، وأنّ العمل العظيم ينتظرنا وأنّ ثقته في وِلْكَم لا حدود لها.

قبيل سفرنا التقيت برئيس الخزانة؛ السير آرثر جيمس بلفور، واللورد هربرت كتشنر، الذي كان يستعدّ للسفر نحو الهند مكلّفاً بالعديد من الأعمال المهمّة. جلسنا جميعاً في الحديقة الواسعة، رحّب وِلْكَم بضيوفه ودار حديث خافت بينه وكتشنر حول الأحوال في الخرطوم ومستوى سير العمل في البناء وحكايات الموظفين وبعض المواقف. وبينما يقصّ وِلْكَم على كتشنر قصته مع الفتاة الجميلة ابنة المقاول توماس برناردو قاطعهم جيمس الذي كان منزعجاً جداً وغارقاً في مجلسه داخل ثنايا كرسيّ الخيزران، في اللحظة التي طقطق الكرسي تحته، طارت نحلة صغيرة من زهرة صفراء أرعبتها قدم الخادمة التي أحضرت المثلجات، وهمس بلفور:

- "هل هي يهودية؟ يمكنني أن أرى ذلك".

تلفّتنا جميعاً وصرّح بلفور قائلاً:

- "قريباً سأترك الخزانة إلى من هو متفرّغ لها تماماً، لكنني أخشى أمراً ربما سيقضي علينا جميعاً، ألا وهو الخطر اليهودي. تخيّلوا معي! لقد امتلأت كل الأحياء باليهود، في لامبث وجنوباً من بريكستون حتى تامستو في الشمال، لا يمكن أن ترى غير اليهود. لقد تفشوا كالوباء، وأنا أحاول درء هذا الخطر الذي

يواجه أوروبا الآن، بل سيكون أشدّ وبالاً من الطاعون. اعذرني يا وِلْكَم. برغم ذلك لم تصل بريطانيا إلى تلك المراحل التي وصلت إليها وارسو وڤيينا وباريس ونابولي وأمستردام. لكننا يجب أن نفكّر منذ الآن حتى لا نقع في أيدٍ لا ترحم. أنا أريد عونكم، ففي الفترة القادمة أنا مُرشّح لمنصب مهم جداً من قِبَل الملك إدوارد السابع، ولن أنسى جميلكم أبداً، وتحديداً أنت يا مستر وِلْكَم، فأنا أعرف أنه لولاك لما خرج الملك من عزلته أبداً ولما قدّم خطبة العرش. أطلب منك هذا بصفتي صديقاً لرفيقك اللورد كتشنر... لا أحد يستطيع التأثير على الملك غيرك، ونحن نعرف جيداً كم هو مدين لك".

وقَعَ حديثُه قاسياً على وِلْكَم الذي فضّل السكوت ولم يتحدث، ليس لأنه لا يستطيع الحديث، لكن لما ينطوي عليه قول بلفور من حقيقة. قاطع كتشنر موجة الصمت بصوته الأجش وشاربه الناشب في وجهه كخمشة أسد:

- "حسناً يا عزيزي جيمس، أنا أدعم مساعيك الجادة وروحك الطيبة التي تخاف على مصلحة البلاد من التدهور، كما أشكر لك مشاركتنا تلك المعلومات، لكنني أيضاً أواجه بعض الصعوبات، فكما تعلم سأغادر قريباً إلى مستعمرة الهند البريطانية، وكما تعلم أيضاً فإن حاكم الهند؛ اللورد جورج كرزون، رجل يحظى بالدلال من مجلس الوزراء، وأنا رجل عسكري لا أخشى شيئاً ولا أهاب رجلاً آخر، وأن الخدمة المدنية في الهند تختلف كثيراً عما فعلته في السودان، أتمنى أن أعود بسرعة كي لا أصطدم بذلك الرجل، فكما تعلمان بيننا ثأر قديم ولا أريد في هذه المرحلة أن أزعج المجلس بمشاكلي".

- "صديقَيَّ المبجَّلَين بلفور وكتشنر، برغم أنني قد تأذّيت قليلاً مما قلتَه يا سيدي رئيس الخزانة بخصوص اليهود، لكنني أوافقك الرأي، وقريباً سأحلّ ضيفاً على قصر بكنغهام لبحث بعض الأمور المتعلقة بالحرب ومؤونتها وأشياء أخرى تخصّ الملك شخصياً. أيضاً يا سيدي أرجو منك أن تسدّد متبقي مستحقاتي بطرف سيادتكم قبيل رحيلك من الخزانة، نسبةً إلى أنني سأستثمر قريباً في مجال جديد، بعيداً، في مستعمرة السودان. وهذا بالطبع بعد الشكر الشديد لمجهوداتك -ربت على كتف كتشنر- المقدّرة. لكنني سأخبرك بخصوص الموضوع الذي طرحته، ماذا لو كان لليهود وطنٌ خاصٌّ بهم؟ ما رأيك في أن يكونوا في بلادٍ بعيدة، أنا أقصد الشرق... هناك جوار النيل؟".

توقف الحديث في هذه اللحظة وجاء من يخبرنا بأن الغداء جاهز. دخلنا إلى قاعة الطعام، ورُحنا نتحدث عن أمور مختلفة، مثل قصص الماركيزة التي ذهبت إلى الشرق وتزوّجت إفريقيّاً أسود، ثم عرجنا إلى الفن والموسيقى، والجيش الذي ينوي كتشنر تكوينه درءاً لخطر قادم يُحْدق ببريطانيا؛ كان مؤمناً تماماً بنظرية المؤامرة. وأخبرَنا وِلْكَم عن تفاصيل اغتيال الرئيس الأمريكي وليم ماكينلي، وكيف سيجرى إعدام القاتل بالكرسي الكهربائي، ثم أكلنا حتى أصابتنا التخمة ونحن نتحدث عن عهد جديد يمثّلنا؛ كأننا آلهة نضع تصوّراتنا عن الخلق. كنتُ سعيداً بأنني هنا في وسطهم، سعيداً إلى درجة أنني كدتُ أن أفعلها في نفسي.

في اليوم الثاني أعلنت صحيفة الديلي ميل ترقية هوراشيو هربرت كتشنر قائداً أعلى للقوات المسلحة في مستعمرة الهند.

بعد تلغراف عاجل في الخامس عشر من نفس الشهر غادر وِلْكَم إلى الخرطوم عبر القاهرة.

في ذات الشهر تقلَّد آرثر جيمس بلفور منصب رئيس الوزراء بشكل رسميّ خلَفاً لماركيز روبرت سيسل، وهو المنصب الذي تم تعيينه فيه منذ العاشر من حزيران.

25
اللقاء

- "مرحباً بك يا صديقي في الخرطوم".

تلعثم وِلْكَم أمام العبارة وضحك الجميع في التعبير الذي تشكّل سريعاً على وجهه، فهو لم يكن يعتقد أن ونجت يتقن العربية بتلك الطلاقة، ليس العربية وحدها بل الفرنسية والويلزية القديمة والألمانية. نزل وِلْكَم ضيفاً في سراي الحاكم العام بعد رحلة شاقة استغرقت أكثر من عشرة أيام؛ منذ أن غادر القاهرة إلى السويس عبر الدوابّ، ثم بالباخرة إلى ميناء سواكن، ثم إلى بربر في قافلة تجارية كبيرة، حيث استقبله المفتش العام، ومنها إلى الخرطوم.

بعد حفل التعارف، لم يضيّع الوقت، شرع في تجهيز مكتبه ومعامله في المبنى الذي استأجره قبالة ميدان المديرية وأمام السراي، ووجد طبيباً إسكتلندياً بارعاً اسمه د. أندرو بلفور عاد للتوّ من خدمته المدنية في جنوب أفريقيا وكان قد عُيّن مفتشاً للصحة في الخرطوم. سبقَتْه شُهرته وسُمعته، لذا اختاره وِلْكَم مديراً لمشروعه قيْد الإنشاء "معامل ومختبرات وِلْكَم لطب المناطق الحارة" الذي كان يدعمه الثلاثة الكبار؛ اللورد كرومر واللورد كتشنر وونجت. وبدأ وِلْكَم يرسل التلغرافات والرسائل إلى مكتبه في لندن وإلى جهات أخرى، وأسرعنا في ترتيباته للعمل. كان يودّ أن يكون مكتبه فريداً من نوعه وطرازه، وهنا أخبره أحد معاونيه الجدد بخبيرة الديكور الإنكليزية الفاتنة وابنة المقاول الشهير توماس برناردو. كان وِلْكَم قد شاهدها مرةً من قبل في الحانة، وكانوا يقيمون لها احتفالاً، أظنها قد سكنت خياله ووجد فيها ما سَرَّه

وجعل منه طالباً التعرف إليها بشكل أكبر، لذلك كان لها أن تعمل من أجله.

لم يكن وِلْكَم يعلم أن تلك المرأة ستغيِّر حياته كُلّياً، وستكون المرأة الوحيدة التي ستدخل قلبه وتفتك به عشقاً كلغم ألماني عائم. تظاهر بأنه لم يكترث كثيراً لنصيحة معاونه، متعلّلاً بأن لديه فعلاً في لندن مهندسَ ديكور ماهراً، لكنه سأله عن اسمها كنوع من المُراضاة؛ "سيري... اسمها سيري".

أَولى وِلْكَم اهتمامه إلى الملاريا أولاً، وأخذ يدرسها جيداً، ورغم أن له معها تجارب سابقة إلا أن كل شيء مختلف في هذا البلد. وفي إحدى الليالي التي كان يسهر فيها مع المفتشين والإداريين أخبرهم:

- "خلال سنتين أو ثلاثٍ سأجعل هذه المدينة تضاهي لندن وباريس... بل حتى نيويورك ذاتها!".

شربوا نخباً من الكونياك الذي وصل على باخرة البوردين في ذات الليلة، وتمنّوا أن يحصل على مراده.

كموسيقَى ڤيڤالدي الناعمة وقعَتْ سيري في جوف وِلْكَم المتحجر، علقت برأسه وبحواسّه وشغَلت أفكاره مذ رآها، اشتَمَّ فيها عبق لندن، وشاهد من خلالها شُرفات بيوت شارع كيرزون التي تحمل رائحة البسكويت الطازج، وأطلَّ من عينيه توقه الشديد وإعجابه بها وبذكائها. ذكّرته بجميع الأحداث السعيدة التي حدثت له وهي تخبره بأي لون يجب أن يتم طلاء هذا الجدار، أو ماهية التحفة التي يجب وضعها هنا. كان يومئ بوجهه فقط وهي تقرّر ماذا تفعل. كانت روحها كنهايات مقطوعات باخ؛ لا يمكن تجاوزها أبداً، ووجهها كلوحته المفضّلة "عذراء الصخور" لدافنشي؛ لا تعرف ما يميزها بسرعة لكنك لا تستطيع التخلّص من تأثيرها أبداً. لم يَرَ من

تضاهي حيويتها أو ذكاءها أو رِقّة ذوقها وإشراق أعينها العسليتين. كانت تختلف عن جميع النساء اللائي عرفَهنّ أو التقى بهن في حياته، بما في ذلك وجه أوليف الجميل؛ زوجة الرجل الذي انتشله من براثن الغرب الأوسط الأمريكي "سيلاس بوروز".

أعادت الخرطوم الثقة إلى قلوب الأوروبيين، الحكومة تعمل على ذلك بجدّ، الإرساليات تأتي تباعاً وتكتب إلى من هناك بأن الوضع آمن وأن عهد الجهادية والمرتزقة قد انتهى، اللورد كرومر ينوي زيارة في وقت قريب، الوضع مستقرّ ويجب التحضير جيداً. عندما افتُتِح المكتب لم يكن البهو يحمل أيّاً من التفاصيل التي أرادها وِلْكَم، لكنه كان معجباً بالديكور الجديد، وصاحِبَته بالطبع. كان د. أندرو بلفور حريصاً على أن يتم العمل لخدمة الملك، وهو الأمر الذي لم يخالفه أحد. وبدا أن كل شيء جاهز للعمل، ما ينقصه فقط هو المعامل التي ستأتي من لندن قريباً. في تلك الفترة، جمع اثنان من الموظفين بيانات الأمراض الشائعة والنادرة والحالات المستعصية، وقد درّب د. بلفور الطبيبين المبتدئين؛ الفارّين من أسر متوسّطة الدخل في الريف الإنگليزي، على العمل وفق الطبيعة الجديدة والظروف القاهرة والشمس المحرقة. كما بدأ وِلْكَم، بمساعدة جلية من ونجت ودعم من اللورد كرومر وبعض الإداريين، مشروعاً ضخماً للحفريات الأثرية. كتب ونجت إلى لندن للتشاور بعد أن منحه موافقته المبدئية. أوشكَتْ مدرسة غردون على الاكتمال. الوقت يجري حاداً دقيقاً وسريعاً كحد الموسي، والسودان الإنگليزي يتطوّر.

أخذ وِلْكَم يقرأ ويتعرّف إلى تاريخ السودان، يستمع إلى النصائح وأخبار الرحّالة السابقين، يقف على أهمية هذه البلاد ومكانتها. لكن خبر فوز الطبيب الإنگليزي رونالد روس بجائزة الفريد نوبل

الجديدة، التي تهتم بمجالات شتى، أثار حفيظته، فقد مُنحت إلى روس تقديراً لما قدّمه في مجال وأبحاث الملاريا؛ المرض الذي أوْجَد له وِلْكَم العلاج وله فيه خبرة طويلة. أثار الخبر سخطه وغيرته في ذات الوقت، فبدأ سريعاً في تطوير الأبحاث وتوسيع رقعة العمل حول المرض في الخرطوم وأم درمان، استعان بالأطبّاء الموجودين والممرضات الراهبات والتبشيريين الذين جابوا مناطق مختلفة من البلاد، أصبح ناشطاً اجتماعياً يتابع أخبار العائدين من الأقاليم المختلفة ويتحرّى عن العمل والوضع الطبي في الأنحاء كلّها، كما خرج في رحلات قصيرة على باخرة نيلية ووجدها الوسيلة الأسهل والأسرع للحركة، وعاهد نفسه على أن يحضر باخرة عائمة تحمل مختبراً لن يكون له مثيل. في تلك الآونة بدأ العمل في إنشاء خطوط السكك الحديد لربط المناطق البعيدة.

كانت تلك الفترة من حياته عتبة صغيرة بالمقارنة مع جميع ما مرَّ به، ومنها سينطلق كثيراً وسوف يسعى جاهداً لنيل ثقة الأطباء والكيميائيين في أوروبا، فهو الآن أصبح كبيراً على العمل بنفسه وعليه أن يحافظ على مكانته وشركته بمزيد من البحث والعمل والاعتراف بجيل الشباب. كان معترفاً بأن العالم قد وصل إلى مرحلة متقدّمة من التطور، وعليه الاستفادة من كل ذلك. قرر أن يدعم الصناعات الدوائية بكامل طاقته وأن يعمل على تطويرها وشراء حقوق أي مصل جديد، كما سيدعم بذات القدر صندوق اليهود القومي وهو ما تعهّد به عندما كان في جنيڤا قبل عدة أعوام.

وأخيراً وضع خططه، ولم ينسَ تدوين أتفه الأمور، ثم مضى عائداً إلى لندن وفي عقله حلم، وفي قلبه زهرة برّية جميلة.

26
الأكثر حظّاً، الأقلّ وسامة

أخبرني بعدما عاد إلى لندن في بداية كانون الأول 1902م: "يا كاتم سري الوفي، لم أكن أنام منذ أن رأيتها، لا يمكن أن تملأ حياتي فتاة غيرها، أنا أعرفُ ذلك. لا يمكنني أن أصف لك جمالها أو مدى حبي لها، أحببتها من قبل أن أراها حتى. أحياناً أتخيّل أنني أهذي. كيف يحدث هذا، فهي فتاة صغيرة جداً مقارنة بي". استمر يحكي ويحكي دون تعب. وكان مليئاً بالحماس، طوال ليلة كنّا قد قضيناها في الريف الجنوبي؛ حيث اعتدنا التخييم في بعض المناسبات الخاصة بنا. ثم فاجأني بأنه ينوي الزواج منها. أخيراً ينوي الزواج! في العام الذي سيكمل فيه خمسين عاماً ينوي الزواج؟ ما هذا الهراء الذي يحكيه لي؟ ومِمّن؟!؛ فتاة عمرها أربعة وعشرون عاماً. يا للهول! كنتُ أشكّ في أنها ستوافق؟ هل ستفعل؟

أصبحت خطوط وسياسات عمل الشركة واضحة ولا تحتاج إلى كثير من التدخل، وإمبراطوريته الطبية كلها تزداد رسوخاً؛ المصانع تنتج كثيراً من المنتجات، والمختبرات تجري أبحاثها، والأرباح تتكدس بشكل لا يُصدّق، إلى درجة أن القسم المالي كان به أكثر من عشرة محاسبين رئيسيين فقط لأجل متابعة التدفقات النقدية. أبدل وِلْكَم بطاقات عمله إلى "هنري سولومون وِلْكَم" ثم أخذ يصف نفسه برجل الأعمال ورئيس مجلس إدارة مجموعة وِلْكَم للصناعات الدوائية والأبحاث. الصداقة القوية التي تجمعه مع رئيس الوزراء الجديد آرثر بلفور أخذت أيضاً في التطوّر. والآن لم يعد وِلْكَم ذلك الفتى الآتي من الغرب الأمريكي المتوحش البعيد، لم يعد الرجل الكئيب الذي يحلم

بأن يأكل شيئاً غير الفاصوليا، لم يعد يشكو القمل والبق. حتى لمسة الشقاء التي لازمته عمراً كاملاً قد انطفأت، وكل من ينظر إليه يرى رجلاً محترماً نبيلاً كأنه وُلد لأجيال أرستوقراطية توارثت الأرض والعبيد ولم تعرف الحرمان والفقر والجوع أبداً.

لمّا عادت سيري إلى لندن، تغيّر الحال بوِلْكَم. وخلال فترة وجيزة أصبح يمارس الرياضة كل يوم، وقلّل من التبغ بعض الشيء، كما خصّص له خياطاً مشهوراً من دبلن ليعمل في خدمة ثيابه، ثم اشترى عربة جديدة أحدث من التي كانت عند الجنرال ريجنالد ونجت في الخرطوم. لم يفوّت المزادات ومعارض الفن وشراء المقتنيات الثمينة والغريبة والغامضة كما كان يفعل دائماً، لكنه أفرغ شقته القديمة وجعل منها مخزناً لبعض مقتنياته.

إننا في القرن العشرين، من يعتقد أن الأشياء تبقى على حالها؟ حتى أنا لم أعد كسابق عهدي؛ لقد أصبح لديَّ شاربٌ ضخم، وكثيرٌ من القبعات العالية والمنخفضة، وساعة جيب ذهبية، وأنواع مختلفة من العصي، وأرفف عريضة مليئة بالمقتنيات، كما أحاول أن أتعلّم كل شيء؛ الفيزياء والكيمياء والتأريخ والجيوغرافيا وعلم الآثار والأدب وتلاوة الشعر وكل شيء، فلقد سمعت أن الناس في الخرطوم يعرفون وِلْكَم كباحث ومكتشف أثريات ومنقب، وفي أمريكا عرفوه كمخادع وقاتل ولصّ قبور وطبيب وجندي، وفي بريطانيا هو صيدلاني ورجل أعمال وراعي فنون، وفي أماكن أخرى هو فيزيائي وجيولوجي، ولا أعلم بماذا ينادونه أيضاً، لكن جميع ذلك لم يكن من فراغ مجرد، فهو حقاً رجل عظيم أو "نبيٌّ ملعون" كما كان يسمّي نفسه، أحياناً.

لم تكن سيري تعلم ماذا يوجد في دواخلها من عواطف ومشاعر إنسانية، فهي لا ترى حقاً ما يعجبها في هنري الذي يكبرها بنحو ستة

وعشرين عاماً، لكنه يعجبها على نحو ما. تنجذب إليه بطريقة غريبة، فهنري شخصية محبوبة جداً عندما يريد أن يظهر كذلك، كما كانت علاقاته رائعة وكان طيباً في تعامله، وهو رجل عصامي؛ عندما يحكي قصة نجاحه تدمع الأعين وتتعاطف معه القلوب، خصوصاً عندما يذكر كيف ماتت أمُّه أمام عينيه "تحت سهام الهنود الحمر" يا للكاذب الحقير!

بالطبع رأى وِلْكَم في زواجِهِ من سيري؛ "الزوجة المثالية"، حلماً كبيراً، وهي التي ستبعث الدفء والحيوية حتماً في حياته، ولن يجد من هي أمثل منها لتكون "مدام وِلْكَم"؛ السيدة المخمليّة التي ستُنجب وريثاً للإمبراطورية العظيمة، وهي وحدها التي يمكنها أن تجالس الأمراء والملوك وصفوة مجتمع لندن. كل الصفات الراقية فيها؛ تتحدث الإنكليزية والفرنسية وتتقن الرقص، وعلاوة على ذلك تعزف على البيانو بشكل لا يُصدَّق، متحضّرة وحديثها لبق، وفوق كل ذلك فإنّ سيري من أسرة أصيلة، أب وأم جرمانيين.

تردّد كثيراً في مفاتحتها بالأمر، لكنه اتخذ موقفه بسرعة بعد أن دعاه والدها إلى حفل كوكتيل في منزلهم، وهو رجل إيرلندي، وعلى الرغم من أصوله اليهودية فقد كان مسيحياً متديناً، مبتعداً عن سفه المجتمع ومنقطعاً للأعمال الخيرية وبناء دُور الأيتام. كان وِلْكَم يعرفه جيداً ويشعر بأنه رجل غامض، في داخله يسكن شيطان، لكنه تجاوب مع الأمر وتفاداه على قدر استطاعته. أمَّا أمها "سارا لويس" فقد كانت نصف كل الأشياء الجميلة، أمّا النصف الثاني فتركته لابنتها الأخرى "مارغي"، لكنهما مجتمعتين ما كانتا لتقتربا من جمال سيري في الظلام.

كان قد حمل معه هدية صغيرة، وانخرط في حوارات تدور عن مجتمع المستعمرات، وأخذ يحكي عن السودان وأهله، ويستعرض

مقتنياته الفريدة التي حصل عليها من هناك. ووجد حديثه الاهتمام، وشاركته سيري وهي تحكي عن اليوم الذي أخبرها فيه القس "ستيڤن" عن حاجة الشركة إلى خبيرة ديكور ورشحها. أخذت تضحك وهي تصف كيف استهترت في بادئ الأمر بمن يهتم بالديكور في الخرطوم الساخنة. لم تكن تهتم بوِلْكَم على نحو خاصّ، وإن أسعدها التعامل معه ومدى سخائه معها. لاحقاً التقى بها في منزله، وأقام لها حفلاً صغيراً. وطوال ذلك المساء لم يفوّت فرصة النظر إليها. كان يتمنى أن يكون راقصاً بارعاً ليراقصها طوال الوقت، ورغم ذلك قام بالمحاولة وطلب منها الرقصة رغم تحرُّجه الشديد، فهو لم يرقص من قبل. كان سعيداً وهي تعلّمه "أرجِع قدَمك وقدِّم الأخرى"، بينما تضع راحتها داخل كفّه الكبيرة. بنهاية الحفل كتب لها في ورقة صغيرة: "مهما حدث في هذا العالم ستظلّ ابتسامتُك أحد أكثر الأشياء جاذبية. لا أعلم حقيقة سحركِ وفتنتك وسرّ أنوثتكِ الطاغية، لكنني أعلم أن كل ذلك يجعلني سعيداً، منتشياً، يجتازني النور الساطع من شفتيكِ". ضحكتْ برزانة واحترام كبيرين، وقال وِلْكَم في سرّه: "يا لها من فتاة مؤدبة ومميزة حتى في مجاملتها!". وشجّعه ذلك ليرسل لها في اليوم الثاني باقة ورد منتقاة خصوصاً من أجلها، وكتب لها: "أودّ أن أكون فلقة النور التي تشرق من أجلكِ كل صباح، تنتظر ميعاد يومها الجديد لتتواصل معك، لتلامس جسدك، لتكون جزءاً منك يا عزيزتي سيري".

خلال يومين تقدَّم لخطبتها بطريقة رسمية، عندما فاتحَت أمها في الأمر رفضت مستغربة: "كيف يجرؤ؟ ابن الزانية! إنه أكبر من والدك!". لكنها هدّدت بالهرب من البيت أو الانتحار عندها رأت الخيبة في عيني أمها وأبيها. نظرا إليها ببلاهة كأنها أصبحت غبيةً فجأة أو نحو ذلك. تجاهلَتهُما بآلام قاتلة، وفكرت قليلاً في الأمر: "هل

يريدان التخلّص مني؟ كيف لا يوافقان على رجل غنيّ وناجح مشهور؟ أجمل جميلات لندن لن يتردّدن إن حاول وِلْكَم التقرُّب إليهن".

في يوم من نهاية كانون الأول وصلتني دعوة فاخرة لحضور حفل الزفاف في قاعة "ألبرت الملكية"، مع تحديد شكل الملابس والإتكيت. بعدها عرجتُ إليه في مكتبه وبيَدي باقة من أبهى الورود. طلب مني أن أكون إشبينه وأسعدني ذلك كثيراً. كنت متشوّقاً إلى مقابلة العروس التي كانت محطّ أحاديث أهل لندن، وأنا كجنتلمان لم أدع لساني يسقط في مثل تلك الأقاويل التي حسبتُها تقول أن العريس يكبر العروس بنحو ستة وعشرين عاماً. وكالعادة انتظر الجميع الزفافَ رفيع المستوى. وأتى يوم الحفل، كان خاصاً جداً؛ أغلب المدعوّين من الجنرالات والأمراء والوزراء وبعض اللوردات وعلية القوم وأباطرة الصناعة والطب. كان حفلاً هادئاً سعيداً. خرج إلينا وِلْكَم في بدلة سوداء فريدة من نوعها، وبشرة نضرة أصغر من عمره، وشارب محفوف وشعر حليق، وبدا وسيماً فوق العادة. كأنه صَغُرَ نحو عشرة أعوام. كان زواجاً مدنياً ومباركاً من كنيسة ويستمنستر الغربية. لم أصدق عينيَّ عندما نظرتُ إلى العروس فقد كانت حقاً صغيرة بالنسبة إليه، وكنتُ أرى إلى نظرات الاستنكار بين الحضور المنافق بضحكاته البرّاقة. أنا أيضاً دُهشت مما يحدث! ما هذا؟ كم هي باهرة الجمال! لا بل كيف قَبِلَت به؟ ليس هناك ما يوازي جمالها أو سحرها وقد حسده عليها الجميع. وقبيل خروجه داعبته قائلاً:

- "أتسمح لي يا سيدي بطلب؟".
- "تفضل يا عزيزي".

كانت سيري تستمع إلى حديثنا وهي مبتسمة كنجمة الصباح فأخبرتُه ضاحكاً موجهاً حديثي نحو سيري:

- "يجب أن تختار لي زوجتي بنفسك، فكما أرى لا يملك أحدهم مثل حظك وذوقك في اختيار النساء".

ضحكنا جميعاً وأخبرني مداعباً:

- "سأحضِر لك إحدى الهنديات اللائي يأكلن لحم الحمير فهي حتماً ستريحني منك، ولا تنسَ أن الأكثر حظاً هو الأقل وسامة!".

ضحكنا من جديد ثم شربنا نخب السعادة الأبدية للعروسين. ورافقتُهما إلى الفندق؛ حيث قضيا ليلتهما الأولى. وفي الصباح رافقتهما إلى المرفأ للسفر. بنهاية ذلك العام غادر إلى بلاده أمريكا عبر البرتغال مع العروس الجديدة ليقضي شهر عسل طويلاً جداً؛ ستة أشهر بالضبط، كان يراسلني خلالها بخصوص شحن المعامل وبعض الحاجيات الأخرى إلى الخرطوم، وبعض التوجيهات الخاصة بالعمل، والكثير من الأمور الشخصية والسرية. ثم عاد راجعاً في منتصف حزيران. أحضر معه أخاه جورج، وكانت سيري حاملاً ولا تزال فتنتها قائمة كأنها تفاحة تنضج باستمرار. لم أرَ هنري سعيداً أكثر من ذلك اليوم. طلب مني أن أستقبل شقيقه في منزلي وأن أهتمّ براحته وأن أعالج له موضوع العمل. كما طلب مني إطاراً مُذهباً للَقطة قديمة أتى بها معه من أمريكا؛ لقطة عائلية للأب والأم وجورج ووِلْكَم الذي كان صغيراً يافعاً، بتسريحة شعر ملتوية إلى اليسار كالفرنسيين.

لم يسعفها الوقت، طوال بقية العام 1903م، لمشاهدة هدايا الزواج التي أتت بأشكال وأنواع وأحجام مختلفة من ملوك وسفراء وموظفين. تلك كانت السنة السعيدة علينا جميعاً، ولن أخبركم لماذا! فقد أكمل فيها وِلْكَم عامه الخمسين وهو هادئ البال سليم العواطف. الآن يمكنه أن يظهر في المجتمع اللندني الفضائحيّ دون خوف أو

قلق، فلن يتغامز الناس من أجل وحدته، ولن تعرض له السيدات المزيد من بناتهن، وأيضاً لن يضطر إلى سماع السؤال المزعج من جديد: "أووو صديقي هنري قل لي، لماذا على شخصٍ مثلك أن يبقى عازباً طوال هذه الفترة! ألم يحن الوقتُ بعد؟".

هنا وصل هنري سولمون وِلْكَم إلى مفترق الطرق الأكثر صعوبة، إلى المتاهة الصخرية التي لو علم بما فيها لما وَلَج إليها أبداً. مهما كانت سيري جميلة، أو مناسبة، أو ستجعل منظره الاجتماعي مميزاً، فإنها لن تضيء له. سيقابل في المتاهة كثيراً من التعرّجات والالتفافات والمفارق التي لن يفلت منها، لن تكفيه حياته وخبراته أجمع في التعامل مع الأيام القادمة. كانت سيري قلبه، كقنديل باهر النور والجمال ظنّ حاملُهُ أنه سيهزم به العتمة أينما ذهب، لكن هل يدرك الرجل أن عتمته كانت في القنديل؟

أنا هنا أرَى كل ما يحدث، أشاهد بتجلٍّ كما كنتُ منذ الأزل، أتبع وِلْكَم طائعاً كما كنتُ أتبعه في الغرب الأمريكي؛ عندما بدأت المغامرة ونحن في طريقنا إلى فيلادلفيا وشيكاغو. هل تعرفونني؟ "أنا ذلك الرّجل الذي قابلني لكنّني لم أرَه... أتعرفونه؟".

(5)

بين الزّهرة والصّخرة

"في الكِبَر يندم الإنسان على الأخطاء التي لم يرتكبها".

سومرست موم

27
جَوفُ الأُخدود الصّخريّ

عندما تعرّفَت سيري إلى وِلْكَم لم يَدُر بخاطرها إطلاقاً أن هذا العجوز المتحجّر القلب، ذا الشارب الملعون، سيكون زوجها. بل لم تصدّق نفسها عندما وافقت أخيراً بعد أن شعرت بأنها تشكل عبئاً على أسرتها التي ضاقت بها وبتصرّفاتها. أدركت سلفاً أنه يجب عليها أن تستقرّ مع أحدٍ ما، ولكن وِلْكَم! إنه يَكبُرها بحواليَ ضِعف عمرها! لكنها وافقت، وهذا يحسم كل شيء. كانت ترى إلى المكانة الرفيعة والعلاقات الواسعة والرفاهية المطلقة والحرية والدلال التي ستجدها في كنف رجلٍ مثله، وعاهدت نفسها على أنها ستُخْلص له وتتفرّغ لسعادته. وكانت تشعر بأنه الرجل الذي سيفهمها ويُحْسِن معاملتها، وأن رجلاً في مثل سنّه له من الخبرة والحكمة ما يناسبها. لم يكن وِلْكَم عاشقاً عادياً، بل أحبّ سيري بصدق، كما لو أنه سيموت إذا لم يفعل ذلك، تمسَّك بها كتمسُّك التائه بنهاية الطريق، كقطعة من كبده، كعظمة ترْقوته التي لا بديل لها ولا مجال للاستغناء عنها. من النظرة الأولى أدرك أنها حبيبته التي انتظرها طويلاً وأنها زوجته التي ستهبه أطفالاً يملأون العالم بالضجيج.

عندما عادت سيري إلى لندن قُبيل الزواج، وفي غمرة انشغالها بترتيبات الزواج وتجهيز احتياجاتها؛ خصوصاً فستان الزفاف النادر، التقت بموم مرة أخرى، لقاءً أخيراً ونهائياً. أخبرَته بأنها ستتزوج، وأنها لم تعد تحبّه ولا تثق به. وقد كانت صادقة في ذلك، لكنها كذبت عندما أخبرته بأنها قد "وقعَتْ في غرام" رجل الأعمال المعروف هنري وِلْكَم. ثم أرادت أن ترى ما سيحدث لموم، فقالت: "أنا سعيدة من

أجلك يا سومرست، وأتمنى لكَ مستقبلاً باهراً في ما تختار أن تكون وتكتب". أخبرته بأنها اليوم امرأة أخرى؛ مختلفة عن تلك التي كان يعرفها في السابق، وعليه أن ينسى كل ما بينهما، وأن يحترم تلك الذكريات بعدم الحديث حولها أو الكتابة عنها، والأهم من ذلك أن لا يراسلها من جديد، وإنْ حدث فإنها لن تردّ عليه. لكنه طلب منها أن ترافقه إلى مطعم قريب، وأن تواصل حديثها بينما هما يأكلان، فوافقت قائلة: "ولِمَ لا..؟ هيا بنا".

لا أستطيع أن أصف لكم كيف أنّ لموم سحراً فتّاكاً وتأثيراً لا يُقاوم، فقد تحوّلت طاولة الطعام التي تحفّها الشموع إلى حلقة غرام انتهت بلقاء محموم في شقته الجديدة بتوتنهام. وما إن وطِئَتْها ودغدغت رائحة إبطَيْ موم أنفَها حتى لم تعد سيري تعي ما يحدث، انتهى بها الأمر إلى جواره في السرير عارية. فعلاها أكثر من ثلاث مرات. وفجأة، بينما كان موم يحاول تقبيلها ولعْق بعض العرَق الذي انتظم حول وجهها، اهتزّت، وتوارد إلى خاطرها أحد أبشع الأحداث في حياتها على الإطلاق، وجنّ جنونها. اهتاجت حتى اهتز أسفل بطنها، واشتمّت رائحة القرف فأفرغت جوفها وأبعَدته بدفعة قوية من يديها الناعمتين ثم هرولت نحو الحمام. كانت أنفاسها متقطعة كصافرة شرطيّ، وحرارتها مرتفعة كمرجلٍ محكم الإغلاق. كرهته في تلك اللحظة أشد الكره؛ كأنه قابض الأرواح، صرخت في وجهه بعنف وعدوانية: "لا! لن يكون هناك المزيد! اللعنة! لا يجب أن يحدث هذا أيها الشاذ". جمعت أشياءها وغادرت بسرعة، هربت وهي تخفي دموعها التي لم تستطع إيقافها أبداً، لكنه كان وداعاً جاداً هذه المرة.

بعد زواجها من وِلْكَم بثلاثة أشهر تأكّدت من أنها حامل، وبدأت المخاوف تزورها من جديد بسبب ما اقترفت؛ فهي تعلم أن زوجها

ليس أبا جنينها. وذات ليلة، بينما كانت في حالة نفسية متدنّية، طردت مدبّرة منزلها الصينية وأمرت جميع الخدم بأن يغربوا عن وجهها. هدّأ وِلْكَم روعها، وأخبرته تلميحاً بأنها حامل. ساورته الشكوك ولم يتحدث، فبطنها كانت تخبره بأن هذا الطفل ليس طفله، ليس بهذه البطن المنتفخة كبطيخة برازيلية متوسطة.

في تلك الفترة كان موم يكتوي بنيران الغيرة والألم، وتجمّلتْ سيري في ناظره حتى عاد لا يرى لها مثيلاً في أيّ مكان. كتب عنها قصة قصيرة وشعر بأنها أقلّ مما تستحقّ، فمزّقها. لم يكن يعلم بما ينمو في بطنها، فقد التزمت بعدم مراسلته، وفعلت. ذات يوم، أرسل إليها خطاباً يطلب فيه لقاءها لأمر عاجل، فما كان منها إلا أن أخبرت وِلْكَم بالخطاب وبعض الحقائق عن علاقتها بموم. وهنا سألها وهو ينظر إلى عينيها اللتين يَعبُدهما كما يَعبُد الهندي الأحمر النار الصفراء:

- "أخبريني بكل وضوح! هل ما زلتِ تحبينه؟".

أغمضت عينيها لجزء من الثانية ثم أخفت رأسها في صدره قبل أن تُجيب:

- "بالطبع لا يا سنجابي! أنا أُحبّك أنت وحدك، هاك وعدي".
- "وهل هذا الطفل الجميل طفلي؟".

كان سؤاله مباشراً وصريحاً إلى درجة أربكتها، لكنها أخبرته بكل ثقة:

- "نعم، سيكون ولداً يشبهك كثيراً".

تملكتها هيَ أيضاً الشكوك، فمن المحتمل أن يكون الطفل لوِلْكَم، "نعم هذا أكيد".

في تلك الفترة كان وِلْكَم قد أتى بجميع أفراد أسرته الباقين إلى لندن، واشترى لهم فندقاً يحمل اسم أمّه، لذا أصبح مرتاح البال لا

يريد أن يغادره ذلك الشعور العميق بالاستقرار، ولا يريد أن يزعج نفسه بأمرهم أو مشاكلهم، وهو يعتقد ويصوِّر له عقله أنه قد أدى واجبه، وأن عليهم الآن التنحي عن طريقه. أدخل فيه ذلك المزيد من الراحة فأخذها في حضنه قائلاً:

- "آآآه يا سيري لو تعلمين لماذا وكيف أُحبك! ليس كحبّ الأم لطفلها ولا كحبّ الراهب لله لا! أنا أحبّكِ مثل عامل المنجم الذي يجد الذهب، هو يعلم أنه لن ينال منه سوى الفتات وربما لا شيء، ربما لن يستطيع لمسه لمدة طويلة أو الاحتفاظ به، لكن ذلك لن يمنعه من أنْ يحبه وأنْ يشتاق إليه وأنْ ينتظر ظهوره، ولن يمنعه من أنْ يهتم به ويحتضنه عندما يظهر، ولن يحرمه من السعادة. أنتِ كذلك يا حلوتي، رغم أنني أعلم تماماً أنكِ سوف تتخلّين عني يوماً ما، لكن ذلك لن يمنعني عن حبّك. سوى أنني لستُ ذلك العامل الساذج البسيط؛ لن أتركك حينها تبتعدين عني، لن أكون غبياً مثل ذلك العامل الذي يجد الذهب ويتركه للآخرين".

لكن الحال بينهما لا تدوم على ذلك المنوال، فكثيراً ما كانت تقاطعه طيلة أيام دون سبب معروف، كما تتجنّب لقاءه الحميم بحجة أنَّ الطبيب قد منعها من ذلك. وكلما فعلت أمراً مشيناً كان يجد لها من الأعذار عدداً، فهي تارةً تمرّ بحمل صعب، وهي تارةً مجرد فتاة صغيرة لا تعلم ما تفعل. في الوقت الذي كانت تسأل نفسها وتصارعها مِراراً: "ما الذي أعجبني في هذا الرجل؟ فهو أكبر من أبي بنحو 12 عاماً!". وكم عجزت عن الإجابة بينما تتناسل الأسئلة. ما الذي بهرها في شخصيته أو أمره؟ كيف وافقت عليه؟ كيف منحته وعدها بالإخلاص والوفاء وارتدت خاتمه الكبير؟ ماذا أصابها؟ ماذا حدث لتترك حياتها الجميلة؟

انشغل عقل وِلْكَم بتدابير عودته إلى الخرطوم ومواصلة ما بدأه هناك، لكنه كان خائفاً من ردّ فعل سيري أو رفضها مرافقته، وهو لن يتركها وحيدةً في البيت الضخم في قلب لندن. الحيرة تأكله، ماذا سيفعل؟ برغم ذلك عادت حياته تقليدية من جديد، بعيداً عن رؤاه التي لم تكن تنقطع، والأسفار التي لم يعد يحظى بها، بل وبعيداً حتى التحف والأثريات وأدوات الطبّ القديم لم يعد يجمعها بنفس الشغف كالماضي لكنه يجمعها على أية حال. وفي ليلة هادئة، استقبل بعض الضيوف رفيعي المستوى وتلقّت سيري هدايا كثيرة مما لطّف الأجواء بينهما قليلاً، وتحدثا في تلك الليلة بهدوء:

- "أتذكرين يا حبيبتي أول كلمة قلتها لكِ عندما قابلتك؟".
- "ومَنْ ينساها يا زوجي؟: (لدينا العديد من الشؤون الأخرى لتهتمي بها)".

ضحكا على تلك الذكرى، والعبارة التي قادت إلى زواجه منها، لكنه فعلياً لا يريد لها أن تعمل، لا يريد لها أن تحتكّ برجال آخرين ولا حتى بشقيقه أو أقاربه الذين لم يكن يستقبلهم في منزله إلا نادراً وفي حالة مرضه فقط. كان يحاول مفاوضتها حول مرافقته إلى الخرطوم، وبالطبع كان المدخل الأفضل هو إعادة ذكرياتهما السعيدة فيها، وهو الأمر الذي لم تكن سيري تكترث له أبداً. وكلما فاتحها في الأمر تحجّجت بحملها وأنها لن تلد هناك، ستضع حملها هنا، ومن ثم يمكنها أن ترحل معه إن كان مُصرّاً. كما أكدت له حبّها -كما اعتقَد- بقولها: "ألا تريد لابْنك أن يولد في بيئة نظيفة ويجد رعاية طبية حقيقية؟". تردّدت الكلمة في أذنه: "ابْنك... ابْنك... ابْنك" دون انتهاء. قالتها بكل عفوية ورضا، كأن ذلك لا شك فيه. هنا تواردت إلى مخيلة وِلْكَم مئات الأفكار، وتقاطعت أمام ناظريه عشرات الصّور

والأرقام والحروف المبعثرة. شعر بوسائد تحاول أن تكتم أنفاسه فشهق. سمع أصواتاً غريبة لبحّارة ينادون وبائعي صحف يعلنون عن فضيحة رجل غنيّ. هرش جسده وانتفض كأنه أعمى يحاول الدفاع عن نفسه. وفي تلك اللحظة التي تحاول ذاته إعادة تذويت نفسها بطريقة ملحمية، أخذت عينا وِلْكَم تغرقان في الماء المالح، وفجأة سقط... ثم سقطت الصخور بشدة، حاصرته الرؤى القديمة، حاصرته بقوة، ثم وجد نفسه يهوي في جوفٍ عميق لا نهاية له؛ جوف أخدود صخري في السماء البعيدة، وراء الفضاء اللانهائي الذي لا فكاك منه. لم يختبر من قبل رؤىً بتلك القوة. مدّ رجليه ليصعد منها ويخرج من جوفها، فلم يرَ إلّا الهاوية السحيقة الممتدة أمامه وخلفه، تسقط الحجارة حوله، ويهوي ويهوي. انحسر وجهه وتدلّى شاربه كأنه مبتلّ، ارتفعت حرارته وذاب جسده في تلك اللحظة التي عرف أنها تحمله إلى نفسه التي بدأت تعرف الخوف؛ الخوف الإنساني العادي، الخوف الذي لم يختبره من قبل.

كانت سيري إلى جواره تتحدّث عن الأسماء المقترحة للفتى أو الفتاة، وما ستُلبسه، ونوع القطن الذي حِيكت به ملابسها، وتخبره كل ذلك الهراء، ثم تضع يدها على كتفه وتقترب منه بكل ذلك العطر الشهي وبفردوس جمالها اليانع. لكنه لم يكن هناك. لم يكن أبداً. كان في أخدوده الصخري، الذي ينزلق فيه ولا يشعر، وسط عاصفة من الصخور. عندما أفاق من صراع وعيه تذكَّر حدَثاً مضى عليه نحو عشرين عاماً، تلك العرافة الغجرية في الباخرة ونبوءتها، عبارتها المشهودة: "ستتزوج فتاة جميلة، لكنها ستُعْطي قلبها لغيرك! وستنجب ابنة جميلة سيكون أبوها رجلاً غيرك!" وكمن صفعته يدٌ إلهية مفرطة القسوة، دفع بسيري عن طريقه ووجهه يكاد يسقط من هول ما شعر،

أغلق عليه غرفة المكتب وأخذ يحاول تحليل تلك العبارة، الجزء الأول الذي يتعلق بزواجه من فتاة جميلة تحقق. لكن أن تعطي قلبها لشخصٍ آخر هذا هو الأمر، يا ترى من؟ هل يُعقل ذلك؟ من يا ترى؟ وفي قرارة نفسه توصّل إلى أنها ما دامت قد قالت: "ستعطي قلبها لغيرك" فربما كانت تعني مولودها، أو أحد والديها، وفي هذه الحالة لا ضير من أن تحبّ زوجتي ابنها أو والدها. ارتاح بعض الشيء لهذا التحليل ثم توجّه إلى الشقّ الآخر من النبوءة: "ستنجب ابنة جميلة سيكون أبوها رجلاً غيرك!"، "أبوها غيرك! أبوها غيرك! أبوها غيرك!"؛ ردد العبارة حتى كادت طبلة أذنه أن تنفجر، لكنه خدع نفسه أيضاً بحلّ ليرتاح باله وهو أنها ما دامت قد قالت: "ابنة" فقد حدّدَت بذلك كل شيء، "وإن وضعَت سيري مولوداً ذكراً فسوف أعتبر تلك العرّافة مجرد شحاذة لا تحسن التوقّعات ولن أهتم لأمرها أبداً!". أصبحت الآن مسألة وقت. وسيري هي التي ستثبت صحة النبوءة من عدمها. ووعد نفسه بأنها إن وضعت طفلة فسوف يقتلها بأبشع الطرق وأشنعها ويطعم لحمها لقططه التي كانت تملأ البيت. في ذلك اليوم، قبل أن ينام، سيدرك أن أمراً عظيماً سيحدث.

28
الشّكوك السّامة

أعلنت شركة مزادات فوتسي الفرنسية أنها قد أغلقت مزادها الأخير لرجل الصناعات الدوائية الأمريكي هنري وِلْكَم، وخسر متحف اللوفر بعض اللوحات في ذلك اليوم نتيجة لذلك، إذ إنّه كان ينوي شراء بعض لوحات عصر ما بعد النهضة بأي سعر، لكن لا أحد ينافس وِلْكَم، فهو سخيّ كالمعتاد تجاه ما يعشق. عند توقيع الأوراق، وقُبيل أن يأوي إلى استراحته استعداداً للعودة إلى لندن قابل بعض الرجال الذين يجمعهم معه هدف معين وهو الحركة الصهيونية التي أخذت بجمع الأموال وحصر اليهود المتعاطفين مع القضية، ولم يكن وِلْكَم يعرف ميشيل ماركس؛ مؤسس متاجر ماركس & سبنسر. وفي أحد المنتجعات كان حاييم فايتسمان يلقي عليهم خطبة قصيرة عن اليهود ومستوطناتهم التي لم يعد يرغب بها أحد. تذكّر وِلْكَم السير جيمس بلفور؛ الذي كان رئيس الخزانة أصبح الآن رئيساً لوزراء الملك، بلفور الذي يبغض اليهود ولا يتمنى أن يقابلهم في عموم أوروبا. فكّر وِلْكَم: "ماذا لو استغلّ ذلك ليبعدهم شرقاً؟"". وطوال الليل كان النضال ملمحاً أساسياً لجميع أولئك الرجال الذين يجب عليهم أن يقرّروا، برأيهم وأموالهم ومصالحهم، مصير اليهود في العالم. دولة اليهود؛ الحلم الجميل الذي ناموا على وسادته.

في اليوم التالي، على متن الباخرة، قابل وِلْكَم فايتسمان؛ الشاب الطموح الذي كان في طريقه إلى انكلترا ليدرس الكيمياء بجامعة مانشستر. لم يكن فايتسمان يعرف الحديث بعيداً عن الخُطب الثورية وأهمية الجدية في ما يتعلق بالكيان العظيم ومستقبله، وبينما يثرثر في

وجه وِلْكَم كان هناك طفل صغير يصرخ بشدة ويخرج صوته من لفافة صوفية ناعمة، تهدهده أمه التي تجلس خلفهم تماماً لكنه لم يكن يهدأ. وطفت في خيال وِلْكَم الخائف صورة بنت ستصرخ إلى أن تموت وستلدها سيري، وشعر بأنه سيقتلها: "سأقتلع عينيها وسأسلخ فروة رأسها وسأستأصل مهبلها ومن ثم رحمها ومبايضها وثدييها الصغيرين، ثم أخيراً سأقتلع قلبها وأرمي به في مرجل، سأتركه على النار سنةً كاملة على الأقل". قاطعه فايتسمان: "يا للهول!"، ثم أدرك وِلْكَم أنه كان يفكر بصوتٍ مسموع. حرّك يده في الهواء كأنه يبعد رائحة سيئة من أمامه ولم يحاول أن يقترب من الرجل مرةً أخرى. استأذنه مبتعداً. لو كان يعلم أن هذا الرجل الثرثار سيصبح رئيساً لما سُيسمّى لاحقاً (دولة إسرائيل)، بعد حوالَي تسعة عشر عاماً من وفاته، لما فوّت هذه اللحظة ولقال كثيراً عن المستقبل.

لم يفارق صوت صراخ الطفل أذنَيْ وِلْكَم، فقد كان يسمعه في كل مكان، في الحانة، وعند قمرته، ومن الخلف؛ حيث المحركات، بل حتى في ساحة الرقص المليئة بالأصوات. وكان يسأل نفسه مرة بعد الأخرى: "هل يا ترى وضعت سيري حملها؟" لم يكن يريد أن يسافر تلك الأيام لولا أهمية المزاد وبعض الشؤون الأخرى المتعلقة ببعض أبحاثه التي يزمع إقامتها قريباً، فلم يكن يثق بأن المولود له، يمكنها أن تستبدله، يمكن أن لا تكون حاملاً من الأساس، يمكن لكل شيء أن يُزَوَّر: "ماذا عساني فاعلاً؟ هل ستضع ولداً أم بنتاً؟". ومن خلف الأصوات جميعها، كان صوتها يعلو فيما يفكر، ولم يدخن الغليون في تلك الرحلة.

وجد سيري في لندن وقد أوشكت بطنها أن تنفجر، أسعده ذلك وقرّر أنه سيكون موجوداً لحظة الولادة لينفي كل الشكّ الذي من

الممكن أن يطاله لو لم يكن حاضراً. أصبحت الأيام تمرّ ببطء، ولا يريد العام 1903م أن ينقضي بسرعة. يمكنك خلال اليوم أن تقرأ وأن تتأمّل لساعات وساعات وأن تأخذ جولة وتقوم برياضتك وأن تستمع إلى موسيقاك المُفضّلة وأن تجلس في مختبرك، وكل ذلك قبل أن تأخذ القيلولة، كأنما قد أُصيب الوقت بالدودة الشريطية فأصبح لا يشبع أبداً. كانوا يستعدون لولادة سيري المتوقّعة في أية لحظة، تأتي والدتها وأختها كل يوم وتنتظران إن فاجأها الطلق، كما يوجد طبيب دائم وممرضة في المنزل ينتظران الحدث الأهم. سيري أيضاً شغلت نفسها ببعض مسهّلات الولادة عند الصينيّين فأخذت تشرب الشاي الأخضر حيناً أو تدهن أسفل بطنها بالعسل، وتتمشّى طوال اليوم في الحديقة الواسعة ثم تصعد السلالم مراراً، تقطف بعض الورود بنفسها وتأمر خدمها بتركها وحدها.

في تلك الأجواء وقع في يد وِلْكَم خطاب إيميلي الذي كانت سيري تخبّئه مع عدد من الخطابات الأخرى في درج جواربها وملابسها الداخلية الذي لم يكن ينظر إليه حتى! أخذ يقرأ ويقرأ؛ خطاباً تلو الآخر، قرأ كثيراً من الأمور، خطابات مليئة بالقُبل والخلاعة مرسلة من الروائي الساقط ويليم سومرست موم، خطابات أخرى من العاشق هاري سيلفريدج، وخطابات من أسماء مجهولة بالنسبة إليه، إضافة إلى خطابات غير مرسلة مكتوبة بخط سيري، والعديد منها كان إلى شاعر الفضائح أوسكار وايلد. وهنا تمكّنَت منه الشّكوك السّامة من جديد، وتلبّسه شيطان خارق ذو أنف أجوف يلفظ النار. كان ينظر إلى صورة سيري جوار مرآة تسريحها فتبدو له مثالاً للخداع والاستهتار وصورةً للغش والفساد. لم يشعر بأنه يتجسّس عليها أو يخترق خصوصيتها، لذا عندما دار مزلاج الباب لم يسارع بإدخال

المظاريف إلى الصندوق الخشبي المرصّع بالحجارة الكريمة والمنقوش عليها اسمها بلغات العالم الشرقي.

دار المزلاج ببطء ورويّة، بطريقة توحي بأن من أداره يعلم ما يحدث بالداخل، كأنه ربٌّ عليم. حرّكت دورة المزلاج دقّات قلبه رغم عدم تفاعله معها، شعر بالعرَق الحار يسيل في مؤخرته، وبأنه عارٍ من كل ملابسه. ثم تركت اليد المزلاج، ومن جديد دار دورة كاملة حتى سقط لسانه بالداخل، أرسل ناظريه إلى الباب متحسّباً دخولها، لكنها لم تفعل، تسرّب عطرها دافئاً إلى أنفه، ثم عادت الأُكرة إلى مكانها بسلاسة واختفى من كان هناك!

أسرعت الأفكار السوداء تتلاعب بعقله الجبّار، ملايين الروابط والتفاصيل أخذت تلتقي، كما حدث معي عندما زرته في قصر خليج كارديڤ أول مرة. يحاول فضّ بعض الغموض وإجابة بعض التساؤلات، قدْح ذهني تكشّفت بسببه بعض الأماكن الضبابية وانقشع كثير من الظلام واتضحت بعض الرؤى كما تتضح الأحداث أمام رجل يقرأ نهاية قصة بوليسية لأدغار آلن بو. وكأنه يرى مشهداً عمودياً لعملية نشل ملتوية حدثت في أحد ميادين لندن الطرفية، تربّطت بعض الأحداث والمناسبات والحوارات التي جُرَّ إليها ليُبدي رأياً أو يتخذ جانباً. عرّف الماضي القريب والبعيد؛ ليس على حقيقته بالطبع. وقد أخبرني ذات مرّة، واصفاً تلك اللحظة، بأنه شعر كأنه إحدى شخصيات رواية عبثية بطلها نبيٌّ ملعون يريد أن يحرر العالم من ألاعيب الله ودسائسه!

لكنه بأي حال أصبح يكره الكُتّاب والروائيين الشباب، وتحديداً الرجل "ذا الوجه المفلطح" كما كان يراه، وهو يقصد بذلك سومرست موم، الذي دائماً ما شعر بأنه شخص أنانيّ خبيث كجرثومة معوية.

برغم ذلك نسجت مخيلته شباك شكّها حول الجميع عدا أوسكار وايلد! ثم قرّر أنه سينتظر، لديه نبوءة يعتقد أنها صادقة إلى الآن في بعض الأمور. سينتظر. حتماً ستضع ما ببطنها يوماً ما، وهي بذلك ستضع معه كل الشكوك، وسيكون بوسعه أن يتجاوز كل هذا الانحراف، فأمام النور الساطع تتلاشى الظلال التي تتقمّص الظلام دائماً.

مرّت الأيام على تلك الشاكلة، وتحقّقت سيري من أن الأمور بينهما تسوء ولن تسير على ما يرام من جديد، لكنها فكرت بطريقة سليمة. ذات مساء، كان يتناولان فطورهما صامتين فأخبرته بأنها تحبّه، وأنها قد تزوجته عن قناعة، وأنها ربما كانت طائشة ذات يوم، لكنها الآن "تحبّه" ولا ترى أن هناك من سيسعدها بقدره. وأخبرته بأنها حلمت بمولود سمين الوجه يضحك دون سبب، تبدّدت بعض الخطوط من على وجهه واستوت التجاعيد التي صاحبته طوال الأيام الماضية، فقد كان وجهه قاسياً ومرعباً بطريقة تدلّ على أنه فارق ثباته البطولي وتحوّل إلى راعي بقر أمريكي متوحّش يُخيف به الأباء اللطفاء أبناءَهم المشاكسين في المُدن المتحضرة حتى يناموا باكراً. وفي الحقيقة كان شكل وِلْكَم يتغيّر عندما يغضب أو يعزم على أمرٍ ما بشدة، وبالكاد يمكن التعرف عليه من شدّة تغير ملامحه. وفي حضور هذه الروح الشيطانية يكون تجنّب مقابلته ضرورة أساسية. وخلال تلك الفترة كانت الشركة تعمل في كل ما يمكن أن يدرّ ربحاً بما في ذلك مواد البقالة والصناعات الخفيفة الأخرى إضافة إلى المنتجات الطبية المعروفة.

لم تكن شخصية وِلْكَم مفهومة، ومن الصعب معرفة ما يفكر به، أو كيف يفكر، أو ما يضايقه، أو ما يسعده، إلى جانب حبّه جمع التحف والمقتنيات النادرة وكل ما يتعلق بالطب القديم. وقد حوّل مقرّ

الشركة القديم بأكمله إلى خزانة عملاقة لا يَعرف ما بداخلها إلا أنا، وهي تحوي العديد من القطع التي تخص الطب والممارسات الطبّية الغريبة من مختلف دول العالم، ويحرسها أكثر من عشرة رجال بعضهم ذوو سوابق لكنه يحافظ على ثقته فيهم برواتب مُقدّرة، وهي قد تكون المكان الوحيد الذي يذهب إليه بشكل راتب وذلك طبعاً بخلاف جسر لندن ومكان تدخينه جوار الساعة.

امتلأ البيت الكبير بالوجوم والاكفهرار، أصبح مثالاً للكآبة إلى درجة أن سيري أحضرت مربيةً للمولود المُرتقب، سيدة من أصول فرنسية وتتحدّث الإنكليزية وتتمتع بذوقٍ عالٍ في ملابسها وتكلُّف في حديثها، كأنها مدبرة قصر ملكي، وهي بالطبع ذات وجه صارم وتقاسيم باردة، بعينَيْ سحلية وأنف محدودب كطرف الغليون وابتسامة خالية من الإحساس كأنها تتأكد من نظافة أسنانها أمام المرآة. لكنها أحدثت بعض التغيير وأضافت نوعاً من الديكور الحسن. أصبح وِلْكَم يجد الزهور المقطوفة حديثاً أمامه عندما يصحو، ويلمح قطعاً جديدة من بعض الركنيات أو الواجهات، وهي محاولة منها لتثبيت مكانتها إلى حين وصول الطفل الذي سيغيّر مجريات الأحداث كلها.

29
وِنْدِيغُو

لدينا هناك قصة أسطورية يحكيها رجال الهنود الحمر الذين تعلّموا الإنگليزية أو الفرنسية، وأحدَثتْ فيهم الحياة المدنية نوعاً من الاستقلالية، وجذَب الطموح أذهانهم، فكانوا عندما يقصّونها يقصدون بها المكانة الفريدة لذكرياتهم وحكاياتهم، أيام الحياة المتخلفة التي عاشوها في السابق. ولهذه الأسطورة تحديداً عشرات الروايات المختلفة في التفاصيل لكن الكائن الذي يروون عنه لا يتغيّر أبداً، واسمه (وِنْدِيغُو). تقول إحدى الروايات:

"في البراري الواسعة، التي تفترشها الشّمس وتتدثّر بالقمر في الليالي الباردة، ثمة قطعان لا تنتهي من جواميس البيسون، يمكنها أن تجري أياماً دون أن تغيب عن ناظريك وقد يظلّ غبارها عالقاً في الأجواء نهاراً كاملاً، يُسمع صوتها قبل أيام من وصولها، ويظل أياماً بعد مغادرتها. وهناك، في منتصف تلك الحيوانات الثائرة التي تثير العواصف وتنثر الفوضى أينما حلّت، رجل هندي يحرسها من غدر الرجل الأبيض الملعون وطمَع التجار الفرنسيين كريهي الرائحة. وذلك الحارس الهندي ليس رجلاً عادياً، إنما هو وِندِيغُو؛ نصف شيطان ونصف رجل ميت، يلتهم بقايا الرجال الذين يموتون بين قرون الثيران وتحت حوافرها الفتّاكة. لكن، عندما حدثت المجازر وأباد المستعمرون الأوروبيون البِيض تلك الثيران، أصبح ونديغو وحيداً، وهو عندما يكون وحيداً يلتهم كل من يقابله ولا سبيل لإرجاعه الميّتين الذين أكلهم إلا بإعادة الثيران التي لا يعلم أحد أين ذهبت. ذات يوم، تمكّن وِنْدِيغُو، عبر نصفه الإنساني، أن يصعد على

متن الباخرة التي تجوب العالم، وكان كلما شمّ رائحة لحم الثيران في جسد أحدهم التهمه على الفور، ثم أصبح يتغذّى على كل من يتغذّى على لحم الأبقار وثيرانه الحبيبة تحديداً. وكان عندما يهمّ بالتهام أحدٍ ما يتّسع صدره ويعلو وينتفخ كأنه ثور بيسون، ويتجمّع جسده كلّه عند صدره إلى درجة أنه يصير من الخلف مجرد ظل لشمعة".

لكن الرواية الأكثر شهرة واختصاراً تحكي عن "صياد هنديّ يعيش على ثيران البيسون التي يستخدم لحمها لغذائه وفراءها لكسائه، يحتمي به من الشمس في الصيف ومن البرد في الشتاء. وكان ذلك الصيّاد وحيداً إلى درجة أنه نسي كيف يبدو الناس. ذات يوم، اختفت جميع الثيران، وتحوّل ذلك الرجل إلى وحش متعطش إلى كل روح حيّة انتقاماً لحيواناته، فأصبح نصف شيطان ميت ونصف رجل؛ وحش مفترس يخيف الغرب الأوسط الأمريكي بأكمله ويلتهم كل الناس عدا الهنود".

ويُوصَف وِنديغو في رواية شائعة أخرى بأنه "رجل عملاق يتساقط منه الدّود الذي يعيش بداخله، جسده متفسّخ ومتحلّل يمكنك أن تشتم رائحته قبل يوم كامل من وصوله، لونه كالقمر وأسنانه كأسنان القرش وعيناه كالجمر، وهو يأكل لحوم البشر الحية والميتة بعد أن جرّبها مرة حينما جاع بعد أن اختفت الثيران. وكلما التهم بشرياً طلب مزيداً فهو لا يشبع أبدًا، يجمع ضحاياه في مخزن خشبيّ متهالك ويرصّهم كالحجارة".

يؤكد الجميع أن الموطن الأصلي لوِنْدِيغُو هو الغرب الأمريكي الأوسط وشمال البحيرات، مكانٌ ما حول بحيرة ميتشيجان. وقد رآه بعض أهل القرى في أونتاريو بجنوب كندا، وفي ويسكانسن ومينيسوتا. بالطبع أنا لا أؤمن بمثل تلك الخرافات، لكنني أعتقد أن

الوحش الآدميّ هو أبشع الوحوش وأقواها، فهو يأكل النباتات واللحوم، الزاحف والطائر والسابح، باختصار؛ البشريّ يأكل كل شيء. وأنا لا أخاف أحداً بقدر خوفي من آكل جميع الأنواع، بالتأكيد يمكنه أن يأكلني وأن يستسيغ طعمي إذا تمكّن من ابتلاعي.

كان وِلْكَم يُناديني بذلك اللقب المُخيف، يقول: "افعل ذلك يا وِنْدِيغُو"، "تحقَّقْ من ذلك يا وِنْدِيغُو"، "هل ارتاح الوحش الذي ينام بداخلك يا وِنْدِيغُو؟". وخلال السنوات الطويلة التي شهدتُها معه تغيّر اسمي عدة مرات وتعدّدت ألقابي، فتارةً أنا "آيب أو أبراهام"، وتارة أنا "يوري" أو "يوريبا"، وتارةً أخرى أنا "حارس الهيكل" و"كاتم السرّ الوفي" وأخيراً أنا "وِنْدِيغُو"، أنا محض أطياف تائهة لا تعي من تكون ولا ترى ما تنظر إليه، جسدي ليس جسدي وأنا في مكان آخر. أنا ذلك الرجل الذي قابلني لكنني لم أره.

لكن وِلْكَم هو أكثر من يشبه ذاك اللقب، بل إنه لقب لا يصلح لغيره، فقد قضيت معه سنوات كثيرة وأكاد أعرف جميع تفاصيل حياته حتى التي لم يحكيها لي. ومنذ أن أطلق عليَّ اللقب لقّبته به في سري، وأصبحتُ أناديه به؛ في سرّي أيضاً بالطبع، وأقارن بعض الأسرار التي لا يعلمها سواي، وأخيراً ارتاح بالي لتفسيرٍ ما، وهو أن وحش وِنْدِيغُو، الذي يرعب قارّة بأكملها ويلتهم جميع القرويين السُّذج وما زال الناس حتى الآن يهربون من قراهم إذا زعم أحد أنه شاهده؛ ذلك الوحش الجبَّار الذي لا يُقهَر سيخاف من وِلْكَم إن عَلِم ما يفعله، سيهرب منه وربما سينتحر برمي جسده المتكوّم عند صدره من جرفٍ هار، فإنّ وِلْكَم أكثر بشاعة ودمويةً وشراً منه، لكن في الخفاء، حيث لن تولد أسطورة ولن تعرف الناس الحكاية، ولن يبوح بها أحد. ومهما تحدثت عنه ستكون أعظم الأمور هي التي لم أروِها ولا أستطيع، وربما أجهلها، وليتني جهلت كل شيء عنه من الأساس.

30
معبد الظّلال

"طالما كان هناك إله يُقتل الناس بسببه!" سمعتُ هذه العبارة في قصره القديم بخليج كارديف، حيث شهدتُ حدثاً هاماً في شباط العام 1904م. كانت ليلة سبت عاصفة وباردة إلى درجة أن جميع مواقد القصر قد أُشعلت. أرسلوا في طلبي بخصوص المصنع القديم في دارتفورد والذي اشتراه سيلاس بوروز في 1889م وكان موضع صراع في ذلك الوقت. التقاني بطريقة جامدة ولم يرفع قبعته لتحيتي، بل أخبرني: "يمكن أن تذهب الآن، عُدْ أدراجك، أو يمكنك أن تموت إذا شئت، لا أريدك هنا. تفضّل!". لم أقابله منذ أن اختفى قبل أشهر، والآن يقابلني بهذه الطريقة؟ يا للعجب! سمعت أنه قد سافر إلى خارج البلاد ولم يعنِني ذلك، لكن كيف يقابلني كأنني حوذيّ أجرب أو عامل تقطير مجذوم. لذلك لم أغادر في الحال وبقيت، تسلّلت خلسة إلى الخلف حيث المدخل الجانبيّ للقبو وفي داخلي شعور بأن أمراً هاماً سيحدث هنا الليلة، فأنا على أيّة حال لم أشعر بأنّه يريدني أن أغادر حقاً.

بقيتُ وحدي قرابة ساعات ثلاث، أخذ الوقت يمضي سريعاً والفكر يستغرق حواسّي وشعوري، الغموض الذي يلتفّ حول هذا الرجل يجب أن يُكشَف، لا بدَّ أن يعرف أحدهم ما وراءه. لكن أحسّ أحياناً بأنني أجهله أنا ذاتي، كرجل جلست جواره في القطار وافترقنا في المحطة. هل أكون أقرب الناس إليه وأبعدهم عنه في الآن ذاته؟ صمّمت أن أتلصّص وأعرف ما سيحدث هذه الليلة.

قُبيل منتصف الليل سمعت دقّات قوية تأتي من الأعلى، تتبّعت الصوت عبر الممرّات الحالكة، وأخيراً وجدتُ مكاناً يلمع مخترقاً الظلام الحالك، شعاعٌ ذهبي يخترق الفضاء الأسود أمامي. عندما وصلت وجدت رمزاً غريباً على شكل هرم، ثم صعدت بسرعة على درج صغير متآكل لأرى، وجدت ما كنت أقصد مسدوداً ببناء حجري، ربما كان باباً سرياً في السابق، حاولت تحسّس الجدار لعلّي أجد المكان الذي يتسرّب منه الضوء ولم أعثر عليه، فتحسّست الهرم المنقوش أمامي وعرفت الأمر فوراً، أحسست بأنني قريب من الحدث. حاولت تصور البناء في الأعلى، تخيّلت المكان الذي أقف تحته وتوقّعت أن يكون مكاناً ما خلف غرفة مكتبه لكن لا يمكن الدخول إليه إلا عبر سلّم يتدلّى من الطابق الأعلى، وهو أحد أكثر الأمكنة سرية هنا، وأستطيع أن أتوقع أنه لا يعرفه إلا رجل واحد فقط.

في ذلك الظلام استدرت، ولدهشتي وجدت أمامي نقطتين من النور تسقطان في بقعة معينة من الجدار. اقتربت منهما فوجدتهما عينين منحوتتين على مستوى منخفض، والذي حجب عني مصدر ذلك الشعاع هو أنني كنتُ أقفُ في المكان الخطأ، فهو يخرج من ثقوب مرتفعة وبشكل مائل، وهو تصميم متعمد وليس مجرد صدفة. اضطررت للجلوس أرضاً لأرى المكان الذي يخرج منه الشعاع، وكان في أعلى الهرم، وضعت يديّ فوق العينين الناتئتين فشعرتُ بحركتهما، بدأت في البحث، وفجأة ولج أصبعي مكاناً متحرّكاً داخل بؤبؤ العين حيث يسقط الشعاع بالضبط. "إذن هاتان العينان هما منافذ سرية للرؤية. يا لوِلْكَم الغريب!". كان ثقب العين لا يفتح إلا إن أزحته بإصبعك الذي يملأ التجويف بالضبط، وبالكاد يمكنك إخراجه من هناك ليغلق المشهد أمامك، كيف لي أن أرى ما يحدث إن كان شرطه

وجود إصبعي بالداخل؟ يا للذكاء! لكن حتماً هناك طريقة، حاولت وضع عيني وحشر طرف إصبعي الصغير، لكنني أيضاً لم أتمكّن من الرؤية رغم سماعي بعض الكلمات. "فكِّر يا يوري... فكِّر يا يوريبا". حاولت مع العين الأخرى وحدث الشيء ذاته. لا مجال لمعرفة ما يحدث بالداخل. سرحت قليلاً في سرّ الخدعة، حتماً هناك سرٌّ صغير إذا حلَلته تمكّنت من الرؤية. وبينما أدخل أصبعي وأخرِجه من العين ويبتعد القفل البؤبؤي ويعود لاحظت الأمر، "هاااه إذن لا يمكن أن ترى بكلتا عينيك". إن وضعت إصبعي في العين اليسرى فإنها تُبعد غطاء الاثنتين معاً، عكس اليمنى تماماً. ولم أهدر مزيداً من الوقت، حشرت بنصري بقوة ووضعت عيني، فهالني ما رأيت. الموضع عالٍ، كأنني أرى من السماء. وتذكّرت "شرفات الآلهة" التي كان يخبرني بها باستمرار وابتسمت في رضا. بالداخل كنت أرى عبر عين العناية الإلهية كل ما يحدث: (اثنا عشر ظلًّا يصطفون، ويمتدّون في كل مكان بسبب مصادر النور المتعددة، واحد فقط في المقدمة وخمسة على كل جانب، أحدهم جاثٍ في المنتصف، جميع الرجال، أو ما ظننتهم رجالاً، يرتدون العباءات السوداء والقلنسوات، ويضعون أقنعة ذهبية لامعة لا تختلف عن بعضها، يعقدون أيديهم أمامهم ويرتدون خواتمَ أعرفها جيداً فوِلْكَم يرتدي مثلها في بعض الأحيان "الفرجار وزاوية النجّار". كانوا يقفون كأنهم أصنام، وأحدهم يتحدّث بلغة غريبة لم أفهم منها شيئاً، ربما هي ترانيمُ طقسٍ ما، ربما لغة سامية، أو يهودية قديمة. لم أتبيّن من الذي يدندن، ومع كل بضع كلمات أو عبارات إن جاز التعبير كان العشرة المصطفّون إزاء بعضهم البعض يبدلون وضعية عقدة أيديهم بطريقة معينة، ثم وضَع الرجل الجاثي يده التي كان يحتفظ بها خلف ظهره على الأرض كعدّاء في انتظار صافرة السباق. ثم رأيت بختيشوع، عرفته طبعاً بسبب قامته، يقف في أعلى

المجلس فوق مصطبة طويلة وهو يرتدي عباءة بيضاء، ويمسك بكتابٍ كبير، يقرأ منه كلمة واحدة فقط كل بضع لحظات. نزل الرجل الذي يتصدّر المجموعة إلى الأرض وشَدّ العباءة فوجدت الرجل عارياً كما وُلِدَ، يربط حوله خيطاً أو حزاماً رقيقاً بلون جلده، ثم نزل بختيشوع حاملاً كأساً عملاقة، وعرفت جزءاً من هذا الطقس فقد حدث لي ذات مرة. أخذ الرجل يشرب ثم شرب الجميع بالتناوب ثم صُبَّ ما بقي في الكأس على رأس الرجل العاري. أحضر بختيشوع أداةً ما، وضعها الرجل حول صدره ثم عدّل وضعه، وردّد خلف الرجل كثيراً من العبارات لم أسمعها جيداً بسبب أن الصوت كان خافتاً. فصَد الرجل صدره بالأداة فتقطر الدم وأخذ يتنهد، اقترب منه العشرة المتقابلون ووضع كلّ منهم يده اليسرى فوق رأسه ثم داروا عكس عقارب الساعة. بعدها أتى بختيشوع بسيفٍ طويل على صينية فاخرة مكسوة بالدانتيلا الزرقاء، عندها بكى الرجل بصوتٍ مسموع وقال: "طالما كان هناك إله يُقتل الناس بسببه"، ثم ابتعد الجميع. تناول الرجل السيف، أحكم عليه كلتا يديه ورفعه عالياً في الهواء ثم أنزله ببطء حتى لامس الأرض، بعدها مرّره إلى رجل آخر، وهكذا مرَّ السيف على الرجال جميعاً ثم عاد أخيراً إلى بختيشوع وأبعده. لاحظت أن الأرضية أسفل الرجل العاري كانت على شكل نجمة سداسية مذهبة، والقاعة مليئة بالتصاوير والرسومات التعبيرية والشمعدانات الغريبة، ولم يكن بابها ظاهراً. وبينما أتابع ما يحدث شعرت بجسدي قد تجمّد وأنّ عليّ أنْ أغير وضعيتي. حسناً سأستبدل عيني، لكنني سمعت صوتاً أعرفه جيداً يتحدث بالداخل، كان وِلْكَم من أعلى سلّم صغير يؤدّي إلى منبر ملكي مترف التجهيز والشكل. وحِرْتُ كيف لي أن لا أراه؟ أدركت أخيراً أن هناك تلاعباً بالإضاءة يمكنها أن تضيء مكاناً معيناً فقط. أدركت ذلك لأن كل الرجال اختفوا في الظلام فجأة

وسمعت: "أيّتها الظّلال! أيّها الأساتذة العظماء! اليوم سنختار حارساً آخر للمعبد؛ المقرّ الأعظم، دائرة الكون ومركز النور الأبديّ". همهم الرجال ثم سألهم: "هل توافقون؟" بصوت واحد أجابوا: "نعم". ثم قام الرجل الذي يحمل أكثر العيون شرّاً من على الأرض وانتصب واقفاً بكامل عريه وشعر عانته ودمه. من خلف قناعه دندن وِلْكَم ببعض الكلمات الخافتة كأنها لحن عصفور تائه في البحر، ثم مدَّ يده إلى الرجل الذي كان يتبع تحرّكاته ضوءٌ محدودٌ مسلّط عليه من أعلى ويتحرّك معه إلى أن صعد المنبر. تلك اللحظة كان الفأر قد قرَض بعض حذائي دون أن أنتبه فركلته وحاولت أن أتحرك لأنّ جسدي قد تخشب من تلك الوضعية القاسية التي استمرّت ساعتين ربما، أو أكثر. أبعدتُ يدي ووجهي رويداً رويداً، وأنا أحاول أن أكون إنكليزياً بارداً ومتكلّفاً في تلك اللحظة. أسدلَت الجفون النحاسية نفسها وحجبت عني ما يحدث. تحرّكت في الممر الذي حفّته الجرذان وطَفَت عفونتها ورائحة تسافدها في الهواء. تمشّيت بضع خطوات ثم عُدْت. تأكّدت أن كل الأمور على ما يرام. أدخلت بنصري ببطء من جديد، وعندما وضعت عيني، رأيت عيناً، سوداء وقاسية تنظر فيَّ! لم أعرفها ولم تعرفني، لكنّا شعرنا ببعضنا البعض، وعرفتُ أنّ أمري قد كُشف!

31
النّبوءة

من إيميلي نورثمب إلى سيري وِلْكَم

"أنا حقاً سعيدة من أجلك، أتمنى لكِ السعادة مع الرجل الذي أحبّك وأحببته. عرفت أنكِ قد رُزقتِ بطفل جميل وأودُّ رؤيته حقاً، لكنني لا أستطيع لظروف خارجة عن إرادتي. أتلو صلواتي في انتظار غفرانك".

4 تشرين الثاني 1903

حدث ذلك منذ عشرين يوماً تقريباً، في ظهر يوم أحد بارد جداً، في عيادة خاصة في شارع هارلي نُقلت إليها سيري بعد أن تعسّرت ولادتها في البيت. أسرع السائق بالعربة وبالكاد وصلنا إلى العيادة في الوقت المناسب. دخل معها وِلْكَم إلى غرفة العمليات، رغم تحذيرات الطبيب، وهو يرتدي بدلة الصوف الرمادية ذات الخطوط السوداء وحذاءه المليء بالوحل. حضر والدها الذي أصبحنا نبغضه كثيراً بسبب النصح الذي لا يتوقف عن توجيهه لنا، كأن يتفوّه بأقذع الكلمات. اتكأ إلى الدرج الخشبي الخاص بأدوات التمريض وفتح كتابه المقدّس وقرأ بعض المزامير، ثم أتت زوجته وحاولت الدخول، وفي النهاية بقي ثلاثتنا في انتظار مرير لا نقوى عليه. خرجت إلينا الممرضة مسرعة ولم تخبرنا بأي تفاصيل ثم عادت إلى الداخل والارتباك بادٍ عليها فقلقَت الأمّ وانتحبَت. عدَّل توماس برناردو نظارته وظلّ واضعاً يده على جانبها إلى أن خرج إلينا وِلْكَم وفي يديه

لفافة زرقاء ملوّثة بدم قاتم وفي وسطها قطعة لحم حمراء بوجه كأنه ثمرة فراولة في أوج النضوج. ولم يكن ذلك الشيء الملفوف يتوقف عن الصراخ أبداً، بل كان يعوي إن صحّ لي القول. صاح بي: "تعال يا وِنْدِيغو! انظر! إنه ولد، ولد، صبي جميل سيكون مَلكاً على هذا العالم!" وغمزني مُزيحاً ليَ القماش لأرى رمز رجولته الصغير كعقب سيجارة مفلترة. لحقَت به الممرضة اللئيمة وانتزعت الطفل منه وانتهرته فتوجه إلى الحائط وأجهش بالبكاء. انسحب الوالدان لرؤية ابنتهما بالداخل.

"سيكون رجلاً عظيماً يا صديقي" أخبرني بذلك مراراً. في البيت احتفلنا بزجاجة شمبانيا فرنسية عتيقة ثم أضاف: "سأسمّيه ماونتن، هنري ماونتن وِلْكَم، وسيكون ذا شأن عظيم! أنا أعرف ذلك". وأصْدُقكم القول إني لم أره سعيداً كذلك اليوم أبداً. ضحك دون سبب، وفتح لي قلبه بمئات الحكايات والانطباعات والآمال العظيمة التي ينوي تحقيقها في المستقبل. أخبرني عن أسرار قلعة ميديتشي في فلورنس، وأخبرني بما فعله في مصنع الشموع، وقصّته مع سلاح الفرسان الأمريكي، وقصة الهندية العجوز التي كان يراقبها وكيف انتقم من الأطفال في المدرسة عندما أخذوا يضحكون عليه، ثم أخبرني عن الفقر والعمل في المزارع وجلب الماء واقتلاع البطاطا وأكل الفاصوليا كل يوم وحساء الماء بالملح والبصل والكثير الكثير.

في ذلك العام كان قد أكمل خمسين عاماً، وسألني كم سيعيش؟ ولم أجبه! كان مهموماً يريد أن يرى ابنه رجلاً هاماً في المجتمع ويخاف أن يموت دون ذلك.

أُبطلت النبوءة رغم صدقها. أهدى سيري عقداً فريداً يعود إلى إحدى أميرات البلاط الأسباني هُرِّب من فرنسا، وهو عقد نادر

مصنوع في إيطاليا ومرصّع بالجواهر وملفوف بخيوط الذهب. خلال تلك الفترة منحَته سيري كثيراً من الحبّ وأصبحوا عائلة سعيدة. أخيراً هدأت روحه، وشعر بأن الحياة تبشّره بكثير من الهبات، وعليه الآن العمل فقد اختفت الهواجس المرعبة والشكوك السّامة. ارتخى جلد وجهه وانتشرت بعض التجاعيد. أخذت سيري الطفل إلى الكنيسة وعمّدته هناك، وأغضبه هذا الأمر عليها وصرّح لأول مرة بأنه لم يكن لوليّ عهده أن يُعَمَّد بتلك الطريقة على يدَيْ قس، لذا أجرى له تعميداً يهودياً كالذي أُجْرِي له هو ذاته في وقت مبكر من حياته، قبل أن تكون لديه تلك التجاعيد الشاحبة.

أخذ شاربه ينمو كأنه إحدى النباتات المتسلقة في أدغال أفريقيا. أحياناً، عندما أقود له سيارته الحديثة في أحد المشاوير، وعندما تهتز العربة في أحد المطبات، أتخيّل أن شاربه سيلامس شاربي الطويل. اعتقَد بعضُ الموظفين حديثي العهد بالشركة أنني أخوه أو قريب من الدرجة الأولى. كنت الشخص الوحيد الذي لا يغادر العمل في الشركة، بينما يأتي الآخرون ويذهبون بلا نهاية. قرّر وِلْكَم أن يعود إلى حياته العملية والسرّية وشؤونه، بعد أن منح سيري الجميلة كامل ثقته، وأخذ منها وعداً صادقاً بعدم النظر إلى الوراء، وسامحها على ما فعلت وعلى ما لم تفعل ما دام ذلك قد مضى.

أبرَق إلى د. بلفور في الخرطوم ليبدأ العمل في معامل ومختبرات وِلْكَم المدارية، وطالبه بفحص الأمراض وجمع العينات التي تقابله هناك، والاحتفاظ بالنادر منها ووَصْفها وصفاً دقيقاً ثم تصنيفها وإرسالها إلى لندن. كما أعلمه بأنه سيلبّي كل المتطلبات وسيأتي بمُعِينات العمل التي يحتاجها. ووعده بإرسال معمل متحرّك، وسيارة حديثة بمحرك بخاري، وباخرة نيلية مجهَّزة لتجوب النيل جنوباً لجمع

أكبر قدر من الحالات؛ استعداداً لمعرفة الأمراض هناك، وإدخال منتجات الشركة الأكبر في العالم إلى المستعمرة الأهمّ. كما أبرَق إلى الحاكم العام في السودان؛ الجنرال ريجنالد ونجت، وأطْلَعه على أنه سيأتي قريباً للعمل في الحفريات التي يهدف منها إلى البحث والتقصّي عن حضارة تلك البلاد، مفترضاً أنها أهم حضارات تلك المنطقة التي لا يوجد لها تاريخ، فالحضارة الفرعونية كانت في الشمال، وحضارة أكسوم في أقصى الشرق، ولا بدّ وأن تكون بينهما حضارة أكبر وأهمّ منهما الاثنتين معاً. وقد كان يشعر بأن أصل الحضارة هناك. لا يعلم لماذا يفترض ذلك، لكنه بأي حال كان متحمّساً جداً للخوض في غمار تجربة جديدة ستعود عليه في حدّها الأدنى بالتحف والأثريات النادرة وما لم يخبرني عنه. ثم أخبرني بأننا ربما سنذهب إلى السودان في نهاية العام، لكنه اختفى من جديد.

32
النَّاووس

في الوقت الذي كان يجب أن يتعلّم فيه الصغير "ماونتن" المشي لم يكن يستطيع أن يجلس حتى! فهو كائنٌ رخو كقطعة إسفنج، بدين منتفخ الخدّين كإناء عظيم المقابض، وبدأت تظهر عليه بعض أعراض التأخّر والتخلّف. عرَضته سيري على الطبيب وقد أصبح القلق والخوف بشأنه أحد أهمّ مشاغلها اليومية. لكن وِلْكَم لم يكن خائفاً، فمثل تلك الأمور تحدث للصّغار وبما أنه تجاوز عاماً ونصف العام ولم يمت فذلك جيد في نظره. وبالطبع عندما نتذكّر نشأته في الغرب الأمريكي المخيف نجد له الأعذار ويجد المبرّرات لنفسه. في تلك الفترة تحوّلت سيري، وتحلَّت بكامل الصفات التي يحبها وِلْكَم، والتي تجعلها كإحدى الدوقات أو الماركيزات أو الأميرات اللائي يتوارثن الجمال والعيش الرغيد، في وقت ساد فيه الهدوء والاستقرار بينهما، وعرفت أنهم قد قضوا فترة خارج البلاد وتجوّلوا قليلاً في الجوار الأوروبي.

انتبَهتُ إلى سيري وقد أخذ جمالها يتضاعف، وفتَنَتْني أكثر من أيّ وقتٍ مضى. راحت أنوثتها تتدفّق كمياه الشلال في نياغارا، وكأنّ عينيها الصافيتين تشربان من زرقة السماء. سحرتني، وهيجت فيّ لوعةً وحنيناً غالبني كما يغالبني مشهد السّماء في ألاسكا. بمسحة قليلة من الحزن تنظر إليّ وهي لا تعي أن تلك النظرات الحزينة تقتلني ألف مرة، وكأنّي أنا السبب أو المسؤول عنها أو عن سعادتها. تحلّق كالملاك حول طفلها، وتطفو روحي الهشّة فيحترق قلبي وأثبّت أنظاري إلى ضفائرها الزاحفة على كتفيها ونهديها الصغيرين اللذين لا يكبران مهما

كبرت مسؤوليتهما. وسألت نفسي: ترى هل تُرضع طفلها أم أن لديهم مُرضعة؟ ثم أسهو أمام تلك الدائرة الصغيرة التي تحتفظ بشباب بريء كعذارى المجوس، وأتابعها وهيّ تنزُّ اللبن المرّ، يا للحلمة القمرية كقبضة يد ارتاحت في الهواء ساعة هُتاف. جسدها كناي يغني ويرسل موسيقاه الناعمة إلى أعماق الروح. ضحكتها كفيلة بأنْ تشعل الرغبة حتى في الجمادات مثلي. وكيف لا تكون كذلك، وهي بالكاد تبلغ عامها السادس والعشرين بينما تجاوز وِلْكَم عامه الثاني والخمسين؟ يأكلني اللهيب ولواعج الحبّ وما أنا فيه!

عند نهاية ذلك العام 1905م، حدَث أمرٌ لم نكن نتوقّعه. وما كنّا لنتخيل أن حدّثاً عادياً سيتحوّل إلى كارثة حقيقية. في منتصف شهر كانون تُوفي توماس جون برناردو؛ والد سيري. وإلى هذا الحدّ ما زال الأمر عاديّاً.

دخلتُ مع وِلْكَم إلى الغرفة لرؤية الرجل الميت قبل مراسم الدفن. بدا الجميع متماسكين فقد ربّاهم الرجل تربية مسيحية خالصة ومتشدّدة، لكن ربما كان بعض أفراد الأسرة يفكرون في ما سيرثون من مال وحرية أكثر من حزنهم على فراقه. بعد أن أغلقت الباب خلفي طلب مني وِلْكَم أن أراقب، ثم أخذ يبحث عن غرضٍ ما. لم أنتبه إن كان قد أخذ شيئاً أو وضع شيئاً، فقد كان يحمل حقيبة صغيرة لا تثير الاهتمام، أمرني بأن لا ألتفت؛ مبرّراً ذلك بأنه سيتلو الصلوات ولا يريدني أن أرى شيئاً. سمعتُ أصواتاً من خلفي وسقطَت أداة حديدية وانكسرت زجاجة وفاحت بعض الرائحة. قلت في سرّي: "يا له من رجل عظيم! ينثر العطر في هذه اللحظات المفصلية مخلصاً لصهره حقّ الإخلاص". لا أعلم ما حدث في الحقيقة، رغم أن الفضول كان يغمرني. "هيا لنغادر، لقد كان رجلاً عظيماً، سيفقده آلاف الأطفال"، قالها قبل أن نخرج.

أمرَني بأن أحرص على إحضار ناووس مميز لرجل مهم، وهمس لي: "يجب دفن الكثير من الأشياء مع الرجل الميت"، وفعلت كما طلب. وفي يوم الجنازة أصرّت الأمّ على أن يُدفَن في دبلن، ثم احتدّ النقاش بين الأم وسيري وبقية العائلة. رفعت قبعتي وخرجت وراء وِلْكَم، فلـم يكن يهمّنا حقاً أين يُدفن. المهم أنـه سيختفي... مع ناووس الأسرار.

ذهبنا إلى منزل وِلْكَم الجديد الكبير في "رجينست بارك". سألني عن بعض الأمور التي لا يمكنني الإجابة عنها؛ كأهمية العائلة، والفرْق بين الموت والحياة بالنسبة إلى الأبناء. كدتُ أجنّ. ما هذا الرجل؟ لماذا تبدو الأمور في نظره سواء؟ كيف له أن لا يرى فرْقاً بين الأمرين؟ ألا يُقدّر الحياة على الأقل؟ ثم رمى إليَّ بمظروف من النوع المجّاني الذي تستخدمه المكاتب الحكومية والشرطة في مراسلاتها الرسمية، وطلب مني أن أهتمّ بما فيه، وأن أتحقق منه. كان خطاباً مُرسلاً إلى سيري، لكنها لن تقرأه أبداً:

27 أيلول 1905 – مستشفى سانت ماري

"لا أعرف كيف أبدأ رسالتي يا عزيزتي سيري، لماذا لا تراسلينني؟ أحقاً تكرهينني إلى تلك الدرجة؟ أرجو أن تخبريني بالحقيقة، لعلي لن أراك يا صديقتي مرةً آخرى، أنا مريضة، مريضةٌ جداً وأُملي لكِ هذه الرسالة عبر أحد الأخيار. تذَكّريني دائماً يا سيري، وادْعي لي في صلواتك، أخبري أبانا الذي في السماء بأن يغفر لي. أخافُ أن أمضي دون أنْ أعترف لكِ ببعض الأشياء المهمّة التي تؤرّقني وأشعر بأن الله يُبقِي عليَّ حيّة فقط لأجل أن تسمعي اعترافي. إذا كتبتِ إليّ سأخبرك بكلّ شيء. أطلبُ منكِ العفو إنْ لم تجدني رسالتك".

أرجو أن تأتي لزيارتي

صديقتك دائماً

إيميلي نورثمب

لاحقاً عرفتُ أنَّ تلك الفتاة هي صديقتها الأقرب، وأنها على فراش الموت منذ مدة طويلة، وقد أصابها العمى ضمن ما أصابها. تقبل على نفسها صدقات الكنيسة بعد أن تخلّى عنها أهلها، بل هي عبارة عن جثة على قيد الحياة، حتى الأطباء لا يقتربون منها. لعنتُ الله في سري بعد أن رأيتُها فقد كنتُ أعتقد أنني رجل طيب أو كنتُ أظنني كذلك.

بعد عدّة أيام من جنازة توماس برناردو، كنا نواجه مشاكل مع الضرائب، وقد أتى مفتشان رفيعان لزيارة وِلْكَم في منزله بعد أن كان غير منتظم في الذهاب إلى مكتبه. كان متضايقاً في تلك الفترة دون سبب معين، كأنه يعاني من مرضٍ ما أو ما شابه ولا يريد الاعتراف، كما تبدر عنه تصرّفات غير مفهومة إلى درجة أنه ذات مرة أغلق الباب على غرفة سيري من الخارج، وحبَسها بالداخل طوال يوم كامل، وأمَر جميع الخدم بالانصراف عدا المربية الفرنسية "سيمون". بعد ذلك حدثت بينهما كثيرٌ من المشاكل. وسمعتها ذات مرة تهدده: "ستموت يا هنري لو تركتك وحدك! سأتخلّى عنك يوماً ما! أنا أعلم!". وكان يرد عليها: "إن لم تكوني معي لا أعرف ما الذي كنتُ سأفعله، فالوحدة التي بداخلي ستجلب الموت والدمار على الأبرياء إن خرجَت". كان حديثهما غريباً ومليئاً بالمطاعنات، لكنه حتماً مفترق طُرق عاديّ كالذي يمرُّ به كل الناس.

ربما كان وِلْكَم يتحفّظ على علاقاتها الاجتماعية مؤخراً؛ فقد أصبح لديها كثيرٌ من الأصدقاء فجأة، كما عادت لتهتم بمعارض الفنون والمتاحف من جديد، وتحاول إقناعه برحلة صغيرة إلى باريس في عطلة العام الجديد. كانت تترك طفلها طوال اليوم مع المربية لتختلي بنفسها في قاعة الرسم بالطابق الأرضي، بل كانت أيضاً تقود السيارة بنفسها. تصوّروا! يا لجرأتها! جميع الناس في لندن يعرفون من تكون؟ لم يكن وِلْكَم يحبّ ذلك. لم يكن يحبّ الأضواء، فقد كنتُ أرشو كثيراً من الصحفيين لأجل أن لا يكتبوا عنه أيّ شيء؛ سلباً أم إيجاباً. يا له من رجل غريب التصرفات غير مفهوم! ثم خلال تلك السنة أظهَر اهتماماً كبيراً بالآثار والحفريات والتاريخ، وتوصّل إلى أن الحضارة التي نحن في أوجها تقوم على المدفون أو المطمور أو المغمور، عمداً أو قدراً، فأسرار الماضي هي مفاتيح المستقبل. ربما قد خُبّئت في النواويس أو التوابيت أو دفنت في القبور، أو في أحد الأمكنة التي لا يعود إليها الناس إلا لمزيد من الاختفاء والموت.

بدأنا التواصل مع بعض مسؤولي إدارة المستعمرات، بدعم كبير ومُقدّر من السير ريجنالد ونجت حاكم السودان، وقد وافق على اقتراح إقامة حفريات تهدف إلى الكشف عن تاريخ تلك البلاد التي كان وِلْكَم مفتوناً بها. ودعمَنا أيضاً رئيس الوزراء الذي انتهت فترة رئاسته؛ جيمس بلفور، وبعض الموظفين المهمين الذين لا يعرفهم أحد عدا وِلْكَم. أخيراً أرسل ونجت خطاب الموافقة، وأخبرنا بأن الإدارة في لندن لن توافق بشكل رسمي لكن يمكن للعمل أن يبدأ على الأقل وأن الأمر يحتاج إلى الوقت ليس إلا. واقترح علينا بعض الأماكن الهامة مثل مدينة سواكن في شرق البلاد؛ حيث الحضارة البائدة، وبعض المناطق في الشمال، وأيضاً منطقة شرق الخرطوم. لكن وِلْكَم لم

يكن يهتم بكل ذلك؛ فقد كان يملك خريطةً... لمكان ما، خريطة مشفّرة ومليئة بالرموز والأسرار.

في نهاية تلك السنة كنتُ قد جمعت مبلغاً من المال وقرّرت السفر إلى أمريكا، سمعت أنها قد أصبحت أكثر الدول تقدّماً، بل البلد الأول على الإطلاق في كل شيء. الآن يحكمها ثيودور روزفلت خلفاً لويليام مكينلي الذي اغتيل قبل عدة سنوات. الجمهوريون مَرِحُون برغم عصبيتهم، أنا أحبهم. طلبت إذناً من مدير الشركة الجديد ورَفَض أن يأذن لي فتدخّل وِلْكَم ومنحني إجازة لستين يوماً، وبالكاد كانت تكفيني. كنتُ أنوي أن أعود بسرعة وبصحبتي فتاة أمريكية جميلة تثير غيرة سيري ووِلْكَم في آن. بالطبع اشتريت مزرعة في الريف، ولديَّ سيارة خاصة، وبعض المال في البنك، وبدأت أجمع المقتنيات والتحف، أقرأ كثيراً وأكتب بعض المذكرات، نوعاً ما هي مذكرات! فإنّ لديّ أسراري الخاصة التي لا يعرفها أحد. في كانون الثاني 1907م كنت في عرض البحر، غريباً حيث جئت، وغريباً حيثُ أذهب.

33
آبراكادابرا

- "العينُ ترى كل شيء".

كانت سيري منهمكةفي تشغيل الفونوغراف عندما خُيِّل إليها أنها قد سمعته، فسألت:

- "ماذا قلت؟".

غمغم لها لاعناً. لم تسمعه أيضاً، كان يجلس على مقعد القراءة الأحمر بعيداً عن الإضاءة، عند الركن. يخرج دخان غليونه ويصعد عالياً كإشارة النجدة عند قاطني المُرتفعات. ضجرت سيري من طريقته تلك التي صار يعاملها بها مؤخراً فرسمت علامة الصليب ولعنت في سرّها ثم وضعت الإبرة في حافة الاسطوانة وخرج اللحن إلينا.

- "عندما تفرّقين بين الله وابنه يمكنكِ أن تسمعي جيداً... يا غبية!".
- "هي أنت! بماذا تهمس؟ ولِمَنْ؟".

وبمباشرة فجّة سألها:

- "أخبريني يا سيري... هل لديكِ صديقة مُقرَّبة اسمها إيميلي نورثمب؟".

تلعثمت وعبس وجهها بامتعاض:

- "كان ذلك منذ مدة طويلة... أنا لا أعرفها اليوم".
- "وما هي الأسرار التي تجمعكما معاً؟".

- "كيف لي أن أعلم! لقد أخبرتك! لم أقابلها منذ عشر سنوات ربما أو يزيد. لا أعلم حقاً أين هي ولا أعرف عنها شيئاً، لقد نسيتها! كانت صديقتي... يوماً ما".
- "ألقي نظرة إلى هذا.."

رمى إليها بمظروف بُنّي أسرعت لتفتحه فوجدته مفتوحاً. رمته بنظرة مقيتة ثم أسرعت لتجلس إلى الدرج، بسطت الخطاب أمامها كأنه خريطة الكنز وقرأت:

من إيميلي نورثمب إلى سيري وِلْكَم

"عزيزتي سيري، أنا أقضي أيامي الأخيرة في الحياة، أنا أحتضر، يؤسفني أنكِ لا تراسلينني ولا تهتمين لأمري، لا تدَعي سومرست موم يخدعك من جديد، أنا أحذّرك في آخر رمقٍ لي، الجميع هنا يتحدثون عن فضائحه، سأجعل وصيتي بأن لا تتزوجي من ذلك الفاجر. إذا تأخرتِ قد لا نلتقي، أرجو أن تزوريني في أسرع وقت. أنا آسفة بشأن والدك، عرفت ذلك من أحد رجال الشرطة. أنا أعلم أنكِ هنا جواري في منزل أسرتك في بادينغتون. تعالي إليَّ، سأعترف لكِ كما أعترفتُ للكاهن مؤخراً، وقد أتى بناءً على طلبي وسمع اعترافي هنا... في الغرفة رقم 22. أنا في انتظارك، سيلاحقني الندم في حياتي الأخرى إن لم تأتي إليّ وسيلازمكِ أيضاً... يا صديقتي الحلوة."

11 آذار 1907

مستشفى سانت ماري

سألها بينما يمتصّ غليونه بغضب:

- "بماذا تُفسّرين هذه الرسالة؟".

امتقع وجهها وسكتت، ثم انتبهت إلى أن المُربّية موجودة فطلبت منها المغادرة بلطف، ثم نهرتها بقسوة. صرخ الطفل وهمّت إحدى الخادمات بالذهاب إليه لكنها عادت أدراجها فور أن رأت سيري على ذلك الحال، فهنّ يعرفن جيداً أن عليهن اجتنابها إذا كانت غاضبة؛ لأنها لن تتوانى أن تقذف أحداهنّ أو جميعهنّ بأقرب شيء إلى يدها وإن كان ناراً.

- "أجيبي على سؤالي".
- "أوو يا عزيزي! مجرد هراء لا أحفل به كثيراً. ولا تهمّني تلك الرسالة ولا مضمونها ولا صاحبتها".

قاطعها:

- "حتى وإن كانت تموت؟".

أجابته بثقة وهي تعني ما نطقتْ به:

- "نعم".

لم يكن وِلْكَم يستطيع تجاوز ذلك الاسم "سومرست موم"، اللعوب الخبيث والمخنث. أضمر الشر في نفسه وتناساه لاحقاً بالعمل.

تذكّر كيف كان حاله قبل خمسة وأربعين عاماً. نظر إلى يديه النظيفتين وقارنهما بيديه القذرتين عندما كانت تملأهما الدمامل والتقرّحات في المزرعة، كان يستخدم الفؤوس والمطارق لساعات طويلة ليقطع الأشجار ويسوي الأخشاب ويجرف الأرض ويقتلع البطاطا والصخور. أطلق آهة تعب ونظر إلى رجليه البيضاوين المجعّدتين اللتين اعتاد على تغطيتهما بمنشفة قطنية لا يوجد مثلها إلا في القصور وتُصنع خصوصاً في يورك شاير، وقارنهما برجليه القديمتين عندما كان يذهب إلى أبعد المسافات لجلب الماء حافياً. وتذكر كيف

عاش طفولته كلها حافياً، كيف كان يستطيع أن يتعرّف على الأشجار من الطريقة التي تنغرس بها أشواكها في رجليه ومدى حدتها. تذكر كيف يحمل السطل دون أن تسقط منه قطرة واحدة، وكيف كان يحلم بأن يشبع فقط، أن يملأ بطنه فقط بغضّ النظر عن نوع الغذاء! وكيف كان يخدع الأطفال ليلتهم منهم الحلوى وهو يخبرهم بأنه سيخفيها ويعيدها من جديد، يمارس أمام أعينهم بعض الخفّة ثم يقول لهم ردّدوا ورائي: "آبراكادابرا" يلتفت الأطفال فيقضم الحلوى، لاحقاً عندما تفشل كلمته السرية في إرجاع الحلوى يضحك الأطفال عليه ويسخرون من تعويذته البليدة التي لم تكن تنجح أبداً! ولماذا عليها أن تنجح ما دامت تؤدي الغرض ويأكل الحلوى؟ كان الأطفال يتغاضون عن التهامه الحلوى وينصبّ تركيزهم على الفشل. وتلك هي موهبته، يجذب اهتمام من حوله ويصبّه في مكان معين، ثم يفعل ما يريد، فإن أصاب فهو ساحر وإن فشل فهو غبيّ، لكنه الرابح في كلتا الحالين. يا للدهاء!. تذكّر نهاية الحرب الأهلية وانجلاء الدخان وتوقف صوت النار وزوال عمى البارود ورائحته، متجر الدواء والعمليات الجراحية التي أجراها بقوة آبراكادابرا، المَزارع القاسية والغرب اللئيم الأجدب، سلاح الفرسان الأمريكي وقتلى الهنود الحمر ومقتنيات مقابرهم، البحيرة ومصنع الشموع، الحبر السرّي وفيلادلفيا ومخزن الدواء والسفر، والكثير الكثير من الأشياء التي أصبح لا يعرف هل عاشها حقاً أم أنها مجرد تخيلات أو رؤى؟ هل حقاً كان ذات يوم يحلم بإناء مليء بالفاصوليا؟ هل ضحك عليه الأطفال في المدرسة بسبب أن رداءه كان مثقوباً؟ الآن لا تضايقه تلك الأمور، لأنه يشعر بأن تلك الأحداث لم تحدث له نهائياً، يتذكّرها كحكاية بائسة لصديقٍ عابرٍ في كلامٍ عابر.

قديماً، عندما يخرج إلى الفناء خارج كوخهم الخشبي الذي كانوا يتوقّعون سقوطه كل يوم. كان الصبيّ يقابل رجلاً هندياً لا وجود له،

ويحدّثه عن أنه سيجمع الذهب ذات يوم ويمتلك الطعام ويكون له كثير من الأصدقاء.

"تباً"، خرج من ذكرياته ساخطاً. لكن في جلسته تلك مرّت أمام عينيه كثيرٌ من اللحظات المنسيّة مثل رحلته السرية إلى أمريكا والتي تجنّب فيها أن يعرف أخبار أسرته، سيلاس بوروز الأناني الذي ظلَمه مراراً وخاصةً عندما افتتح مصنعاً جديداً في "دارتفورد"، وأهدى بفخر نجمة الإنجاز إلى "هنري جورج" متجاهلاً كل ما قدّمه وِلْكَم من أجل ذلك. لم يذكره حتى بكلمة شكر! هنري جورج الرجل الناجح الذي يجلس الآن في قمة هرم مجموعة وأعمال وِلْكَم بكامل الرضاء الذي ناله والثقة وإثبات الاستحقاق. كان غارقاً في التفكير إلى درجة أن سيري مرّت أمامه ثلاث مرات دون أن يطرف جفنه أو يبدو عليه أنه قد رآها، بل قذفته بوردة حمراء، ولم تنجح في إخراجه من ذهوله، كأنه تمثال رخاميّ يجسّد حكيماً رومانيّاً في ساحة عامة. اقتربت منه وأدخلت أصابعها في شعره، وببرود وإغواء سألته: "ماذا يشغل بالك يا سنجابي؟". أفاق، ضمّها إلى صدره وأجلسها على حجره، حرك يده الخالية أمامها ثم التقط لها من خلف أذنها زهرة برية طويلة. صرخت مندهشة، أثارت الحركة دهشتها: "أأنت ساحرٌ أيضاً يا سنجابي؟". ضحك، كطفل قضم حلوى طفل آخر خلسة وقال لها قولي: "آبراكادابرا".

34

القدّيس الأحمر

أكمل ماونتن الصغير عامه الخامس. كان قد مشى متأخراً جداً، في عامه الثالث، وتكلم أخيراً، في عامه الرابع. قال: "بابا" فقط! ظهرت عليه مزيد من مظاهر التخلف العقلي، لكن سيري كانت تتكتم على تلك الأشياء. وِلْكَم الآن منشغل بتقارير ومراسلات معمل أبحاثه المدارية في الخرطوم، والذي أصبح أهمّ مختبر في السودان، يتابع بنفسه ما يحدث هناك، الجهات الاعتبارية والأهلية التي يقدم لها الخدمات، ما يحدث في الخرطوم، الأمراض والأحداث والتنقلات وحركة الموظفين والقساوسة والسيّاح وصائدي الكنوز وتجّار الأديان وأصحاب الأطماع. في لندن، كانت كل المعامل والمصانع تسعى جاهدة إلى تطوير لقاحات الملاريا والحمى الصفراء، والمهدئات ومخفضات الحرارة الخاصة بطبّ المناطق الحارة. تَقدّم العمل كثيراً خلال السنوات الأخيرة وأصبح لا غنىً عنه، لذلك أرسل إليهم معملاً متنقلاً داخل عربة، ومن المفترض أن تكون الباخرة المجهزة قد وصلتهم. طلب من مدير المعمل د. أندرو أن يركز على مرض الملاريا، وأن يستغل الباخرة للوصول إلى أماكن جديدة والعمل على نطاق أوسع، طالبه بأن يذهب جنوباً: "جنوباً قدر ما استطعت". لكن د.بلفور كان يعاني من طقس الخرطوم السيِّئ وأمطارها وعواصفها، وبعيداً عن كل ذلك الشمس التي في حضورها وغيابها تزداد الأجواء سخونة. وكان يداعبه في الخطابات ويطلق عليه لقباً طويلاً: "القائد الأعلى لقوّات وِلْكَم المسلّحة"؛ تلك الصفة التي نجحت في حثّه على العمل وتأجيل عودته إلى لندن، وهي العطلة التي ينتظرها ويحتاج إليها بشدة، فقد كان يجري أبحاثاً حول

نواقل المؤثرات العصبية تمهيداً لنيل درجة أكاديمية أخرى، ولم يكن يجد في الخرطوم من يساعده حقاً في مشروعه العلمي الجديد.

عادت حفلات العشاء والشاي إلى منزله، والاجتماعات الجانبية واتفاقيات المصالح والمنافع المُشتركة وأخبار المزادات الاستثنائية. سمح لسيري ببعض الحرية رغم عدم شعوره بالراحة تجاهها، لكن برغم ذلك أخذت العلاقة تسوء بينهما لأسباب لا يعلمها أحد. لاحظ الضيوف ذلك، وقام الخدم بنقل بعض التفاصيل ونشر الشائعات التي تلقّفها مجتمع لندن ليكسر البناء الصخري الرصين الذي يفصل رجلاً مثل وِلْكَم عن أمثالهم. البعض يقولون إنه لا يشبعها في السرير، وآخرون يتحدثون عن عشيق خفي للسيدة الجميلة.

خلال تلك الأيام لم يكن وِلْكَم يحظى بأسفاره التي اعتاد عليها وأحبها، لم يكن يقوى على مفارقة لندن وسيري وطفله، كان يشعر بأن شيئاً سيئاً سيحدث لهم أو لهُ إن غادر. لذلك كان دائماً يطلب من سيري مرافقته، وهي غالباً ما كانت ترفض السفر؛ إلا إذا كان الوجهة باريس أو روما. أصبح مرسمها ومجلات الموضة وبيوتات الديكور تأخذ معظم وقتها، لذلك كلما ضاقت به الأمور ذهب واختفى في قصره بخليج كارديف؛ القصر الذي لا يعلم بأمره أحد ولن يبحث عنه هنا أحد، ترافقه فيه بعض القطط التي أصبح يهتم بها مؤخراً.

وجدها ذات مرة قد كتبت على ورقة: "منذ زواجنا أضاع الزمن الأعظم منا سُدىً، كان يعلم تماماً أننا قد أنفقنا خيرة لحظات حياتنا في اللاشيء، وهو يدرك تماماً أنني أكره ما أفعله معه، ضحّيت بنفسي بالطريقة التي أمقتها، وذلك إرضاءً له حتى يجمع التحف". ثم أصبح مهتماً بجمع أدوات الجنس التاريخية من لوحات ومجسمات ومخطوطات وحتى آلات غريبة الشكل والاستخدام. من الصين والهند ومجاهل

أفريقيا، كان تجار وسماسرة تلك الأشياء لا يتوانون عن طلب الرقم المناسب والذي لم يكن يساوم عليه، بل يدفع دون خوف، فالخزائن ممتلئة ولا يهم الأمر. كان جامعاً مهووساً لا يهمّه أحد.

في ذلك العام، أرسل إليه الكولونيل "ويليام جُورجاس" خطاباً رسمياً يطلب منه المساهمة والمساعدة في القضاء على بعض الأمراض في منطقة بنما، حيث تجري أعمال الحفر. كان ذلك في خريف 1908م، ثم دعاه قنصل الولايات المتحدة الأمريكية في لندن إلى مكتبه، وهناك شرح له تفاصيل كثيرة مهأهِئاً متعجرفاً: "سنشُقُّ القارة... سنشُقُّ الأرض العظيمة... هاه، سنوصل البحر بالبحر... بل قل المُحيط بالمحيط... سنربط الأطلسي بالهادئ... دفعنا إلى الفرنسيين أتعابهم... هاه، أنت تعلم بالأمر؟ نعم! إنها القناة المائية الضخمة التي ستجعل الغرب قريباً والشرق سيكون في الجوار. هاه يا مستر وِلْكَم! أرجوك لا تقاطعني! لدينا عشرات الآلاف من العمّال يعملون هناك، بعضهم بالمياومة وبعضهم بالشهرية، هاه، ولدينا عتاد وماكينات ضخمة، لكننا الآن عرفنا لماذا هرب الفرنسيون من هناك؟ هاه، نعم إنها الحمى! تخيّلْ أننا نفقد كل يوم ما بين مائة إلى مائة وعشرين رجلاً بسببها! هذا الرقم الكبير نفقده كل يوم ولا علاج لتلك الحمى الخبيثة، هاه، تخيّلْ أنها قتلتْ في الماضي أكثر من عشرين ألف رجل فرنسي! هل تتخيّل ذلك؟ لقد هزمَتهم تلك الأرض! هاه، لكننا لسنا مثلهم فنحن لا نُهزم كما تعلم، الآن نحفر ما يزيد عن السبعين كيلو متراً بعرض ستين متراً والعمق... هاه، أوو يا للعمق! لن أخبرك! هل تريد أن تحزر؟ أووو! أرجوك لا تقاطعني ودعني أخبرك بأننا نعرف عنك كل شيء! ما حدث في الوطن وما يجب أن يبقى هُناك، وما حدث هنا، بالطبع نحن نعلم أنك قد نجحت في القضاء على الملاريا في الخرطوم، هاه، نحن نعلم كل شيء، فكما تعلم لا شيء يُخفى على

استخبارات الولايات المتحدة الأمريكية وأجهزتها الأمنية. وبما أنك مواطن صالح وسبق أن حاربت في الجبهة وكنت أحد الخيَّالة الفُرسان فقد حان دورك لتخدم بلدك وتلبي النداء الثاني للعم سام... هاه، أنت أدرى من يكون بأهمية دَورنا كدولة تقود هذا العالم! لذلك نحن اليوم نطلب منك المساعدة في القضاء على الأمراض التي تؤخّر تقدُّم العمل هناك، ولتكشف لنا حقيقة ما يحدث. هاه، سأكون سعيداً لو أخبرتني بأنك ستستعد للسفر مع مطلع العام الجديد، هاااه".

قبل أن يتفوّه وِلْكَم بكلمة واحدة تابع الرجل المتغطرس من جديد: "نحن معجبون بعملك في الشرق وبالطرق التي حاربت بها البعوض والحشرات وقضيت عليها، هاه، نأمل أن تنخفض معدّلات المرضى بسبب الأمراض الغريبة والحمى الصفراء والملاريا. ألم أخبرك بأن حكومتنا ستموّل رحلتك وستتكفّل بجميع تكاليف العمل وستقدّم كل التسهيلات اللازمة؟ هاه، حكومتنا تحبُّ الرجل الإستراتيجي مثلك، ألا تحب حكومتنا التي تُحبّك؟".

حاوَل وِلْكَم أن يقدّم شرحاً لكن الرجل قاطعه من جديد:"هاه، حسناً يا هنري! أسمحُ لك بالانصراف الآن وسنكون على اتصال". وقبل أن يخرج من الباب العتيق أخبره القنصل بأمر أخير: "لقد أطلقنا عليك اسم "(القدّيس الأحمر)، ويجب أن تحقن الدماء هناك... مع السلامة!".

أزعجه الأمر، بدءاً بالطريقة التي عامله بها الرجل، ثم التوقيت غير المناسب، ثم حاله مع سيري ومخاوفه من وجود شخص ما في حياتها، إضافة إلى عدائه الأزلي وكرهه للخيانة والخائنين، أمّا السبب الخفي فهو أن رفيق دربه القديم "يوري" لم يعد من أمريكا حيث ذهب لقضاء العطلة، وهو الرجل الوحيد الذي سيجعله مطمئناً في

غيابه. ولن يخاف طالما تركه وراءه. هل تسألون أنفسكم الآن عمن أكون أنا؟ حسناً... دعوني أخبركم بأنّ سيري لم ترغب بالسفر لكنه طلب منها أن تستعد قائلاً: "هذا أمر!". أمامها شهر أو شهران، لكنها رفضت بشدة.

في الشهر التالي وصلت إلى سيري رسالة خاصة لم تقع كالمعتاد بين يدَي وِلْكَم. وقّعت سيمون على استلامها وقدّمتها إليها في صينية ذهبية عندما كانت تجلس في الحديقة تشرب بعض العصير المُثلج.

إلى سيري وِلْكَم من إيميلي نورثمب

"أخبريني، أما زلتِ جميلة كالسابق؟ لقد حوَّلني المرض إلى هيكل عظمي ذي وجه قبيح! أنصحُكِ بعدم النظر إليّ عند زيارتك، وسأحرص على وضع الوشاح الذي أحتمي به من نظرات الشفقة والعطف التي أراها في وجوه من حولي بمن فيهم من لا يعرفونني. يبدو أن حالتي ميؤوس منها! أخبرني بذلك حبيبك موم بنفسه، بالطبع لم يتعرّف إليّ وهو يعمل هنا متطوّعاً لدى الصليب الأحمر. أرجو أن تنتهي معاناتي بمَقدمك، أرجو ذلك من كل قلبي."

ملحوظة. لا تجعليني أنتظر، أرسلي إليّ بوقت زيارتك فأنا دائماً أنتظرك وأتوقّعك كما أتوقع قبض الروح.

أيمي التي تُحّبكِ

مستشفى سانت ماري

3 أيلول 1908

قرأت التاريخ عدة مرات. في ذلك اليوم يمكنها أن تلحق بها، يمكنها أن تذهب إليها مشياً على الأقدام فالمسافة ليست بعيدة، نصف

ساعة أو أقل، فكّرت. حاصرتها الذكريات والأسرار والفضول لمعرفة ما ستقوله، أو ربما كان الاسم الذي احتوته الرسالة؛ "موم"، هو ما أثارها. هل ستذهب إليها من أجل أن موم يعمل هُناك؟ تنهّدت: "أنا لا أدرى حقاً!". عندها لمحت المُرضعة في طريقها إلى الداخل، فلحقت بها. وطارت الورقة، كورقة خريف تافهة لا تعني أحداً.

35
جاك الأصفر

الرجال المُتْعَبون، من الحفر القاسي والعمل لساعات طويلة على أرض لزجة، كانوا يراقبون وِلْكَم وجورجاس عبر التل الكبير ويمسحون بأيديهم كتل الطين الأسود والعرق الحار، ويهشّون الذباب الأخضر والحشرات التي لا يجدي معها ذلك، رائحة الغابات النفّاذة اختلطت برائحة جوف الأرض والتربة المتعرّية العطنة. كان وِلْكَم ومن معه يقفون جوار عربة يجرّها حصانان ينتظرهم داخلها د. كارلوس خوان فينلي. ألقيا عليه التحية وصعدا، ثم صرخ في الحوذي ذي الفكّ المستطيل الذي مضى نحو دربٍ ضيّق تحفّه أشجار المانغا والأكاسيا وبعض شجيرات التبغ؛ حيث تختبئ حيوانات القوطي الصغيرة. لم يكن الطقس في تلك المنطقة حارّاً، لكنه غريبٌ على وِلْكَم الذي سبق أن أخذ جولة في جميع مدن أمريكا الوسطى والجنوبية على جانبَي محيطيها الهادئ والأطلسي، لذلك كان يعرف جيداً شكل القبعات ونوع الملابس القطنية التي سيرتديها. تهتزّ العربة في الدرب الوعر المحتشد بالحجارة وكتل الطين وجذوع الأشجار المُلقاة التي كانت تضطرّهم أحياناً إلى النزول والركوب من جديد بعد أن تتخطّى الحاجز. كسر د. كارلوس الصمت الكبير والتأمل العميق مكشراً بأسنانه الصفراء الحادة كسمكة قرش، وأشار بيده المليئة بالخواتم المرصعة بالأحجار، خرجت مع كلماته رائحة تبغ قوية وضحكة كحشرجة ميت:

– "اليوم يا د.هنري سوف ترى الوحش الفتّاك! هل أنت مُستعد لذلك؟".

ضحك ويليام جورجاس هازئاً حتى كاد أن يفقد قبعته التي لولا رباطها المتين لطارت في مهبّ الريح. لم يكن وِلْكَم مهتمّاً بما يقوله الطبيب الذي يشبه السحلية الرقطاء، بل أخذ يتأمل البراري والسهول التي تمتدّ كأفقٍ لا نهائيّ، يستمع إلى النحيب المُرتّل لأسراب الطيور التي كانت تمرُّ عكس اتجاه سيرهم، أخذ بعض الطنين الشديد يعلو شيئاً فشيئاً كلما تقدموا في الطريق، ثم قابلتهم غيمة كبيرة حجبت الشمس بعض الوقت وأضفت عليهم بعض المتعة وسط تلك الخضرة متدرجة الألوان، ثم ظهرت حشرة أو اثنتان أمامهم قبل أن تختفيا فجأة. أخرج د.كارلوس قطعة قماش مبلّلة بالزيت ومعطرة بالمسك وغطّى بها أنفه ثم ناولهم أقنعة غير متقنة الصنع وطلب منهم ارتداءها سريعاً، أخرج الحوذي كيساً من الخيش وحشرهُ كجورب قذر في كامل رأسه، سريعاً ظهرت المستنقعات الكبيرة، ولمّا دخلت إليهم رائحة الماء الآسن قال د.كارلوس:

- "تعرّفوا إلى القاتل المتوحش! نحنُ هُنا نطلق عليه اسم "جاك الأصفر"؛ لأن حُمّاه الصفراء بشعة وقاتلة كذلك المجرم الإنكليزي المعروف!".

تعرّق وِلْكَم وتجعّد وجهه كعجوزة متشمّسة، وظهر عليه الغضب والضيق الشديد، لكنه تمالك نفسه أمام تعليقات د.كارلوس الساخرة ولهجته المتعالية، ثم توقف الحوذيّ بهم إلى جوار كوخ خشبي متهالك واجتاحتهم عاصفة من الحشرات المزعجة المخيفة، حينها أدرك وِلْكَم أنَّ تلك لم تكن غيمة كبيرة تظلّلهم بل هي تلك الحشرات الصغيرة التي تتكاثر في نطاق واسع من المستنقعات والبرك اللانهائية وتطير في مساحات تكاد تكون دولة صغيرة يمكن أن تتبع بسهولة إلى التاج الإسباني. أدرك وِلْكَم الأمر ونظر إلى جورجاس متعجّباً ومتأفّفاً من

رائحة الزيت الكريهة. لم يكن هناك مجال للحديث. أخرج د.كارلوس علبة زجاجية وما إن أزاح عنها الغطاء حتى ولجها البعوض والحشرات فأغلقها وأسرعوا بالمغادرة.

أصاب وِلْكَم الفزع ورهبة المنظر عند معاينة مخيّمات المرضى الكبيرة. شعر بأنّ هذا السفاح سيقضي عليهم جميعاً لا محالة، لذلك طلب باخرة خاصة صغيرة الحجم ليقيم فيها، وأخرى ليستغلّها كمعمل ومختبر. وكان له ما طلب رغم صعوبته. في تلك الليلة اجتمعوا، حول مصباح عملاق، لشواء لحم الخنازير الصغيرة، وتحدّثوا عن جاك السفاح وضحاياه ومدى بشاعة ما كان يفعله. ود.كارلوس، بتعليقاته الساخرة على شاكلة: "دعونا نجلب ذلك السفّاح المريض ليواجه شبيهه الفتاك! حتماً سنكون من الرابحين" وغيرها، أشعل المكان بالضحكات وأشاع المرح. لكن وِلْكَم انتفض منزعجاً:

- "جميعنا جاك الطاعن، إن أردتَ أن تقتل قاتلاً فهذا يعنى أنك قاتلٌ آخر ولا فرق بينكما. الخطيئة الواحدة أفضل من الخطايا التي لا تنتهي، وإن أردتَ أن تبحث عن حقيقة قاتل الوايت تشابل فابحث في العالم بأسره، أؤكد لكم أنكم ستجدونه، لكنه ليس رجلاً واحداً كما يحسب قرّاء الصحف -يقصد د.كارلوس- بل ستعرفون أننا نعيش وسط القتل في كل مكان.. هذا العالم عبارة عن مقتلة كبرى" .

أثار الحديث حفيظة الرجل المرح فأطلق صيحة مقامر كسب للتوّ الرهان وغمز أحد الرجال الذين لا يتحدثون الإنكليزية وتبادل معه حديثاً بلهجة محلّية قبل أن يردّ على وِلْكَم الذي تحوّل وجهه إلى كومة غضب:

- "قل لي يا د. وِلْكَم، هل تستطيع أنت أن تقضي على هذا الوحش الذي نواجهه؟ وإن تمكّنتَ من القضاء عليه، هل

تكون وحشاً آخر أشد فتكاً منه؟ أخبرني بكل صراحة فأنا متشوق لحديث رجل لبق مثلك".

لم يكن يريد أن يخوض في مثل تلك الأحاديث، رفض أن يتناول العشاء برفقتهم ثم غادر إلى الكوخ الكبير الذي يجري تعقيمه ليرتاح قليلاً فربما ينتظره الكثير من العمل لاحقاً. بعد ذهابه تحدث ويليام جورجاس إلى د.كارلوس لائماً على الطريقة التي حدثه بها:

- "إننا محظوظون بذلك الرجل، عليك أن تكون بارداً معه، وهو ليس خصماً لك كما تعتقد!".
- "وراء هذا الرجل سرّ عظيم، أشعر به وأراه في عش الطائر الذي يحمله أعلى فمه. ستخبرني الأحلام بما سيحدث وسأكون مستعداً له".
- "أتمنى أن لا ينتبه إلى حفريات الصرف الصحي التي أمرتُ جنودي بتغطيتها بالخوص وأوراق الكوكا... وأن تمرّ هذه الأيام بسرعة".
- "لا تخَفْ سيدي العقيد جورجاس! لديه أيضاً ما يخاف عليه وما يخاف منه... لذا كن مطمئناً".

وفعلاً كان وِلْكَم يثير الفضول، خصوصاً وهو تحت تأثير الشكّ وشعوره بأن سيري لم تعد مخلصة له وأنها تخونه مع رجل آخر. وقد كان يتخيّل أنها تفعلها مع كل الرجال الذين يعرفهم وأنها تعشق النذل منهم. لم تكن حقيقة شعوره أو تفكيره سبباً وراء جولاته الليلية أو مقابلاته مع بعض الأطفال بائعي الموز وحمّالي المياه. لاحقاً، بعد انتقاله إلى الباخرة لم يكن يغادر معمله وفريق عمله، ويكون قنديله مُضاءً طوال الليل وإن جرَّ عليه ذلك الكثير من ذباب الليل الدائخ والحشرات التي تذوب عشقاً في الأضواء اللامعة.

لم يكن يسهر للبحث عن علاج تلك الأمراض، لا، بل كان مندهشاً لعثوره على القناة القاتلة أو "أكبر مركز لنشر الأمراض في العالم" كما سمّاه. ومُعِينه الأكبر في تحمّل ذلك القدر الكبير من عدم النوم هو التعرّض للسعات البعوض وانتظار صوت عواء الذئاب أو زئير الأسد والذي تمكن أخيراً من التعود عليه وتقبّل وجوده في الأحراش المجاورة كرفيق دائم للّيل الطويل.

بعد شهر من العمل المتواصل المرهق في المعمل العائم سقط أول قتيل من فريق عمله، اغتاله جاك الأصفر ببشاعة. ولم يتوقف الموت عند ذلك، بل كاد أن يقضي على من هُناك، خصوصاً مع التطور السريع للمرض والحشرات.

36

الزّهرة البرِّية

- "فلنذهب معاً هذه المرة!"، أمرها وِلْكَم بلطف وابتسامة غير مُعتادة.
- "آه يا عزيزي هنري! لماذا تصّرُّ على ذلك؟ أنت تعلم أنني لا أحبُّ السفر ولا تلك الرحلات الطويلة. أنت تعلم أنني لا أستمتع بركوب الباخرة ولا القطار، لا يهمني ماذا تجد في تلك الرحلات. أنا كصبيّ مرّ جائعاً أمام متحف اللوڤر؛ لن يعنيه الفنّ في شيء. أرجو أن لا تسيء فهمي يا سنجابي، أنا أحبُّ مرافقتك وأعشقك، لكن هذه رحلة شاقة على سيدة رقيقة مثلي. إنّ مغامرة اجتياز المحيط لن تكفي لإقناعي، كما أن لديَّ ابناً أهتمّ به، هل تريد أن يصيبه البرد والمرض أو تنتقل إليه عدوى من هناك؟ أنسيت أنني مجرد فتاة؟ قد أرغب برؤية تلك البلاد، لكن فقط من بعيد. أووو يا سنجابي! لا ترغمني!".
- "حسناً حسناً، أنتِ لا تُريدين مرافقة السنجاب البري، حسناً يا زهرتي البرية، إذا كانت هذه رغبتك فلا بأس!".
- "وهل سأظل أغلى ما عندك يا سنجابي؟ وستذكرني في كل لحظة؟ وستنادي على كل من هناك باسمي؟".
- "وإن وجدتُ سُحباً من ذهب، ستظلّين تُحفتي المميزة".
- "لا، لا أريدُ أن أكون تحفتك المميزة! أريدُ أن أكون قطتك المُدلّلة، لأجعلك دوماً خائفاً من هروبي!".
- "قصدكِ (من هجرانك)!".

- "لا يا سنجابي! من هروبي فقط، لأنّ الهارب دائماً ما يبحثون عنه ويتعقّبونه، ويسهرون الليل من أجله إن لم يعد، الجميع يظلـون بانتظـاره ولـو دهـراً كـامـلاً. بينما الهاجرُ لا، بالكاد ينسونه!".
- "إذن أنتِ تَخافِين أن أنساكِ؛ أكثر من خوفك على مضايقتي، يا لكِ من متمردة صغيرة!".
- "آه يا عزيزي! لماذا تقول ذلك. أنا فقط لا أحبُّ التحف، أنا أفضّل عليها الحيوانات".
- "إذن يا سيري، سنلتقي، ربما يشغلك الرسم وماونتن الصغير عني، لكنّكِ حتماً ستتذكّرينني كل يوم إلى أن أعود، يا لجمالك وأنتِ تقفين في مرسمك".
- "آه يا سنجابي! سأفتقدك كثيراً".
- "وأنا أيضاً سأفتقدك".

أطرقت بوجهها والدلال يفعل بلونها الكثير. مدّت إليه فمها بغنج بينما أطبقتْ يديها حول رقبته واختنق:

- "هيا قبّلني قبلة الوداع".

أفاق وِلْكَم مفزوعاً قبل أن يلثم فمها في الحُلم، لم يكن يقبّل أحدًا في الفم أبداً، مطلقاً. لم يحدث أن فعلها حتى مع سيري، بالكاد يلثمها على خدّها أو رقبتها، ثم يتحيّن أسرع فرصة ليذهب إلى الحمّام ليطهّر فمه بالمطهّر ويبصق كثيراً ثم يتمضمض جيداً. الشيء الوحيد الذي يرقد مرتاحاً بين شفتيه كان غليونه.

وجدها تجاوزت الساعة الثالثة صباحاً. نزل إلى غرفة المكتب، أخذ يراجع الرسائل الأخيرة من الكولونيل ويليام جورجاس والتي يخبرها فيه بأنه قد بقي على ميعاد رحلته أسبوع واحد فقط. تأكد من تذاكر

السفر وصمّم على أمرٍ ما بطريقة لا تقبل الشك، لن يترك سيري وحدها خلفه، ستذهب معه أو سيجبرها على ذلك.

كان مرتاحاً بشأن العمل وبقية مشروعاته، فيوري -كما يحبّ أن يسمّيه- قد عاد، رغم أنه تأخر، لكنه قد عاد أخيراً. سيتابع يوري إرسال بعض الصناديق والطرود إلى معامل الخرطوم، وسيحفظ تقارير العينات، وسيشرف على قصر كارديف، وسيعمل على اختيار الرجال للعمل في حفريات السودان وفق الشروط التي أملاها عليه، وسيرسل أيضاً خطابات باسمه لترتيب كل شيء، فقد ترك العديد من الأوراق موقَّعة، وسيهتم بمتابعة حركة النقد عبر مدير عام الشركة الجديد هنري جورج. وسيقوم أيضاً بإرسال التهاني بعيد الكريسماس ورأس العام وكل المناسبات التي يكون وِلْكَم غائباً عند حلولها، كما سيكون جاهزاً لأي رسالة عاجلة أو تلغراف، بالإضافة إلى بعض الأمور الأخرى الخفية، مثل إرسال معملين كاملين وحديثين ومجهزين بأفضل مستوى إلى مدرسة غردون التذكارية في الخرطوم. وأكد أنه يجب أن تحمل الدوارق جميعها اسمه وشعاره، "وِلْكَم" باللغتين العربية والإنكليزية.

خلال يومين، وبعد ضغط نفسيّ شديد، وعدد لا يُحصى من الوعود، رضخت سيري لرغبة وِلْكَم. خلال ذينك اليومين ضربها مرة على وجهها وسبّها مرة أخرى وسبّ والدها، وأهداها عقداً من الماس وسواراً منقوشاً في ليشبونة يعود إلى أحد التجار الموريسكيين. وأخيراً هدّدها بعدة أشياء. لاحظ أن ابنه لا يبدو على ما يرام. وأتته أخبار مفرحة قبيل السفر، فقد بدأ مدّ خط السكك الحديد الذي طلبه من حاكم السودان، والذي يمتد إلى المكان الذي اختاره للحفريات. أخبره السير ريجنالد ونجت في خطاب سري بأنّ الغرض المذكور لدى

إدارة المستعمرات عن بناء ذلك الخط هو مشروع بناء الخزّان الجديد الذي أمر المندوب السامي اللورد كرومر بإنشائه خلال زيارته الأخيرة، وأخبره بأن الأحوال هادئة وأنه لا يزال معجباً به وبما يفعله ويقدّر كل الخدمات الجليّة التي سيقدّمها إلى جلالة الملك، كما أخبره بأن الملك شخصياً سعيد بتلك التطورات، وأن الرفيق وزير الخزانة الجديد ينتظر بعض التغييرات السعيدة من وِلْكَم.

جرَت بعض اللقاءات السرية الغامضة في قصر كارديف، مزيد من المراسلات والتوقيعات والاجتماعات، مزيد من العمل وقليل من المجاملات، ثم أخيراً تحرّك الموكب في الطريق إلى ميناء ليفربول قبل يوم من الإبحار. ولاحقاً كانوا جميعاً داخل السفينة الضخمة، بمن فيهم سيمون المربية والمُرضعة الويلزية، وثلاثة من أطباء المختبرات، وثلاثة مساعدين، وثمانية أطباء، ومعملان كاملان والعديد من الصناديق. عندما غادرت السفينة واختفت اليابسة التي كان وِلْكَم يراقبها من خلال زجاج القمرة الشفّاف، ابتسم في وجه سيري التي فضّلت أن تتشاغل بقراءة رواية قديمة أُهدِيَت إليها قبل زمان طويل؛ "فرنكنشتاين"، ثم تأمّل طفله وهزّ شعره الكثيف ولمس جسده اللين الكبير. أخرج من جيب معطفه مظروفاً بُنّيّاً متوسط الحجم ووضعه جوار سيري ثم قبّلها في جبينها وخرج.

فتحت المظروف بسرعة وقرأت بصوتٍ عالٍ:

صديقتي العزيزة سيري

(يكتب لكِ هذه الرسالة فتىً طيب أحب أن يساعد امرأة على فراش الموت).

"لا أزال في انتظارك. خلال الفترة الماضية أُصبت بنوبات شديدة من المرض، وتطوّرت حالتي وساءت جداً. يعتقد الأطباء أن أمامي

أياماً معدودة لأعيشها، أصبح الأمل في الشفاء معدوماً. كان من الأجدى بي أن أختار مكاناً جافاً أقضي فيه بقية حياتي، وكان من المفترض أن يحدث ذلك منذ سنين مضتْ. الآن أرقد محتضرة، أحبس روحي وأمنعها من الخروج، كما أحتفظ بالأسرار القاسية التي تنخر جسدي من الداخل وتسبب لي الصداع الشديد والحمى. أصبح لا همَّ لي سوى أن تعرفي بعض الأشياء، هل تفهمينني يا صديقتي؟ أم تراكِ متضايقة مني وعلمتِ بكل شيء؟ أنا أحاول أن أحتفظ بباقي حياتي لحين سماع صوتك الدافئ المرح يملأ المكان حولي من جديد، فقد فقدتُ بصري ولم أعد أرى، ويؤسفني أنني لن أحظى بمتعة رؤيتك. تزورني بعض الراهبات في الآونة الأخيرة ويقرأن لي من الكتاب المقدس. أنتظركِ يا سيري. لو أنَّ لي أمنيةً واحدة أتمناها قبل أن أموت فهي رؤيتك والحديث إليك، أنا نادمة على أشياء كثيرة أهمّها أن أفقد صديقة رائعة مثلك، لكنني سأفقدها بشرف فأنا لم أخُنكِ أبداً. لم أخُنك، أتفهمينني؟ مع صادق حبي وأطيب أمنياتي أن يجدكِ خطابي في سعادة لا تضلّ طريقها عنك".

صديقتكِ إيميلي الوفية

ملاحظة من كاتب الرسالة أليكس تومبسون: "لا أعلم حقاً إنْ كنتِ شخصاً حقيقياً أم مجرد خيال لشدّة ما كانت هذه المريضة التي أمامي تحكي عنك وتردّد اسمك، وبل جاشت مشاعرها وانتابها بكاء هيستيري عدة مرات أثناء كتابة الخطاب الذي استغرق مني أكثر من ثلاث ساعات مارَضْتها فيها وساعدتها إلى أن لفظت روحها بصعوبة وألم لم أرَ مثله في حياتي كلها. لو كنتُ أنا امرأة لزُرتها منتحلاً شخصيتك لأرحمها من عذاب نفسها ولأدع روحها تمضي في سلام، فما كان يبقيها حية هو كلمة تريد أن تدلي بها وتعترف كما فعل القديس

بطرس بالمسيح. طوبى لكِ يا سيدتي إن أتيتِ لزيارة سيدة تحتضر. لكنها الآن في ملكوت الله. واعذريني على تدخّلي. هذا إنْ وصلك خطابي.

توقف كل شيء فجأة، صوت المحرّك العالي وحركة الركاب وصيحات المرح، اختفت عن ناظريها القمرة ومحتوياتها وطفلها، طفوا كلهم في الهواء كأنما سقطت الأرض من أسفل أقدامهم. قبل أن تستوعب ما حدث، وقبل أن تعيد قراءة الرسالة التي كانت بلا تاريخ، فاضت دموعها كنبع تفجّر من تلقاء نفسه، تذوّقت طعماً مالحاً كحياتها. وبينما توقفت كل الحياة من حولها، ارتدّت إلى مخيلتها الذكرى؛ القطار والهروب وإيميلي الوفية، إيستبورن وشوارع لندن الخلفية والحفلات. وفجأة تكررت أمام عينيها بعض كلمات الرسالة بعدد لا نهائي: "ما كان يبقيها حيّة... ما كان يبقيها حيّة"، "الآن هي في ملكوت الله"."صديقتك إيميلي... إيميلي الوفية". صرخت سيري بهيستريا: "لاااا يا إيميلي! لا تموتي! انتظريني أنا في طريقي إليك! لا يا حبيبتي لاااا!".

أطلق القبطان الصافرة. كاد الطفل أن يموت بين يديها، كانت تخنقه بكل قوتها. بالكاد أنقذه وِلْكَم. خرج به وأوصد الباب خلفه. أغلقه تماماً، كالسجن.

37

أيقونة الرّجل الصخريّ

في آذار 1909م، أرسل إليّ خطاباً طويلاً يخبرني في جزء منه بأن الجحيم نفسه لن يكون مختلفاً كثيراً عن الوضع في مخيمات العمل بالقناة؛ "مئات المرضى دون أمل في الشفاء، الحمى مرتفعة إلى درجة يمكن أن تشعل غليونك من أقرب المرضى إليك، حالات هلوسة شاذة وهيستريا وتشنّج مميت، مستنقعات على مدّ البصر، ذباب ضخم وبعوض يحتاج القضاء عليه إلى مدافع، حتى المياه غير صالحة للشرب، لكننا شرعنا في العمل، أخذنا العينات ومسحنا المناطق وعزلنا المرضى وبدأنا في إعطائهم بعض اللقاحات التجريبية، وسنعمل كل جهدنا كي لا نخذل حكومتنا التي تثق بنا وبما نفعل. كان في استقبالنا الكولونيل ويليام جورجاس بنفسه، وأعدّ لنا مكاناً مريحاً للسكن نجد فيه كامل خصوصيتنا، وأجد التعاون من الجميع. لديّ خطة، قد تستغرق بعض الوقت لكنها ستنجح، سأحقن الدماء، وسأقتل تلك الحشرات وسأشفي المرضى، الآن أجري التجارب على لقاحات متطوّرة لا تستطيع تلك الحشرات والبعوض مقاومتها، أعطيتها لبعض أفراد المخيمات وعزلتهم، كل الأمور بخير".

كنت أستعد لشراء لوحة "روح الأسنان" للوكاسيانو نيزو لأهديها إليه حين عودته خلال حفل الاحتفال القادم، لكن جزءاً مُعيناً من رسالته الطويلة كان يشغل بالي: "هناك أشياء شنيعة ستحدث إذا ظللت وحدي". شعرت بأن ثمة بعض الأمور لم يروها عليّ، هل الصغير مريض يا ترى؟ أم أن سيري من جديد فعلت ما أغضبه؟ أنا متأكد من أنها تلك الجميلة، قلبي يخبرني بأنها ستجر علينا المصائب!

بالطبع لبَّيتُ كل الدعوات نيابة عنه خلال تلك الفترة، حفلات مشابهة للحفلات التي كان يقيمها في السابق. ضيوف شرف وكُتَّاب روائيون وشعراء ومهرجون وفنانون استعراضيون من وراء البحار وسحرة، وكل تلك الأنواع من الشراب الفاخر، الكوكتيلات والفتيات اللاهبات المتأنقات بآخر صيحات القرن العشرين الغريبة. وبعيداً عن كل ما يحدث في لندن كنتُ أجرى المقابلات بمكتبي في "سنوهيل". أجريت كثيراً من المقابلات، قابلت عساكر وعاطلين عن العمل ومتشرّدين ومجدّفي سفن ونقّاشي شواهد قبور وعمّال بناء وحدّادين وصانعي فخار وهاربين من العدالة وهاربين من زوجاتهم ومجرمين تائبين وحرفيين محترفين كالرجل الذي يصنع الزجاج أو ذاك الذي يفتت الصخر بآلة غريبة والكثير الكثير. نهاية الأمر كنت قد حدّدت من أريد؛ البنائين الذين سبق وأن عملوا في تشييد الأديرة والكاتدرائيات الضخمة، الحدادين الذين يهتمون بصهر المعادن، وأخيراً مهندسين جيولوجيين. ثم بدأت في تحضير المعدات التي سنحتاج إليها هناك.

علمت أن صديقة سيري التي تتلقى العلاج في مستشفى سانت ماري قد توفيت بالحمّى الشوكية ومرض آخر غير معروف، وقد تركت خطاباً سرياً لدى إحدى الممرضات في حالة موتها، وأوصَت بأنه يجب تسليمه إلى سيري باليد، لكن المال يفعل كل شيء في هذه المدينة، لقد حصلت عليه لكنني لم أفتحه، بالأحرى أجّلت ذلك. كنت أذهب إلى منزل وِلْكَم في بعض الأحيان، فمنذ أن عدتُ من أمريكا يحملني حنين دائم إلى الإقامة في ذلك البيت والعناية بالقطط الكثيرة، والعيش بهدوء كما أَحَبّ وِلْكَم أن يعيش. لكن أمريكا؛ تلك البلاد بهرتني بما أصبحت عليه، ولم تعد لندن تثير شغفي كالسابق، لكن خططي كثيرة تجاه ذلك الأمر. سوى أنني قد عدت خائب الأمل

نوعاً ما؛ إذ لم أجد من أعرفه ولم أتوصّل إلى أسرتي، تلك إحدى لعنات وِلْكَم التي حلّت بي، القسوة الاجتماعية. نعم، "عليك أن تنسى كل ذلك"، كنت أخبر نفسي النصيحة وربما من الأفضل لهم أن ينسوني أيضاً، فأنا بأية حال لم أختبر ماهية أن تكون فرداً بسيطاً وسط أسرة تنتظر منك أن تعمل لتحقق لهم أحلامهم. جميعنا يستطيع النجاة بحياته، لكن ذلك الحنين لم أكن لأتخطاه لو لم أذهب.

في كرسي وِلْكَم المفضّل كنت أجلس وأطلب الشاي وأعدّ البراندي، أشعل غليوني الجديد وأضع ساقِيَ على الأخرى وأفتل شاربي، أفتله وأفكر في ما سأفعل. لديّ جميع الصلاحيات الآن، بل إنني أملكها بالفعل، فأنا أُمَثِّل هنري سولومون وِلْكَم، بمعنى أنني هو... أنا هو... ذلك الرجل الذي قابلني لكنني لم أره!

في تموز راسَلَني وِلْكَم من جديد وأخبرني بأنه نجح نجاحاً ساحقاً في القضاء على الأمراض واكتشاف العلاج المناسب، وكان عدد قتلى تلك الأمراض قد تجاوز الخمسة آلاف رجل، لكنه تغلّب عليها وهذا هو المهم. أخبرني بأنه نوع متطوّر من الملاريا، وقد أفادته تقارير د.بلفور ومعمل أبحاثه المدارية في الخرطوم كثيراً. وأمرني بأن أصرف عليهم حافزاً مُقدّراً، لكنني لم أفعل إذ لم أكن مقتنعاً بذلك. كما أخبرني بأن هناك كثيراً من التفاصيل لا وقت لذكرها. ترك لي ملاحظة صغيرة في نهاية الخطاب: "لقد وجدتُ الأيقونة، وسنبدأ قريباً رحلتنا إلى الخلود. استعد، سأعود قريباً".

أثناء وجودي في منزله خطرت ببالي فكرة جنونية، فكّرت بأن أجرّب أحد الأمور التي شاهدتها ذات مرة يفعلها. في الحقيقة لا أعرف إنْ كنت قد شاهدته حقاً أم لا! لكنّ تلك الحالة سيطرت عليَّ، فطلبت من أحد الخدم أن يفتح لي غرفته وأخبرته بأنه أمر هام وأن وِلْكَم نفسه

يعلم بالأمر. لم يتردد الخادم الشرقي. انحنى كسنبلة مثقلة بالغذاء ثم أخرج سلسلة المفاتيح وتبعته إلى الداخل. وعندما فتح لي القفل أمرته بالمغادرة. نعم، لا يستطيع أحدٌ أن يعصي أمري. أنا كذلك. كان الزّهو يركبني إلى درجة أنني شعرت بأنني لستُ أنا، كنت أعرف ما أريد. سحبت مفتاح النور وحملت بعض الأغراض من خزانة سيري ودخلت إلى الحمام الكبير. جلست في الحوض ثم مزقت ملابسها الداخلية التي أحضرتها ومسحت بها الأرض إلى أن أصبحت رثة متهالكة، ثم ارتديتها بسرعة وحشرتُ جسدي فيها مما جعلني أبدو كشرنقة أو كسيدة في منتصف العمر بمؤخرة كبيرة مترهلة وشعرٍ كثّ، لطخت بعض المساحيق في وجهي ومسحت شعري بالماء، ثم وضعت بعض الكحل وأخيراً أحمر الشِفاه، دهنت به خديّ أيضاً، ثم ابتسمت لوجهي الجديد في المرآة. خجلتُ من نفسي إلى درجة أن شعرت بمروحة ريش تعمل في أذني وبلفحة من الهواء المتقلب تضربني، كأنني مراهقة نكزها أحدهم في الزحام. تلعثمت. ربما قد أكون قد شربت أكثر من اللازم في ذلك اليوم. في الصباح وجدتُ نفسي في السرير أحتضن بدلة وِلْكَم الصوفية التي أحبّها. لم يسرّني الأمر فبكيت.

"أنا بعيدٌ عنه، هل نسيَني؟". يساورني هذا الشعور كلما اقتربت منه ونلتُ مزيداً من ثقته، أشعر بالإقصاء وبتجاهله لي وعدم اهتمامه، وأنا الرجل الذي ضحّى من أجله بالكثير. أيتركني هكذا ويرحل بعيداً؟ لا يمكن أن يكون رجلاً محترماً، لن يصبح سيداً إنكليزياً مهما عاش هُنا ومهما فعل، فوراء كياسته ذلك الأمريكي الهمجيّ الذي يفرغ خزانة مسدسه عشوائياً أملاً في أن تصيب إحدى الطلقات الهدف. آكلو الفاصوليا والذرة. يا لحقارتي ودونيّتي.

***

تعرّضتُ لصدمة كبيرة بعد سفر هنري، وأدى ذلك إلى دخولي في حالة نفسية سيئة. عندما عدت إلى حالتي الطبيعية وذهبت إلى منزله من جديد وجدت أنني قد أخرجتُ جميع الصور التي يحتفظ بها في خزانته الخشبية وأحرقتها، ثم تبوّلت عليها، أحرقت ستارة الدانتيل التي تحمل شعاره، أحرقت المراسلات ولعنت كل شيء. وفي غمرة تلك الحالة العصبيّة كنت قد سألت نفسي: "هل أنا أحبّه؟". رفضتُ التنازل عن مصارحة نفسي بأنني أعشقه فعلاً، بل وأقلده أيضاً؛ فقد أصبحتُ مؤخراً نسخةً ثانية منه، شارب مفتول ووجهٌ حليق وسترات من الصوف وقبعات كبيرة، بل حاولت تعلُّم بعض الحيل السحرية وخفّة اليد، حاولت التعرف إلى السموم، حتى شعري فرقته عند المنتصف.

في ذلك اليوم، وأثناء تلك النوبة، صعدت إلى المترو على خط السنترال، ومضيت إلى شارع بوند على الضفة الجنوبية، عرجت إلى محلّ بقالة فاشتريت زجاجة شراب رخيصة تشبه التي كان يدمنها والدي إلى أن أصابه مرض ويلسون وانتحر، كما أخبرني أحدهم. عرفت ذلك عندما ذهبت إلى أمريكا مؤخراً لأتفقد الأمور وأخبّئ بعض الأموال بعيداً عن الأنظار. دخلت إلى شقة مفتوحة للمتعة تديرها سيدة مطلّقة أعرفها منذ زمان طويل، وقد سبق أن اختبأتُ عندها عندما كنت متورّطاً في حادثة شقة الوايت تشابل وتخلّصت من اسمي القديم "أبراهام". وجدت الشقة متّسخة تفوح منها رائحة الجرذان والماء الآسن، قابلتُ إحدى الفتيات وطلبت منها غرفة لأرتاح فيها قليلاً ثم أخبرتها بأني سأطلبها لاحقاً ومنحتها بعض المال دون حساب. أخذت المفتاح، وعندما دلفت وأغلقت الباب أشعلت عود ثقاب ثم أضأت مصباح الغاز وخفضت الإضاءة، جلست في مقعد خشبي مهترئ وأخذت أحتسي الشراب. الشرّ يطوف حولي كما

تطوف الصقور حول فريسة حائرة، تفترسني المشاعر القاسية التي لا تشبه الرجال أبداً، سألت نفسه: "كيف لي أن أتسترّ على مجرم، بل عصابة ضخمة؟ حتماً جميعهم كذلك! كل من حوله أشخاص قذرون يمارسون فوضاهم في البلد الذي فتح أذرعه لهم ومنحهم إنجازات لم يكن ليحلموا بها، نعم إنهم سوس يأكل جسد بريطانيا ومستعمراتها". وكلما شربت قليلاً زاد سلوكي العدوانيّ وتملّكتني قوة رهيبة لدرجة أنني شعرت بقبضة يدي تتحوّل إلى سلاح فتاك مدمر، وأن هذا الـ(وِلْكَم) راعي البقر، لو كان فارساً من العصور الوسطى فإن بمستطاعي أن أقضي عليه بضربة واحدة، "أنا رجل ساذج، نعم! رجلٌ في حوالَي الخمسين من عمري ولا توجد في حياتي ملذات ولا أطفال، لا حبيبة ولا أصدقاء ولا شيء، رجل حي لكنه ميت".

في غمرة نشوتي تذكّرت بعض الأشياء وحاولت ربطها ببعض: معدّات تصوير غريبة الشكل كبيرة الحجم وجدتها في القبو عندما كنت أتلصص عبر الممرات، عقود عمل قانونية برواتب كبيرة جداً تجاوز بعضها مائة جنيه لأطباء بعينهم، وجدتها على درج مكتبه تلك الليلة التي عرف فيها بموت أمه، تجلّت روحي وجادت ذاكرتي بمئات التفاصيل والأحداث، مرّت في خيالي مخطوطة منظمة كنوتة موسيقية لموسيقار عجوز ضرير يؤّدي عرضه الأخير في مسرح رويال كورت.

عندما قابلت وِلْكَم أول مرة، اقترحت عليه أن يرافقني، وأن يصبح صديقي الأقرب وأصبح أنا أخاه الأمين، فقد عرف الحرمان وعانى من الحاجة واليأس، ورأى أنني مخلّصه من كل ذلك ومنقذه ومحقّق كل غاياته التي كانت أحلاماً لجيل كامل من أهله، منها عدم حصول جميع آبائه وأجداده وأهله على وطن أو حقوق. نُزعت

أراضيهم وقُتلتْ أمنياتهم، لكنه لم يرض بأن يكون تابعاً غبياً لي، يعمل تحت إمرة مَنْ هم بالأعلى وفق نظام هرمي ينافي الوجود ويُحَرِّم المنطق ويدحض الحق. عبّأت روحي بتلك الذكريات وداعبتها نشوة الانتصار بما حققته طوال السنوات السابقة، تلاعبَت برأسي النظريات والأحداث والجنّ، جالت فيه الأوهام، ثم طرقَت بابي فتاةٌ أخرى سألتني إن كنت أريد أكلاً. لكنني لم أجبها، أنا أبدو كالميت. أسرعَت إلى سيدتها لتخبرها، وفي لحظة كانت العاهرات يلطمنني ويرششن عليّ الماء فأفقت متكاسلاً. سألتني إحداهن: "من أنت؟ هل أنت مريض؟" تأملتهنّ لحظة ثم ضحكتُ بصوتٍ عالٍ وشدَدتُ جسدي واقفاً فلاحظتني صديقتي القديمة وسألتني متشكّكة في شخصي: "ما اسمك يا رجل؟".

ترنّحتُ ثم أجبتُها: "أنا هنري... هنري سولومون وِلْكَم".

38

سِفر الخروج

في نهاية أيلول من العام 1909م عاد وِلْكَم. كان استقباله رسمياً من بعض وُجَهاء حزب المحافظين وبعض أعضاء مجلس اللوردات ومدير شركته ومدير المعامل وممثل سفارة الولايات المتحدة وممثل قصر بكنجهام وموفد إدارة المستعمرات وبعض الحضور. ثم أقام احتفالاً باذخاً دعا إليه شخصيات رفيعة المستوى بمن فيهم رئيس الوزراء السابق كامبل بانرمان. وقد لاحظت بعض الأمور المريبة، فهو لم يخبرني بيوم مجيئه بالتحديد، لكنني علمت ذلك لاحقاً فيما كان الجميع في انتظاره. عندما زُرته لاحقاً في منزله قضى معي لحظات قليلة وتعلّل بالتعب لينصرف إلى غرفته رغم أنه قابل بعض الضيوف بعد مغادرتي. كان يتحاشى النظر إليَّ، ولم يقبل سؤالي عن ابنه أو سيري التي لم أرها ولا مرةً واحدة منذ عودتهم. تملّكتني الشكوك وعصفت بأفكاري التوقعات، ثم تذكرتُ ذلك الخطاب السرّي الذي تركَته صديقتها إيميلي، فأخذته معي إلى البيت لأقرأه وأحتفظ به هناك، فلا داعي لأن يخرج ما به مهما حدث.

لم أعرف حقاً إنْ كانت الآنسة صادقة أم أنها تهلوس فعلاً بسبب الحمى، فقد ذكرت أنها ستعترف لسيري بالأمر الذي سيجعلها مرتاحة إذا هي ماتت ولم تلتقِ بها. وقد أوجزت، بعد قليل من ثرثرة الفتيات والتحايا والآلام، بقولها:

"لم أكن أنا السبب! لقد كان موم! أرجو أن تغفر لي يا سيري ففي تلك الليلة التي سبقت غضبك ومغادرتك إيستبورن كنت أتصنّع النوم وأتحيّن أن تنامي لأخرج إلى الكوخ قليلاً. لا أعرف كيف أصف

هذا، لكن موم فعل شيئاً ما بعقلي، وبقلبي أيضاً أنا أعترف. لا أعرف كيف أقنعني بأن أدعَكِ تنامين وآتي إليه! حقاً لا أعرف! شربت في تلك الليلة قبل النوم كأساً من الويسكي، وعندما غادرتِ الغرفة اعتقدتُ أنكِ ستقضين الليل مع آرثر الذي أبديتِ الاهتمام به وأنك لن تعودي إلا في الصباح. لذا انتظرتُ قليلاً حتى تأكّدتُ من أنك لن تعودي، ثم تسلّلت دون أدنى صوت إلى الكوخ. انتظرته بعض الوقت. أتى متأخّراً فشربنا بعض المارتيني وطلب مني أن أعود إلى غرفتي، لكنني لم أودُّ حقاً أن أعود. كنتُ أريد أنْ أعيش مثلكِ وأن أشعر بتلك السعادة التي تطغى على ملامحك، أردت أن أتذوّق العشق الذي حدّثتنِي عنه كلما غبتِ، ولم أر أن هناك سوءاً، خصوصاً وأنكِ قد نمتِ مع رجل آخر تلك الليلة. كم كنتُ حائرة؛ أسأل نفسي: كيف عرفتِ بالأمر؟ لا أعتقد أنك بحثتِ عنّا! نهشتني الحيرة وأنا أعيد كل تلك الأسئلة دون أدنى إجابة. عندما غادرتِ في الصباح، وبعد أن تأكّدنا من مغادرتك من مفتش محطة القطار، شعرتُ بالذنب وبأنني خائنة، رغم أنني لم أنم مع موم. لم أنم معه أبداً. اغفري لي يا صديقتي العزيزة والوفية التي قاسَمتني أجمل أيام عمري وسمحت لي بأن أعرف السعادة التي لم أكن أعرفها. شكراً على كل ما فعلته من أجلي؛ هداياك الرائعة وتعامُلك الراقي معي وفوق كل شيء محبّتك لي وعطفك. لا يسعني أن أقول الكثير، لكن كنت أفضّل أن أخسر الدنيا بأسرها وأكسب قلبك النابض بالحب. عندما يصلك خطابي هذا أكون قد متُّ ولا ينفعني سوى غفرانك وصلواتك لي... أيمي".

ربما أصبحت تلك الفتاة تهلوس بالمشاهير مثل موم. ولكن من آرثر هذا؟ قلت لنفسي: "يجب أن يعلم وِلْكَم بتلك المعلومة"، لذلك

في اليوم التالي عرجتُ إليه في طريقي إلى المبنى قيد الإنشاء والذي سيكون مقر الشركة الجديد في شارع يوستن. أخبرته بأنني لن آخذ من وقته الكثير، فقط أريد أن أخبره بأحد الأمور التي تخصّ السيدة سيري. تضايق وتحوّل وجهه إلى صخرة دون مشاعر أو حياة. غاصت عيناه في عمق نظراته كحجر أسفل البئر. بلا مبالاة قال لي: "لا داعي لذلك! لم نعد سوياً، لا أريد أن أعرف عنها!". استأذنني وصعد إلى غرفته.

لم أعد أعرف أي شيء، تلاعبت الشكوك برأسي؛ هل يكون قد عَلِم بالأمر وقتلها في بنما؟ لا بد أنه قد فعل! يا له من شيطانٍ رجيم!

في حفل التكريم الرسمي لسفارة الولايات المتحدة، تحدث القنصل بكل فخر عن المجهودات العظيمة -كما سمّاها- التي قدمها وِلْكَم لأجل دولته وللعالم أجمع. عدَّد مهارات الرجل وأثنى على تهذيبه واحترامه ووَصَفه بـ"الأمريكي الصالح"، ثم أهداه نجمة الشرف ورسالة شكر موقعة من الرئيس الأمريكي روزفلت. ثم ألقى وِلْكَم خطبة قوية شكر فيها الجميع باستثناء رجل واحد كان ذراعه الأقوى في كل الأوقات... أنا.

لكنه في تشرين الثاني سمح لي بمرافقته إلى اجتماع خاص بإدارة المستعمرات التي كان يعقد عليها آمالاً عريضة ونجاحات موعودة. وتطرّق الاجتماع إلى ضرورة بحث كل الفرص التي يمكن الاستفادة عبرها من المستعمرات الخاضعة لسيادة الملك. يبدو أن الجميع قد أصبحوا معترفين ومؤمنين به. أكّد وِلْكَم دعمه لقضية السيادة الملكية، وأيّد وجهة نظر رئيس الوزراء السابق بانيرمان في أنّ على إدارة المستعمرات أن توفّق أوضاعها قدر المستطاع وأن تسيطر على جميع المناطق الخاضعة للسيادة لأطول فترة ممكنة، ريثما يتم توظيف موارد

جميع تلك البلدان والاستفادة منها وإشاعة الثقافة التقدّمية لبريطانيا والدين المسيحي بينهم عبر مراكز التبشير والمدارس والفنون. كما اهتم بوثيقة كامبل[19] التي مضت عليها بضع سنوات، وقد أقرّت بوجوب خلق كيان وسط تلك المناطق العربية التي كانت تتبع إلى السطة العثمانية وبين الجماعات التي تشترك في اللغة والدين والثقافة. أيّد وِلْكَم ذلك بقوة وقال: "هي فرصة كبرى لليهود والصهيونية أن تنال حقها". وأقرّ بانرمان بأهمية فصل الجزء الأفريقي عن الجزء العربي، وتحديداً مستعمرة السودان التي يقع عليها الجهد العظيم، وهي التي تسيطر عليها الحركات الدينية والمجاذيب والجهل. يجب أن تكون تلك هي المنطقة الفاصلة. وخلال الاجتماع تحدث اللورد "دايمن تيمز" عن أهمية كشف مجاهيل تلك المستعمرات. وقد قدّم وِلْكَم الوعود بدعم كل ذلك والتبرّعات وكذلك خبرته الشخصية في كل ما يحتاجون إليه. في نهاية الحديث، وبينما رفعنا الكؤوس لنشرب نخب "هنري وِلْكَم"؛ الرجل الذي يُنتظر منه الكثير، أخبرنا بأن السير جيمس بلفور في طريقه إلى وضع حلّ نهائي لليهود في أوروبا، وأن

19- هنري كامبل بانرمان رئيس وزراء بريطانيا في عام 1907م. وقد كانت من أهم الأسباب المؤدية إلى الاهتمام بإنشاء الأرض الموعوده لليهود على أرض فلسطين. وقد قام السير بانرمان بعمل تقرير (التقرير النهائي) لمؤتمرات الدول الاستعمارية الكبرى (مؤتمر كامبل بانرمان) الذي يقرّر أن منطقة شمال أفريقيا وشرق البحر المتوسط هي الوريث المحتمل للحضارة الحديثة –حضارة الرجل الأبيض–، لكن هذه المنطقة تتسم بالعداء للحضارة الغربية، ومن ثم يجب العمل على تقسيمها، وقد أوصى بـ (1) عدم نقل التكنولوجيا الحديثة إليها. (2) إثارة العداوة بين طوائفها. (3) زرع جسم غريب عنها يفصل بين شرق البحر المتوسط والشمال الأفريقي. ومن هذا البند الأخير، ظهرت فائدة وجود مثالي لدولة يهودية في فلسطين، وهو الأمر الذي استثمره دعاة الصهيونية. وعلى ذلك تبنى آل روتشيلد هذا الأمر؛ حيث وجدوا فيه حلاً مثالياً لمشاكل يهود أوروبا.

ذلك يصبّ في مصلحتنا جميعاً. خنقتني تلك الأحاديث، لم أحاول الانخراط فيها واكتفيت بمتابعة الحديث ومتابعة النجمة الذهبية وهي ترقد على صدر سترته كصكٍّ للغفران يبرزه أمام كل الحضور.

خلال ذلك الشهر أرسَلْنا الرجال إلى السودان، باحتياجاتهم كافةً؛ المخيّمات والمعدات وكل شيء. وقد وعدَنا صديق يعمل في وظيفة هندسية حسّاسة بأنه سيكون في القريب العاجل في تلك البلاد وأنه سيقدّم لنا العديد من المساعدات. كان وِلْكَم راضياً عن كل ذلك مرتاح البال. أهديتُه اللوحة التي اشتريتها له، ولم أصدّق عندما غلبته السعادة فقبّلني على خدّي قائلاً: "لطالما كنتَ أخاً وفياً وصديقاً مقرّباً". ثم خلال ذلك الشهر انتشل أخاه من انهيار ماليّ ألمّ به وطلب منه أن يبتعد عن حياته نهائياً، وأن يجد فرصته بنفسه.

في نهاية تشرين الثاني حدث أمرٌ عجيب، إذ إنَّ رجلاً من سكوتلانديارد قد أتى لزيارتي يستعلم إذا كنتُ أعلم أمراً مريباً عن توماس برناردو والد سيري، لكنني لم أكن أعلم وإن كنت. أخبرني وِلْكَم لاحقاً بأنه قد تم اتهامه بجرائم قتل، وأن هنالك دليلاً. قال لي إن الرجل إذا مات لا يستطيع أحدهم الوصول إليه عدا اثنين؛ "الله وسكوتلانديارد". ضحك ثم واصل قائلاً إن برناردو قد درس في كلية الجراحين الملكية بأدنبرة وقد كان يخفي ذلك، وأن له صلة بجرائم القتل في الوايت تشابل، لكنني قاطعته رافعاً قبّعتي أكثر من مرة لأقول له إن الرجل قد مات... ماذا يفيد ذلك؟

أخيراً ظهر ماونتن الصغير، وقد كان أطول من آخر مرة رأيته فيها، ثم كلفني وِلْكَم بأن أجد له أستاذاً خاصاً متميزاً ليدرّبه ويعلّمه، خصوصاً وأنه كان بطيء الفهم ويواجه بعض الصعوبات في الكلام. وقد وجدتُ له ضالّته في رجل لطيف اسمه "فارن فيلد". ورغماً عن أن وِلْكَم كان قريباً مني بطريقةٍ ما، لكنني لم أسأله ماذا حلَّ بسيري.

توصّلنا في نهاية ذلك الشهر إلى التعاقد مع عالِم الأدوية هنري ديل من كامبريدج، وهو رجلٌ عنيدٌ صعب المراس، لكنه كان مهتماً بما يفعله وِلْكَم في الخرطوم. وافق على السفر إلى السودان ووَضَع بعض الشروط التي لم تكن صعبة، وهكذا أصبح لدكتور بلفور منافس سينال لاحقاً جائزة نوبل في الطب، وسيكون أحد رموز الكيمياء الحيوية في العالم، وسيقدم الكثير لمشروعات وِلْكَم وأبحاثه في السودان.

أتى كانون الأول باحتفالاته ومناسباته. كنا نستعد للسفر نحو الخرطوم للبدء في الحفريات الأثرية، لكن أمراً مهماً سيؤخّرنا إلى بداية العام القادم، وهو أنّ وِلْكَم سيصبح سيّداً إنكليزياً. هل تتخيّلون؟ نعم! حدث ذلك في بداية العام الجديد؛ حيث مُنِح الجنسية البريطانية. أصبح الرجل مهماً جداً، أكثر مما أتصوّر، فقد كرّمه الملك شخصياً وأنعَمَ عليه بالهدايا. لا أعلم كيف أقنعني حينها بأن أظلّ في لندن. قال لي: "أنت العين التي ترى كل شيء يا يوري! أنسيتَ ذلك؟ الوضع قد تغيّر، قريباً سأعود وستذهب معي في مرة أخرى". ثم سافر هنري وِلْكَم من جديد، وتركني لوحدتي، كرجل إنكليزي بارد في جنازة.

في أمريكا اعتلى الحكم رجل مدنيّ بحت ودون انتخاب أيضاً، وبلا خلفية عن الأمور العسكرية. لكننا كنّا نوليه اهتمامنا فهو يدعم برنامجاً مهماً يمكننا أن نعمل جيداً من خلاله وهو (معهد إطالة الحياة) الذي يعمل على تطوير البحث العملي ودرء الأمراض.

في السادس من أيار 1910م توفّي الملك إدوارد السابع؛ أحد أهمّ الرفاق وأكبر داعمينا، وخلَفه ابنه ولي العهد أمير ويلز "جورج" الذي نصّب نفسه باسم "الملك جورج الخامس، ملك بريطانيا العظمى وإيرلندا وإمبراطورية الهند".

قبل كل ذلك وردت رسالة من البعثة الاستكشافية لحفريات السودان:

"سري للغاية

إلى السيد هنري سولومون ولْكم

كلّ الأمور على ما يرام، وأؤكّد أنّ الأوضاع هادئة وحياة السكان المحليين بدائية ومتخلّفة ولا يمثلون أدنى خطر. المكان ناءٍ ومنعزل وتحيط به الجبال من ثلاثة اتجاهات، يبعد عن المدينة حوالي عشرة أميال أو أكثر. وسيلة النقل الوحيدة هي الدوابّ، ويعتمد الأهالي على الزراعة والرعي ويقضون أوقاتهم في سرد الخرافات والإيمان بها. لقد تمكّن المفتش الإنكليزي قبل عدة أيام من القبض على أحد المخادعين مُدّعي النبوة وأُعدِم رمياً بالرصاص، ولا يوجد حراك ثوري يُذكر. الطُرق آمنة لكنها بغير علامات وجميعها متشابهة ويمكن أن يتوه فيها إلى الأبد من لا يعرفها. أهل قرية الجبل وجوههم غبراء وملامحهم قاسية وخرقاء، النسوة يجلبن عيدان الأشجار والنباتات الجافة كل صباح لاستخدامها في صنع الطعام والمريسة وهي مشروب مُسكر مليء بالطاقة. التميّز سمة غير أساسية في هذه البيئة، فهم يعيشون في بيوت من الحجر أو القش أو الطين أو جميعها.

نساؤهم سوداوات اللون، قبيحات المنظر، روائحهنّ كريهة كزيت السمك، تعلو القشور أجسادهنّ وتملأ التقرّحات أرجلهنّ ولا يُبدينَ رأياً حول أي شيء ولا يُحدّثنَ الغريب، ولا تحمل أعينهنّ البيضاء أي تساؤل أو حيرة تجاه أيٍّ كان، وملابسهنّ متهالكة وعارية؛ خلافاً لدينهم وعقيدتهم التي تدعو إلى الستر، فهي تتكوّن من قطعة قماش سيئة الحياكة لستر العانة وما بين الصدر والفخذين، أثداؤهنّ مترّهلة كأنهن يُرضعنَ ذئاباً بدلاً عن صغارهنّ أنصاف الوحوش، عظامهنّ

قوية وضرباتهنّ قاسية؛ مقاتلات بطبعهن، يعشن طويلاً ونادراً ما يمرضن، وإنْ مرضنَ فإنهنّ يتداوين بزيتٍ يستخرجنه من ثمار شجرة شيطانية اسمها اللّالُوب ويدهنّ به أجسادهنّ لتتعفن بالرائحة النتنة التي لا تختلف عن روائح بولهنّ كثيراً. وهنّ وفيات لأزواجهنّ حتى النهاية، يُكرمنَ الضيف بالطعام والمسكن، ولا يتّخذنَ عشاقاً وبعضهنّ لا يتضايقنَ إن نام أزواجهنّ مع بعض النساء ممن يعدّونهن أقلّ حسباً ومرتبة، ويكون التراضي بقطعة قماش ملوّنة أو كلمة طيبة. يجلبن الماء من أعلى الجبل ويسقين الأطفال والحيوانات ويخزنّه في أوانٍ فخارية كبيرة مخروطية المنظر، جميعهنّ يلدن في بيوتهنّ، والبعض بمساعدة قابلة لا تفعل الكثير في الحقيقة، وجميعهنّ جاهلات بدينهنّ ولغتهنّ والعلوم الإنسانية العامة، لا يستطِعن نقل الأخبار إلا في ما يختصّ بأزواجهنّ أو بعض أحوال الزواج والخطبات، يتحاشين الغرباء ويراقبنهم حين غفلة إن صادفنهم في مكان واحد كالبئر. هنّ أساس الحياة الاجتماعية في البلدة، ولا يمثّلنَ أي نوع من التهديد أو الخطر.

الميجور: ميلدون فان

البعثة الاستكشافية الأولى - جبل مويا - مديرية الفونج.

12 شباط 1910

(6)

في السّرايا الصّخريّة

"حيثما خَطَا الأوروبيّون مشى الموت في ركابهم
إلى أهل البلاد التي يجتاحونها".

تشارلز داروين

39

سيري ترْوِي

"تخيّلوا معي! عندما أفتح عينيَّ في الصّباح أرى ذلك الشارب السنجابيّ الكبير منحنياً على دُرجه وهو يكتب شيئاً ما. تخيّلوا أنه يقول لي صباح الخير بعد أن يضع نظارته ويثبّتها كأنّ من كان ينام معه على نفس الفراش شخصٌ آخر! يتفحّصني جيداً كأنني سهم لأحد مقاتلي المايا أو جمجمة امرأة أفريقية عريضة الفكّ. هل تعلمون أنه شخص مريض؟ أحياناً أخافه إلى حدّ الموت، رغم أنه يدلّلني ويخاف عليّ. لكن هناك جانب شرير وشيطاني يعيش بداخله. أنا أعلم. اسألوني! أنا أشعر بذلك. أعلم جيداً أن في داخله وحشاً؛ وحشٌ أشدّ بشاعة من (خارون). هل تصدّقون أنه أهداني ذات مرّة جمجمة؟ نعم! جمجمة بيضاء صغيرة مصقولة جيداً ومعطرة، بداخلها ماسة على شكل عين! قبلتُ بالهدية وفرحتُ بها كثيراً، كنت أظنّها مصنوعة من العاج أو شيءٍ يشبهه لكنه أخبرني بكل برود: "كان طفلاً أسودَ وجميلاً، يأكل بالشوكة أفضل من الجميع. حزنت لموته، فقد سقط فجأة من أعلى جبلي، هناك حيث السرايا الصخرية!". هل يمكنكم أن تتصوّروا ذلك؟ لم أستطع النوم في ذلك اليوم. شعرت بأني إذا نمت سَيُشَرِّحُني حيّة، أنا متأكدة من أن الشيطان العظيم أيضاً يخاف منه!

منذ أن حضرنا إلى بلاد السودان، وأقمنا في البناء الكبير المطلّ على النيل، وأنا وحيدة. قلبي خالٍ، أشكو مرارة الأيام الطويلة، الأيام الصيفية الحارة، والماطرة كعيوني الباكية. لم أكن سعيدة مثل وِلْكَم الذي يلاحق الحفريات الأثرية في منطقة جبل مويا، ويعقد اللقاءات، ويُشرف على عدد هائل من العمّال، بل يستمتع بركوب الجمال والحمير

لأيام طويلة، حتى القطار الذي كان يصل إلى الجبل كان يحمل وارداته وحاجياته. وجدت السودان من حولي يتحوّل إلى سجنٍ كبير، لا، بل إلى غرفة خانقة سيّئة التهوية. والطقس حارّ، حارٌّ جداً إلى درجة أن المرء يمكن أن يتنازل عن كل شيء مقابل أن يتنفس هواءً نقياً، لكنك بدلاً عن ذلك تجد نفْسَك مضطراً في مثل ذلك الطقس إلى ارتداء معطفٍ من الصوف الحرّاق. إنه لعقاب كبير، أن تكون زوجاً لأحد مثل هنري وِلْكَم!

لم يعد طفلي الصغير يتحسّن، وبدا كأنّ مصيبة ما قد ألّمت به ما إن غادر والده إلى الجبل. كنت أجلس وأنظر إليه ثم أبكي، ولا أجد من يعزّيني أو يتقاسم معي مصائب هذا العالم المتخلّف، البائس. أنا لا أنتمي إلى هنا.. لا".

40
الطريق المسدود

مضت الأعوام ووِلْكَم بعيدٌ في جبل مويا، يعود إلى الخرطوم في فترات متباعدة ولا يبقى فيها زمناً طويلاً، فقط يطمئن على ماونتن الصغير وسيري الجميلة ثم يعود أدراجه. لكنه عاد في إحدى المرات، وغضب أشدّ الغضب عندما وجد أن بيته قد تحوّل إلى صالون شهير تتحدث فيه سيري عن الفن والتصميم، ويؤمّه الدبلوماسيون والكثير من الأوروبيين. بدأت الخلافات بينهما من جديد، مشاكل ليس لها حل.

كان قد ضربها بقسوة، ثم أخذ يحدّثها عن حبّه لها، لكنها لم تكن تأبه لما يقول أو يفعل، يبدو أنهما قد وصلا إلى نهاية الطريق. وكانت مسدودة.

قُبيل أن يعود وِلْكَم من الجبل في شهر آب وردته رسالة من اللورد هربرت كتشنر، يخبره فيها بأنه يجب أن يتوخى الحذر والسريّة في ما يفعل، وأن يتخذ احتياطاته كافةً وأن يعود إلى لندن فوراً. لذلك، وخلال ثلاثة أشهر حثّ رجاله على مزيد من العمل، وظف مئات العمّال الجدد. كان العمل في البناء الكبير أو "السرايا" قد شارف على الانتهاء. وعندما اطمأنّ إلى أن كل الأمور تسير على ما يرام، بعدما عاد إلى الخرطوم طلب من د.بلفور ود.ديل أن يرافقاه إلى الوطن، إن أرادا ذلك، فالمرة القادمة التي يعودون فيها سيكون عليهما العمل بعيداً في الجبل. وافقا بالطبع وبحلول شباط من العام الجديد، كانوا جميعاً في طريقهم إلى ميناء سواكن بشرق السودان استعداداً لصعود الباخرة

التي يذكّرهم صوت صافرتها بالوطن والنوارس وحفلات الشاي والرقصات المسائية.

طوال الرحلة كان وِلْكَم يحكي لهم قصصاً وحكايات عن الجبل، "الصيف هناك أقسى من جهنم"، "تخيّل أنهم يضربون القطار عندما يدهس أحد حيواناتهم، يضربونه ثأراً لحيواناتهم!"، "لدينا في الجبل رجل مدهش يحدّث الأشجار ويسمع حديث الصخور. لو أنه ليس أبله لكنت قد صدّقته!". لكنه كان خائفاً من أمر ما، مما جعله يثرثر كثيراً؛ فإن ما توصل إليه في هذا العام لا يمكن تصديقه، وقد كان إنجازاً كبيراً. وطوال الليالي البحرية الطويلة كان يناقشهم حول بعض الأمراض مثل "البَرِيْ بَرِي" الذي كان يثير دهشته، ومرض تعظُّم المفاصل. وحكى لهم عن بعض العمّال في الجبل وقد تحوّلت أجسادهم وجميع مفاصلهم إلى عظام، وزعم أن أحدهم قد مات بعد أن صار عاجزاً عن الحركة، أقل حركة، بما في ذلك لسانه. كما حدّثهم عن مرض السرطان وهشاشة العظام، وأنه يعتقد أن في الجبل بعض المواد التي يمكن الاستفادة منها طبياً، وأن ذلك الجبل الإلهي يحوي أسراراً كبيرة، وأنه متأكد من أن جبل مويا ليس مجرد جبل عادي. كان يؤمن بأنه جبل مقدس له خصوصية كبيرة، وأن عليه فهم تاريخه جيداً.

أمّا سيري فقد كانت شاردة البال، لا تهتم بما يقول، ولا تحفل إن سألها عن رأيها في أحد الأمور. ينتابها حنين كبير إلى حبيبها السابق سومرست موم، الروائي الذي أصبح مشهوراً إلى حدّ كبير. لكن ما فعله معها هو الذي جعلها تفضل الرجال الأكبر سناً، على شاكلة هنري وِلْكَم وهاري سيلفريدج، فموم رغم حبه لها فإن له عدة عشيقات خفيات، وهو الأمر الذي لم تتقبله أبداً. يكفيها أنّ وِلْكَم لا يهتمّ لغيرها رغم كل المعضلات التي تواجهها معه، مما يضطرها لقبول

محبته. لم تكن تعلم أن بطنها ستمتلئ قريباً بروح جديدة، الطفل لا بدّ له أن يُولد، ولكي يولد لا بدّ له من أب. لطالما كانت ترى في وِلْكَم ذلك الأب، رغم جهلها بما تحمله لها الأشهر القادمة.

كان البحر عاصفاً هذه المرة، كأنّ ملوك الريح يتعاركون هناك. كانت أرواحهم متوترة، لذلك لم يكن وِلْكَم يحتكّ بزوجته كثيراً تحاشياً للنقاشات التي لا تنتهي والمشاجرات الكلامية، فهم في طريقهم إلى لندن، البلاد التي تعشق الشائعات والشوكلاته، وذلك ما يجعله هادئاً نوعاً ما. لأنه لا يحب أن يتعرف إلى حياته الشخصية أحد، ليس حياته الشخصية وحدها، بل هو لا يريد لأحد أن يعرف عنه شيئاً، إلى حدّ أنه ذات يوم أرسل إلى أحد المحرّرين الصحفيين هدية قيّمة يطلب منه التوقف عن مدحه والكتابة عنه.

حدث ذات مرة، وبينما هو يجلس مع د. هنري ديل يتحدّثان حول بعض البحوث العلمية والتجارب المختبرية أن نشب خلاف صغير بينهما حول وجهات النظر والجانب الذي يقف فيه كل منهما حسب مبادئه ومعتقداته، فقد كان وِلْكَم يرى أن البشرية تنمو على حساب البشر، بينما كان يرى د.ديل أن على البشر أن يقدموا للبشرية الكثير ولكن دون تضحيات وعلى قدرِ استطاعتهم فقط، كان وِلْكَم يخبره أن التقدّم العلمي والبحث لا بد له أن يمضي قُدماً، وفي سبيل ذلك لا بأس من بعض التضحيات، فأخبره د.ديل أنه يتفق معه لكن يجب أن تكون تلك التضحيات مادية وليست على حساب الآخرين وأرواحهم، كما كان وِلْكَم يقصد أو كيفما فهم الرجل العنيد، ثم احتدم النقاش فبرّر د.ديل:

- "إن بريطانيا العظمى، بجلالة قدرها ومستعمراتها التي تنتشر في العالم أجمع، تحاول دائماً حفظ الدماء وعدم إراقتها، وأنها

تشمل رعاياها بالعناية، وأن جيوشها القوية التي تطوف البحار والمحيطات يمكنها أن تقلب العالم رأساً على عقب، لكنها لا تفعل ذلك لأنها تريد للعالم أن يعيش سعيداً مُنظماً مُنضبطاً".

قاطعه وِلْكَم بهدوء وهو يعبّئ غليون العنبر اللامع:

- "لكن ذلك لا يَحدث في الحقيقة يا رجل! إن الاستعمار يعتمد على العبودية مهما تغيّر شكلها أو اسمها. ولم تستطع جلالة الملكة ورجالها من بعدها حفظ إراقة الدماء. هل تذكر حرب القرم والطريقة التي تدخلت بها الملكة ڤيكتوريا لإيقاع الروس مع العثمانيين؟ هل تذكر حروب البوير والهند؟ بل حتى ما فعله جيش كتشنر مع متمردي الخرطوم؟ لم يكن ذلك من الإنسانية في شيء! وفي اليوم الذي كانت لندن تحتفل بسيطرتها على إحدى المدن كانت النساء يجمعن أشلاء أطفالهن وأزواجهن لدفنهم بشكل لائق. دعنا لا نغالي في فهم الأشياء! يبقى الاستعمار هو الاسم الجديد لتجارة الرقيق التي منعها المستنيرون بالقانون، فأتى المستعمرون ليغيروا الفكرة والمفهوم. أنسيتَ مجلس اللوردات وصراعه ضد العبودية؟ الاستعمار هو المرض السرطاني الذي يضرب خلايا الدويلات الهزيلة فينهشها من الداخل إلى أن تقضي على نفسها بنفسها لأجل الخلاص... لا غير".

حدّق فيه لبرهة ثم انتشلته ذبابة عابرة وأعادته إلى الحديث:

- "ليس صحيحاً! فما يحدث أثناء الحرب يبقى جزءاً من الحرب. الجميع يموتون هناك، وهذه نتيجة طبيعية لسقوط طرف وانتصار الآخر. في الحرب تختلف المفاهيم والسُّبل، لكنني لا

أستطيع أن أجزم بأنني أفهمكم جيداً! أنتم معشر الأمريكيين! فأنتم أكثر الناس علماً بالحرب وشرورها وفي تقديري أن إنسانيتكم ليست في نفس مستوى البشر في أي مكان بالعالم، أنسيتَ ما فعلتموه مع الهنود الحمر؟ كيف أفنيتم شعباً بأكمله؟ وقتلتم قبائل لتتعاركوا بعدها طمعاً في ثروة ستكفيكم جميعاً على أية حال؟ ها؟ يا للمسيح! ألا تعلم ما فعله سلاح الفرسان الأمريكي بالهنود اللاكوتا في مذبحة الركبة الجريحة؟ أنسيت يا هنري كيف أُبيدَ أولئك المساكين؟ يا للهول! أكاد لا أصدّق أنكم قد منحتم القتلة الشياطين أوسمة الشرف لقتلهم الأطفال والنساء هناك!".

شعر وِلْكَم بأن هناك إبرةً غليظة غُرست في مؤخرته فجأة، ثم تمالك نفسه أمام الرجل المتبجّح ذي المبادئ وقال:

- "إن ما تقوله صحيح، فنحن "معشر الأمريكيين" لا يهمّنا إلا التقدم والحصول على مزيد من القوة، وفي سبيل ذلك نضع أرواحنا أولاً وقبل كل شيء فداءً لما نقوم به!".

نظر إليه د.هنري ديل ثم حرّك يديه في ذات اللحظة التي أبرقت فيها السماء عبر نافذة القمرة وتلاشى الدخان:

- "حتى عندما كانت بعض الولايات المتحدة تحت إدارتنا، لم تكن الملكة إليزابيث تُعاملكم كعبيد مستأجرين أو بشراً من الدرجة الأخيرة. أنت تعلم أننا قد خرجنا طوعاً من بلادكم عندما أصبحتم أهلاً لحكم أنفسكم. لكننا نسعى دائماً إلى التكامل مع كافة القوى وموازنتها، فما إن غابت أمريكا عن خارطة مستعمراتنا حتى ظهرت الهند والسودان وغيرهما وهذا شرفٌ لنا، فنحن سادة العالم بلا منازع، ويتجلى ذلك في كل

شيء. حتى أنت يا سيدي! اعذرني! لقد أتيتَ قاطعاً المحيط لتحظى بفرصتك في لندن. أنتَ أكثر درايةً مني بأن بلادنا هي بلاد الحرية والعدل والعلم، وهي صاحبة كل الاكتشافات الهامة في هذه الحياة التي أخضعناها وروّضنا وحوشها الآدمية والطبيعية".

تحوّل الأمر إلى مسألة شخصية. نظر وِلْكَم إلى الرجل المرتعش، بخدّيه المنتفخين وبدلته السوداء التي لا يبدّلها أبداً؛ كانت يداه مليئتَين بالبقع. وأيقن أن نهاية هذه الرحلة ستكون نهاية رفقتهما وسيمضي كلٌّ منهما في طريقه، بعيداً عن الآخر. هناك حربٌ صغيرة تدور بينهما؛ كلٌّ يمرّر ما بداخله عبر الأحاديث الوطنية. لذلك قال وِلْكَم وهو يحدّث فراغ الغرفة العلوي حيث المصباح:

- "حسناً! إذن أنتم مَن خلقتم الرقّ والعبودية! لا فخر في ذلك!".
- "أمريكا ليستْ إلّا ضجة كبيرة، فارغة، لم تقدّم للبشرية سوى أنها جمعت كل عاهات العالم عندها، وأخرجت منهم الكثير. عكس المملكة العظمى التي...".

قاطعه بحركة من إصبعه:

- "إذا كانت مملكتك هي التي علّمت الشعوب العبودية لاستنزاف ثرواتها وسرقتها دون وجه حقّ، فهذا لا يعني شيئاً! إذ إنَّ أمريكا قد قدّمت للعالم بأسره الدرس الأقوى والأكبر، وعلّمت الشعوب معنى أن تكون حرّة. نحن من صنعنا الحرية، قبلنا لم يكن يعرفها أحد، هل تنكر ذلك؟".
- "لا تفرح كثيراً يا صديقي فلم يكن جورج واشنطون رجلاً هندياً أو عبداً أفريقياً؛ فقد كان أجداده من قبائل جرمانية

تعرف ماهية التحضر، وهو الأوروبي الذي قاد بلادكم كما سيقودها أحفاده من بعده".

- "إننا قومٌ أحرار يا د.ديل! يكفينا ذلك! سيذكر العالم كيف أننا تخلّصنا منكم، وحرّرنا بلادنا، كيف دحرنا رجالكم الجوعى المنافقين الذي خدعونا باسم الدين والرب! كفى يا رجل، اصمت! من لا يخدم العالم يجب أنْ يغادره فوراً. ويوماً ما ستتقسّم هذه الإمبراطورية العظيمة، ستتفتّت، سيحدث فيها مثل ما حدث في مستعمراتها... التي لا تغيب عنها الشمس!".

خرج د.ديل غاضباً، وصفق الباب خلفه بقوة ثم اختفى سريعاً، تاركاً لوِلْكَم أثر صفعة قوية على خده، غارقاً في دخانه وحنقه، يقف في نهاية طريق آخر مسدود بالصخور الضخمة التي لن يذيبها الوقت ولا النِّسيان.

***

في ميناء بليموث كانت الأنوار خافتة، والحمالون كسولين جداً إلى حدّ أنهم كانوا يعجزون عن تناول عملة حديدية ملقاة على أرض المرفأ. وبدا المارّة كأنهم أشباح، يحاولون الابتعاد عن بعضهم البعض. حتى المتشردون والمتسولون كانوا لا يحرّكون سوى أعينهم فقط، ثم يتشاغلون بها في لامبالاة. عمّال الموانئ لا يأبهون لصوت الباخرة وضجيج القادمين، يتثاءبون في تلك الساعة المتأخرة من الليل. لا يجد موظفو الشرطة ما يفعلونه غير الانحناء لعقد ربطات أحذيتهم البالية أو إشعال لفافات التبغ الرطب خلف الأعمدة الحديدية الصدئة. بعيداً تراصَّت قوارب الصيد واهتزّت راياتها الملوّنة كأنها راقصات شرقيات. لم يكن الليل بارداً، بلا قمر، ورائحة السمك والزيت الفاسد والبارود تملأ المكان، كما تمتلئ المخازن العريضة بالبضائع

استعداداً لتصديرها. الحياة بائسة في ذلك المكان، والمدينة واقعة في رتابة عظيمة، أو كأنها عادت إلى الوراء ثلاثة قرون؛ حيث كانت الجثث منتشرة في كل شوارعها جراء الموت الأسود.

كان هنري سولمون وِلْكَم يطفو بذات الطريقة التي تهتزّ على إثرها السفينة لتطفو. يتابع بناظريه كلّ من وقف هناك منتظراً. لم يرَ يوريبا بين الحاضرين، لكنه لمح مدير شركته وعدداً من رجاله، ثم سائق عربته وأسرة سيري، وبعيداً عن كل ذلك لمح رجلاً كان وجوده في هذا المكان غير مبرّر بالمرة، بل مثيراً للشكوك وغامضاً؛ السير "تشارلز وارن"، رجل الشرطة ومفوض سكوتلانديارد، الذي كان أحد أهم المحققين في قضية قاتل الوايت تشابل "جاك الطاعن". رغم محاولته الجادة للتخفي إلّا أنه لم ينجح في ذلك، فلا مجال لإقناع طفل غبيّ بأن برودة الطقس تلك الليلة قد تحثّ رجلاً قوياً أن يرتدي كل تلك الملابس الصوفية، ثم قبعة البولر التي لم تكن تفارقه، والنظرة التي تحمل الريبة والحذر كما تحمل إيمانها بالثالوث المقدس.

لم يكن ماونتن يتوقف عن البكاء. أمّا سيري بقبعتها العالية فقد رأت نفسها كملكة عائدة من إحدى مستعمراتها تتبعها ثلّة من معجباتها. كان د. هنري ديل يهذي بكلمات غير مفهومة مشمّراً كمَّيْ قميصه، والعرق يتلامع في أعلى عنقه، وهو يتبادل النظرات التي تمرّر الغضب عبر ابتسامات خجولة مع وِلْكَم. تسيَّد التوتر تلك المسافة بينهما. لم يكن د.بلفور واعياً لما حدث خلال الأيام الأخيرة، وكان يترنح طيلة الرحلة، إلى أن أخبره ساقي البار بأن مخزونه من المشروب قد نفد. وكان ذلك في نهاية كانون الأول 1913م، اليوم الذي وصلوا فيه إلى الديار أخيراً.

41
انهيارٌ صخريّ

لم يصدّق وِلْكَم مظهرِي عندما قابلته، ضحك بشدة وشبّهني بالأرنب العجوز. بالفعل كنتُ أشعر بأن العمر قد تقدّم بي، خصوصاً وأنني تجاوزت الخمسين عاماً، لكنني لستُ مثله بأي حال، فبالرغم من أن عمره ستون عاماً لكنه يبدو أكبر من ذلك بكثير، وعرفت أن ابنه يرفض أن يناديه بكلمة "بابا"، ولو كنتُ مكان ذلك الصغير لدعوته "جدي" فهو يشبه تلك الكلمة. التقيته بعد عودته بعدة أيام في منزله بريجنست بارك، كان ينتظرني لمزيد من الأعمال والتقارير والتدابير التي سنجريها في الفترة المُقبلة، والتوسّع الكبير الذي سنحدثه في العديد من المجالات، وتحديداً الأمراض الجديدة، وعلوم المختبرات، والمواد العضوية والمركبات الأساسية التي ستدخل التصنيع لتتزوّد بها شركات الأدوية حول العالم، فضلاً عن عدة أمور أخرى مثل جرد القِطَع الأثرية التي كان يرسلها عبر معمل أبحاثه المدارية في الخرطوم والتي تجاوزت 970 قطعة خلال ذلك الموسم من الحفريات، ثم الهدايا الذهبية الخاصة التي كان يرسلها بعض اللوردات والأمراء ثم اللوحات والمقتنيات والمعدات الطبية القديمة التي اشتريتها له أثناء غيابه في السنتين الأخيرتين، وطلب مني أن ألتقط لها صوراً وأن أضيف مزيداً من الرجال لطاقم الحراسة. امتلأ بيته بالخدم والمشرفين، ولاحظت أن هناك كثيراً من الخلافات بينه وسيري التي لم تكن تلقي عليَّ التحية أو تنظر إليّ باحترام، ولم تكن تتورّع أن تمرّ أمامي من الزاوية التي لا يراها وِلْكَم بلباس شفّاف يكشف خفايا جسدها الجميل الممشوق، وكنت أستطيع أن أرى بكل

وضوح سُرَّتها دقيقة الاستدارة كحبّة العنب ووركيها الثلجيين اللذَين يحتاجان إلى من يدفئهما. وقد كانت تتجاهلني تماماً كأنني تمثال رخامي جامد منخور العينين.

أخبرني وِلْكَم عن نيّته كتابة كتاب، كما أمرني بمتابعة د.هنري ديل وأن أشرف شخصياً على جميع تحرّكاته ولقاءاته ومنجزاته العملية والأماكن التي يرتادها.

مضت الأيام، وفي صبيحة أحد أيام شهر نيسان 1914م أصدر قراراً يكلّفني فيه بمسؤوليات إدارية كبيرة وصلاحيات للبتّ في الأمور المالية، ووصفني بـ"حاسته الوحيدة" ومساعده الشخصي. بالطبع أسعدني ذلك ودعاني للفخر، ولا أظنّ أن هناك ما يسعدني بخلافه، فسيدي رجلٌ رائعٌ متميّزٌ في كل ما يفعل، حتى طريقة هزّ رجله أو تحديقه أو حتى هرش رأسه. ليتني كنتُ فتاة لأزوج نفسي به وأقتل تلك الجميلة التي لا يؤدي وجودها في حياته إلّا إلى المشاكل. كنت سأتلذّذ بقتلها؛ أقتلع عينيها وأسلخ فروة رأسها وأستأصل مهبلها ومن ثم رحمها ومبيضيها وثدييها الصغيرين، ثم أخيراً أقتلع قلبها وأرمي به في مرجل، وأتركه على النار سنةً كاملة على الأقل.

لكنني، بعيداً عن كل ذلك، وجدت نفسي دون إرادة أُرسل من يراقب سيري ويتتبّع تحرّكاتها، يترصّد خروجها إلى الكنيسة، ومن ثم يراقبها عند منزلها القديم وفي المتاجر وأثناء مرورها وهي تتمشى في الهايد بارك أو النادي حيث كانت تسبح أو تتشمس أو في أماكن تجمّع المثقفين والرسامين. أنا متأكّد بأن هناك أموراً تحدث من وراء ظهر وِلْكَم، أشعر بذلك، فقد أصبحتُ لا أثق بها، وسيكون سيدي سعيداً إن كشفت السرّ الذي تخفيه عنه. أخذ الطفل الكبير ماونتن دروساً عديدة في التكلّم، كان يتعلم بصعوبة شديدة وهو بحاجة دائمة إلى

والدته التي كانت تختفي بسرعة كأنها رائحة عطر فرنسي مليء بالكحول.

فجأةً تغيّر كل شيء، وتوتّر الصراع بين القوى الكُبرى في العالم، وأدّى مقتل الأرشيدوق فيردناند إلى اشتعال الحرب في كل النواحي، وأفسد علينا ذلك العديد من الخطط. لكننا بنهاية تموز كنا نعمل لأجل الحرب والمقاتلين، نحاول بكل جهدنا أن نرفع من طاقتنا الإنتاجية من كل الأنواع؛ فالحرب تستهلك كل ذلك. لم يعد وِلْكَم يخرج كالسابق، ينكفئ على درج مكتبه ليعيد ترسيم الخرائط التي أحضرها من الجبل، ويقيس المسافات ويضع العلامات ويرسم بعض الأشكال ويدوّن الملاحظات. كان فخوراً بتجربته في جبال السودان، وأخبرني بأنه وجد أول إنسان متحضّر في التاريخ[20]، لكن سيتم الإعلان عنه بطريقة مختلفة تجري الآن المشاورات حولها. ثم أخبرني بأن أستعدّ لمرافقته إلى ذلك المكان الذي ربما يكون أهم المناطق العظيمة في التاريخ القديم. مضت الشهور بين الترقب والحذر ومتابعة الأخبار وصور القتل والدمار، ونحن نحاول مراراً التكيُّف مع وضعية الحرب التي لم يعد بالإمكان توقع ما ستفعله بنا.

***

لاحقاً في بداية العام 1915م، والحرب تلتهم العالم، حيث تُدَكّ مُدنٌ وتنهار تحت الأنقاض، قوى عُظمى تتعارك في معركةٍ ساحتُها البحار والجبال، بما في ذلك الجبل الصغير النائي عن الأعين، تقارير المراسلين الحربيّين وعدسات آلات تصويرهم الوامضة تنقل احتراق العالم، الحدود مغلقة بالمتاريس والخنادق والمدافع، البشر يختنقون فوق

20- إنسان سنجة الأول.

الأرض وتحتها، اللهيب الذي يكوي الأمكنة والأديرة العظيمة، الحصار الذي أخضع حتى الشمس وأخفاها وراء النيران والدخان، الجوع الذي قضى على الذين لم يقتلهم السلاح أو بنو جلدتهم. دخل الألمان مدينة لياج، ثم سقطت بلجيكا، والخطر يتربّص بباريس، الحكومة البريطانية تحاول المساندة، الملك جورج الخامس يكسب تعاطف الجيش، الروس يتربّصون بألمانيا، الجبهة الغربية مشتعلة ولوكسمبورغ تسقط، يتقدّم الحلفاء. المورنينغ بوست تكتب عن قتلى معركة المارون، الديلي ميل تنشر الصور، حتى بوليس غازيتا توفد مراسليها! الغارديان تحلّل وتغطي أدق التفاصيل، الصحافة مشغولة بما يحدث من فظائع. الجبهة الشرقية تجأر، العراك دام، ودول المحور تتقدّم، الإمبراطورية الروسية تحني مقدّمة رأسها بعيداً عن راسبوتين وشيطانه، تاننبيرج تسقط، الأسرى والقتلى في كل مكان كالحشرات. يمكنك أن تجد إصبع أحدهم داخل جيبك... أصبح الموت حدثاً عاديّاً كرفّة العين. الصحف تواصل الرصد، العالم يغلي داخل مرجل مغلق، أو قل في سبطانة بندقية سريعة الطلقات، ما إن تخرج طلقةٌ واحدةٌ فتأخذ في طريقها من تجد حتى تأتي الطلقة الأخرى لتقضي على من تبقى. البلقان تعاني. الموت ينتشر كما يجري الماء من ينبوع الجبل؛ لا أحد يسأل منذ متى ينبع أو متى سيتوقّف، المهم أن يتشارك الجميع الشرب. يشرب الموت أرواح البشر هناك، تسقط صربيا، ثم تعلن المجر والنمسا عن آلة قتل فتاكة، الدولة العثمانية تتدخل وتنضم إلى الحليف الأقوى كعادتها، آلة الفتك الأحدث، دول المحور بقيادة ألمانيا، السلطان محمد الخامس يدعو إلى الجهاد باسم الدين، سلاح الهجّانة العثماني يستعد في بئر السبع، يحاول السيطرة على قناة السويس، إيطاليا تدخل المعترك وتبدأ معارك خلف الجبال، رومانيا تستعد لحماية ما تجزم بأنه أرضها، العالم يخبو، يتقسّم، آلة الفتك تعمل جيداً،

الاقتتال يستمرّ والمستعمرات تحضر المزيد من الجيوش، تجارة الغدر الجشعة تزدهر، الصحف ترصد، الأنظار تتابع، يتحول الصراع إلى البحار، البوارج تقذف، السفن تغرق، الماء يبتلع الدم والقتلى ويتحوّل إلى نار أخرى، الغواصات تشقّ طريقها في هدوء، الألغام في الماء واليابسة، العقل الأوروبي العبقري يتفنن في صنع كل ما يمكنه القتل والإبادة، أخيراً أمريكا تتدخل، بعد أن درست الموقف جيداً، زوّدت جميع المتحاربين بالمعلومات. المدنيون خائفون من طيور السماء التي تلقي بالمتفجرات، السماء تدخل ساحة المعركة، التلظّي في مدّ البصر، البريطانيون يستعدّون بالمدفع الحديث "فيكرز"، والألمان يَخرجون عن السيطرة بمتفجرات وغازات سامة، كل الأطراف تتقن صناعة الفناء؛ السلاح السام. يتبوّل الجنود على أقنعة القطن خوفاً من الغاز، الحرب في كل الأرجاء بما في ذلك الأحلام، براً وبحراً وجواً، الصراع لا يعي إلا الهدم، مدن كبرى ودول عُظمى توشك أن تختفي من الخارطة، من يأبه في تلك اللحظات إن مات طفلٌ في سرايا وِلْكَم الصخرية؛ على قمة جبل مويا المهجور منذ آلاف السنوات؟

في الوقت الذي أصرّت فيه سيري أن تسافر إلى روما لتحتمي من الحرب التي تستهدف انكلترا، كان وِلْكَم وحيداً في قصره بخليج كارديف، يحتمي من كل تلك الأهوال، بينما تزدهر تجارته ومصانعه ويمكنه الآن أن يحسب أمواله بالمتر بدلاً عن العدد، فصناعته تدخل إلى مجال جديد كلياً؛ حقائب الإسعافات الأولية، المكمّلات الغذائية، الڤيتامينات، مسكّنات الألم، مخفّضات الحرارة، المضادّات الحيوية، وكل ما يحتاج إليه الجنديّ في ميدان المعركة. ومثله مثل العديد من رجال الأعمال الأمريكيين في تلك الفترة؛ كان وِلْكَم يزداد ثراءً كلما اشتدت الحرب وسقطت البلاد الواسعة.

تستمرّ الحرب ويرتفع عدد الموتى كل يوم، كأنّ القتلى يتكاثرون. لا أمل في أن تنتهي قريباً تلك الحرب اللعينة، لذلك قرّر وِلْكَم أنه لن يحدث سيري من جديد، كان قلبه ساحةً لمعركة أخرى أحداثها خفية، كان يسأل نفسه: "وهل روما مدينة خارج هذا العالم لتحتمي فيها من الحرب؟". والحرب قد بلغت حتى أقاصي الدنيا ودكّت حصونها وابتلعت جيوشها! لكنها رغماً عن ذلك تمكّنت من السفر... بل دعوني أقُل "الهروب". لكنها كانت تراسله بانتظام. وهذا ما جعله ثابتاً برغم الهواجس التي تتلاعب بعقله.

ثم انقطعت فجأة. لم تعد تراسله منذ خمسة أشهر، لم يستلم منها أيّ خطاب، بدأ يشعر بالكارثة تدريجياً، بأنه يطفو في الزيت المغلي، وأن هناك بعض الأمور تحدث في خيالاته. وفي ليلة توهّجت سماؤها بالنار والقذائف، ورقصت الجثث على لحون الطلقات والمدافع، وصلت إلى القصر الكبير سيارة سوداء يقودها رجل أسمر قوي الملامح، أبرَزَ من فيها تصريح مرور البوابة الحديدية وعبروا. أسرع السائق ليفتح الباب، نزل منها رجل مترهّل اليدين، يرتدي قبعة مكرمشة ومعطفاً أسود أصابه بعض البلل، له شارب كثيف وساعة جيب ذهبية ويحمل غليوناً غالي الثمن. ما إن وقع في مجال رؤية صاحب القصر حتى رحّب به قائلاً: "عزيزي يوري!". جثا يوريبا إلى يد وِلْكَم، ووضع قُبلته الدافئة على وجه الخاتم الوحيد الذي كان لا يفارق يد الرجل التي غزَتها كثيرٌ من البقع.

وضع بين يديه رسالة معنونة من روما، كان ذلك في نهاية آذار 1915م، وما إنْ قرأ وِلْكَم الرسالة حتى تأهّب واقفاً. في اليوم التالي كان مستعدّاً، ولم يتمكّن عشرات الرجال من ثنْيِه عن السفر والمغامرة بحراً أو براً في ظل تلك الظروف، لكنه كان عاقداً العزم على ما

سيفعل. أخيراً اجتازوا القنال بسفينة صيد، ومن هناك عبر البراري والسهول، يلتفّون عبر الجبال ويختبئون خلف الأديرة والموت يتربّص بهم من الجوانب كافةً، ومن ثم وصلوا أخيراً إلى روما.

لم يكن هناك وقتٌ كما قال وِلْكَم، "يجب أن نمضي إليها حالاً". نظر يوريبا إلى أحد رجاله في روما وأومأ إليه برأسه، سارا إلى طرف المدينة ثم دخلا إلى بناء كبير كان يقف في حراسته رجلان نائمان بكامل عتادهما. تلك الأيام كانت إيطاليا قد أعلنت انضمامها إلى الحرب مع دول الوفاق الثلاثي؛ بريطانيا وفرنسا وروسيا، تنفيذاً لاتفاقية لندن. كان ذلك مشفى خاصّاً باهظ التجهيز، أصبح ملجأ وقت الحرب؛ إذ إنَّ المتحاربين قد احتفظوا بأخلاق عسكرية قويمة تأمرهم بعدم قصف المستشفيات ودُور الأيتام والعجزة. سارت أمامهم ممرّضة ممتلئة الساقين، كان الوقت متأخراً والجميع يستعدون للنوم، في الوقت الذي لم يكمل فيه البعض وجبات عشائهم المكونة من الجبن والبيض والعصير. مرّوا في دهليز طويل مرصوف برخام أبيض ناصع يفوح برائحة المطهر، وكانت ظلالهم ترتعش أسفلهم ويدهسونها بأرجلهم أثناء مرورهم تحت مصابيح الإضاءة المُعلقة. أخيراً وصلوا إلى غرفة خاصة في جناح فاخر، وطرقت الممرضة الباب بهدوء. أجابها صوت السيدة "سارة لويس إملسي" من الداخل: "تفضل". أزاحت الباب براحتها ثم انسحبت، لم يكن بالغرفة سوى سيري ووالدتها المتصابية التي تخلّصت من عقدة زوجة رجل الدين المبشر وأصبحت تضع الألوان والمساحيق وتضع ساقها على الأخرى في مجون، وما إن رأت الرجل وشاربه أمامها حتى أطلقت صيحة ثور ذبيح، وارتعشت سيري من وراء وشاحها الملوّن. كان وِلْكَم يشعر أن هناك خطأً ما منذ البداية، يسيطر عليه ذلك الشعور. وخلال دقائق سادها صمت

الحرب والموت ورهبة ما بعد القصف، نظر إليها ثم بدر عنه تصرّفٌ غريب، خلع نظارته ولبسها من جديد ثم عايَنَ شيئاً ما إلى جوارها في السرير، اقتربَ وخلع نظارته مرة أخرى ودعك عينيه جيداً ثم نظر إلى ذلك الشيء. ومن جديد، كأنه غير مصدّق، دعك عينيه حتى تحوّل لونهما إلى الأحمر. واقترب من المولود، انحنى عليه لمدة تجاوزت خمس دقائق متواصلة، كأنه يرى عفريتاً صغيراً مدهشاً وُلِدَ بحواجب كثيفة وأسنان حمار، ثم أطلق صوتاً طويلاً يشبه عواء الذئب في الليالي الباردة: "أووووو ووو!" ضحك ضحكة باردة مهتزّة وصمَت بعدها طويلاً، قبل أن ينفجر بالضحك فجأةً كأنه صافرة إنذار تسخر ممن حوله. أخرجَ ساعة جيبه الذهبية، فتحها وأغلقها دون أن ينظر إليها. اكتسى وجهه بتعبير غريب كأنه يقول: "وهو كذلك!" وسط دهشة الأوجه الواجمة، ثم قال: "إذن هو وليم سومرست موم؟"، ثم كحّ كأنه قد تحدّث بينما يأكل، وواصل بصوت متحشرج:

- "كنتُ أظن أنَّ الأطفال لا يولدون قبيحين! لقد أخطأ الله في حقّ هذا الطفل، فهو أبشع من أبيه!".

ولأنّ الطفلة كانت نسخة كافية من والدها ذي الشكل المميز، بأنف صقرٍ ضخمٍ أحمر، وفم رقيق الشفتين، وحاجبين بارزين، وعينين ضيقتين، وفكّ بارز، وأذنين عملاقتين كأجراس كنيسة سانت بول، ورأس مستطيل كطوبة، ووجه كلما نظرتَ إليه شعرت بأنه قد أخذ نفَساً كبيراً استعداداً لإطلاق عطسةٍ قوية في أية لحظة. كانت موم آخر، كأنها توأمه وليست ابنته. حتى سيري، عندما نظرَت إليها أول مرة لم تتمالك نفسها من الضحك إلى حدّ البكاء، فهي بأية حال لم تكن تشبه الأطفال، عندها أحسّت بأن كل ما ضَحّت به من أجل هذا

المولود قد ضاع سدىً، بما في ذلك تحمُّلها زواجها من وِلْكَم. قالت في سرّها: "ترى ما العمل الآن؟ لقد أصبح الوحش وحشين!".

تسلّلت الأم وخرجت. لحق بها يوريبا. يعلم الجميع أن وِلْكَم لم يقترب من سيري طوال السنتين الماضيتين، أو يزيد. انهار باكياً.

42
صخور رسوبيّة

- "الحبُّ يا سيري ليس ضعفاً، إننا لا نكونُ أقوياء إلا عندما نُحبّ، الحبّ هو القُدرة على العطاء العظيم. لا يمكن للحبّ أن يكون نقطة ضعف أبداً، لا يمكن أن يكون مؤنّباً للضمير أو سبباً للحرج أو الضّيق. الحبّ كالطبيب لولاه لن يستمر العالم، ولولا الحبّ لما كانت الحياة محتملة، فهو القوة الإلهية التي منحَنا الخالق إياها لنفعل بها ما نشاء، لا يمكن لرجل جائع مواجهة الشتاء دون حبيب، ولا يكون المطر رائعاً ولا تكون الموسيقى مُبهجة دون قلبٍ ينبض بحبّ شخصٍ آخر. الحبّ هو روح هذا الكون الفسيح ونَواته، هو محرّك كل الأشياء ومركزها. إنَّ وصالنا الوحيد مع موتانا هو الحبّ؛ بفضله نتذكرهم فلا ينال منهم النسيان. الحبّ لا يترك صاحبه ضعيفاً يا سيري. يا حبيبتي! ما زال أمامك الكثير لتتعلّميه، وأنا أسامحك لأني أُحبّك، فما مضى لا علاقة لي به. هل تعدينني الآن بإخلاصك وحبك الأبدي؟ أم أنَّ هناك شيئاً جديداً لم تخبريني به؟ ألا تعتقدين أنني سأكون رجلاً رحيماً إن قبلتُ أن تعيش هذه المخلوقة الصغيرة المتوحشة معك؟ نعم، سأكون كريماً جداً! واحمدي ربّك لأنني لن أطعمها لقططي ولن أقتلها ولن أرمي بها خارج هذا البيت ولن أُوْدِعها دار أيتام كتلك التي يبنيها والدك، حيث يغتصبونها ما إن تكمل العاشرة!".

صبّت جنونها في وجهه:

- "توقّف يا هنري! كيف تجرؤ؟ أنا لا أسمح لك، أنت تعلم أن أبي ليس مِمَّن ذكرتَهم. الأمر الأهمّ هو أن هذه الطفلة هي

ابنتي، أتدرك ذلك؟ أتعرف ماذا يعني أنني أمّها؟ ذلك يعني أنها أهمّ عندي منك، نعم! ولتذهب أنت وعقلك المريض إلى القبور المظلمة حتى ينام غرورك معك إلى الأبد! هذه ابنتي أيها الغول الأمريكي! سأقتلك إن اقتربتَ منها، أتفهم؟".

- "سأسألك أمراً يا سيري، هل صحيح أنكِ ألحقتِها باسْمي؟".
- "وماذا يهمّك؟ هل تخشى أنها سترثك؟ لا تخف! ستكون أفضل منك، أتعلم لماذا؟ ها؟ أتعلم؟ لأنك لستَ أباها! تلك هي الحقيقة! اتركها إن شئت وخذها إن أعجبتك".
- "حسناً يا عزيزتي! أياً كان هذا المخلوق، فمن الأفضل أن لا يَحمل اسمي. أحذّرك! فأنا لن أتحمل نغلاً متوحشاً كهذه البشعة التي ستأكل ثدييك قريباً عندما تجوع للدم، ولنُنهِ النقاش عند هذا الحد، فأنا أحبّك، أحبّك جداً. ونعم أنت زوجتي، لكن يجب أن يخرج هذا الشيء من حياتنا... وإلى الأبد!".

اقترب منها وأبعَد نظّارته الذهبية. لثَم خدّها بتؤدة وهي تتظاهر بالسعادة، لكن لم يتورد خدَّاها كعادتها مع صديقها الذي هرب بذريعة أنه يعمل الآن مع الصليب الأحمر. هرب موم من جديد كما كان يفعل دائماً. فهو ليس كهنري المهووس بالرحلات والاكتشافات الأثرية والعلمية، وإن كان شخصاً غامضاً في أحد الجوانب، كأنه من أولئك الذين تكتشف بعد سنوات أن الواحد منهم كان جاسوساً؛ مثلاً، أو قاتلاً متسلسلاً. تشعر على نحو محايد بأنه يطوي شراً فريداً في داخله برغم المحبة الظاهرة على وجهه.

كزنبقة برّية فريدة من نوعها، أَحَبّها جميع من عرفوها، كانت رقيقة كنسمة هواء لم تَهُبّ، وناعمة كصوت قيثارة عالق في خيال عاشق، مليئة بالحيوية والذكاء كفتاة وهبت نفسها للكنيسة تواً، لها عينان

واسعتان كشمسين تستعدان للشروق في آن واحد، ولا تزال ضحكتها التي جذبت قلب وِلْكَم في الخرطوم، وجمالها الشرس، ثابتين أمام ما يفعله الزمن، فاليوم هي تكمل ستة وثلاثين عاماً وتزداد جمالاً على جمالها، بينما يكمل وِلْكَم عامه الثاني والستّون. اليوم يثور البركان في أعماق قلبه برغم محاولاته المخادعة لاحتوائه، وقد كانت سيري تعلم كل العلم أن ما سيفعله لن يكون سلوكاً طبيعاً بل سيُضمِر وراءه كلّ الشر الممكن، وأنه حتماً سينتقم منها بأبشع الطرق. إنْ صدّقَته وعادت معه ربما لن يبقى هناك أيٌّ منهما على قيد الحياة ليوم جديد. كانت تطاوع تصرّفاته أملاً في أن تهتدي إلى فكرة تُخلِّصها من هذا الرجل الذي أصبحت لا تحبّه ولا تثق به، كما لم تحبّه منذ البداية. وقد بدا لها مجنوناً تماماً، أو أن الصدمة قد فعلت به أسوأ الأمور؛ وسط حيرة كل من هناك كان يعاملها بشكل جيد، ويتحدث معها بهدوء، كما حرّر لها شيكاً بمبلغ كبير لتبدأ به مشروعاً، على أن تعود معه إلى لندن. لكنها كانت خائفة؛ لأنه لا يتصرّف وفقاً لما هو متوقع في مثل هذا الموقف، على الأقل من المفروض عليه أن يغضب ويثور ويطعن في شرفها ويتهمها بالخيانة ويطالب بالطلاق ويسعى إلى نبذها الكنسي وما إلى ذلك... لكنه لم يفعل شيئاً من هذا.

بالطبع لم يكن يعلم أنها كانت تلتقي بسومرست موم منذ عودتها من الخرطوم. التقيا عدة مرات، دخلت إلى شقته الجديدة، ارتمت في حضنه في الوقت الذي كانت تخبر فيه وِلْكَم بأنها في إحدى الكاتدرائيات، كانا يلتقيان في صباحات الأحد، تطوّقها ذراعه الدافئة المليئة بالشعر، وتنام على صدره العريض الذي ينبض بالحب والشهوة، وتغفو في عينيه اللّتين تَريان المخاوف والآمال والضجر في خبايا روحها. كانت تصدّق كل ما يقول، وتتلذّذ بتعذيبه لها وطريقة

معاملته. نامت إلى جواره كقوس وجد سهمه المناسب بعد جهد، ارتشفت معه أحلى كؤوس العشق، بلغا نشوتهما وتناولا الكوكايين ودخنا العديد من اللفّات العريضة. فعلا معاً الكثير من الأمور التي لم يكن وِلْكَم يعلم أنها مهمة أو ممتعة. ثم تعرفت إلى كثيرٍ من الفنون الجنسية المثيرة، الوضعيات المختلفة والصفع الذي طالما رغبت به كرغبتها في حمام دافئ كل صباح. تلك الأيام، كان وِلْكَم قد هجرها كلياً، منذ نحو ثمانية عشر شهراً لم يقترب منها وقد تأكّد من أنهما قد وصلا إلى النهاية، لكن ماونتن كان هناك! وذلك يجعله يضحّي من أجله، كأنه يشتري إخلاصها بالمال والهدايا الثمينة. لم يكن يعلم أن رحلتها إلى روما كانت هرباً من ثورته وخيبتها مما تورّطت به، فقد ظنّت أن وِلْكَم سيقتلها. كانت متأكدة من ذلك، هي مسألة وقت لا أكثر.

طوال تلك الليلة لم تتمكّن سيري من النوم، مرَّ أمام عينيها لهوُها في الحياة، وسومرست موم، الرجل الذي طالما خيَّب آمالها وطالما أحبّته، منذ اليوم الأول الذي راقصته وإلى أن ودّعها هارباً للمشاركة في الحرب متطوّعاً، وكيف أنه استمع إليها طوال ساعاتٍ وساعات في ليلة لقائهما الأخيرة معاً، لم يقاطعها أو يتذمّر أو يظهر عليه الضيق. كم أحبّته تلك اللحظة، وهي تحكي له عن بعض تفاصيل حياتها مع وِلْكَم، رحلتها إلى بنما وما حدث هناك، رحلتها إلى الخرطوم وما يحدث هناك، كيف يفعلها الرجل الغريب في الفراش، والكثير الكثير من خصوصياتها. ثم أخبرته عن ذلك اليوم؛ عندما حاولت الانتحار بعد عودتها بالقطار من إيستبورن، كيف ذهبت إلى محطة مترو أنفاق ڤيكتوريا، وكيف أنها كانت تنوي أن ترمي نفسها أسفل عجلات القطار. صرّحت له عن خيبتها في ما رأته تلك الليلة التي لم تصدّق

فيها عينيها ولم تتحدّث بشأنها إلى أي بشر، تلك الليلة التي استطاعت بعدها أن تبدأ ما ظنّته حياة جديدة، تلك الليلة في بيت آرثر ببيتشي هيد. شعرت بعرَقها يتصبّب وبأنفاسها ترتفع ونبضاتها تضطرب، وفي مخيلتها صوت قدميها الناعمتين تصعدان السلّم، وحركات يديها وهما تتلمّسان طريقهما إلى الغرفة في الظلام، وكيف تجاوزت الغرفة إلى المكان الذي عرَّفتها إليه إيميلي، الفجوة السرية التي ترى عبرها ما يحدث في الغرفة. شعرت بأن معدتها تنقلب وحلقها يختنق، وكلما حاولت تفادي ذلك المشهد لم تستطع؛ فقد كان المشهد كالصخور الرّسوبيّة يستغرق وقتاً طويلاً ليكتمل، يترسّب خلال سنوات عديدة إلى أن يغدو صلداً قوياً، كحبِّها له. صرخت في ذلك الليل، لكن خوفها أنْ تفقده كان يكمّمها ويبعثر حركتها، ودون إرادة بدأت تستعيد ما رأته هناك: "الإضاءة الباهرة، والشموع التي تراقصت بلونها الأصفر، صوت كأسَي المارتيني الفاخرين، ويدان يلتفّان ليسقي كلٌّ منهما الطرف الآخر عبر عقدة أيدي المُحبّين، صوت القُبل اللاهبة الطويلة التي لا ترتوي ظمأً إلى الحبّ، الأجساد العارية التي تنضح بالشهوة كما تنضح أوراق الشجر بالندى، الآهات المحمومة الشبقة التي تتوارى خلف الخوف والرهبة، موم بجسده الذي لا تخطئه بكافة تفاصيلة الخاصة التي تعرفها جيداً، بذات القوة التي كان يضاجعها بها كان يفعلها مع آرثر؛ الفتى الوسيم. كانا يتبادلا الجنس كما لم تعرفه من قبل". وما إن أخرجت كل شيء حتى خرجت تجري، وهي تعلم أنها لن ترى موم من جديد بعدما واجهته بما أراد له أن يظلّ خافياً. لكنها لم تكن تعلم أنها قد حملت بذوره في رحمها الصغير.

في تلك الليلة، وبينما الحرب تُظهر وجهها الأقبح؛ بإغراق السفن عشوائياً وزَرْع الألغام البحرية وقَصْف المدنيين والمستشفيات،

وكابوس غاز الكلور يزور الأطفال والمسنّين، هربت سيري من كل شيء، بما في ذلك ذكرياتها. خرجت في جنح ذلك الليل ترافقها أمّها ورجل إيطالي وسيم وشيك هنري وِلْكَم القابل للصرف، ثم اختفوا في الظلام. عندما أفاق هنري على صوت صافرة إنذار صباح اليوم التالي وجد ماونتن يصرخ... وعرف كل شيء.

43

حرب اليهود

انتشرت مُلصقات الإعلان عن الأدوية في عموم أنحاء أوروبا، تصوّر بعضها طائرات ألمانية أسقطتها مناطيد عملاقة تحمل شعار وِلْكَم وعبارات دعائية من شاكلة "مع وِلْكَم ادحر العدو بالإسبرين" أو "الأعداء يخسرون لأنهم لا يملكون حبوب وِلْكَم"، ويصوّر ملصقٌ آخر دبابةً عملاقة تقصف بقوة وعبارة "قوة الأعداء يتم تدميرها عبر منتجات وِلْكَم" ويظهر رجل ذو شارب كبير يرتدي قبعة كالخوذة وعلى كتفه غراب وهو يفرد ذراعيه للدخان. وإعلانات كاريكاتورية أخرى تظهر فيها خارطة لمواقع العدو وعتاده، ومن الجانب الآخر قاذفات عملاقة معبّأة وجوارها العديد من الطلقات تحمل كل واحدة اسم أحد منتجات وِلْكَم وعبارة "سلاح المدى الطويل". وعلى لوحات ميدانية أخرى يظهر رسم لكائن أخطبوطي يحمل شعار ألمانيا، وهو صريع ومُقطع الأذرع وإلى جواره فارس قويّ يحمل سيفاً مليئاً بالدماء ويرتدي قبعة على هيئة رأس كلب بريش محارب روماني ويحتمي بدرع عليه شعار وِلْكَم؛ الحصان ذو القرن، وعبارة "الأخطبوط الكيميائي الألماني تم مسحه من على وجه الأرض". كذلك ظهرت إعلانات مبوبة تحوي صوراً لطائرات شراعية تقصف أهدافاً ألمانية وعبارات تبين الضرر. وأمام مقرّ الشركة بشارع يوستن نُصبت لوحة عملاقة تحمل إعلاناً يقول: "استعد للحرب مع منتجاتنا". وكانت الشركة قد أصدرت عدداً من أنواع العقاقير والأقراص للجنود، بينها مضادّات النوم والمقويات ومكمّلات غذائية بالغة الفعالية ومسكّنات شديدة القوة وغيرها.

انخرط وِلْكَم في حربه أشهراً طويلة وأنشأ معامل طبّية وبكتريولوجية مزوّدة بعشرات العيّنات المُزرّعة من حالات مَرضيّة غريبة، وبدأ تعاوناً سرّياً مع بعض جنرالات الحرب حول إنتاج أسلحة بيولوجية ولقاحات غاز الخردل، ومن جديد دخل في تجربة مشابهة لما كان يفعله قبل حوالَي أربعين عاماً؛ عندما كان ينقل ڤايروس الجدري إلى الهنود الحمر عبر ملابس الأطفال والبطانيات. دخل مختبره وطلب من د.بلفور التفرّغ لإجراء الأبحاث في أحد المعامل، كما توصل مع د.هنري ديل أن يضعا خلافاتهما جانباً في هذه اللحظة وأخبره في رسالة عاجلة بقوله: "أنا أتفق معك في ما قلته عن الرجل الأمريكي في آخر نقاش لنا، وأعتذر إذا دافعت عنه، الآن كلنا جنود التاج الملكي ومواطنو إنكلترا العظيمة"، كما عيَّن مجلسَ إدارةٍ للإشراف على سير العمل، ثم استوعب أكثر من ألفي فتاة للعمل في التغليف والتعبئة، ونَقَل مخزون تُحفه ومقتنياته الثمينة في أكثر من مائة عربة تحرسها حوالي مائتا عربة إلى قصر خليج كارديڤ، بإشراف يوريبا. وقد كان مركز أبحاثه يتوصّل إلى العديد من النتائج حول الأسلحة البيولوجية مثل "أنثراكس البارود" وهو مقذوفات الجمرة الخبيثة وغاز الموت السريع الذي يعمل على تثبيط عمل الخلايا الجذعية تماماً وتدميرها، والذي صادف أنه يؤدّي دَوراً فعالاً مع مرضى السرطان، وكان هناك عدد من الأمكنة الأخرى تعمل كمختبرات سريرية على متطوّعين من السجون للتجارب. كانت حرباً عنيفة يقف على رأس مركز قيادتها هنري وِلْكَم، الرجل الذي دخل مرحلة متقدمة من حياته نوى فيها أن يعلن الحرب في كل الجبهات.

في العاشر من حزيران 1916م أتى الخبر الذي أحزنه كثيراً: "مقتل الجنرال هوراشيو هربرت كتشنر في انفجار لغم ألماني أودى بالسفينة التي كانت تقلّه إلى روسيا". وقد كان وِلْكَم يعلم بأمر تلك

الرحلة التي كان الغرض منها إعادة هيكلة الجيش الإمبراطوري الروسي، لكن الحقيقة السرية كانت حُمّى الاشتراكية التي تترصّد البلاد الروسية بقيادة فلاديمير لينين وجوزيف ستالين والحزب البلشفي المتأثّر بأفكار كارل ماركس. كان اللورد كتشنر في طريقه لحماية روسيا القيصرية من خطر جنرال القوازق جورجينوفيتش كورنيلوف؛ القائد العام للجيش الإمبراطوري، الذي تمدد كثيراً وأصبح يشكل خطراً على الملك نيقولا الثاني الذي كان يحشد المزيد من القوات للمشاركة في الحرب. كان اللورد كتشنر يشعر بأن ألمانيا تخطط لاجتياح روسيا من الداخل عبر المؤامرات التي تحيكها النساء بأدوات خياطة عادية كأنها كنزة لطفل. شكَّ وِلْكَم في موت كتشنر، وشعر بأن اصطياد السفينة لم يكن عشوائياً عبر لغم طافٍ في انتظار من يصطدم به، راودته صورة للرجل الذي يشبه والده كثيراً؛ "راسبوتين". من المحتمل أن يكون هو وراء كل ذلك.

في بدايتها كانت الجبهة الثانية للحرب محاولات للتواصل مع سيري التي رفضت طلب وِلْكَم بأن تُنْسَب الطفلة إلى والدها الحقيقي؛ سومرست موم. وقد خشي وِلْكَم من الفضيحة، لذا أراد أن يسوَّى الأمر بطريقة متحضّرة وسرية لكنه لم ينجح، ووجد نفسه فجأة أمام المحاكم والقضاة، وهو الأمر الذي لا يريده إطلاقاً. وما أن اشتمّت الصحافة الخبر حتى وجدت فيه فضيحة الموسم، وأصبحت سيرة وِلْكَم على كل لسان بما في ذلك سكان الحي الصيني ومهاجري الموانئ ويهود الأحياء الفقيرة وعمال البستنة. وبعد عدة شهور لجأ أخيراً إلى الكنيسة، وباح بكل شيء، وطالب بحضور سيري لتنفي ذلك أو لتعترف، لكنها لن تأتي. لاحقاً في 21 من تموز العام 1916م سيتم إلحاق "ماري إليزابيث" أو "ليزا" إلى والدها الحقيقي، وستنفصل عنه وسيدفع لها مبلغاً من المال لينتهي كل ما كان بينهما.

في نهاية ذلك العام أبحر بكلّ سرّية نحو الشرق، إلى كولومبيا البريطانية، ثم إلى ألاسكا، وعرج إلى نيويورك حيث بدأ يستعد لبناء مصنع كبير هناك، ثم أجرى بعض الاتفاقيات التجارية الكبيرة، وحصل على بعض المقتنيات واللوحات، وعاد أدراجه في شباط 1917م وهو العام الذي حصل فيه أخيراً على طلاقه النهائي من سيري.

بعد معركة جاتلاند، والجثث المتفحّمة التي أدمت قلوب الرجال الآمنين في مدنهم البعيدة، ضرب البريطانيّون حصاراً على ألمانيا، وهو الحصار الذي شجع الرئيس الأمريكي ويلسون إلى الدخول في الحرب ضد ألمانيا بعد أن اكتشف تحالفاً خفياً بينها والمكسيك. ثم دخلت الحرب مرحلة ما تحت الماء، الغواصات الألمانية التي أرعبت العالم، وتفنّن الأسطول البريطاني في ردعها وكسر شوكتها. بعد نقص في الغذاء استقرّت الأوضاع في لندن. أثناء معركة نيفل تتكئ فرنسا على تمرّد جنودها السكارى عارين من الأسلحة والحس الوطني. النمسا تترصد. الحلفاء يجتمعون على رأس الساعة. وسيري تقضي أياماً مع عشيق جديد؛ علاقة ملتهبة، تخفيها أخبار الحرب، مع العميد بيرسي ديزموند فيتزجيرالد الذي كان ضابطاً في الجيش الملكي ويقود الفرقة الخامسة التي تخدم في سيناء وفلسطين. كان يروق لها كثيراً، فهو رجل قويّ يمارس الرياضة وأحد أبطال رياضة البولو والكريكيت، كانت أول مرة تلتقي فيها رجلاً إنكليزياً مولوداً في أستراليا، وأعجبها الأمر. أسعدها كثيراً بحكاياته العجيبة ومغامراته مع الملك إدوارد السابع، ثم هجرته وهربت إلى الولايات المتحدة الأمريكية. في الوقت الذي كان ماونتن يعاني من قسوة والده وقسوة مربّيته وعيوبه الخلقية.

يستمرّ الصراع. بينما تحارب ألمانيا وتحقّق انتصاراً بحرياً قوياً على الجيش الإيطالي، أعادت معركة كابوريتو إلى الحلفاء بعض الأمل

بتحوّل دفة الحرب إلى مصلحتهم وهم يتفوّقون باستخدامهم الأسلحة الكيميائية. وفيما كانت غزة والقدس تحارب بأرضها، ومصر بجنودها، والعثمانيون يحاولون البقاء على قيد الحياة، ظهرت مؤتمرات السلام والبرقيات العاجلة وجيش مشاة الولايات المتحدة الأمريكية، والذي أُشيع أن جنوده من فرط قوتهم يسحقون الدبابات براحات أياديهم وينصهر الحديد تحت رحمة بصاقهم، ثم تنتقل مواقع القتال، ويجتاح القلاع التي يحتمي فيها النبلاء والأثرياء، ويدخل المانش من جديد إلى ساحة المعارك المحتملة.

يدخل اليهود إلى الأخبار ويُوصَفون بالقتلة المحترفين، وأنهم يملكون غدر الذئب وذكاء الشيطان، وتعتبرهم النمسا خونة لأنهم كانوا يقفون ضد ألمانيا وآلاتها المُدمّرة. أصبحت نوتنغهام تصدّر المقذوفات؛ ويصدّر وِلْكَم الدواء والمُركّبات التي تحرق البشر في ثوانٍ وكانت تُرَشّ مع اتجاه الريح من مضخات عملاقة، ودخلت القاطرات البخارية عصرها الذهبي وهي تجري دون توقّف. تلتفت الإدارة البريطانية إلى أهمية الدَّور الذي يلعبه اليهود على مختلف الأصعدة، وتلتقي المصالح الإستراتيجية في منطقة الشرق الأوسط التي كادت أن تخرج عن السيطرة عدة مرات لبُعدها وصعوبة الوصول إليها في ظل سيطرة ألمانيا المُقدرة على البحار، وتأتي المصالح لتضيف أهمية التعاون مع اليهود الذي كانوا لا يُخفون عداءهم لألمانيا. تبدأ حركة الصهيونية العالمية اتصالاتها، بوساطة حاييم فايتسمان، بالشخصيات البريطانية ذات المكانة الكبيرة والنفوذ، وبمساعدة هنري وِلْكَم وجيم سكوت؛ رئيس تحرير صحيفة مانشستر غارديان، وهربرت صامويل؛ السياسي البريطاني اليهودي المعادي للصهيونية، والذي سيكون لاحقاً أول مبعوث سامٍ لبريطانيا في فلسطين، وكان مهتماً باليهود اليديشية الذين

انتشروا في بريطانيا مؤخراً، وتوصلوا إلى رئيس الوزراء لويد جورج الذي أيّد مقترحات الحركة باستيطان اليهود في تركيا بعد أن تُهزم في الحرب ويتم الإعلان عنها كوطن لليهود. لم يكن وِلْكَم يثق في لويد جورج، وقد ضمّه إلى قائمة المشتبه بهم في مقتل اللورد كتشنر، خصوصاً أنه خلَفه وزيراً للحرب قبل أن يعثروا على جثمان القتيل. كان سعيداً بذلك، فقد كان يعتقد أنه قد انتصر على الرجل الذي لم يكن يُهزم قط، وأثبت أن حزب الأحرار الذي دعَمَه وِلْكَم بأمواله وسانده لسنوات وسنوات ليس حراً أمام سطوة اليهود.. كانت قائمة المشتبه بهم في موت كتشنر طويلة يأتي في مقدمتها وينستون تشرشل؛ الصَّديق المقرّب لعدوّه سومرست موم.

في تلك الفترة أدرك اليهود أهمية دَورهم في الحرب الذي يلعبونه سراً وعلانية. ومن وقائع اجتماع مُصغّر بقصر خليج كارديف خرجت قرارات مصيرية؛ أهمّها ضمان استغلال الحرب للحصول على وطن وأرض وسيادة وحكم مستقلّ، ولسوف يقفون من أجل ذلك مع الشيطان الكبير نفسه إن وعدَهم بتحقيق ذلك الحلم. كانت بريطانيا في حاجة ماسة إلى أموالهم وأفكارهم وأيديهم التي توغّلت في مختلف البلدان واقتربت من الرؤساء والبرلمانيين في الدول الأقوى بالمنطقة، رغم أن المؤتمر الصيهيوني الذي عُقد قبل أربعة أعوام توصل إلى أن تَلزم الحركات اليهودية وأطيافها موقف الحياد أمام المشاكل والحروب التي تخدم صفّهم وقضيتهم الكبرى، وهي العثور على وطن. وأخيراً وجدوا الحليف الأمثل الذي سيحقق مكاسبهم وأطماعهم ويستحق أن يقفوا معه حتى الموت، المملكة العظمى.

شهدت تلك الفترة يقظة عربية كبرى في بلاد الشام ضدّ الحكم العثماني، وأدرك اليهود أهمية دَورهم في إضعاف الهيمنة العثمانية على

المنطقة، فتدخلت بريطانيا تقطع الوعود وترسل الهدايا وتوعز إلى الزعماء العرب بأهمية دَورهم في المرحلة القادمة، وتثمّن مواقفهم البطولية المشهودة. كانت بريطانيا تؤكد أن فلسطين هي امتداد طبيعي وتاريخي لمصر وأهلها الذين كانوا خاضعين كلياً للنفوذ البريطاني وأنهم أحقّ بها من التُرك، وقد صدَّق المصريون أنهم حماة "أورشليم" المقدسون، أحفاد الناصر صلاح الدين. ولإزاحة الترك عنها سَعَوا عبر مثقفيهم إلى زرع أفكار تمهّد لوجود اليهود في فلسطين مستقبلاً، وساعدوا الجماهير على قبول فكرة أن مصر ستحظى في يوم ما بحكم فلسطين، وأنّ طرد اليهود منها أسهل من قتال السلطان محمدً الخامس. ثم رضَخ وايزمان لمطالب رئيس الوزراء بإنتاج مادة الأستون التي كانت تُستخدَم كمذيب للبارود، وهو الأمر الذي كانت بريطانيا تحتاج إليه بشدة لمواصلة الحرب بنفس القوة. ولمكانته في لجان التموين وأذرعه الخفية في كل مكان وفَّر وايزمان المادة بكميات كبيرة، أُعِدّ بعضها في معامل وِلْكَم الجديدة، وقد وجد موقفه ذلك تقديراً كبيراً لدى قادة الحرب والدولة في بريطانيا، ثم بدأت المطالب بأن تكون فلسطين وطناً لليهود، وطناً مقدساً.

في الثاني من تشرين الثاني 1917م أرسل وزير خارجية بريطانيا السير آرثر جيمس بلفور خطاباً إلى صديقه المصرفي اللورد ليونيل روتشيلد؛ رئيس المُنظمة الصهيونية:

عزيزي اللورد روتشيلد

(يسرّني جدًّا أن أُبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك التصريح التالي الذي ينطوي على العطف على أماني اليهود الصهيونية وقد عُرِضَ على الوزارة وأقرّته:

إنَّ حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه

الغاية، على أن يُفهم جليّاً أنه لن يُؤتى بعمل من شأنه الإخلال بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين، ولا بالحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلاد الأخرى).

"وسأكون شاكراً لو تكرّمتم بإحاطة الاتحاد الصهيوني علماً بهذا التصريح".

المخلص

آرثر جيمس بلفور

بعد ذلك انتشرت الأخبار على صفحات الجرائد بالتواطؤ البريطاني مع اليهود، وبدأت ألمانيا والدولة العثمانية بتوجيه الاتهامات، وفي مصر نشرت صحيفة (المقطّم) الخبر عدة مرات، وأقام اليهود المصريون احتفالات دامت أياماً في بعض المُدن، ثم ساد الذعر أرض فلسطين وهي ترى أن سكين ذبحها قد سُنَّت جيداً.

لم يحفل أحدٌ بحملات الاستنكار العربية. وقد كانت روسيا تعاني من المجاعة والفاقة، والدولة العثمانية ترفس أملاً في أن تحيا يوماً آخر، وخرج مسلمو ومسيحيّو يافا في عيد الاستعمار البريطاني إلى المدينة يحملون اللافتات المناوئة، ثم أرسلت جماعة "الإخوان" المسلمة المسيحية بمذكرة التماس قوية إلى الحاكم العسكري تحتجّ فيها على إقامة دولة اليهود. لكن بريطانيا لم تكن تهتمّ كثيراً؛ فقد كانت سعيدة بتحالفها مع هذه الطائفة القوية التي ساعدتها كثيراً في كسب الحرب ضد أباطرة العالم. ولم يكن الثمن غالياً، فبأي حال لم تكن فلسطين جزءاً من المملكة المتحدة! لذا كانت ثمناً بخساً ووضيعاً مقابل ما قدّمه اليهود لمصلحة الدولة الأقوى في العالم، بريطانيا العظمى.

كان هنري وِلْكَم يعلم بالاتفاقية السرية بين بريطانيا وفرنسا لاقتسام الهلال الخصيب؛ لأهمّيته الجغرافية والتاريخية، ولكونه أرض أقدم الحضارات من العصر الحجري والبرونزي، ويغطّي منطقة غنية بالثروات الطبيعية والأرض الخصبة والماء العذب، ولا عجب أن الآشوريّين والبابليّين والسومريّين والأكاديّين وغيرهم لم يرضوا بغير هذه المنطقة وطناً. وكان يعلم أن اتفاقية سايكس-بيكو ستؤثّر في مجريات الأمور، وقد كان يعمل في تلك الفترة على شراء القطع الأثرية والمخطوطات التي تنتسب إلى تلك الحضارات، وكان يأمل في زيارتها قريباً لإجراء الحفريات، لكن العرب ثاروا فجأة وانطلقت الاجتماعات والمباحثات في القاهرة، وأخيراً قرّرت بريطانيا أن تستجيب للمطالبين بتحديد السياسة الاستعمارية في المنطقة؛ بمنحهم وعداً جاداً بأن تُقَسّم عليهم أراضيهم، وأن "أرض العرب للعرب" بسيادتها وبكامل استقلالها، وأنها ستساعدهم في إقامة دول مستقلّة أسوةً بدولة اليهود في فلسطين، كما أوضحت لهم أنها تسعى إلى تخليصهم من جبروت الدولة العثمانية. وقد أسعد تصريح الخارجية البريطانية العرب في شتى الربوع، وابتهجوا ببلدانهم المستقبلية في منطقة الرافدين وبلاد الشام، وبالتالي سُوّيت الأمور وتغاضى العرب مؤقتاً عن وجود جارتهم الجديدة؛ دولة اليهود، "لطالما كان اليهود والعرب جيراناً، مُنذ عهد الرسول"، قالوا، "ما الضرر في ذلك؟!".

أخيراً راحت حرب التوسّع الاستعماري بين الدول الكبرى تهدأ، لكن نهر أميان بفرنسا لم يكن ليفعل ذلك مع وجود ذلك الاحتقان والاستعداد الذي دخل فيه الجنود الدومينيون[21] هذه المرة، وهم الذين

21- هم جنود الدول التي كانت تخضع لسيادة التاج البريطاني قبل أن تستقل وتحكم نفسها ذاتياً لكنها في نفس الوقت ترتبط بالتاج البريطاني، مثل نيوزيلاندا، سريلانكا، كندا، استراليا وغيرها.

حاربوا في معركة المائة يوم بشراسة نادرة بعد أن حطّمَت الحرب أرواحَ مقاتليها الدائمين كما يحطّم الرعد ثبات المؤمن الجبان، وقد كانت تلك أهم معارك الجبهة الغربية التي تلقّت فيها دولُ المحور شرَّ هزيمة من الحلفاء. ثم بدأت سلسلة انتصارات الحلفاء التي أجبرت ألمانيا على تقديم طلب للهدنة، الهدنة التي ستأخذ وِلْكَم بعيداً بعد أن يعرف خبر زواج سيري في نيو جيرسي من الروائي ويليام سومرست موم، والذي يُفترض أن يكون في أحد معسكرات الصليب الأحمر التي تؤدّي عملها في جبهات الحرب، وراء خطوط النار اللاهبة.

ثارت الجماهير الألمانية على إثر خسارتها في الحرب، وأدى ذلك إلى تحوّلها من إمبراطورية إلى جمهورية، ومن ثم أسقطوا القيصر. حينها ظهر رجلٌ قويّ ومحارب شرس، ألقى باللوم على الجماهير واتهمهم بأنهم السبب الأكبر وراء الهزيمة، ثم وجّه أنيابه نحو اليهود متّهِماً إياهم بالخيانة وبالتسبّب في ضياع الأهداف السامية للبلاد، وأنهم كالبراغيث التي حملت المرض الخبيث الذي نخر جسد الاقتصاد الألماني وأكله كالخشب الذي تلتهمه الأرضة ببطء. كان الجيفريتر[22] أدولف هتلر قد تعافى أخيراً من العمى وخرج من المشفى بعد إصابته في الحرب بغاز الخردل الذي كاد أن يودي بحياته، فأخذ يرسم الرسوم الكاريكاتورية الهازئة باليهود وحال بلاده. ثم خرجت إلى العالم دولة ألمانية جديدة (جمهورية فايمر 1919 -1933م).

عندما فتحت باريس أذرعها لمؤتمر السلام في 1919م، وبينما كانت قاعة المرايا تعجّ بالكبار من جميع أنحاء العالم، كان هنري وِلْكَم يقف على قمة الجبل، جبل مويا، بكلّ الغضب من هذه الحياة، يشعر بأن عليه أن يتغلب على خيبته وأن ينتصر لنفسه، وأن يمزّق صورة

22- رتبة عسكرية ألمانية تعادل رقيب.

سيري داخله إلى الأبد. لم يكن سعيداً بانتصار بريطانيا، وطنه بالتجنّس، ولم يكن صاخباً كالأميركان الذين أوضحوا للعالم أنهم الطرف الأقوى والأذكى، لم تكن الملايين التي جناها خلال الحرب تجعله لينام مطمئناً ليلة واحدة، كان كوحش الغرب الأمريكي، الكائن الذي يخافه الجميع ولا يقتربون منه، خصوصاً في الليالي المقمرة حيث يظهر نصفه الشيطاني ونصفه الميت، بكل وضوح.

44
صخور ناريّة

لم يكن الجبل قد تغيّر كثيراً، ولا أهله. حتى التغيّرات الإدارية لم تؤثر به، وفي غضون عدة أشهر توافدت البعثة القديمة ذاتها؛ الميجور ميلدون ومستر دين ود.بلفور الذي أحضر معه عدداً كبيراً من المعدات التي طلبها وِلْكَم، مثل عربات المعامل المتنقلة، وبعض الأثاث، وبعض صناديق الأغراض السرية. كان ذلك في شتاء 1920م، حيث لم تكن القرية قد تأثرت كثيراً بما جرى في العالم من حروب، فهي أرض تنطوي على نفسها وتنعزل عن محيطها كبيات أبدي لرجل ميت.

بدأ العمل في إكمال ما كان ناقصاً لمبنى السرايا، وقد أصبح جاهزاً للاستخدام، بهو كبير رحيب به مكتب ومقاعد منحوتة على الصخر تعكس ضوء الشمس الذي يعبر الزجاج الشفاف وترتسم القضبان الحديدية القوية على ذاكرة الرؤية أمامها، بوابة تُمثل شرفة على القرية أمامها مقعد صخري يتسع لثلاثة رجال وطاولة صخرية، وكان قبو السرايا أهم الأمكنة؛ حيث ارتاح المعمل البيكتريولوجي والأدوات الطبية بعيداً عن الضوء، في الطابق الأعلى كان هناك مِنظار ومحدِّد لسرعة الريح معلق على رأس عمود التليفون.

شرع مشرف البعثة في تدمير الأكواخ القديمة التي أصبحت مأوىً للحيوانات الليلية بعد أن هجروها، ثم تم توظيف الرجال من جديد؛ فهم لم يعودوا إلى حقولهم وأرضهم بأي حال، بل ذهبوا وراء بعثة شيرلوك روي التي كانت تعمل بمحجر جبل سقدي، ثم ذهبوا إلى مدينة سنار للعمل في بناء الخزان العظيم. وبسرعة تم تسجيل كل من

يَوَدّ العمل، وخلال أسبوعين تم حصر حوالي 1000 عامل توافدوا كالعادة من نواحي بعيدة. لم يكن وِلْكَم يجد ذات التأييد السابق؛ فقد تحوّل السير ريجنالد ونجت من حاكم عام السودان ليصير المندوب السامي لبريطانيا في مصر، وأتى بدلاً عنه السير لي أوليفير ستاك.

في الشهر الذي أُعلن فيه قيام دولة جديدة؛ سوريا، وتم التصريح بأنها دولة مستقلة ذات سيادة وجلس في كرسي حكمها الملك السعودي فيصل، الذي سيكون أيضاً أول رئيس لمملكة العراق لاحقاً، وكأنّ المقام لم يطب في دمشق لابن الطائف الرمضاء فانتقل إلى بغداد. أخذ وِلْكَم يتابع أخبار الأحداث التي صاحبت موسم النبي موسى[23] في القدس وبوادر الأزمة بين اليهود والفلسطينيين. ثم بدأ مرحلة أخرى من أعماله في الجبل وهي البناء الثاني أو معامل السرايا، وقد وضع لها خارطة بسيطة، بناء من طابقين بأدنى درجات الإضاءة، وأخذ العمال من جديد يعملون في تفجير الصخور وتسويتها وصقلها والبحث عن الحجارة الجيرية وشحن الحديد، لكن كانوا قد فقدوا أهم الأدوات وهي الرافعتان وآلات تفتيت الحجارة والمجنزرات التي أُعيدت سراً إلى مكانها الطبيعي الذي جُلبت لأجله، حيث تعملان الآن في بناء خزان سنار، بعد أن كانتا لسنوات هنا في قمة الجبل. وقد درج السير ريجنالد ونجت على تغطية العبث الذي كان يحدث في تلك البقعة، بما في ذلك نقل الكوادر الطبية المؤهلة إلى مشفى وِلْكَم بالجبل. استمر العمل بالحفريات والبناء شهوراً طويلة انضم فيها إلى العمل مزيد من الرجال.

23- إحتفالات شعبية يقيمها الفلسطينيون منذ عدة قرون في البلدة القديمة بالقدس، لزيارة المقام المزعوم، في أبريل العام 1920م شهد الإحتفال إشتباكات عنيفة بين الفلسطينيين واليهود قُتل على إثرها أكثر من 10 أشخاص وجُرح حواليّ 250 شخص كما أُصيب 7 جنود بريطانيين، وبعد تلك الإضطرابات قررت بريطانيا مباشرةً أن تشرف على تنفيذ وعد بلفور بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.

كانت الأجواء ساخنة، والطبيعة الجبلية أقسى من السابق. وفي إحدى المرات، وبينما يتم سحج إحدى الصخور ظهرت في جوفها قطعة ذهبية، ومنذ ذلك اليوم بدأ الذهب في الخروج تباعاً. فكان التنقيب عن تلك الأحجار والآثار التي تعترض الطريق. وبطريقة ما، وفي حضور المفتش الإنكليزي، ذات يوم ماطر من شهر آب 1921م، نبش الرجال التابوت العملاق الذي يحوي الجثة الضخمة، وشُحن في عربة نصف نقل إلى المفتش الإنكليزي في مدينة شرقي المنطقة تدعى سنجة، ودُفن هناك من جديد. لم يكن المفتش يرى أهمية لهذا "الشيء" كما صرّح، وأهمل هدية وِلْكَم التي كان من جانبه يعرف أهميتها جيداً. لكنه أراد أن يكسب بها ودّ بعض الناس وإبعاد الأنظار عن الجبل حيث يعمل. تمت تسوية صغيرة مع مستر بوند الحاكم آنذاك، عاد وِلْكَم من سنجة ليواصل التنقيب وبرفقته صندق كبير يحوي مجموعة من الخرط أتى بها من حاكم الأقليم.

لاحقاً في ذلك الخريف، حدّد بعض الأماكن في محيطه الجبلي وأهال عليها الصخور، لكنه لم ينس أن يترك عليها رموزاً. كان ميجور ميلدون يتعامل مع بعض أهل القرية في بعض الأمور التجارية، وكان القطار يحمل كل شهر عدة عربات خاصة بوِلْكَم وأعماله، لكنه يحتاج إلى بعض اللوازم اليومية أو الأسبوعية من القرية. اختار وِلْكَم أن يعيش وحده داخل السرايا الكبيرة، لا يجاوره أحد ولا يدخل إليه أحد إلا إن دعاه. قطن في الجانب الجنوبي منها؛ حيث يمرّ الهواء سريعاً عبر النوافذ العلوية، وكانت أعماقه تغلي طلباً للثأر، لذلك لم يكن يخرج إلا نادراً يحرسه عشرة من أشرس الرجال السودانيين بقاماتهم الطويلة كالرماح ويشرف عليهم جنود بريطانيون يتبعون للميجور ميلدون. وكان هذا يهتم لأمر الحراسة الشخصية ومتابعة التنقيب والعمّال، وتعبئة الصناديق بالآثار والكتل الذهبية وتخزينها في القبو الجنوبي للسرايا، كما

كان له جانب إداري يتعلق بصرف الأجور ومعاقبة العمال ورعاية المشاريع التي تجري في القرية، وبعض الأمور الأخرى غير الثابتة. أما مستر دين فقد كان أقرب من هناك إلى وِلْكَم، وقد أصبح يحكي له كثيراً من تفاصيل حياته الشخصية، وهو الرجل الذي يملي عليه الخطابات ويكتبها ويوقّعها أحياناً بدلاً عنه، وكان يشرف على وجباته التي يطلبها ويوصل تصريحاته إلى الجماهير؛ لنقل أنه كان صلته بالعالم الخارجي، لكن لم يكن مسموحاً له بالدخول إلى غرفة وِلْكَم أو قراءة خطابات يوريبا. أما د.بلفور فقد كان لا يخرج من معمل القبو أبداً، يركّب المحاليل ويصنع بعض الأمصال، يجربها على الحيوانات، يحجزها في بعض الأماكن الصغيرة من الناحية الشرقية للقبو لفترة ثم يطلق سراحها ويدوّن المُلاحظات حول التجربة.

كان كثيرٌ من العمال أطفالاً، لذا كان من السهل السيطرة عليهم ومنحهم ساعة راحة وبعض الأقراص، ثم طالب وِلْكَم أن يُصنَع عدد من القلائد النحاسية كعملات نحاسية تعلّق على الرقاب، وطلب من مساعديه أن يعيّنوا أكبر كمية من الناس، وأن يوفّروا لهم عملاً، ثم أصبح القطار يحمل النقود بالصناديق، نقود كثيرة إن فُرّقت على جميع أهل السودان في ذلك الوقت لكفَتهم، وأخذ يصرفها على العمال الذين يعملون بنظام النوبات، قسّموهم إلى مجموعات، طلبوا من بعضهم إزالة غابة الجبل الجنوبية ومن الآخرين سحب الحجارة العملاقة بالعربة ثلاثية العجلات، وكان سَحبُ صخرة واحدة، في ظل الطبيعة الجبلية القاسية، يستغرق يوماً كاملاً، وكان عليهم أيضاً أن يحفروا مزيداً من الآبار في الجبل لكنهم فشلوا فكان نصيبهم تسوير تلك الآبار بالحجارة وبناء أحواض للمياه جوارها، كما عمل البعض في بناء محرقتين كبيرتين استخدمهما كأفران لصهر المعادن. ومن لم يجد عملاً ابتدعوا له عملاً.

في نهاية العام 1922م عاد أدراجه إلى لندن، حيث بدأ في إقامة المعارض الفنية لمقتنياته ولوحاته، وأقام معرضاً لتاريخ الطب عرَض فيه مجموعته؛ بما فيها الأدوات الجنسية الصينية واليابانية والأفريقية التي تعود إلى أزمان سحيقة. وجد أن سيري أصبحت تمتلك مكتباً فاخراً لأعمال الديكور في 85 شارع بيكر، وأن لها فروعاً في نيويورك وشيكاغو وبالم بيتش وكاليفورنيا وباريس، وأنها تسكن في بيت جميل مع زوجها في شارع الملك. وسمع أنها قد أصبحت متكبرة جداً ومتعالية إلى درجة أنها قالت لإحدى زبوناتها: "إذا لم يكن لديكِ 10.000 دولار لإنفاقها فاسمحي لي، ليس لديّ وقتٌ لك". أخبره يوري بذلك، كان ماونتن يقيم في مدرسة داخلية ويتلقّى معاملة ملكية، لكنه كان شاباً متأخّر العقل، لا يعرف شيئاً سوى أبيه، كانت الشكوك تساور وِلْكَم كلما رآه: "أترى هو ولدي حقاً؟".

أرسل إلى د.بلفور يطلب منه نقل معامل مركز وِلْكَم للأبحاث المدارية من الخرطوم إلى الجبل، والاستعداد لتحويل مقرّه في الخرطوم إلى متحف لتاريخ الطب، كما حوّل منزله في ريجنست بارك إلى نادٍ للقطط التي يشرف على خدمتها عددٌ من الخدم ويُستورد طعامها من الخارج، وكان يقضي معها وقتاً أطول من أي شخص آخر. في تلك الفترة كان رجلاً ضائعاً يتخبّط في كل الاتجاهات والطرق، حائراً يكابد آلامه وأوجاعه ويصِّر أن يمضى بها قُدماً؛ فقد كان انتهاء زواجه على ذلك النحو الفضائحيّ، ووقوفه أمام القضاء ذليلاً كأي رجل عادي، قاسياً عليه، وكيف أن سيري اتّهمته بالإهمال والانشغال عنها بأسفاره وتحفه، وأنه يعاملها بقسوة. انعكست خيبة أمله في الفتاة التي طالما أحبّها وغفر لها ومنحها كل ما طلبته من علاقته مع العالم من حوله، وتحديداً حياته الشخصية، فقد تحوّل إلى كائن بوهيمي عصبي المزاج غريب الأطوار، عدائيّ نوعاً ما، لا يستطيع أحدٌ أن يجزم بأنه

يعرفه جيداً، كان ناراً لاهبة يصعب التنبُّؤ بما ستقضي عليه. وذات مرة أخبر يوريبا قائلاً: "*لسوف أُغرق حزني في العمل، فالعمل هو عزائي الأكبر، وعملي هو الحياة التي تسهم في رفاهية الآخرين فضلاً عن نفسي وهي ما يستحق أن يبقى، وهذا التفكير يساعد كثيراً في إضاءة الحياة، أتمنى أن تساعد أفكاري هذه في إنارة الطريق لشخصٍ ما ذات يوم*".

ثم أنفق ثروات في شراء مجموعات فنية مثل مجموعة طومسون المؤلفة من 600 قطعة زجاجية، ومجموعة أحفوريات تضمّ أكثر من 1000 قطعة، ومكتبة تضم حوالي 5.000 كتاب لطبعات قديمة، كان يشتري كل شيء أثريّ؛ حتى الأُفق كان يودّ شراءه إذا مضى عليه يوم جديد. ثم أخذ يلتقط الصور ويطلب من الرسامين رسم البوتريهات له، ويحضر جيوشاً من الخياطين لخياطة ملابس وكنزات لا تعجبه، وتعرّض كلّ إسكافيي لندن لركلاته وشتمه، بل حتى يوريبا أصبح يتجنّبه بقدر المستطاع، في الوقت الذي وقف أمامه جميع أعضاء مجلس إدارة شركته وطلبوا منه عدم التدخل في سياسة الشركة وأن ينفق المال كيفما شاء فهو ليس من شأنهم.

45
شعائر اليهوديّ التّائه

بدأ يتخبّط تخبّطاً عسيراً في من حوله، لم يعد أحدٌ يفهمه، أخذت قناعاته بالتغيّر، ومقدّساته بالاندثار. لم يعد يُوْلي أمراً معيّناً اهتمامه المباشر، إلّا مشروع حفرياته بالطبع وبعثته في جبل مويا، كان يقول: "أنا متأكد من أن ذلك المكان يحمل من الأسرار ما يحتاج إلى قرن كامل لفهمها واستيعابها". كما تبنى بعض الفلسفات الغريبة مثل "فلسفة المخلوقات" والتي تفترض أن كل ما يأكل ويعيش على العشب والنباتات فقط هو كائن مسالم لا خوف منه وكل الخوف عليه، إنْ عضَّ فهو غير سامّ وإن لدَغ ففيه شفاء أكبر وهو كائن ضروري للحياة، أما آكلات اللحوم فهي كائنات خطيرة، وحتى إن كانت قططاً أو كلاباً أليفة، فإن لها القدرة على أن تأكل كل شيء، وإن اقتضى الأمر أكلت بني جنسها، ذلك النوع عضّته سامّة وإن لم تقتل، ولدغته مميتة، لكن يمكن السيطرة عليها بعزلها عن القطيع منذ الصغر واستئناسها بتوفير اللحم حتى تتغير نزعتها العدوانية تجاه الغذاء، لكنها تظل خطرة إذا جاعت مدّة طويلة. وهي أيضاً ضرورية لتوازن الحياة. أما أخطر المخلوقات على الإطلاق فهي آكلة اللحم والنبات والعشب معاً، هذا المخلوق لا أمان له إطلاقاً، يصعب التنبوء بردود أفعاله ولا يمكن السيطرة عليه أو توقّع سلوكياته، فهو متفوّق على المخلوقات الأخرى، ودائماً ما تكون حركته سهلة كثيرة المناورة، ولديه نزعاته اللانهائية والتي لا تكتمل إلا على حساب طرف آخر، وقد يكون ضحية نفسه.

ثم فلسفته حول المرض والفقر: "الفقير مريض دائماً، والفقر هو الداء الأعظم، من آثاره الجانبية الطموح الشديد والحقد الجانبي

واللامبالاة. يجب أن ينقرض جميع أولئك الفقراء أو علينا مساندتهم حتى ينجوا من ذلك المرض كي لا تصيبنا العدوى، كل من ضحوا بأنفسهم من أجل البشرية كانوا فقراء لا يملكون غير تلك التضحية ليقدموها لنا".

ثم كتب كتاباً عن تاريخ الطب ونشَره، في تلك الأيام كنتُ أدوِّن كل ما أعلمه عن وِلْكَم، فقد كنت أخشى أن أنسى ذات يوم هذا الرجل، الذي أنا معجبٌ به أيما إعجاب. اشترى وِلْكَم قطعة أرض كبيرة لبناء مبنى ضخم لرئاسة شركته على هيئة محفل ماسونيّ، وصمّم فيه أكثر الغرف أمناً على وجه الأرض، وجنّد لذلك أبرع المهندسين والمقاولين، كأنه يحاول أن يؤكد أمراً ما لنفسه.

ثم انقطع يفكر في مسائل أشدّ تعقيداً من الخليقة والتكوين؛ مصائر اليهودي في هذا العالم. وهي من المسائل التي لم يجد لها تفسيراً يرضيه، كان الأمر أشبه بالبحث عن هواء داخل المحيط العميق، كيف أنّ اليهودي، منذ قديم الزمن، عاش متشرّداً وبائساً ومكروهاً يخونه الجميع باستمرار، هل كُتب عليهم أن يجوبوا الأرض كالرياح والأمطار؟ هل سيظهر أحدهم ذات يوم على جبل الزيتون يسقي الزهور؟ هل سينيرون أورشليم بالمشاعل ويعمرون بيت لحم من جديد؟ هل صحيح أن الله لفظهم وكتب عليهم الشقاء إلى آخر يوم في عمرهم انتقاماً لقتل ابنه المسيح؟ هل سيضيع هيكل سليمان بن داؤود إلى الأبد؟ هل هو نسخة أخرى لليهودي التائه عن شعائره؟ "وما أهمّية الشعائر إن لم يكن هناك وطنٌ مليء بالحرية يحرسه جيش من أبنائهم الأبرار!".

قرّرنا أن نعود إلى السودان. قبيل الرحلة دعا د.بلفور إلى قصره بخليج كارديف، وعرض عليه المشاركة في المرحلة المُقبلة من العمل،

وأخذ يشرح له خطته المدهشة، وكيف أنه سيرفّه عن العالم ويخدم جميع الناس في أوروبا بتقدّمه العلمي والبحثي. لكن خرجت الأمور عن السيطرة، ورفض بلفور المشاركة في ما سمّاه "الفسوق الروحي والجُرْم الذي لا يُغتفر". لم يكن هناك مجالٌ لثني الرجل؛ فقد كان الأمر بالنسبة إليه مسألة مبدأ. ثم رفض د.هنري ديل أيضاً، ووصف الأمر بأنه غير أخلاقي وخطيئة ستجلب اللعنة. هكذا، لأجل تلك الأهداف التي أجدها مشروعة، فقَدَ اثنين من أهم رجاله، بعد أن كانا ذات يوم "قائدَي قواته المسلحة" كما كان يسمّيهما. وهكذا أخذ يبحث عن الرجل المناسب. وبعد عناء استمر لأشهر أخرى، وفي العام 1923م وهو يكاد يكمل عامه السبعين، وجَدَ ضالّته أخيراً في رجل نمساوي فقَدَ جميع أسرته في الحرب، وأصبح سكّيراً مدمناً لا يملك قوت يومه، لكنه كان عالِماً مشهوداً له بخبراته في مجال الأبحاث البيكتريولوجية التي كان يَنشُدها وِلْكَم. أجرى بعض المراسلات مع مدير أعماله في الخرطوم، وبعد أن تأكد من أنّ الوقت قد حان، حمَل مخاوفه بداخله وقرر أن يمضي قُدماً، فليس لديه ما يخسره.

تحرّكنا الأربعة على سفينة تجارية من ميناء ليفربول، وطوال الطريق كان وِلْكَم يخبرني ببعض الأمور التي تدور داخل وعيه وخارجه، مثل: "هل تعلم يا يوري أن التمثيل الحقيقي ليس في المسرح؟ هل تسألني أين؟ سأخبرك أنه في خشبة الحياة، أرض الواقع". ثم أخبره قائلاً: "لا يوجد قتيلٌ بريء، خذ هذا في علمك! فما المقتول سوى قاتلٍ آخر، وما القاتل سوى يدٍ أخرى للمقتول". "لا تجعل الأحداث السطحية تلهيك عن تأمّل الحكمة في اختيارها، فالحياة سلسلة من الأحداث والأبحاث اللانهائية. ما يقودها هو ما وَقَع قبل ملايين السنين ولا يزال العالم أجمع يبحث عنه لفكّ طلاسم المستقبل". "في

الماضي كان لهذا الكون إلهٌ واحد فقط!". كانت الرؤية الوحييّة للكون تضطرب أمامي وتأثرت بما يقول لي. أصبح كل ما شاهدته من قَبل ضبابياً ومهتزّاً. خلال تلك الرحلة بدأ يسعل بشدة، ثم نجونا من عاصفة واجهتنا قرب المضيق. وأخذت أفكر بالمصير الذي لا يملكه أحد، ومن منا يملك مصيره ولا يملك تأخيره أو تقديمه؟ اليوم لا أحد يتمكن من النجاة بواسطة عمله فقط، عليه أن يفكّر وأن يتأمل وأن يسعى دون خوف لبحث كل شيء، فما يحدث في هذا الكون لهو مجرد صدىً لطقوس لا يمكن فهمها إلا عبر تجلّي الأرواح والتخاطب مع الطبيعة. ثم أخذ يقصّ عليّ طبيعة الحياة في الجبل وطبيعة أهل القرية وكيف ينادونه "وِلْكَم باشا". وأخبرني عن نموذج الإنسان الأفريقي ومكوناته الطوطمية العجيبة، كما حدثني عن السرايا الكبيرة ومستوى تجهيزها. وطوال تلك الرحلة لم نكن نختلط بمرافقنا النمساوي السِّكير أو الإسكتلندي الضليع في اللغات القديمة والمتاهات والرموز.

كنت متردّداً في سؤال حيرني كثيراً وهو: "ماذا يريد منه رجل إسكوتلاندايارد السير تشارلز وارن؟" هل يشكّ أن وِلْكَم هو جاك الطاعن؟ وكيف تبقى مثل تلك القضية مفتوحة لأكثر من ثلاثين عاماً؟ كنت أخاف أحياناً مما تحمله له تلك النظرات التي يترصّد بها مستر وارن، فقد كان رجلاً عجوزاً أقرب إلى الموت من ملابسه، لكن تظلّ عيناه برَّاقتَين.

طلب مني أن أحذو حذوَه هُناك، عليّ أن لا أقترب من الأهالي ولا أتودّد إلى الرجال الأوروبيين الذين يعملون هناك، ولا أكترث لمعرفة أحوالهم أو مشاركتهم الوجبات أو العواطف، عليّ أن أنفّذ مهمتي التي سيخبرني بها عندما نصل، وأن لا أنسى أيّ حرف مما سيقوله لي

وإن كان صغيراً تافهاً. في تلك الأيام كان السودانيون قد أصابتهم لوثة المعرفة، وأصبحت فئة منهم متعلّمة ومستنيرة تطالب همساً بتحرّرها واستقلال بلادها، ولأن الحاكم العام السير لي إستاك كان رجلاً مدنيّاً فإنه لم يكن ليثمن ما سيحدث إن استمر الوضع كذلك.

كان يسعل كثيراً، وذات مرة لفظ بعض البلغم وخثرات الدم. إنه داء الرئة. ثم علمتُ أنه يعاني منذ مدة، وأنه ينوي السفر إلى أمريكا لمقابلة د.مايو، ثم حدّثني عن رجل في ألاسكا يُدعى "وليام دانكن"، وذكر أنّه شخص لا مثيل له. ثم أخبرني عن أن ما سنفعله أو ما سيحدث هناك في الجبل؛ حيث السرايا، يجب أن لا يخرج، ثم أضاف لي مُحذراً: "وإن سألك الله عنه... أتفهم؟".

46
البوّابة الصخريّة

في الأول من نيسان 1924م كنّا نمرُّ من البوابة الصخرية لسرايا الجبل، وهي جزء من سور عملاق يجعل منطقة وِلْكَم من أكثر الأماكن تحصيناً، ويعزلها تماماً. وجدت أن عدد القلائد التي يرتديها العمّال يومياً قد وصل إلى أكثر من أربعة آلاف قلادة نحاسية تحمل الشعار الذي كان بسيطاً كأنه قصيدة لهاري الأعمى[24] ويحمل من الطلاسم ما يجعله مُلْغزاً كحجر رشيد عند اكتشافه: "شجرة تأكل منها زرافتان إحداهما أطول من الأخرى، وحرف W، وإن قُلِب الشكل تحوّل إلى هرم، أما وجه القلادة فقد كان يحمل عبارة: "ولكم جبل مويا" يتوسّطها الرقم. كانت القطعة الأخيرة للتسلسل تحمل الرقم 4050، أمّا القطع الثلاثمائة الأوائل فقد كانت للأوروبيين من مهندسين ومشرفين وما إلى ذلك. وِلْكَم يعامل الجميع كأرقام، فمثلاً يطلب من ميجور ميلدون، الذي كان يحتقر تلك الطريقة، أن يجمع العمَّال من مائة وخمسين إلى سبعمائة لينقلوا حجارة المنطقة 9 إلى المنطقة 3. كان وادي الجبل مقسّماً إلى تسع مناطق، ومنطقتين أخريين لا يعمل بهما العمال ولا يدخلهما إلا وِلْكَم برفقة جنوده الأبرار.

وجدت أن الصناديق تُعبّأ كل يوم، وتُرَصّ بعناية في إحدى غرف السرايا. بعد فترة نزلنا إلى قرية الجبل نتجوّل ونتعرّف على الحياة اليومية هناك، ونتابع بعض الخدمات التي كان يبذلها لأجل أهل القرية حتى لا يضطروا إلى الخروج من قريتهم بحثاً عن أيّ شيء فيعلم عنه الناس

24- شاعر إسكتلندي غريب الأطوار عاش في القرن الرابع عشر.

أموراً لا يريد لها أن تنتشر، وخصوصاً أن أولئك القرويين كانوا ثرثارين لا يجدون ما يتحدّثون عنه. ثم حضرنا جنازة عمدة القرية، الذي قتله مرض غريب جعل مفاصله تتحوّل إلى كتل عظمية. كان له ابن يتحدث الإنكليزية ويريد السفر إلى إنكلترا لدراسة الطبّ لكن وِلْكَم أخبره بأن ينتظر، فقريباً ستكون هناك مدرسة طبية كبيرة تحمل ذكرى الرفيق اللورد كتشنر، وكان وِلْكَم مساهماً في إنشائها وتجهيزها بالمعامل. اشتدّ عليه السعال، وكان مؤخراً يسعل بشدة ولم تكن المهدّئات تجدي نفعاً، لكن الدم كان يرشح، وهذا يعني أن الأمور تسوء.

عندما أتى بعض الأهالي يبحثون عن أطفالهم الذين لم يعودوا من العمل في الحفريات، تأكّدنا من أن الأوراق تُبيّن أنهم قد خرجوا من السرايا منذ أسبوع وقبضوا أجرتهم كاملة. كانوا خمسة أطفال من قرية مجاورة تتراوح أعمارهم بين الخامسة والسابعة، لكن مع تلك الحشود التي تعمل كل يوم لم يكن أحدٌ يفتقد أحداً، بينما أصبحت معاملة الميجور ميلدون للعمال قاسية، فأحياناً كان يضربهم بالسياط، ويجد التأييد من وِلْكَم الذي غادره كل حسّ إنسانيّ، كأنه لم يملكه ذات يوم. وصلت بعض مناطق الحفريات إلى مداها الأقصى، ولم يعد من الممكن إيجاد شيءٍ جديدٍ بها فأُغلِقت ورُدِمت وسُرِّح عمالها. السماء تجوبها روائح المعادن المنصهرة، والأفران القوية تصهر الحجارة والمعادن وأكياس الأقمشة وصناديق الحديد وكل شيء. كان د.لودويك السِّكير لا يبارح معمله في القبو، لا يبارحه أبداً. ودار همسٌ بين عدد من المشرفين بأنه رجل خطر، وفي الحقيقة كنت أخاف منه، لكن وِلْكَم موجود، لا يمكن لذلك الكائن الأرقط أن يواجهني بالسوء.

حدّثني وِلْكَم بأمر مهم حدث منذ فترة: "ذات مرة، كان الرجال الخمسون بعد الألف يحفرون بالمنطقة 6، وكنّا قد اكتشفنا غاراً كبيراً

يمتدّ إلى داخل الجبل عبر بوابة حجرية جوار البئر الثانية، شعرت بأن ذلك التجويف الفريد حتماً لم يَبْنِه أهالي هذا البلد، فهم ليسوا بذلك القدر من الذكاء، تابعت الأخبار عبر بعض الرجال الذين يقفون لخدمتي طوال الوقت، ثم في منتصف النهار سمعت صيحات ذعر وعرفت أنهم وجدوا صندوقاً كبيراً داخله ثعبان، فأخذت عصاي ولبست قبعتي وخرجت مع جنودي لأرى بنفسي ما يحدث. كان اولئك السود يتربّصون بي ويتابعونني كأنني سأخاف، لكنني مَرَرت من حفرة المدخل، وقليلاً وجدت نفسي أنحني، فأضاءوا القناديل من حولي، ومشينا على ذلك الوضع حتى دخلنا إلى مكان فسيح فاسد الهواء، يشبه حجرة الدفن الملكي بزوايا مثلثة كهرم ونقوش أفسدها العمل، ويظهر من بين الصخور صندوقٌ قويٌّ يتلامع، وقد نُقِشَت على جنباته طيورٌ غريبة الشكل ذات مناقير خرطومية الشكل كالفيلة وأرجل لها أظلاف. لا أخفي عليك عزيزي يوري أن الخوف أصابني لوهلة، ثم تشجّعت وطلبت منهم إخراجه، وعلى مضض قاموا بذلك فإنه لم يكن كبيراً، ثم حملوه إلى البناء الآخر الذي لم يكن قد اكتمل بعد. صرَفتهم وبقيت أبحث بالداخل، وجدتُ بعض الألواح ومجسّماً لبناء من حجر الكروند[25]. ولم يستطع هذا البدين- يقصد الإسكتلندي خبير المخطوطات والرموز الذي أحضره معه مؤخراً- حتى الآن أن يفك تلك الأسرار وقد كان يَدرُسها منذ زمن. أعتقد يا يوري أن هذه الأرض كانت لنا في أحد الأزمان، أستطيع أن أشتَمّ فيها رائحة جدي الملك داؤود، فقد كان أبي يحدثني بأن مملكة يهوذا كانت تمتد إلى كل مكان تسطع به الشمس. لربما كنتُ أنا حارس الهيكل دون أن أدري!".

25- حجر معدني يشبه الزجاج وهو يلي الماس مباشرة في الصلادة والقوة.

أصبح مؤخراً يتلكّأ في الحديث، وعجوزاً يمسح فمه بالمنديل ويكحّ كالأغنام ويهرش وقتاً طويلاً بالنسبة إلى إنسان. أصبح حاجباه كثيفين ووجهه مجعداً ويداه راعشتين ومليئتين بالبقع والكرمشة. يأكل بعناية، ويتحاشى البهار، وتأتي مياه شربه من لندن خصيصاً، يتكئ على العصا كما تستند الأرواح المؤمنة إلى الله، مشيته بطيئة وأحياناً يحتاج إلى مساعدة لارتداء الجاكيت. نسي أنه كان ذات يوم شاباً فتياً يجلس أمام نهر التيمز بكل أدب، يفكر ويدخن ويستمع إلى دقات الساعة ويتمشى. بالكاد يتذكر طفولته، البحيرة وحكايات القنادس ورقصة الشبح ومعمل الشموع، بل حتى الطرقات الطويلة التي مشيناها ذات يوم إلى شيكاغو وفيلادلفيا، لم يعد يتذكر كيف كان انطباعه الأول عن سيري، أو مدى جمالها ورقتها. لاحظت أنه لم يذكر لي أي شيء عن ماونتن الصغير. هل يكون قد نسيه؟ كان يتهاوى شيئاً فشيئاً كأنه ريشة طائر جريح. لم يعد يدرك أهمية تلك الأحداث في حياته. رغم ذلك كنت أعرف أن أعماق قلبه مشتعلة بالغضب، وأن الخنجر المسموم يطعن قلبه بقوة كما تنغرس الريشة في المحبرة، بتلك القوة والسرعة التي تتناسب مع شاعر الليل وهو يكتب آخر كلمة في قصيدته الأولى. كان وِلْكَم يتغير دون أن يشعر بذلك، لم يكن أقل سكوناً من صمت صخرة، لم يعد وجهه يحمل انطباعاً معيَّناً، بل كان وجهاً حجريّاً مدوَّراً ومتبلّداً وجامداً أمام جلّ الأمور، ذلك الرجل العجوز لم يكن عجوزاً أبداً. وِلْكَم الذي تنبأت له عرّافة غجرية، قبل حوالي أربعين عاماً، على سفينة حملته أول مرة إلى أوروبا، لم يكن يعلم أنها كانت صادقة، لم يكن يعلم أنه قد كان هناك في تلك السفينة حقاً، كان يرى نفسه طيفاً طوّافاً وُجد في كل مكان.

يعبث بعقله وحش صغير، نهمٌ إلى مزيد من الاكتشافات، لذلك وضع جميع فريق عمله تحت الملاحظة الدقيقة؛ الفريق الذي كان

يتقلّص يوماً بعد يوم. ثم أتى علينا وقت وانتشر بين جميع الذين هناك مرض ما، أصاب بطونهم فأصبحوا لا يتوقفون عن الاختباء لإفراغها. في البدء قدّم لهم د. لودويك وصفة كانت تُستخدَم سابقاً في علاج الاستسقاء، لكنها لم تكن ذات فائدة تُذكر. وهنا بدأنا نتساءل: كيف لبعض الأطفال أن لا يُصابوا؟ كيف لهم أن يأكلوا ويشربوا من نفس المصدر دون اكتراث للذباب أو نظافة المكان، ولا يُصابوا بتلك الجرثومة؟ لذلك أرسل د.لودويك في طلبهم وأجرى عليهم بعض الفحص، ثم أخذ منهم العيّنات، من البول والدم ثم خزعة من الحنجرة عبر إبرة مدبّبة.

من غرفته العلوية في السرايا؛ حيث أصبح لا يبرح مكانه مؤخراً، كان يراقب الساحة من شرفه دائرية، وهو المكان الذي تتلاعب به الذكريات فيهِ، فيرى دون رؤية قواربه التي كانت تجوب نهر التيمز والكلب الألماني الضخم الذي أهداه إلى سيري عقب المقاطعة. وكنتُ أنا أتذكّر كيف كانت تثيرني بذلك الكلب عندما يمرّ إلى جوارها فتحتضنه وتجعله يمرّر لسانه على رقبتها وصدرها ثم تقبّله وتغوص عيناها في عالم بعيد ناحيتي، وتداعب الكلب مداعبة شهوانية فيجلس على الوسادة منتصباً.

سمعتُ مؤخراً عن ما يحاول بعض السودانيين المتعلّمين إثارته تحت مسمّى "مطلب الأمة" وهم ينادون بالحرية. لكن وِلْكَم أسرَّ إليّ بأننا سنغادر قريباً، فقد انتهى عهد الحفريات، وعلى د. لودويك العمل على التأكّد من بعض الأمور. كانت حالته الصحية أسوأ من أي وقت مضى. لم يعد يسهر معي ليلاً يدردش أو يشرب البراندي أو يدخن الغليون. بل كان هامداً لا يبرح غرفته، يقرأ ويكتب وتطلّ النار من عينيه.

47
حمم البركان

لم تتوقف صلوات الميجور ميلدون، ولم ينم أحدنا في سلام بعد تلك الليلة التي اكتشفنا فيها أنّ أمهقَ غريبَ الأطوار من العمّال القرويين قد اختفى، ويصرّ كل أقرانه من العمّال على أنه قد اختفى داخل سرايا وِلْكَم الصخريّة، مع العلم بأن تلك المنطقة لا يقترب منها أحد، ولا مجال لأن يدخل إليها حتى. وقد حدثت ثورة صغيرة في نهاية تشرين الثاني 1925م وتمرَّد عن العمل على إثرها كثيرٌ من الرعاع، وبين ليلة وضحاها توقفت كل الأعمال. أزعج هذا الأمر وِلْكَم؛ مما جعله يأمر بهدم البناء الصخري الآخر وتسريح كل العمّال، وطالبني بأن أستعد للسفر في أية لحظة، وكانت حالته الصحية تتدهور شيئاً فشيئاً. ثم نجحنا في تفجير البناء الصخري الصغير الذي كان يستخدمه وِلْكَم لبعض الأعمال الخاصة، وأرهبْنا كل من ساوره الشرّ إزاءنا. لكن الأمور لم تَسِر على ما يرام؛ إذ إنَّ وِلْكَم قد اعترض خطاباً كان في طريقه إلى حاكم السودان السير لي ستاك، ويحمل تفاصيل سرية عن الحفريات والمعمل البكتيري السري في قبو السرايا، وما يفعله د.لودويك مع الأطفال، وكيفية معاملة المشرفين للسكان المحليين والعمال، وبعض الأمور الأخرى التي كانت ستسبب لنا مزيداً من المشكلات، لكننا لم نتعرّف إلى المرسل للأسف، وإن كنتُ أشعر بأنه الميجور ميلدون، لذا أخذت أراقبه، ليلاً ونهاراً. كنا قد احتوينا ثورة الرجال، لكن الأوضاع كانت متردّية والأجواء محتقنة. مؤخراً كنتُ أنا الشخص الوحيد الذي يدخل إلى وِلْكَم وينقل توجيهاته بخصوص العمل وأكتب وأعلّق وأقوم بكافة الأمور التي

تتعلق بالعمل في الجبل، لذلك وجدت نفسي أتخذ بعض القرارات التي أشعر بأنها ستكون حلاً أو جزءاً من حلّ الأزمة مع العمّال. منحتُهم بعض الهبات، ونظّمت لهم بعض الفعاليات مثل سباقات الجري، وسمحت لبعضهم بركوب الدراجة، ثم أشرفت على حركة التوثيق التي كان وِلْكَم مهتماً بها، التقاط صورهم من طائرة القماش بكاميرا حديثة تُعلَّق في سلك مشدود إلى الجبل ثم تهبّ الرياح لتدفع الكاميرا عالياً، وعبر حبل رفيع يتصل بزرٍّ يتم التقاط الصور. وقد كان تفاعلهم مع لقطاتهم غريباً ومثيراً للضحك، فهم لا يتعرّفون إلى أنفسهم في الصور، وبعضهم يخافونها لاعتقادٍ سائدٍ بأنّ الكاميرا تسرق العمر!

لاحقاً عادت الأمور إلى مجرياتها. في إحدى الليالي التي تعجّ فيها السماء بالغيوم الراعدة والعواصف الترابية القوية، تحدّثت مع وِلْكَم حول راحته وأن عليه العودة إلى لندن، إذ لم يعد هنا ما يثير الاهتمام. وحاولت أن أثنيه عن قراره الغريب أن يقضي بقية حياته هنا في هذا الجبل، وسط هذا المجتمع الفقير إلى كلّ شيء. لكنه كان يخفي عني أمراً ما يتعلق بوجود د.لودويك الذي كان لا يبرح قبو السرايا، وقد لاحظت يحيط نفسه بحراسة كبيرة ويضرب سرية تامة على ما يفعل هناك.

كان وِلْكَم غاضباً من حياته، التي يشعر بأنها مليئة بالتعاسة، لا يريد أن يحيا حياة الملوك التي يملكها في لندن، ولا يريد أن يعرف ما يحدث في العالم، بل تحوّل جُلّ اهتمامه الآن إلى د.لودويك وما يفعله بالأسفل، وهو الأمر الذي حاولت كشفه عدة مرات ولم أنجح، لكنني عرفت من مستر دين لاحقاً أنّ أموراً مأساوية وغامضة تحدث بيننا هنا بلا تفسير، وأن الموت يمشي حياً حولنا، وأن العمال يختفون

كما تختفي النجوم في الصباح. ومنذ أن مات ذلك الطاهي لم يتوقّف الموت. ثم سمعتُ بعض رجال الحفير يتحدّثون بالعربية، التي تعلّمت منها القليل، أن هناك شبحاً أو وحشاً صغيراً -لا يهمّ- يختطف الأطفال الصغار. ثم سمعت عن ذلك الأمهق أنه كان عندما يتبوّل يموت النمل إذا مسّه البول، وأخبرني مستر دين أن لهذا الفتى قدرة أخرى عجيبة؛ فإذا وضعتَ على جلده حشرة ماتت فوراً، وقد كان سعيداً بتلك القدرة الخارقة لذلك الرجل، حاولت التحدث إليه لأفهم المزيد من شأن هذا الأمهق.

عثرتُ على خطاب آخر، وكان موقَّعاً هذه المرة من الميجور ميلدون الذي لم يكن يعرف أنني قد جنَّدت فتى البريد لصالحي. كشفنا الجاسوس القذر. عندما أبلغتُ وِلْكَم طلب مني أن أجعله يغادر العمل خلال يوم واحد فقط، وقد تسلّمت أعباءه بدلاً عنه. الوضع هنا لا يطاق، لا شيء يحدث! بعض العمال يحفرون، والبعض يخدمون. أخذ وِلْكَم يزداد غرابة يوماً تلو يوم، يبدو أكثر غضباً من ذي قبل؛ كأنه بركان على شفا ثورة كبيرة.

في بداية كانون أتانا الخبر عبر التليغراف، لقد اغتِيل السير لي ستاك؛ حاكم عموم السودان، في أحد شوارع مصر. وحوى التلغراف أيضاً توصية من أحد اللوردات بأن المنطقة غير آمنة وأن علينا المغادرة فوراً. ثم عرفتُ من مصادري أنَّ الوضع في السودان يسوء كل يوم، وأن هناك بعض التفلّتات، وأن بقاءنا فيه يضع حياتنا في خطر. لكن وِلْكَم لم يكن يأبه؛ برغم استعداده للسفر في أية لحظة، كمسافر ينتظر القطار حاملاً تذكرته. وقد رأيته يَخرج ليلاً ليتجوّل وحيداً، يدخّن ويسعل. ما عدت أعرف هذا الرجل، أصبح غريباً عليَّ، كأنني لم أكن صديقه ذات يوم. صار يأكل وحيداً، ولا يستقبل أحداً لأيام، وبدلاً

عني كان يستقبل د.لودويك الذي يرتدي ملابسه الكاملة أو أكثر ولا يخلعها أبداً برغم سخونة الجو. أحياناً يُخرج وِلْكَم ببندقيّته الرمينغتون ويرمي الحجارة بالرصاص في منتصف الليل. لم أرَ جنوناً كهذا من قبل. ذات يوم رأيته بأمّ عيني في حوالي الثالثة صباحاً يجرّ صندوقاً ومعه د.لودويك نحو حافة الجبل الشرقية، عندما وصلت وراءهما وجدتُ أنهما يرتديان الكمامات وقد رَبَطا كلباً مجنوناً تماماً، وكان يقفز كأنّ الأرض تنطحه بقوة وتجحظ عيناه وتكادان أن تقفزا من مكانهما، وينبح بصوت يتجسد فيه الخوف والألم والمعاناة، وبعد قليل أخذ الكلب يرتعش بشدّة ثم انتفش وتطاير صوفه في اللحظة التي أضاء فيها البرق المكان، ولدهشتي كانت هناك كاميرا تصوِّر ما يحدث، ثم تخشَّب الكلب وارتمى ميتاً كأنه تمثال حجري.

أدركت لحظتها أنها تجربة ما، وأدركت هَوْل ما يمكن أن يحدث هنا، خصوصاً في وجود شخص مهووس مثل د.لودويك الذي تولّى أمر التخلّص من الكلب. كم أصبحتُ أكره هذا الرجل. ولو عاد إليّ شبابي لقتلته فوراً. في اليوم التالي كنت أجلس أمام وِلْكَم متحدّياً خوفي لأعرف ما يحدث هنا، أو أن أغادر دون رجعة. ترى هل ما زال يثق فيّ؟ أما كان يخبرني بأنني كاتم سرّه الوفي وحارس هيكله؟ يجب أن أعرف الآن، من حقّي أن أعرف، فإنه بأي حال لن يكون أسوأ مما حدث في الوايت تشابل قبل أكثر من خمسة وثلاثين عاماً.

من قمة الجبل، وأنا في ذلك العلوّ، شاهدت القرية بأنوارها الخافتة الوامضة رغم قلّتها، شاهدت البيوت القشّية والحظائر المُرتجلة، شعرتُ بالنار التي تموت من أجلها آلاف الشجيرات، وشعرت بأنفاس الأهالي تصعد رويداً رويداً ثم تهبط فجأة في جوف جهلهم وعزلتهم وطيبتهم الساذجة، رأيت كالحالم أحلامهم الصغيرة

وملابسهم الممزّقة وأرواحهم البائدة، لفّتني موجةُ برد ولم يفزعني الرّعد كعادتي ولم أحفل بالبلل، حاصرتني شجونٌ عصيّة على فهمي، وكدتُ أبكي وأنا أجهل لم قد أفعل ذلك؟ من أجل ماذا؟ تذكّرت ذلك الرجل الأمهق، ومصيره إن كان لاختفائه صلة بما يفعله د.لودويك. عرفتُ أنه كان يرتدي القلادة رقم "4050". يا إلهي أشعر بأنني أعرفه، أو ربما تجمعني به صلة من نوع عجائبي. أضاء البرق الجبل، تحت الخيام قبعت الأجساد المُنهكة، وداخل السرايا الخالية كان ثمة ما يحدث في هذه اللحظة. رأيت الضوء مشتعلاً والكثير من الحراك بالداخل. قرّرت أن أدخل لأرى ما يحدث. أنا أشعر بالخفَّة الآن، كأنني طيفٌ طوّاف، أُوجَد في كل مكان.

تسلّلت إلى هناك، وسمعت وِلْكَم يتحدّث بصوت رخيم هادئ؛ خلافاً للحالة النفسية الغاضبة التي أدركت سببها، كما أدركت السبب الذي كان دائماً وراء أبشع الأمور التي فعلها، وهو خيبته وإذلاله وخسارته، ذلك الشرخ الذي أحدثته فيه سيري وبَعدها فَقَد ثقته في كل البشر.

قال له محدّثه منفعلاً:

- "من تقصد؟".
- "الذين ماتوا برغم حاجتنا إليهم أحياء، ليس لدينا وقت، يجب أن ننتهي بسرعة، لا أستطيع أن أواصل عمليات الحفر الوهمية هذه، لقد أدرك الجميع أنه لا يوجد بَعد ما يستحق البحث في هذا المكان، يجب عليك أن تُنهي ما بدأت وتسلّمني ما أريد لأعود بسرعة، هل تفهم يا لودي؟".
- "أنا أعمل وأنت ترى ذلك...!".

- "قل لي يا عزيزي! ماذا سيكون شعورك لو أن أحدهم قطع عضوك واستأصل خصيتيك، فقط لأجل أن لا تُفسد شرف العائلة؟".

ضحك الرجل وأجاب ببرود وهو مُنشغل بأمر ما في يده:

- "حسناً سأصبح فتاة جميلة حينها...!".
- "هذا ما يفعله هؤلاء المتوحّشون مع نسائهم؛ يحرمونهنّ من المتعة الوحيدة التي يمكن أن يحصلن عليها في مكان مثل هذا الجحيم. ضَعْ نفسك مكانهنّ يا رجل، دون بظر أو أشفار، تخيّل أن تُحرَم من الغريزة الأهم. لكنَّ إرادتهم لم توافق إرادة الله في هذا الأمر، فاعترضوا بعنف، يا لهم من حمقى!".
- "وما صِلَتي أنا بكل ذلك يا سيدي؟".
- "أنا أُخبرك حتى لا تأخذك رحمةٌ بأحد، لا تشفق على بشرٍ مثلك، فلو كان في موضعك لما أشفق عليك، حتى الله لا يشفق على أحد، انظر إلى العالم!".

لم أشعر بالمطر وأنا أستمع إلى تلك المحادثة، لم أنتبه إلى أن هناك شابّاً فاحم اللون كان يقف عند ناصية البناء الصخريّ ويسترق النظر عبر نافذة نصف مفتوحة تطلّ على القبو مباشرة، لم يَخَف مني ولم يرتعش مثل غيره، بل اكتفى فقط بالثبات كأنه ساعة معطوبة. وبين ومضات البرق وصرخات الجبل المجهولة اقتربتُ لأرى، وأنا أشعر بأنني أرى كما يرى الطائر تماماً، وانقشعَت عني سحابة وذابت في فيض النور الذي رأيتُ في وسطه كائناً عارياً كوحش البراري، مبقّع الجسد، ومقيّداً إلى سلسلة ويداه مشدودتان إلى آلة أشبه بحدوات الأحصنة الكبيرة، وهو يأخذ وضعية الرجل البيتروفي تماماً، وقد شُدَّت أطرافه بدقة إلى درجة أنه لم يستطع حتى التقاط أنفاسه. كان

يبدو مُخدّراً أو ميتاً، ورأيت في عينيه جزعاً وخوفاً لا يوصفان، فقد تجاوزت حالته ما يمكننا أن نصفه بالألم. دخل وِلْكَم، ومن خلفه، د.لودويك ومن بين عشرات العلب الزجاجية اختار واحدةً، وبملقط دقيق وضع بداخلها شيئاً ما وأحكم إغلاقها، ثم تناول قلماً ودوَّن مُلاحظة على الورقة التي تتصدّر العلبة. ثم فقدت إحساسي بالخفة، كان الثقل وحده، سألت نفسي: "ماذا أفعل هنا؟".

لاحقاً، وبمرور الأيام هُنا، شعرت بأنّ وِلْكَم لا يريد العودة إلى لندن أبداً، لا يريد أن يواجه شخصاً يعرفه، واختارني لأكون جواره، أقضي معه الوقت هُنا، لكن إلى متى؟ ذلك هو السؤال الأهم. لربما كان يدفن حزنه في أمور شنيعة، وربما في أمور صالحة، لكنه في كلتا الحالتين لم يكن يجد العزاء في شيء. ويبدو أن هذه الروح كثيرةَ الأطياف لن يكتب لها السعادة أبداً. تذكّرت تلك العرّافة الغجرية التي سخطتنا بنبوءتها المشؤومة.

48
المُختار

"إنّنا طَيفان في حُلمٍ سَماويٍّ سَرَيْنا"

إدريس جماع

قد لا يساوي التاريخ شيئاً إن لم يُكتب بدقة. في تلك الأيام المجهولة من زمن وِلْكَم المجهول شكلاً وتوقيتاً، وفي عتمةٍ يجتازها الضوء وحده، وهي اللحظة التي تمثل نقائض صاحبها، وفي فراغ صخري أجوف إلّا من الروح المختلّة والهائمة في أماكن عدة تكتوي بنيران الحنين والحسرة على رغائب لم تحدث؛ أهمّها انتقام كبير تحفّه قضبان عريضة تتدلى من الأعلى إلى أن تلامس الأرضية القوية؛ حيث يحتجز في كل حيز أربعة أطراف تمثل زواياه النهائية التي يحيا لأجلها، كانت أصوات الأنين التي أسمعها لا تجد من يتفقدها سوى كائن غريب الشكل، بلا قلب أو روح، لكنه ذو شاربٍ كثيف. كنت أراه عندما يمشي، فتصطدم الصخور ببعضها وتتآكلٌ وتُصدِر دويّاً قويّاً ومزعجاً كضربات القلب الواشي، وكلما حرّك ذراعيه في الهواء هبّت النسمات قوية تحمل رائحة الصّخر المتشقّق، كان كتلة من الصخور. حتى أهل قرية الجبل رأوا ذلك الشيء، وقالوا إنه رجل الصّخر، وُلد من صلب الجبل ليأخذ بالثأر من جميع أولئك الذين استأصلوا كل جزءٍ منه. يُقْسِم الرعاة أنهم قد شاهدوه يجري في إحدى مغارات الجبل مخلّفاً وراءه خيطاً من التراب، يتصبّب منه كرمل الساعة. لم يعد أحد يتحرّى عنه، لم يعد أحد يصعد إلى الجبل. تزامنت تلك الأسطورة مع رحيل العديد من الرجال عن الجبل، توقف الحفر وكل شيء. في

الأسفل كانت القرية تضجّ بمزيد من الأحداث، العديد من الأطفال لم يعودوا إلى أهلهم بعد تسريح الجميع، كانوا يتّهموننا بأننا وراء ذلك، يتّهمون وِلْكَم بأنه يسرق أطفالهم ويرسلهم إلى البلاد البعيدة ليعملوا لأجله. أصبحنا نتقلّص يوماً بعد يوم، إلى أن لم يبق سوانا ومستر دين ود.لودويك وطاقم الحراسة والخدمة. حدث ذلك بعد أن تحوّل ماء الآبار العذب إلى سائل رغويّ يميل إلى اللون الأصفر، من يشربه لفترات طويلة يتحوّل إلى وحش عظمي، هل تعلمون ما هو الوحش العظمي؟ حسناً: "يظل الرجل يشرب من البئر، ويوماً بعد يوم يصعب عليه التحرك ولا تطاوعه رجلاه عندما يصحو صباحاً، ثم يواصل في شرب الماء، وهل له من خيار؟ بعد شهرين إلى ثلاثة تتماسك الأرجل وتتعظّم مفاصلها وتَثبُت على وضع معين في مدّها أو ثنيها أو في شكل عشوائي قبيح. لاحقاً يسري التعظّم في الجسد كلّه، ثم أخيراً يموت". مات على تلك الشاكلة البشعة كثير من الرجال والنساء والأطفال. أتى أحدُهم إلى الجبل وأخبرهم بأن العلاج هو ربط الضفادع في كل مفصل وتعريضها إلى قليلٍ من النار لتتعرّق، زاعماً أنّ عَرق الضفادع يُليّن المفاصل. وللخروج من دائرة الموت حفروا بئراً، ومن حالفهم الحظ بالنجاة شربوا من البئر الجديدة التي أصبحت تسقي مستنقعات الضفادع وقد راجت تجارتها كثيراً إلى حدّ أن بعض المرضى الفقراء استعملوا الضفادع الميتة التي رماها آخرون بعد استخدامها للتعرّق حتى الموت. بعد عام من ذلك ظهر المواليد الصخريون، وهم أطفال يولدون بلا ملامح أو جسد معروف المعالم، بل يكون الجسدُ قطعةَ لحم متفتّت ومتحجّر وصلب، الوجه مجعد ذو لون أصفر أو رمادي، والبشرة هشّة إن لمستَها تحرّكت تحت يدك كالرمل. لم يعش أحدهم لأنهم جميعاً ولدوا ميتين. ظهَر بعد ذلك مرض الحيوانات، وهي الكائنات الوحيدة التي ظلّت تشرب من آبار

الجبل، هجمت الماعز على الدجاج لتأكله، وحاولت إحدى الأبقار أن تعضّ رجلاً وجنّ جنونها، ثم أُغلِقَ مدخل الجبل نهائياً. هدمنا البوابة الصخرية على نفسها لتعيق الطريق، ثم لاحقاً هجم اللصوص المتجولون ليلاً وحاولوا سرقة الخشب والحديد والزجاج. وكلما حدّثتُ وِلْكَم عن ضرورة مغادرتنا هذا الجحيم أخبرني أن أنتظر، فالمختار سيظهر قريباً، وعندها سنغادر فوراً. من هو ذلك المختار؟ لا علم لي!

مضت الأيام، ثم الشهور، ثم عام كامل، وأنا أنتظر. أصابني الضجر، وأكملت قراءة جميع الكتب التي أحضرتها معي، ودوّنت ما دوّنت من مذكرات وراسلت كل من أعرف دون أن يراسلني أحد. ما عدت أحتمل، لا يوجد لي مكان إلّا جوار وِلْكَم الذي لم يكن جواري وقتها، وهو ما أضعف قدرتي على الاحتمال.

قُبيل سفرنا حدّثني عن الغموض الذي يكتنف وجودنا. حدّثني عن ذلك المختار: "أنا أبحث عن أحدهم، لا أعرفه بعد لكنه يعرف نفسه، وأنا على يقين من أنك تراه أيضاً لكنك لا تعرفه. سوى أنني أعلم أنه يعرف نفسه، وهذا ما سيدلّني عليه، لذا عليك الانتباه جيداً في الأيام المقبلة، فإنه سيسقط على الأرض كسقوط ضوء الشمس في أول يوم للخليقة، سيسقط سقوطاً مخيفاً، بلا أدنى شك في أن الأعظم هو ما سيأتي". لنتساءل ما السرُّ يا ترى؟ ما هو؟ كنتُ كالمحكوم بالإعدام وقد طوّقته الأنشوطة، وخلال نسيج الغطاء كنت أرى العالم البائد المثير للشفقة، كنت أسمع صوت القطار يحمل إليّ رائحة الديار، ويأتي ببلادي البعيدة أمام ناظريّ، لا تفصلني عنها إلّا خطوات قليلة فقط.

في أحد الأيام الكئيبة، عندما نزلت لأتجوّل، وقد كنت أجمع الحجارة غريبة الشكل والتكوين، سألت نفسي: لِمَ لَمْ ينتقم وِلْكَم من

سيري؟ كيف تفعل به ذلك؟ كيف يحتمل؟ ثم وجدتُ نفسي أتساءل من جديد: ما هو الفرْق بين الإنسان والحجر؟ كلاهما لا يختار المكان الذي يوجد فيه، وكلاهما يتحمل القدر ذاته من الأذى، وكلاهما كتلة لها خواص مختلة، لكن الحجر أبقى من الإنسان. أنا أشعر بدنوّ النهاية. لعلّني أهذي، فإنّ عمري لم يعد يَحتمل.

ذات يوم، رأيت وِلْكَم يهرول جيئةً وذهاباً، قاطعاً المسافة بين باب القبو وسلّم السرايا، وغليونه يتوهّج. كان هناك صُراخ طفوليّ مكتومٌ وهمهمات وأنّات شديدة تخرج من القبو، ثم ظهر د.لودويك وهو يترصّد الأجواء، رآني لكنه لم يتفاعل مع الأمر كأنني تمثال مكسور منذ دهر، "آه يا يوري المسكين، كم أنت نكرة! بعد كل ما فعلتُه من أجل وِلْكَم، يستبدلني بهذا البوهيميّ! لماذا يوليه كل هذا الاهتمام؟ بعد أن ضحّيت بحياتي من أجله. آه يا يوري المسكين! لولا مساعدتي له تلك الأيام لما كان وِلْكَم حيّاً حتى الآن، كيف أنني أخفيتُ ما حدث في حريق الوايت تشابل، كيف سمحت له بأن يجعل مني أضحوكة عندها، كيف ذهبت من أجله سعياً وراء الرجل الحديدي سيلاس بوروز لأنال منه! لولا ما فعلت لما كان لهنري وِلْكَم وجود، لقد خدمتُه بدمٍ بارد، ومن أجله عرّضت حياتي للخطر مراراً وغامرت بأعزّ ما أملك، أملاً في أن أكونه، كأنه طفلي الصغير، أشعر نحوه بالأبوّة والطفولة وكل شيء، ما كان يجب أن يستبدلني بأحد، لا! لن أسمح بذلك، سأقتل د.لودويك! سأقتله وأنتحر!

بعد عدة أيام من التشرّد في قمة الجبل، قضيتها تائهاً غاضباً، قررت العودة. تحرّكت في جنح الظلام وأنا أحمل نصلاً حاداً يعود إلى وِلْكَم، في الحقيقة كان سهماً أصيب به ذات يوم عندما كان صغيراً. كانوا يبحثون عني في اتجاهات متفرقة. تربّصت بمدخل السرايا إلى أن حانت اللحظة المناسبة، ثم دخلت متسلّلاً إلى القبو مباشرة وأنا

أرتجف من شدة رغبتي في قتل ذلك الرجل. كان الظلام شديداً، لكنني شعرت بحركته في الداخل كما اشتمَمْت جيداً رائحة المخدّر والمواد الكيميائية وحركة أحدهم، ربما كانا رجلين أو ثلاثة، اختبأتُ وراء خزانة كبيرة للعيّنات ورأيتُ ما يحدث. عندها وقعت عيناه في عينَيّ، فهزّ خدّه وكتفيه. رأيتُ وِلْكَم يجلس على مقعد وثير أسفل النور مباشرة، تخرج سحائب الدخان من غليونه كثيفة، وهو يرتدي معطفاً من الصوف ويضع فراءً شديد السواد حوله عنقه. ضحك ثم ناداني: "يا حارس الهيكل"، كان أمري مربكاً، الموقف مهيب، ولم أتصرّف جيداً فأظهرت نفسي للضوء. رمى إليَّ بإحدى القلائد وقال:

- "عثرنا على المختار... أخيراً".

كان هناك من يجمع الأغراض، كأنهم يَنوُون الرحيل بسرعة، ثم أرسل مستر دين إلى الجبل ليأتينا بخمسة أشخاص كانوا من أكثر الرجال احتراماً ويثق فيهم جيداً. كانت جميع النوافذ مطلية بمادة سوداء عازلة للضوء والحرارة، والمكان مزدحم بالعديد من الصناديق التي تحمل الكاميرات والصور والخطابات ودفاتر الملاحظات، وكان بعضها مغلقاً بإحكام بواسطة أقفال كبيرة. أكثر الأدوات رعباً في العالم لا تزال ملوّثة بالدماء، راح د.لودويك ينظّفها ثم يُدخلها إلى الجراب الملفوف. ورأيت تلك الحقيبة التي أعرف جيداً ماهية ما تخفي؛ أشدّ المباضع حدةً وفتكاً، ثم أدوات نقب الجمجمة، ثم العديد من الدوارق والقوارير المعبّأة بالمواد الغريبة وعيّنات الدم والأنسجة، إلى درجة أنني اعتقدت أنه قد اكتشف سرّ الخلود. قال لي وِلْكَم: "انظُرْ يا صديقي، لقد فعلناها أخيراً!"، وأشار إلى الممرّ. قام وحمل المصباح من الخطّاف وسار حافي القدمين إلى حيث وجّهني أن أنظر، تبعتُه ببصري وأنا متشكّك فيه وفي ما يقول. اعتقدت للحظة أنه قد

جنّ؛ ويبدو أنه حلق شعره بنفسه، ولم يكن يرتدي قبعته البيضاء الشهيرة، يبتسم بلا مبرر واضح، كان يشعر بالانتصار. ثم سألني عن الساعة، نظرت إليه مستوضحاً فعلّل: "يجب أن تدوّن هذا اليوم وهذه الساعة بدقة... فبعدها لن يَقتل المرضُ أحداً!". أخرجتُها من جيبي، كانت قطعة قلادة نحاسية مستديرة، ظانّاً أنها ساعتي، وقرأت دون وعي: "إنها الرابعةُ وخمسون دقيقة 4050" فانفجر الجميع بالضحك، واستشعرت أن الساعة قد تُقرأ مكتوبة. مشى د.لودويك حتى العمود الصخري العريض الذي يحمل البناء، وقف أسفل عبارة "وِلْكَم 1910" وأخذ يضحك. كانت نظارته الغريبة صافية أكثر من المُعتاد، والعرَق يرسم أشكالاً في إبطَيْ قميصه، وهو ممسكٌ في يده بسيجارة تفوح بمادة مخدرة. قال لي بصوته الهشّ الرفيع:

- "انظر إلى ساعتك من جديد، لعلك لم تقرأها جيداً!".

نظرتُ إلى وِلْكَم، ومن خلفه الميجور ميلدون وهو يهوّي نفسه بقبعته شبه العسكرية. كنت أرى وجوههم تتضخّم وتنتفخ، فلمستُ وجهي خائفاً، ثم شعرتُ بالمكان من حولي يتداعى، وأنّ الأرض تهتزّ والرمل يتطاير إلى أعلى، وتصدر الصخور صكيكاً مزعجاً. وعبر النافذة كانت السماء قد احْمرّت وأصبحت كمشواة لاهبة يرقد عليها أطفال يصرخون بينما تلتهمهم النار. شعرت بأنّ جميع من حولي أخذوا يتحوّلون إلى صخور. وبين هذياني ويقظتي سألني وِلْكَم:

- "هل تريد أن ترى صاحب القلادة التي في يدك؟"، خُذه يا لودي، وأحضِر لنا معك آخر قنينة من الشراب لنحتفل بمغادرتنا!".

فجأةً سرى إلى مسامعي صوتٌ قادمٌ من مجاهيل الماضي، وبلغة فرنسية وجدت نفسي أردّد بينما أترنح:

تحت ضوء القمر
لا نرى إلّا قليلاً..
أبحثُ عن ريشة..
أم أبحثُ عن نور..
بهذه الطريقة..
لن أعرف ماذا أجد؟
لكنني أعرف.. أنّ الباب
خلفي قد أُغلِق.. يا حارس الهيكل

ثم وجدتُ صخور السرايا العملاقة تطفو من حولي، ورأيت كالحالم نهراً تتلاطم فيه التماسيح إلى جواري كالموج، فلا يكاد الماء ينزل إلى المجرى المائيّ حتى يرتفع من جديد، والظلام يلتفُّ من حولي مع أن الشمس كانت لا تزال هناك، في ذلك الليل. دخلتُ إلى غرفة منخفضة ووضعتُ قدمي في أول درجات السلّم، اختفت قدمي في الظلام، ثم بلع الظلامُ النصفَ الأسفلَ ثم صدري ووجهي وغرقتُ في تلك العتمة الرطبة، سمعتُ نشيجاً حاراً يأتي من يميني لكنني لم أرَ صاحبه، تحسستُ بيدي الباب الحديدي الذي يفصله عني، ثم وطئتُ ماءً ثقيلاً ظننتُه دماً من سُمك قوامه لكنني تجاوزته والخوف يتنفّسني، ثم سمعت حشرجات وخرجتُ ببطء. لم يكن لي من شجاعة لأنظر إلى مصدرها، ثم أخيراً وقفت أمام قضبان حديدة قوية وقد اعتادت عيناي الظلام، ورأيته، ناصعاً كالحليب، ومُضيئاً كالملائكة في اللوحات، قابعاً كبوذا في الحجَر، مستسلماً كالنبيّ موسى في البحر، ثابتاً كالنبيّ سليمان في وقفته الأخيرة، ملعوناً كالشيطان في غرابته. لم تترك لي عيناي مجالاً لأعيد النظر، كنتُ مُنشدهاً مفتوناً بجمال ما رأيت، مددت يدِي لألمسه، كانت ترتعش وهي تمرُّ بين القضبان

الباردة، وعندما خرجت من الجانب الآخر سمعت وِلْكَم يهمس في أذني كأنه يسكنها:

- "المختار هو من أختاره أنا! لا تبحث عنه!".

أطرقتُ برأسي وأنا لا أفارق موضعي، هل أنا خارج الزنزانة أم داخلها؟ لكنّ الهمس عاد إليّ من جديد:

- "هو الرجل الذي قابَلكَ لكنك لم ترَه!".

حينها لم يكن الآخرون إلّاي. تحوّلَت كلّ الأوجه من حولي إلى كائنات غريبة الشكل تماماً. ثم رأيتهم من مكاني كأنني أراهم عبر شخص آخر، كأنما لم تعد عيناي لي، لأنهما رأتا ما يحدث في الأعلى حيث الضحك وأنخاب الشراب. تَنَشّقْتُ إحدى المواد السامة، تأذَّيت كثيراً وشعرت بالحرَّاق، وضع د.لودويك قطعة قماش في أنفي، صرخت فيه: "لا تفعل!"، ردّ عليّ: "اهدأ يا وِلْكَم!"، تردّدَت الجملة بغرابة في مسمعي. اضطربَت رجلاي في المكان، حاولت الانتفاض متعثراً، واحتميت بالأرض من الدُّوار الذي لفّني، ثم وجدتني أرى سقف السرايا الحجري. كنتُ خائر القوى منهكاً، يسري في جسدي خيطٌ من القشعريرة والبلل. رأيت د.لودويك يبتعد عني، حاولت الالتفات في رقدتي لأرى قريني ولم أستطع.

كانت كل الأوجه تحملق فيّ من أعلى ثم تذوب ملامحها وتلوذ بوجهي. شعرت بها تتلاشى تماماً، وكنت أسمو عالياً، غريباً على نفسي.

"لا يعلم أحدٌ حقيقةَ ما حدث هُناك، ظلتْ سرايا الصّخر شاهداً حتى اليوم!".

~ تمت ~

بعض الحقائق

هنري سولمون وِلْكم كومينغس 1853- 1936م

بمجرد عودته إلى لندن بدأ وِلْكَم عهداً جديداً؛ أضاف إلى منتجاته بعض العقارات الكيميائية، أنتج أدوية لعلاج عدة أمراض أهمّها تعظُّم المفاصل، والديفتيريا. كانت كشوفاته الطبية الأخيرة هذه موضع تساؤل من جميع الناس، كيف فعلها وهو عائد للتوّ من إحدى عمليات تنقيبه عن الآثار في إحدى المستعمرات. لكنهم كانوا سعيدين وفخورين به على أية حال.

تقديراً من ملك بريطانيا العظمى جورج الخامس لجهوده المقدرة مُنح في العام 1932م لقب "فارس- Sir" ونال الدرجة الفخرية من كلية الجراحين الملكيين بلندن. كان قد أصبح عجوزاً يقضي وقته وحيداً برفقه القطط، يجمع المقتنيات والتحف واللوحات وكل ما يتعلق بتاريخ الطب. قام بجولة عالمية بدأها من كندا واستغرقت سنتين، ثم عاد منها ليعيش حياة هادئة منغلقاً على نفسه، أحياناً يطلب أحد رساميه المفضلين ليرسمه أو ليلتقط له صوراً. في تموز 1936م توعّك قليلاً، وأصابه الالتهاب الرئوي وبعض أمراض البطن وأشرف على علاجه صديق أمريكي قديم هو د.تشارلز مايو (وريث مايو كلينك). وفي اليوم الخامس والعشرين من الشهر ذاته أسلم روحه تاركاً العديد من الوصايا و83 عاماً من الغموض. وما زالت مؤسسة وِلْكَم حتى يومنا هذا ترعى البحث العلمي وتسعى لتحسين صحة الإنسان والحيوان، وتعد ثاني أكبر مؤسسة للأبحاث في العالم.

دعم وِلْكَم بناء صرح علمي في الخرطوم تخليداً لذكرى الجنرال غردون وهو كلية غردون التذكارية 1901م (جامعة الخرطوم حالياً)،

وقدّم تبرعاً سخياً لبناء مدرسة كتشنر الطبية 1924م (كلية الطب جامعة الخرطوم حالياً)، وتعتبر أول مدرسة طبية في السودان، ولاحقاً قدم تبرعاً سرياً لإنشاء معمل متقدّم يحمل ذكرى حاكم السودان؛ السير لي ستاك، الذي اغتيل في القاهرة (معمل ستاك حالياً). وأجرى حفريات أثرية وبحوثاً طبية في جبل مويا بالسودان في الفترة ما بين 1903–1907 و1910–1928م.

بعد وفاته اجتاحت التساؤلات بريطانيا العظمى وظهرت أسئلة على شاكلة: "كيف لرجل أمريكي سليل عائلة مضطربة وفقيرة من الغرب الأوسط الأميركي أن ينتهي مطافه بوجود مثل هذا التأثير الملحوظ على مسار العالم وهو آتٍ من الجانب الآخر للمحيط الأطلسي؟ ما هو سر هنري وِلْكَم؟ إنّ الأجوبة على هذه الأسئلة مثيرة للدهشة". وقال عنه "روس مكفارلين" وهو عسكري بريطاني كبير: "كان مُجتهداً حول الكيفية التي يصل بها إلى اكتشاف جديد، كما كان مجتهداً أكثر لتسويق منتجاته ولجعل اسمه كبائع وطبيب وصيدلاني من الدرجة الأولى. نتيجة لذلك شدّ انتباه الصيدلاني الأمريكي سيلاس بوروز الذي ضمّه إلى شركته في بريطانيا التي كانت قِبْلة العالم حينها، ودرَّت عليهما هذه الشراكة ثروة مهولة، حتى وفاة بوروز واستحواذ وِلْكَم على الشركة.

أُنشِئت مؤسسة "وِلْكَم ترست" في العام 1936م تخليداً لذكراه وهي صندوق خيري لتمويل الأبحاث وتحسين صحة الإنسان، ويبلغ وقفه اليوم ما يتجاوز 16 مليار جنيه إسترليني، ويعمل على توفير فرص لدعم الأفكار المُتقدمة في البحث العلمي والطبي، ويعد أكبر مؤسسة خاصة في بريطانيا العظمى والثانية على مستوى العالم.

بعد وفاة وِلْكَم بسنتين، أتى رجل إلى جبل مويا وقدّم نفسه للجميع هناك بأنه مُفوّض للقيام بتصفية جميع أعمال هنري وِلْكَم، وفعلاً بدأ بحصرها وتصويرها وتجهيزها للعرض في مزادات سرية، وقد رفض بيعها للعامة مبرّراً أن وِلْكَم كان عضواً بارزاً في الماسونية لذا لن تُباع متعلقاته الشخصية إلّا إلى رجل ماسوني يحمل دماء ملكية وقد وجد ضالته في زعيم سوداني بارز، ورُحّلت صناديق المتعلقات على متون عشرة جمال قوية إلى قصر الزعيم.

بدءاً من العام 1985م أخذ اسم شركة وِلْكَم في الاختفاء إثر بيع بعض أسهم شركة PLC للجمهور (حواليّ 25%). في العام 1995م اشترت مجموعة جلاسغو كثيراً من الأسهم وأصبح اسم الشركة (جلاسغو وِلْكَم). وبحلول عام 2000م اختفى اسم وِلْكَم من تجارة الأدوية تماماً عندما اندمجت شركتا سميث كلاين مع جلاسغو وِلْكَم وأصبحت "جلاسغو سميث كلاين". في يونيو 2007م، افتُتِح مبنى وِلْكَم بعد تجديده كمكان للعامة وأحد دُور مجموعة وِلْكَم، إضافةً إلى معرض وِلْكَم ترست لتاريخ الطب في جامعة لندن ومكتبة وِلْكَم.

عاش ابنه الوحيد ماونتن حياة صعبة وقاسية جداً، وقد خصّه والده ببعض المال قبل وفاته وأوكل مهمة تصريف حياته إلى لجنة تقوم بقضاء حوائجه. تزوّج من فتاة تدعى جين، وعاشا معاً في مدينة ستوني، ستافورد، بجنوب شرق إنكلترا، وتوفيّ في العام 1985م دون أن ينجب ذرّية.

سيري (ماود سيري توماس برنادو غويندولين 1879 - 1955م)

هي ابنة المقاول وباني دُور الأيتام المشهور في تلك الفترة "توماس برنادو" الذي تعاقد معه هنري وِلْكَم لبناء مدرسة غردون التذكارية.

تعرّف إليها في الخرطوم وتزوّجها لاحقاً في لندن، وقد أنجبت منه ابنه الوحيد ماونتن. أثناء زواجها منه وضعت سيري طفلتها "ماري ليزا" من صلب الروائي سومرست موم ونسَبتها إلى وِلْكَم؛ الأمر الذي أزعجه وحدا به للجوء إلى المحكمة. وتدهورت سمعته بسبب القضية وتم التشهير به، ثم اعترفت سيري أخيراً بالنسب الحقيقي للطفلة. بعدها تطلّقا ثم تزوّجت من سومرست موم، وأصبحت من مؤسسي فن الديكور والتصميم والموضة، وكانت لها فروع في العديد من المدن الأوروبية والأمريكية، وكان زبائنها هم المشاهير والأثرياء وعليّة القوم فقط. لكنها وقعتْ من جديد في غرام ثريّ إنكليزي وهربت معه من موم، الذي أعلن بعدها عن مثليّته. ثم هربت من جديد مع رجل آخر، ثم آخر وهكذا، وكانت كلما وقعت في غرام رجل هربت معه. في الشهر الذي مات فيه هنري وِلْكَم أقامت حفلاً كبيراً احتفالاً بزواج ابنتها "ماري ليزا" وأدركت أنها قد أصبحت سيدة غير مرغوب فيها، فذهبت إلى الهند للتأمّل برفقة صديقة تعمل معها في التصميم. في الخامس والعشرين من تموز 1955م ماتت في سريرها أثناء نومها، وحيدة، في شقتها بشارع الملك.

وليام سومرست موم 1874- 1965م

نال الشهرة والثروة بعد زواجه من سيري، إلّا أنه اكتشف أنها تخونه مع شابّ يافع، فأصابته خيبة أمل كبيرة وانفصلا بعد سلسلة من الفضائح الأخرى. أصدر روايته "كنت جاسوساً" وكشف فيها عن حقيقة عمله جاسوساً في روسيا خلال الحرب العالمية الأولى. في روايته "النقاب الملوّن" أو "Painted veil" ظهر تأثره بزواج سيري وهنري وِلْكَم، وأسقط كل ذلك على الحبكة التي استوحاها من رحلتهما إلى بنما

للعمل على درء الأوبئة والأمراض عن عمّال القناة. وحوّل اسم "سيري" إلى "كيتي" و"وِلْكَم" إلى "ولتر". ويظهر جلياً أن سيري قد أثرت عليه أيضاً في رواية "الرباط الإنساني" " Bondage OF Human". بعد فشل زواجهما توجّه إلى هوليود ناشداً عون صديقه الممثل المشهور شارلي شابلن، وحاول أن يدخل عالم السينما ولم يحالفه الحظ، لكن شركة غولدوين مترو اشترت بعض أعماله وقدمتها للسينما. كان يقضي بعض الأيام في لندن مع صديقه السير ونستون تشرشل والذي كان متأثراً بموهبة موم في الكتابة. وخلال تلك الفترة قرر موم أن يعيش حياة هادئة في الريف الفرنسي. توفي في 1965م، تاركاً لابنته الوحيدة "ماري ليزا" ميراثاً ضخماً وعدداً كبيراً من الأعمال الروائية والقصصية والمسرحيات وكتب أخرى.

الحفريات والسرايا الصخرية وقرية الجبل

لا يزال الأهالي في قرية "جبل موية أو مويا" غرب مدينة سنار بوسط السودان يروون عن "وِلْكَم باشا". لا يعرفون له تاريخاً ولا هوية، لكنهم يتشافهون سيرته التي يروونها على كل الغرباء: "لقد بنى لنا المدرسة، والمسجد، ووفّر لنا مياه الشرب، وأنشأ لنا هذا الخزان الحديدي الكبير. وهناك حيث لا يوجد شيء الآن، كان المشفى". ويعرفون عن طباعه أيضاً: "كان رجلاً لطيفاً، عاش وسط أجدادنا كواحدٍ منهم، وأكل مما تصنعه النساء، وعاش لفترة من الوقت في حجرة حجرية بوسط القرية، وهو رجل مسامح وكريم لا يستطيع أحدنا أن يقول عنه كلمة سيئة. كان أهلنا يحبّونه لتواضعه الشديد ورحابة صدره وزهده في هذه الحياة. لقد أحبّ الجبل وأراد أن يقضي بقية عمره هناك، في تلك السرايا الصخرية". ويزعمون أيضاً أنه قال

لهم: "إن جدّي مدفونٌ في هذا الجبل". أما عن موته فيقولون: "لقد كان يحبّ أن يكتشف كل شيء عن الجبل، وقد حذّره آباؤنا من الاقتراب من درب الخيل الذي يقود إلى أعلى قمة الجبل؛ حيث يعيش سيدنا الشيخ هجو أب قرن، لكنه لم يستمع إلى النصيحة وحاول أن يقترب من بيان الشيخ، ولم يكن يعلم أن درب الخيل لا تمشي فيه إلا الخيل المُدرّبة فقط، وإنْ سار فيه رجل أسقطته روح الجبل ولفظته بقوة لكرامة الشيخ، لكنه رغم كل تلك التحذيرات صعد فسقطت فيه تلك الصخرة العملاقة و"هرست" رأسه بقوة. ومن كرامات الشيخ أن رأسه قد تجوّف داخل الصخرة، انظر إليها، انظر إلى ذلك الدم وتلك الدائرة... ذاك هو رأسه! وقد نُقِل بالقطار إلى لندن". أما بخصوص ما كان يفعله في الجبل فيقولون: "هذا الرجل أتى ليبحث عن تاريخ الجبل، وأخبرنا بأنه كان جبلاً مقدساً في أحد الأزمان القديمة، وقد كان يبحث عن الآثار والذهب". أما الوقت الذي قضاه هناك فلا يعلمه أحد.

الآثار المفقودة

عَرضت مؤسسة وِلْكَم في لندن بعض المعروضات التي تعود إلى جبل مويا، كثير من الجماجم والعظام، الفخاريات، العقود والأساور والأحجار، ولا تزال تشكل جزءًا من مجموعته الكبيرة التي تجاوزت مليون قطعة مختلفة وتُعرض في متحف خاص.

لاحقاً

حصل د.هنري ديل على لقب فارس في العام 1932م، وفي العام الذي مات فيه وِلْكَم حصل على جائزة نوبل في الطب لأبحاثه في

"الإسيتيل كولين" وفعاليته كناقل كيميائي للمؤثرات العصبية. في العام 1948م نال أعظم وسام في البلاد "وسام الإمبراطورية البريطانية". صار مديراً لشركة وِلْكَم، ثم مديراً لمؤسسة وِلْكَم الطبية ومؤسسة وِلْكَم للأبحاث. توفي في العام 1968م.

بعد عودته من السودان، عمل مدير أبحاث وِلْكَم المدارية؛ د. أندرو بلفور، في أماكن مختلفة. وكان مهتماً بالأدب وكتب عدة روايات: "المملكة الذهبية، إلى السواعد، كاشريد وحروب أخرى، السيف الصخري" وبعض القصص. لا يعلم أحد لماذا ترك العمل مع وِلْكَم فجأة وابتعد عن الطب. مات في ظروف غامضة في العام 1931م.

كلمة الكاتب

قصّتي مع هذه الرواية غريبة نوعاً ما! بدأ ذلك في منتصف عام 2001م، وأنا أقضي خدمتي العسكرية في معسكر الخدمة الوطنية، ولم أحتمل التجنيد والطبيعة القاسية مثل الآخرين لحداثة عهدي، فقد كنتُ أصغر زملائي سناً وحجماً، ثم قابلت أحد المجندين صغار السن - أمثالي- وقررنا أن نهرب معاً من المعسكر الذي يتوسّط خلاءً كبيراً خارج مدينة سنار فأخذنا نراقب النقاط وعساكر الحراسة والاتجاهات. بالطبع كان يجب أن يكون هُروبنا ليلاً لأن الحراسة تكون في أقل مستوياتها والجميع يعلمون أنَّ الهروب ليلاً أمرٌ مستحيل لصعوبة تحديد الاتجاهات ثم لأن المعسكر كان بعيداً ويصعب المشي منه إلى منطقتنا، خصوصاً وأننا كنا لا نحظى إلا بوجبات تعيسة كنا نأكلها على مضض وهي تتكون من العدس والفول والفاصوليا. وكنا نتناول وجباتنا بتوجيهات الصافرة؛ بصافرة نقطع من الرغيفة، وبصافرة أخرى نغمسها في الإدام، وبأخرى نرفع اليد، وبرابعة نبتلع - لم نكن بالطبع نمضغ الأكل- وحصة كل واحدٍ منا قطعة رغيف واحدة لا تتجاوز الأربعين جراماً. وربما كان القصد من ذلك أن تصبح جميع أشكالنا وأحجامنا متقاربة أو مهما يكن، رغم أننا كنا نخفي في حقائبنا الحديدية المواد الغذائية مثل التمر والمربى والعسل والعصير، إلّا أننا لم نكن نقوى على فتح حقائبنا إذ إنَّ العثور عليها قد يؤدّي إلى مصادرتها ومعاقبتنا بالوقوف أكثر من 12 ساعة متواصلة، أو أمور أخرى مستحيلة... عذراً، ولنعد إلى قصة الهروب. في اليوم المُحدّد، تحيّـنّا الفرصة المناسبة، واستبدلنا ملابس الدمّور البيضاء بأخرى داكنة كنا قد هرّبناها إلى الداخل سلفاً، ثم في لحظة مناسبة اختفى فيها الحارس وراء شجرة

ليدخن، أطلقنا سيقاننا للريح. يحاصرنا ليلٌ أسود من كل جانب ويلاحق أسماعنا نباح كلب، لكننا كنا سعيدين بالأسوار الشائكة التي تركناها وراءنا، والتي كانت تجعل العالم الفسيح معتقلاً سيِّئ التهوية. من بعيد سمعنا أصوات الصافرات العسكرية الثائرة وضربات الأقدام التي لا تنتهي، مما جعلَنا نجري دون هدى.

كنا خائفَين، وجائعَين، وضالَّيْن لا نعرف الاتجاه الذي نقصد، ثم اهتَدَيْنا بضوء سيارة من بعيد، وعرفنا أننا إن وصلنا إلى طريق السيارات فسنجد من يحملنا أو من يُرشدنا أو على الأقل سنشعر بالأمان، لكن حدث ما أفسد كل ذلك عندما اعترض طريقنا أحد خطوط السكك الحديدية، وقد كانت الهواجس والأوهام تتلاعب بنا، وتصوّر لنا أن هذه اللحظة لن تنتهي أبداً، وأننا لن نصل إلى أي مكان. تجاوَزَ صديقي خط السكك الحديدية والتفت إليّ ليقول شيئاً، لكنه تلعثم ثم نظر نحوي طويلاً قبل أن تنفجر عيناه بالفزع، ثم وجدته يقع من طوله على نحو غريب وبلا إرادة؛ كأنما أصاب الشلل أطرافه فجأة، فجريت إليه، وعندما اقتربت والتقت عيناي بعينيه صرخ بأعلى صوته إلى حدّ أن لعابه تطاير في الهواء، ثم ولى هارباً تاركاً القنينة الصغيرة الوحيدة التي كنا نشرب منها. عندها تأكد لي أن أحد وحوش هذا المكان المظلم قد لحق بنا، ثم تصوّرت أن خلفي أحد الغيلان التي تلفظ النار وتلتهم البشر وتقضم رؤوسهم، عندما حاولت اللحاق به والجري، وجدت أنَّ رجلَيَّ قد ثقلتا، حتى أحسست بأنني جزء من هذه الأرض، أنبُت فيها كشجرة، ولن أقوى بأية حال على الجري، لكنني فعلتها بحيث لا أدري، صرختُ خائفاً وجريت خلفه، لم أكن لألحق به فقد كان مثل الأرنب يضرب الأرض بسلاسة، ثم تعثرت بحذائه وعرفت أن الأشواك الآن ستنال منه

ويهدئ سرعته، وقد حدث ما استنتجت، ولحقت به، لكنه نظر نحوي من جديد بينما يُخرج شوكة كبيرة من كعبه، ثم ولّى مُدبراً بقوة لم أشاهد لها مثيل. كانت أنفاسي تتهدج، كأنها أمواج بحرٍ هائج تتلاطم، لم أملك الشجاعة والجرأة لأنظر خلفي مستكشفاً ما يلحق بنا ويبعث في صديقي كل هذا الخوف، لكن شعرت بنسمة هواء نقيّة وعرفت أننا قد اقتربنا، ثم تعثّرت قدمي وسقطت لأجدني أنظر خلفي رغماً عني ولم يكن هناك من شيء، لكن صديقي في المقدمة كان لا يزال يصرخ بالنجدة ويلتفت نحوي.

ثم جريت خلفه من جديد، وقد لاحت في البعيد أضواء الشارع الرئيسي الذي يمرّ بسنار التقاطع، وعند أحد أعمدة الكهرباء المُضيئة وقف يحاول السيطرة على أنفاسه المتسارعة، ولحقت به هناك، وما إن دخلت إلى مجال الرؤية أسفل المصباح المُعلَّق حتى سقط صديقي أرضاً وراح ينتحب بحرقة شديدة كأنه نجا من الموت، وسألته: "ماذا هناك؟". كاد أن يضربني من شدة حنقه عليّ وأخبرني: "كان يجب أن ترى وجهك، لقد تحوّل إلى وجه أسد!".

في اليوم التالي عرفت الآتي: "أن هناك منطقة غرب مدينتي سنار، تسمى "جبل مويا" وفي قمة هذا الجبل سرايا ضخمة ومرهوبة، وهي مبنية من الكتل الصخرية الكبيرة، وأن كل من ينظر إلى هذا البناء الملعون يتحوّل ليلاً إلى وجه أسد، فيأكل أقرب الناس إليه!". لكنني لم أكن قد ذهبت إلى تلك المنطقة ولم أرَ تلك السرايا العجيبة.

لاحقاً أصبح الأمر هاجساً، فكلما قابلتُ أحد أهل الجبل سألته عن هذه السرايا الصخرية وما سرّها ومَن بناها، وقد كانت جميع الإجابات لا تعجبني، إذ أخبرني أحدهم بأنه قد عاش في هذا الجبل قوم من الكفَرة، فضرب الله بهم الصخر وسخطهم جميعاً وحولهم إلى

صخور! ثم أخبرني شخصٌ آخر بأن هذه السرايا بناها شيطان كبير وأن ملوك الجن يعيشون داخلها وكل من ينظر إليهم يلعنونه. ثم بدأت الأجوبة المنطقية تأتي: "عاش هنا رجل صالح اسمه وِلْكَم باشا"، "تلك السرايا بناها رجل إنكليزي وعاش فيها حتى مات".

في العام 2012م، قرّرتُ كتابة رواية مستلهماً من المعلومات والخرافات التي جمعتها مادة للحكي. وقد بدأت الكتابة في أغسطس وكنت متحمّساً فأكملت الرواية في ديسمبر من العام ذاته، وكانت قصيرة. ثم قررت زيارة الجبل وسراياه للاحتفال بهذا النجاح.

وهالني ما رأيت هناك. الآن في جبل مويا، ما زال كل شيء موجوداً في مكانه، خطّ السكك الحديدية، المحرقتان اللتان تشبهان الأهرامات، بقايا مخيّم العمّال ومَرافقهم، ثكنات المهندسين وبقايا أكواخهم الخشبية، المبنى الحجري المكوّن من طابقين دون سلالم أو أثاث، السرايا الصخرية بطرازها الفريد، بواجهتها الضخمة وقبوها وطابقها الأرضي والأول والثاني، الدهاليز السرية والممرات، البوابات الخفية والنوافذ العريضة والنقوش، الشمعدانات والخطاطيف، رفّ الفونوغراف وشمّاعة الملابس ولوحة الكتابة، الغرفة المغلقة بداخل القبو، بقفلها الكبير الذي يشبه طبلاً عملاقاً، الأحذية الجلدية العتيقة، الرائحة النفّاذة التي تصيب بالدُّوار، الأطياف الخفية التي يُروى أنّها تتربّص بكلّ من يقترب، الحياة الواهية التي يحياها الجبل.

أصبحت بيوت القرية تبتعد عن الجبل رويداً رويداً. اندثرت بعض المرافق التي بناها لهم هنري وِلْكَم على مقربة من الجبل؛ تهدَّم المسجد ولم تبق منه إلا بعض الحجارة، وتحوّلت قاعة المدرسة إلى وكر للكلاب الضالة، كان المشفى نواة لمشفى أكبر منه بُني لاحقاً، أما خزّان المياه الكبير فقد نال منه الصدأ ولم يعد مستخدماً، لكنه ما زال ماثلاً إلى جوار الحائط الصخري الذي كان يحمي المسجد من السيل.

يُروى أنه، في نهاية الثمانينيات من القرن العشرين، قد حطّت طائرة مروحية على الجبل وخيّم أفرادها هناك لبضعة أيام، ثم أخرجوا من باطن الأرض صندوقاً حديدياً مغلقاً، واستأجروا بضعة عمّال لنقله إلى الطائرة. في مارس من كل سنة، يزور الجبل عدد من الأجانب ويخيمون حول السرايا لأيام.

بعد كل هذا، شعرت بأن ما كتبت لا يُعَد شيئاً، وبدأت بالكتابة من جديد في الشهر ذاته، وشرعت في التصوير والبحث، ثم راحت الاكتشافات تتوالى. عثرت على مقطع ڤيديو يزعم صاحبه أنه يصوّر حقل تجارب لرجل الصناعات الدوائية السير هنري وِلْكَم، وعلمت أنه قد صُوِّر في جبل مويا ولا صلة له بالهند. من هنا بدأت رحلتي مع الأمريكي هنري سولمون وِلْكَم، والعمل الذي قرأتم هو من ثمارها وقد أكملته في 2017م، لكن برغم ذلك ما زال هنري وِلْكَم يطوي وراءه الكثير مما يمكن اكتشافه، والكثير الذي لا مجال لذكره هنا أو في أي مكان آخر، فإن ما حدث هناك حقيقةً يصعب تخيله ولا يمكن سرده. استغرقت مني هذه الرواية حوالَي ست سنوات من الكتابة المتواصلة، وإعادة الكتابة، والبحث والترجمة والتخييم في الجبل، زادي كثيرٌ من الخوف، وسط الجو الأسطوري الذي كان وما زال يحيط بالجبل وحكايته المرعبة وتاريخه الغامض، إضافةً إلى ضعف المصادر وقلتها وتركيزها على الجانب المشرق فقط من حياة الرجل الذي حوت حياته كثيراً من الغوامض والتدابير الملغزة. لكنّ جبل مويا والسرايا الصخرية التي بناها وِلْكَم هُناك كانت آخر محطة مهمة في حياته الحافلة.

مُهنّد الدابي

الخرطوم

mhnd.rajab@hotmail.com

شكر خاص

إلى:

دعاء عزت

م. رشا السماني

محمد حسن علوان

محمد التوم عبد الرحمن

محمد الصادق الحاج

منذر ومحمد رجب

م. وهبي الأمين

معتز قطينة